أحزان سعيدة

دكتور
محمد الوكيل

٢٠١٤م

مركز الكتاب للنشر

obeikandl.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الوكيل، محمد

أحزان سعيدة / محمد الوكيل. – القاهرة:

مركز الكتاب للنشر، ٢٠١٤.

٣٧٦ ص، ١٧ × ٢٤سم

تدمك ٣٢٧ ٩٤٥ ٧٧٢ ٩٨٧٩

١- القصص العربية

أ. العنوان ٨١٣

رقم الإيداع / ٢٠١٣/٢٢٣٠٤

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

obeikandl.com

مقدمة:

هل يمكن لإنسان يسيطر عليه الجوع ويحركه الحرمان والاحتياج وهو يصارع أيامه من أجل كسرة خبز وشربة ماء تُسكن أوجاع جوعه أن يكون حراً في اختياره؟ هل يمكن لإنسان يعيش في تيه الجهل وبؤس ظلام موروث من التخلف والاستعباد أن يكون اختياره صحيحاً وهو يشارك في صنع مستقبل وطنه ؟ هل يمكن للبطون الخاوية ، والوجوه التي تسيل منها عرق الأحزان وتذرف عيونها دموع تأن من القهر وهي تناجي معذبها وتحلم بفتات الخبز، أن تحلم بتنفس رياح الحرية وهي تعيش بدون جوع أو جهل؟ هل الفقراء والمحتاجون هم وقود قطار التغيير أم هم حطب يحترق في خدمة أصحاب المصالح والنفوذ ؟ هل كما قال الفلاسفة أن «الحرية تستحق الثمن الذي يُدفع من أجلها» ويكون البسطاء والمقهورين بين فكي لهيب نار الطغيان ووقود محرك الحرية ؟! .. قصتنا المتواضعة تقدم لنا نموذجًا لسيدة مصرية بسيطة اسمها سعيدة نزحت مع زوجها من ريف مصر مثل مئات الألوف بعدما حُلت عنهم قيود الوسية التي فُرضت عليهم ليجدوا أنفسهم مغلولين بقيود الفقر والجهل والحرمان فيتوجهوا ليستوطنون مدن الحضر في أحياء أشبه بأواسي بلا قيود مادية يسوقهم سياط الحاجة نحو مستقبل رمادي لم يروا بخيوطه اللون الأسود .. ويمضي قطار الزمن ، وبعد حياة مليئة بالكفاح والمثابرة والصبر استطاعت هذه السيدة رغم فقدنها لزوجها من تعليم ابنتها أمل حتى حصلت على التعليم الجامعي لتنضم بعدها إلى جيوش الحالمين بلا أمل بعدما تحطمت أحلامهم البسيطة لتدهسها أقدام المفسدين الطامعين أصحاب السلطة والجاه الذين اشتروا الذمم بالباطل وباعوا ضمائرهم واغتالوا براءة وطيبة المصريين . ومع وصول الفساد والقهر والظلم إلى حلقوم جموع المصريين البسطاء بعد عدة عقود تجرعوا فيها مختلف أنواع الظلم والقهر انفجر بركان غضبهم في أوجه تنين الظلم في محاولة لنيل الحرية واسترداد كرامتهم الإنسانية . وبعدما اختلطت الدموع

بالدماء ، وسقط تنين الظلم من قلعته الشاهقة صريعاً بعدما التهمت نيران سقوطه كثير من الأبرياء ، وقف الكثير من المصريين البسطاء الذين حركهم أمل القضاء على الظلم والفساد والطغيان والحصول على العيش في حرية والتمتع بالعدالة الاجتماعية يتأملون يتحسسون نتائج ثورتهم على الطغيان ليجدوا قلعة الظلم الشاهقة يتصارع عليها تنانين قفزوا من ساحة الظلم ليتناحروا على قلعة الظالم . وخلال الطريق إلى سراب الحرية سقطت أمل ضحية نيران التنانين المتصارعة بعدما انكشف لها أن تنين الظلم الذي اغتصب أمانيها وأحلامها سيتبدل بآخر .. تُرى هل ستتحقق أحلام أمل في حصول المصريون على حريتهم وحقهم في العيش حياة كريمة ؟ أم ستستمر أحزان سعيدة ويضيع حلم أمل هباءً ؟ .. عزيزي القارئ لن أُطيل عليك في تقديم قصتي المتواضعة وتعالى معي نتصفحها من بدايتها حتى نهايتها .

obeikandl.com

الفصل الأول

عيون على هامش وطن

في قرى الريف المصري، الذي يمتد بجذوره في أعماق التاريخ لأكثر من سبعة آلاف عام ، ظل الفلاح المصري البسيط يعيش على هامش الحياة يعاني من الفقر والتخلف والحرمان والإهمال والاستعباد منعزلاً عن العالم فى قريته وحقله، لا يغادر القرية إلا لماما ليظل طيلة عمره حبيسها، ارتضى أن يكون قِنٌّ للأرض حتى لا يفارقها وهو يعايش الظلم متصالحاً ومتسامحاً معه ، يراه قدراً لا فكاك منه . ومع التغيرات البيئية والإيدلوجية وثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات التي شهدتها مصر ودول العالم ، خلال الستة عقود الماضية ، سقطت القيود النفسية والمادية التي كانت تُقيد الفلاح بأرضه بعدما تحطمت خصائص الريف المصري وتحولت قراه إلى مسخ لتذوب قناعة وبساطة الشخصية الريفية مع موجات مد مجتمع المصلحة والمادة التي زلزلت التركيبة النفسية للفلاح لتصبح القرية المصرية نموذجًا للعشوائية والفشل .. الخروج من المجتمع الريفي للعيش في المدن أصبح حلم الكثير من ساكني القرى الذين فقدوا الارتباط بالأرض معنوياً بعدما تحطمت قيم وعادات الريف ، ومادياً بعدما أصبحوا بلا عمل بعدما تناقصت الرقعة الزراعية وانتشرت البطالة وعم القحط وقبعوا في قاع المجتمع على هامش الحياة .. معاهدة السلام التي فُرضت على مصر ، والمواجهة الأمنية التي اندلعت بين الدولة والجماعات المتطرفة والخارجة عن طاعة النظام الحاكم منذ نهاية العقد الثامن من القرن العشرين ، جعلت الكثير من شباب القرى الأمي القابع على هامش الحياة يخضع لقضاء فترة خدمتهم الوطنية (التجنيد) في معسكرات قوات الشرطة لمدة ثلاث سنوات وثلاث أشهر في حياة

رغم قسوتها وعدم إنسانيتها في بعض الأحيان فقد كانت في أحيان كثيرة أفضل من حياتهم البائسة المهمشة في القرية .

مع انكسار شمس ظهيرة منتصف أيام الأسبوع الأخير من شهر سبتمبر عام ١٩٨١م كانت سعيدة ذات السادسة عشر ربيعاً ، الفتاة الريفية البسيطة القنوعة ذات الخلقة الحسنة والأخلاق الطيبة والتي لم تحصل على أية قسط من التعليم مثلها مثل مئات الألوف من الفتيات نظرائها ساكني الريف المصري ، تنتظر على السكة الزراعية لقرية دماص إحدى القرى التابعة لمركز ميت غمر بمحافظة الدقهلية ، وقلبها البريء ينبض نبضات دعاء تناجي الخالق من أجل عودة ابن عمها وخطيبها صابر الذي حان موعد عودته في أجازة من مدينة القاهرة حيث يقضي فترة خدمته العسكرية بإحدى معسكرات الأمن المركزي هناك منذ ما يقرب من عام. وبينما كان الانتظار يأكل مشاعر سعيدة وهي جالسة تحت شجرة من شجر النبق على جانب طريق السكة الزراعية (طريق «دماص – ميت غمر») شهدت عبد السميع الطوبجي «الشاب الريفي الفلاح ، الصديق الصدوق إلى صابر خطيبها ، واللذان لم يحصلا على أي قسط من التعليم مثلهما مثل مئات الألوف من الفلاحين البسطاء في الريف المصري الذين يتم تجنيدهم ليقضوا الخدمة العسكرية في وزارة الداخلية»، يهبط مترجلاً بخطوات اعتزاز وتفاخر من سيارة أجرة مرتدياً الملابس السوداء الخاصة بقوات الأمن المركزي وهو ينظر حوله نظرات اعتزاز وتباهي . فتتقدم نحوه سعيدة وهي ترمقه بنظرة مزجت بين الكسوف والتساؤل لتقول بصوت خجل مضطرب: كيف حالك يا عبد السميع. لماذا لم يأتي صابر معك؟ فينظر إليها عبد السميع نظرة تأملية وقد بدت على ملامحه الطمأنينة ويقول: الحمد لله يا سعيدة. صابر لم يحصل على أجازته هذه الدفعة لأنه انتقل للعمل مع محمد بِك عبد القادر قائد القطاع.. فتتبدل تعبيرات سعيدة من تعبيرات قلق وانتظار لتعبيرات حزن وهي تقول بصوت غلفه الخجل: ومتى سيحصل صابر على أجازته.. فيقول عبد السميع:

صابر حملني رسالة شفوية اطمئن بها أبوه وأمه وإخبرهما أنه بخير وبإذن الله سيحصل على أجازته الأسبوع القادم . طمئني عمي الحاج عطية والخالة صفية حتى أحضر عندهما بعد صلاة العشاء .. فتنظر إليه سعيدة نظرة صامتة ، وما زالت ملامح الخجل تسيطر على تعبيرات وجهها الجميل البريء ذو النظرة الملائكية، وهي تقول : الحمد لله على سلامتك يا أخي.. فيقول عبد السميع بصوته الرجولي التي امتلئت نبرته ثقة وهو ينظر إليها نظرة منضبطة : لو أردتي شيء اخبريني يا سعيدة. أنا وصابر أكثر من أخوة.. فتقول سعيدة: شكراً يا أخي . جزاك الله خيراً.. لتنصرف بعدها سعيدة متوجهة إلى دارها وهي تصارع الحزن بداخلها لعدم عودة خطيبها ، الذي ارتبطت به بعلاقة عاطفية حتمية منذ نعومة أظافرها وتتحسسه رفيق عمرها وأملها في حياة أفضل من حياة البؤس والشقاء التي تعيشها مع أسرة تتكون من أب وأم وأخوين من الذكور وثلاثة أخوات من الإناث لا يمتلكوا سوى خمسة عشر قيراط من الأراضي الزراعية وثلاث حجرات في دار مشتركة مع عائلة عمها عطية وزوجته صفية وأولادهما صابر وأحمد ومحمد وعبير.

ومع وصول سعيدة إلى دار عائلة علي أبو عساكر كانت قد تغلبت على حزن ملامحها واستطاعت تسكين أوجاع مشاعرها التي اتفتقت ألماً بعدم لقاء حبيبها . وما أن دخلت سعيدة إلى باحة الدار وجدت صفية[1] تجلس بجوار الفرن تُجهز حزم الحطب لتشعلها من أجل صنع الفطير المشلتت لولدها البكر ، وطهي برام الأرز المُعَمَّر والطيور وطواجن الخضار كعادتها يوم عودته في أجازة . فلما وقع بصرها على بصر سعيدة ابتسمت ابتسامة حانية قائلة بصوت علت نبرته البشاشة : تعالي يا سعيدة لتساعديني في إشعال الحطب لعمل الطعام قبل عودة صابر .. فتنظر إليها

(١) امرأة في منتصف العقد الرابع من العمر يبدو على ملامحها الاعتزاز والثقة بالنفس . والدة صابر وزوجة عمها عطية ، وبنت خالة أمها فاطمة العراقي . إمراة ريفية بسيطة ذات قلب طيب لم تتأثر بقسوة الظروف مثلها مثل كثير من أهل الريف .

سعيدة نظرة ساكنة وهي تقول بصوت حزين : يا خالة . قابلت عبد السميع وأنا عائدة من الحقل وأخبرنِ بأن صابر لن يعود اليوم حيث التحق بالعمل مع ضابط كبير وسيحصل على أجازته الأسبوع القادم .. فتتبدل تعبيرات صفية إلى حزن وتنكسر خواطرها وهي تقول بصوت سُلبت منه الفرحة: لقد توحشته يا سعيدة .. ثم تتنهد نفس عميق لتقول : الحمد لله . يا رب ارجعه لنا سالم. عسى أن يقضي معنا أيام عيد الأضحى . اجمعي الحطب يا ابنتي ودعيه على السطح .. فتهم سعيدة نحوها وتلتقط حزم الحطب وهي تقول بصوت تمني : إن شاء الله يرجع يا خالة ويقضي معنا كل أيام عيد الأضحى .. ثم تتوجه نحو السلم المؤدي لسطح الدار وهي تحمل الحطب لتضعه هناك ، وتنظر بعيون حالمة نحو النخلة الملاصقة لبوابة الدار وتتذكر ذكرياتها مع صابر . وبينما هي مستغرقة في تلك الذكريات صعدت إلى السطح أختها الصغرى فرحانة التي لم يتجاوز عمرها ثمانية أعوام ، وهي تقول بصوتها الطفولي : يا سعيدة . اذهبي إلى أمك عند الترعة لتساعديها في الغسيل .. فتستفيق سعيدة من أحلام يقظتها وهي تقول بصوت تعجب حمل صيغة استفهام : لماذا لم تنتهوا من الغسيل حتى الآن ؟ .. فتقول فرحانة : لقد سقطت جاموسة الخالة بهانة هناك بجوار دار حامد أبو الغريب ولم تستطع أمك البدء في غسيل الملابس إلا بعد انتشال الجاموسة ، وقد ساعدتها أنا وباسمة في غسيل الآواني والصحون ، وعندما شعرت باسمة بدوار وارتفاع بدرجة حرارة جسدها أرسلتنِي أمي لاصطحابها وأحمل الأواني والصحون وأُحضرك لنساعدها في غسيل الملابس وحملها إلى الدار .. فتبتسم سعيدة ابتسامة قناعة ، رغم خيوط الهم التي ارتسمت على جبينها وهي تمسك بيد أختها الصغرى ، وتقول بصوت امتلكت نبرته رضا بما قسمه الله : هيا نطمئن على باسمة ثم نذهب إلى أمك .

وبعدما اطمأنت سعيدة على أختها الصغرى باسمة ، التي لم يتجاوز عمرها أثنى عشرة عاماً ، توجهت بصحبة فرحانة إلى حافة الترعة في المكان الذي اعتادوا غسل

ملابسهم وأوانيهم وصحونهم المتسخة عنده ، والذي يبعد عن دارهم بضع عشرات من الأمتار . وبينما كانت الأختان على مقربة من حافة الترعة بجوار دار حامد أبو الغريب سمعا صوت استغاثة ينبعث من داخل الدار فهرولتا تجاهه ؛ فإذا بسكينة زوجة حامد أبو الغريب[١] مرتمية على جسمان زوجها الحاج حامد أبو الغريب[٢] وهي تصرخ بصوت هستيري قائلة : الحقوني يا ناس . انجدوني يا خلق . رد علي يا حاج .. فتهرع فرحانة إلى الخارج وتقطع الطريق نحو حافة الترعة بسرعة الريح وهي تصرخ بصوتها الطفولي : أبويا الحاج حامد مات . بينما تهرع سعيدة نحو الحاج حامد وهي تتحسس تنفسه لتقول بصوت استغاثة ورجاء : ساعديني يا خالة حتى نُدخله على سريره فهو ما زال يتنفس . ثم تمسك بيديه وتقول بصوت استغاثة : هيا يا خالة ارفعيه من رجليه لننقله إلى السرير .. فتسرع سكينة لترفعه معها وينقلاه إلى هناك . وبمجرد أن وضعاه على السرير كانت الحجرة قد امتلأت بالجيران ، والذي كان من ضمنهم طارق عبد الله صيام[٣] الطالب في السنة النهائية بكلية الطب ، وخلال دقائق عمل تنفس صناعي لاستعادة نبض القلب الذي أصابه جلطة. لكن قضاء الله كان قد نفذ وأسلم الحاج حامد الروح إلى بارئها .. وبعد لحظات ترقب من الحضور بعيون دامعة حزينة استوقف الحضور نظرة الحزن التي تملكت من طارق صيام وهو يقول بصوت

---

(١) سيدة عجوز جاوزت عامها الخمسين ببضع سنين . ملامحها الريفية السمراء التي تحمل بداخلها تجاعيد المشقة وشموخ القناعة والبساطة توحي لمن ينظر إليها أنه ينظر إلى الوجه الذي عبر عنه الفنانون في لوحاتهم لوصف شموخ وعظمة الفلاحة المصرية البسيطة . فقدت ثلاثة من أولادها في نكسة ٦٧م وحرب ٧٣م ، ولم يتبق لها سوى ولد واحد ، لم تعصف به الأوبئة والحروب التي كانت تُهلك أبناء القرى خلال عقود الخمسينات والستينات . هذا الابن مثل كثير من أبناء الريف استفادوا من مجانية التعليم وحصل على بكالوريوس كلية التجارة قسم محاسبة ولم يعد يألف حياة الريف فتزوج من إحدى بنات الحضر وهاجر القرية ليعيش في مدينة القاهرة ، ثم ارتحل عن مصر ليبحث عن لقمة العيش في دول الخليج التي كانت تحل أحلام الغالبية العظمى من الشباب الطامح في تحقيق الرزق الوفير .

(٢) فلاح ذو الخامسة والخمسين عاماً كان يحوز فدان مستأجر ، ويمتلك خمسة عشر قيراط من اراضي الإصلاح الزراعي ورثها عن أبيه .

(٣) طالب في نهائي كلية الطب بجامعة الزقازيق ابن المرحوم الشهيد عبد الله صيام أحد أبطال حرب أكتوبر . تلاصق داره دار حامد أبو الغريب .

آسف : البقاء لله يا خالة . لقد نفذ قضاء الله .. فتصرخ سكينة صرخة مدوية ملأت جنبات الدار وقد ارتسمت على وجهها ملامح الذهول الممزوجة بالفزع ، وأخذت تردد بصوت حاد تضخمت به نبرة الحزن الممزوجة بالدهشة : ماذا أفعل في الدنيا بدونك يا أبو فاروق . يا رب لا تجعلني أعيش بعد هذا اليوم . أين أنت يا جمال ؟ أبوك مات وأنت في الغربة ! حسبي الله ونعم الوكيل .. فتهم نحوها فاطمة[1] وسعيدة بدموع باكية يحتضنها ، ثم يتعاقب على احتضانها باقي النسوة اللاتي جئن فور سماعهن خبر سقوط الحاج حامد.. وبعد بضع دقائق من البكاء والعويل التي ملأت جنبات الدار أخذت فاطمة تردد ما اعتادت سماعه وترديده في حالة وفاة قريب بصوت غلفه نبرة ألم وحزن ممزوج بالرضا بقضاء الله : إنا لله وإنا إليه راجعون . اللهم ادخله جنتك ونجه من عذاب النار .. ووسط عويل وبكاء ونحيب النساء وترحم واستغفار الرجال تهمس سعيدة في أذن والدتها قائلة: سأذهب بالغسيل إلى الدار وسأعود بعدها .. فتهز فاطمة رأسها وهي تهمس لها : خذي معكِ فرحانة وابلغي أباكي وأخوكي ليسرعا بالحضور قبل غُسل الجثمان وتكفينه.. فتذهب سعيدة وتجمع الملابس وتحملها لتعود إلى الدار ومعها فرحانة ثم تتوجه إلى الحقل ، وتخبر أباها وعمها وأخاها العوضي بحالة الوفاة ليتركوا ما بإيديهم من عمل ويسرعوا ليقدموا المساعدة مع باقي أهل القرية في تجهيز المقبرة والمشاركة في حمل النعش وتوصيله إلى مثواه الأخير . وبعد ذلك تتجه سعيدة لتعود إلى الدار لتكون بجوار إخواتها وقد امتلئ قلبها بالحزن على وفاة الحاج حامد أبو الغريب الذي طوقت أفعاله وأقواله الطيبة قلوب أهل قريته بالحب والاحترام .

وكعادة نساء أهل القرى في الريف المصري عند وفاة أحد الجيران أو الأهل يتجه كثير منهن إلى ترك بيتوهن ويمكثن في بيت المتوفي لمواساة أهل بيته من النسوة، ومساعدتهن وترتيب ما يلزم لاستقبال الحاضرين لتقديم واجب العزاء . لذلك ؛

---

(١) امرأة في منتصف العقد الرابع من عمرها ذات وجه جميل يحمل ملامح أوربية . مثل ابنة خالتها صفية تحمل قلب طيب يفيض بالقناعة والرضا بما قسمه الله مهما كانت قسوة الظروف .

فقد تركت فاطمة دارها ووقفت بجوار سكينة التي كانت لها بمثابة الأم والصديقة، حيث كانت أرضهم الزراعية ملاصقة لقطعة الأرض التي تفلحها مع زوجها وأولادهما ، ونشأت بينهما على مدار سنوات طويلة علاقة محبة وأخوة روحانية أقوى من رابطة الدم.. فعقب غسل وتجهيز المتوفي ودفنه والصلاة عليه صلاة الجنازة في جامع القرية ، كانت فاطمة قد جهزت بمساعدة صفية الراعي زوجة شقيق زوجها وبهانة أبو صالح[١] ، وخضرة أبو تميم[٢] ونبوية عبد الرازق[٣] وباقي النسوة من الجيران اللاتي جهزن طعام من صنوف وأطباق عديدة (يسمى هذا الطعام في المجتمع الريفي بـ «جميعة») إلى الحاضرين لتقديم واجب العزاء من الرجال ، الذي كان في استقبالهم الشيخ علي الراعي صهر المتوفي وبكر أبو الغريب ناظر مدرسة دماص الابتدائية «ابن عم المتوفي» ليظل الدار مؤهل لاستقبال المعزين ثلاثة أيام ، لم تترك خلالها صفية وبهانة وخضرة ونبوية دار سكينة . بينما ظلت سعيدة ترعى إخواتها وأبيها وعمها وأولاده ، حتى انتهى استقبال دار حامد أبو الغريب للمعزين من أهل القرية والقرى المجاورة ، لتعود بعدها صفية وفاطمة إلى دارهما .

ويمضي أسبوع من تاريخ وفاة الحاج حامد أبو الغريب ويعود صابر أبو عساكر إلى قرية دماص مع غروب شمس يوم الأحد ٤ أكتوبر ، في أجازة لمدة عشرة أيام بعدما استطاع تأكيد ثقة قائد المعسكر به ليصبح سائقه الخاص .. وبمجرد وصول صابر إلى كوبري القرية شاهده عطوة العراقي خال سعيدة ، وهو يترجل مسرعاً

---

(١) شخصية ريفية متسلطة ومتكبرة اقترب عمرها من منتصف العقد الخامس ، زوجة المرحوم السيد الغريب الشقيق الأكبر للحاج حامد .

(٢) شخصية ريفية بسيطة قنوعة ودودة ومحبة للخير اقترب عمرها من منتصف العقد الرابع . زوجة الشيخ علي الراعي شيخ جامع القرية والشقيق الأصغر لـ سكينة ، ودارها على مقربة بضعة أمتار من دار حامد أبو الغريب .

(٣) شخصية ريفية بسيطة مستضعفة بلغت نهاية العقد الخامس من عمرها ، زوجة عطوة العراقي الفلاح البسيط شقيق فاطمة العراقي والدة سعيدة ، الذي يمتلك بضعة قراريط من الأرض الزراعية ولديها منه خمسة أولاد ذكور وأربع إناث .

يسابق الريح ليصل إلى دارهم ، فلاحقه ليستوقفه قائلاً بأسلوب استفهام بعدما تبادلا كلمات الترحيب والمودة : هل علمت بوفاة الحاج حامد أبو الغريب؟.. فترتسم على ملامح صابر خطوط حزينة وهو يقول بصوت تعجب حاد : لا الله إلا الله. سبحان الذي لا يموت . كيف حدث ذلك ؟! .. فيقول عطوة : لقد مات بالسكتة القلبية منذ أسبوع . سبحانه وتعالى يحي ويميت . كل إنسان له عمره .. فيردد صابر ما قاله عطوة من دعاء بصوت حزين ثم يقول بصوت استفهام : هل عاد الأستاذ جمال من السفر ؟ .. فيقول عطوة بصوت حسرة : لقد أرسلنا تلغراف على عنوانه في الكويت في يوم الوفاة منذ ثمانية أيام ولم يحضر . والدكتور طارق صيام اتصل به عن طريق أحد معارفه في الكويت وأبلغه بالوفاة منذ ثلاثة أيام ، ولم يحضر حتى الآن .. فيقول صابر متأثراً بأحوال الخالة سكينة : ماذا حدث حتى يتغير الناس بهذا الشكل السيء ! هل يُعقل أن يعلم الأستاذ جمال بوفاة والده ولا يحضر ليأخذ العزاء ، ويطمئن على والدته ؟! .. فينظر إليه عطوة نظرة صامتة قائلاً بصوت هادئ : يا ولدي كما قال المثل «الغائب حجته معه» . اذهب إلى داركم بالتأكيد أنت تشتاق إلى رؤية أبوك وأمك واخوتك وخطيبتك . سلامي لهم جميعاً .. فيبتسم صابر ابتسامة هادئة قائلاً: والله اشتاق لرؤية كل الأهل والأحباب يا خال.. فيبادله عطوة ابتسامة صافية من القلب قائلاً : في رعاية الله يا صابر .. فيهم صابر بعد رد التحية مسرعاً نحو داره تحركه مشاعر الاشتياق واللهفة لرؤية أهله وخطيبته التي لم تفارق صورتها ذاكرته وأحلام يقظته طوال فترة غيابه عنها .

ومع وصول صابر إلى دار أبو عساكر ، كانت أحاسيس الشوق واللهفة قد سيطرت على كل ملامحه ، حتى بدى كعصفور يحط على عشه بعدما أُبعد عنه قسراً . وبمجرد أن وقع بصره على أمه ، هرول نحوها ليقبل يدها ، ويتحسس دفء حنانها الذي فُرض عليه أن يُحرم منه . وبعيون دامعة بدموع الفرحة احتضنت صفية ولدها البكر وهي تشكر الله على عودته سالماً من الخدمة العسكرية الإجبارية ، التي اقتبست بعض وسائلها من وسائل قهر وظلم نظام السخرة الذي كان يُطبق على

المصريين منذ زمن الفرعون مروراً بالسخرة في عهد سعيد باشا والخديوي إسماعيل أثناء حفر قناة السويس .. وعلى صيحات فرحة صفية وشكرها لله على عودة ولدها تجمع إخوته (أحمد[١] ومحمد[٢] وعبير[٣]) حوله يعانقونه فرحاً بعودته . ومع صحيات الفرحة جاءت سعيدة مسرعة إلى بهو الدار عندما تحسست نبرات صوت صابر لتظل لبضعة لحظات تنظره بنظرة عاطفية صامتة مكبلة بالعادات والتقاليد الريفية ، ليتبادل معها صابر نفس النظرات العاطفية الصامتة المكبلة بنفس العادات والتقاليد ، حتى قالت بقلب خافق وصوت هادئ : حمداً لله على سلامتك يا صابر.. فتقترب منها عبير وتبتسم لها ابتسامة حانية كاشفة وهي تنظرها بنظرة شفافة لتقول لها بصوت هامس : يا رب يحبني بركات كما يحبك صابر .. فيزداد وجه سعيدة إحمراراً من الخجل ويتلعثم لسانها وهي تقول : سأذهب لأُخبر عمي وأبويا بعودة صابر .. فينظر صابر إلى عبير نظرة صامتة ويُنزل أخوه محمد من على كتفه بعدما يعطيه غطاء الرأس الخاص بالزي العسكري ليقول بصوت استفهام هادئ موجهاً كلامه إلى شقيقته : ماذا قلتِ لها حتى تخجل هكذا ؟ .. فتبتسم عبير ابتسامة آسفة وتقول بصوت هامس : لا تشغل بالك بأمور البنات . افتقدناك كثيراً يا أخي .. فتقول صفية بصوت متحشرج وهي تمسح دموع فرحتها: كنت متخوفة عليك يا ولدي وسمعنا أن القاهرة فيها اضطرابات .. فيبتسم صابر ويقبل يد أمه ويقول : لا تخافي يا أمي . ليس هناك اضطرابات في القاهرة . وقد رزقني الله بمكان هادئ

---

(١) لم يتجاوز عمره العاشرة ، ويعاني من مضاعفات مرض البلهارسيا ؛ نتيجة لسوء الرعاية الاجتماعية والصحية ونقص الخدمات ، مثله مثل كثير من أبناء الريف المصري . ونتيجة لحالته الصحية لم يستطع مواصلة تعليمه أو العمل في الزراعة .

(٢) أصغر أشقاء صابر : لم يتجاوز عمره السادسة ويُعد أكثر أشقائه قرباً إلى قلبه .

(٣) الشقيقة الوحيدة لصابر . تجاوز عمرها الثامنة عشر عام ببضعة شهور ، وتُعد الوحيدة من دار أبو الغريب التي لم تترك الدراسة من المرحلة الابتدائية وحصلت هذا العام على شهادة الثانوية التجارية، وسيتم زفافها في القريب على بركات صيام الشقيق الأصغر للدكتور طارق صيام ، والذي التحق متطوعاً منذ سنتين في الخدمة بالقوات المسلحة بعد حصوله على شهادة دبلوم المدرسة الثانوية الصناعية .

بعيد عن أية مواجهات في الشارع والتحقت للعمل كسائق خاص للقائد ، وهو رجل صالح طيب يخشى الله في كل تصرفاته .. وبعد أن يُنهي صابر كلماته بلحظات جاء والده وعمه فيهم نحوهما يقبل يد الأول ثم يحتضنه ويقبل رأسه ، بعدها يقبل رأس الثاني ثم يحتضنه. ثم يلتفت إلى أولاد عمه ويسلم على العوضي[1] ، ثم على بنات عمه ليحمل بعدها خالد «أصغر أشقاء سعيدة الذي لم يتجاوز عمره السادسة» على كتفيه يلاطفه .. وبعد بضعة دقائق ، تبادل خلالها الجميع مع صابر كلمات الود والترحاب بعودته في أجازة ، يسأل صابر عن حال الخالة سكينة بعدما ترحم على حامد أبو الغريب وأخبرهم بالحديث الذي تم مع عطوة العراقي .. فتدمع عيون زوجة عمه وهي تقول بصوت حسرة : للهِ الله يا سكينة . لقد فقدت كل أهلها وولدها الوحيد لم يسأل عنها ولم يأتِ رغم علمه بوفاة أبوه . ماذا حدث إلى حال الدنيا ؟! .. فتقول صفية بصوت فيه حدة وقد ارتسم على وجهها تعبيرات رفض واستياء لما آل إليه حال سكينة : بعد كل ما فعلته سكينة والحاج حامد مع جمال ؛ لقد كانا يحرما على نفسيهما الطعام حتى يوفران له مصاريف التعليم . والمرحوم باع تقريباً نصف أرضه العام الماضي ليزوجه من بنت البندر ! الله يعينك على بلائك ويعطيكي الصبر يا سكينة.. فيقول حسن بصوت هادئ وعيون صامتة: يا جماعة . جمال في بلاد بعيدة ومسائلة عودته ليست بيده ، وحتى يرجع إلى مصر لابد من موافقة صاحب العمل ... فيقول عطية : يا جماعة «الغائب حجته معه » . لا أحد يعلم ظروف جمال التي منعته من الحضور . بعد صلاة الظهر سأذهب إلى دار العمدة لعله يستطيع الاتصال به كما أبلغنا الشيخ علي الراعي . ثم ينظر إلى صفية ويقول بصوت آمر : جهزي العشاء . اعتقد أن ولدك اشتاق إلى طعامك .. فتقول فاطمة موجهة كلامها إلى صفية بصوت غلفه البشاشة ، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة خفيفة وهي تلمح بنظرها ابنتها سعيدة : سنجهز أنا وسعيدة معكِ

---

(١) شقيق سعيدة الذي يكبرها بأربعة سنوات وبضعة أشهر ويعمل في فلاحة الأرض مع أبوه ؛ حيث ترك الدراسة من نهاية المرحلة الابتدائية بعدما فقد إحدى عينيه نتيجة سقوطه من على سلم المدرسة. .

الطعام يا صفية .. فتنظرها صفية بنظرة رضاء ثم تنظر إلى ابنتها عبير نظرة حثيثة لتقول : هيا نجهز طعام العشاء سوياً .. وبينما تتوجه نساء وبنات الدار لتجهيز الطعام يظل صابر يحكي لوالده وعمه عن حاله في معسكر الأمن المركزي ، وعن ظروفه الطيبة التي حظى بها بعد العمل مع العقيد محمد عبد القادر حتى يُجهز الطعام فيأكل الجميع ثم يهموا بعدها بأداء صلاة العشاء في جماعة ، ليتوجهوا بعدها إلى النوم بعدما تركوا أمرهم إلى الخالق سبحانه وتعالى واستعانوا به ليعينهم على عمل الفلاحة الشاق الذي ينتظرهم فجر كل يوم .

وبعدما أنهى حسن وعطية بمساعدة صابر والعوضي أعمال الفلاحة عقب صلاة ظهر اليوم التالي توجهوا إلى دار الشيخ على الراعي ليصطحبهم لمقابلة العمدة «عبد المعطي العناني» في داره .. ومع وصولهم إلى هناك استقبلهم العمدة في المضيفة الملحقة بالدار بترحاب شديد ، وبعدما أثنى كعادته على الشيخ علي الراعي نظر إلى صابر وعطية نظرة استفهامية وقال : هذا ولدك ؟ .. فينظر عطية إلى صابر بتفاخر واعتزاز وهو يقول : نعم يا حضرة العمدة . صابر ولدي البكر يقضي فترة تجنيده في الأمن المركزي بالقاهرة .. فيبتسم عبد المعطي ابتسامة مجاملة خاطفة ويقول موجهاً كلامه إلى صابر : في أي معسكر تؤدي خدمتك العسكرية يا صابر؟.. فيقول صابر بصيغة تفاخر بصوت منضبط متأدب: أنا أخدم كسائق خاص للعقيد محمد عبد القادر قائد معسكر الدراسة .. فيقول العمدة : لو واجهتك أي مشكلة أثناء فترة تجنيدك اخبرني وسوف اتصل بابن خالتي اللواء محمد العيسوي الذي يشغل منصب حكمدار القاهرة .. ثم ينظر إلى الشيخ علي الراعي نظرة تبيجل ومحبة ويقول بصوت غلفه الود : يا شيخ علي . أنا اتصلت بأحد معارفنا الذي لديه شقيق يعمل في السفارة المصرية بالكويت واعطيته عنوان جمال هناك ، وقد أخبرني أمس أنه بخير . كل ما هنالك أن كفيله لم يكن موجوداً عندما وصل إلى جمال خبر وفاة والده ، وعندما حضر الكفيل أول أمس استطاع حجز تذكرة سفر ليعود غداً الساعة ٤ عصراً إن شاء الله إلى مصر . ثم يعطيهم رقم الرحلة ومكان الوصول ..

فيقول صابر بأسلوب تعجب واستفهام : هل لا يستطيع العودة بدون تصريح من هذا الشخص؟ حتى في حالة وفاة والده ! .. فينظر إليه العمدة نظرة صامتة ويقول : في دول الخليج لا تستطيع العمالة الأجنبية العمل داخل هذه البلاد بدون مواطن يحمل جنسية هذا البلد يكفل إقامتهم هناك ، ويكون مسؤول عنهم أمام حكومته .. فيقول حسن متعجباً : هل لو لم يوافق هذا الكفيل على سفر جمال لن يرى والدته في هذه الظروف السيئة ؟ .. فيتجاهل العمدة الرد على تعليق حسن وينادي على عامل المضيفة يطلب منه إحضار الشاي إلى الضيوف .. وبعد تناول الشاي والحديث عن أحوال الزراعة والفلاحين يغادر ضيوف العمدة المضيفة عائدين إلى دارهم ، ليظل صابر طوال الطريق شارد الذهن يرثي حال جمال ويتعجب على حال هذا الزمن الذي جعل رجل متعلم تعليم جامعي يقبل بالعبودية خارج وطنه من أجل جمع الدراهم والدنانير .

وفي صباح اليوم التالي وأثناء قيام صابر بأعمال الفلاحة ، بجوار القناية التي تروي أرضهم وتفصلها عن أرض المرحوم حامد أبو الغريب ، شاهد سكينة الراعي وهي تقوم بتنقية الأرض من الحشائش حتى تتمكن من تسميدها وحرثها وتسويتها من أجل تجهيزها لزراعة القمح، فأسرع نحوها يقول بصيغة أسف: البقاء لله يا خالة. إن شاء الله مثواه الجنة . ربنا يصبرنا جميعاً .. ثم يصمت للحظات ليقول معاتباً بأسلوب رجاء وتمني وهو يمسك بيدها : هذا لا يصح يا خالة . لن يفلح هذه الأرض غيري طالما في عمري بقية . هل تريدي أن تُحملينا بالعيب يا خالة ؟ .. فتنظر إليه سكينة نظرة صامتة وقد كست خطوط الأسى والحزن ملامحها لتقول بصوت هادئ : الحمد لله على سلامتك يا صابر . جزاك الله كل خير يا ولدي . الحمد لله أن رزقني الصحة والعافية .. فيقول صابر بصوت تمني ورجاء : استحلفك بالله يا خالة أن تعودي إلى دارك وأنا سأفلح لكِ الأرض . وهذا لن يساوي شيء مما فعلته معنا ؛ فجميلك أنتِ والمرحوم يطوق أعناقنا مهما فعلنا .. فتدمع عيون سكينة وهي تقول بأسلوب تعجب : أية جميل يا ولدي ! جزاك الله الخير وأثابك على معروفك . ربنا

يرزقك بالذرية الصالحة ويهبك الحياة السعيدة مع ابنة عمك .. فيقول صابر بصوت غلفه الود والمحبة : يا خالة جزاكي الله كل الخير . اذهبي إلى الدار وجهزي الطعام ورتبي حجرة الأستاذ جمال فبإذن الله سيأتي اليوم كما أخبرنا العمدة .. فتتساقط دموع سكينة الصامتة وهي تقول : اللهم ارجعه سالماً واحفظه يا رب من كل شر وابعد عنه كل مكروه .. وما أن أكملت سكينة كلماتها حتى حضرت سعيدة وهي تحمل صينية طعام مغطى بمفرش قماش ، وبصحبتها أمها وزوجة عمها . وبأسلوب عتاب ودود تقول فاطمة : هل هذا يصح يا أم فاروق ؟! تتركي دارك وتأتي لتفلحي الأرض وولدك جمال سيحضر اليوم ؟! هل فعلنا شيء أغضبكِ منا ؟ .. فتجذب صفية أطراف الحديث لتقول بأسلوب عتاب أخوي : والله لن تفعلي شيء في الحقل وستعودي معي إلى دارك ، وسنقوم أنا وسعيدة وعبير بتجهيز الطعام والفرش قبل حضور الأستاذ جمال وزوجته .. فتقول سعيدة وهي تنظر إلى صابر نظرة حانية صامتة: احمل عن رأسي الصينية حتى أبلغ أبي وعمي وأخي بأن الطعام جاهز .. فينظرها صابر نظرة حالمة وهو ينزل عن رأسها صينية الطعام ويقول : تسلمي يا ابنة عمي .. وبعدما حضر حسن وعطية والعوضي ورحبوا بسكينة، انصرفت النسوة إلى دار حامد أبو الغريب لتجهيز الطعام ، وترتيب الفرش قبل عودة جمال أبو الغريب من السفر . بينما هم الرجال بصينية الطعام حتى يتزودوا بالزاد لتكملة مشقة فلاحة الأرض حتى غروب الشمس .

ومع غروب شمس هذا اليوم وبعدما أنهى صابر أعمال الفلاحة اليومية في أرضهم وأرض المرحوم حامد أبو الغريب توجه عائداً إلى دارهم بصحبة والده وعمه وابن عمه . وخلال مرورهم على قهوة «علي بو دراع» شاهدوا كثيرًا من الفلاحين يتجمعون حول المذياع وعلى ملامحهم تعبيرات صامتة صادمة ، فسأل صابر عامل المقهى قائلاً : ما الذي حدث يا مرسي ؟ .. فيرد عليه مرسي بصوت حزين وبأسلوب استنكار وهو يخبط كفيه ببعضهما : لقد قُتل السادات ؟ .. فيقول عطية بصوت حاد مصدوم وقد ارتسمت على ملامحه تعبيرات غضب وألم: إن لله

وإن إليه راجعون. متى حدث ذلك ؟! ومن الذي قتله. ولماذا يُقتل بطل الحرب والسلام ؟! .. فيقول حسن تلقائياً وبصوت صدمة : بالتأكيد الذي قتله ليس مصري . بالتأكيد يهودي ؛ لأنه انتصر ومكر عليهم وأخذ منهم أرضنا التي احتلوها.. فيقول مرسي بصوت امتلكت نبراته الحزن الممزوج بالغضب : لا يا عم حسن الذين قتلوه من الجيش . أطلقوا عليه النار أثناء قيامه برد التحية العسكرية لهم خلال احتفالات نصر أكتوبر صباح اليوم .. فينظر العوضي إلى والده وقد لاحظ تعبيرات الحزن على ملامحه فقال بصوت حملت نبرته اللامبالاة : لا تحزن يا والدي فكلنا سنموت. هل هو أحسن من الذين ماتوا قبله؟.. فيرد عليه حسن بصيغة تعنيف وبصوت حاد: لا الله إلا الله سبحانه وتعالى الذي لا يموت. ألا تترحم على رئيس مصر! يا ولدي هذا الرجل كبيرنا .. فيقول العوضي وقد ارتسمت على ملامحه تعبيرات خجل: الله يرحمه يا أبي ويرحم كل المسلمين . أنا أقصد أن كل الناس ستموت فلا تحزن .. فيقول حسن وهو يندب ما وصل إليه الحال : الله يرحمه كان فلاح أصيل ، وكان يحب الفلاحين ويتشبه بهم . الله يرحمك يا عبد الناصر ويجعل مثواك الجنة ، لولا ما فعله لكنا لا نزال نرزع الأرض أُجَرَاءُ . اللهم ولي أمرنا رجل صالح مثله .. فيقول مرسي والدموع ما زالت عالقة في عينيه : الله يرحمك يا جدي كان يحب عبد الناصر أكثر من نفسه ، وكان يقول أن عبد الناصر انصف الفلاحين وأعطاهم الكرامة والحرية وحررهم من استعباد الأغنياء.. فيقول صابر بصوت غلفه التساؤل وقد ارتسمت على وجهه تعبيرات تعجبية صامتة : يا أبي الله يرحم الجميع . الفلاحون في القرية ما زالوا عبيد الحاجة وأغلبهم يتجه إلى ترك الفلاحة ويعمل في أي عمل بعدما تزايدت أعدادنا ، ورقعة الأرض الزراعية إن لم تكن تنقص فلا تتزايد رقعتها .. فيهز عمه عطية رأسه حزناً وهو يقول : سيتكفل سبحانه وتعالى بأمرنا يا ولدي . هيا بنا نعود إلى الدار حتى نجهز أنفسنا لنذهب لمقابلة جمال في دار حامد أبو الغريب لنقدم له واجب العزاء في والده.. بعدها ينصرف آل عساكر إلى دارهم وكل واحد منهم يحمل في نفسه رؤية شخصية وتساؤل عما حدث وعما سيحدث في المستقبل ؛ فكل من حسن وعطية ، اللذان

ننميان إلى الجيل الذي عاش صباه وشبابه الحقبة الناصرية وتشكل في وجدانه عقله البسيط الذي لا يعرف الأفكار ذات الأبعاد المركبة أن حركة الضباط التي زعمها جمال عبد الناصر وحمل شعلتها من بعده أنور السادات « ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢م كما يُطلق عليها في التاريخ المصري الذي كُتب أعقاب الانقلاب لعسكري الذي قامت به مجموعة من ضباط الجيش في مصر» قد حررت الفلاح لمصري من العبودية ؛ وكل منهما يرى في قتل السادات كارثة ، ويتساءل وهو يستعيذ بالله عما ستحمله الأيام . بينما نجد العوضي وصابر ، اللذان يقفا بين فكي لنظام الاشتراكي غير المخطط الذي سلكه النظام الناصري والنظام الرأسمالي العشوائي الذي وضعه السادات للتحرر من الإيدلوجية الناصرية ، يغلب على شعورهما اللامبالاة رغم تأثرهما بصورة نسبية بما حدث ؛ فالصورة القاتمة التي تظهر لهما عندما يتحسسا مستقبلهما تجعل كل منهما يتساءل يائساً : هل سيختلف المستقبل القاتم لو أراد الله أن يطيل في عمر السادات ؟ هل ستكون الصورة أكثر قتامة وضبابية بعد رحيله ؟

وبعد أداء صلاة العشاء اصطحب عطية وشقيقه حسن ولديهما العوضي وصابر إلى دار المرحوم حامد أبو الغريب حيث كان في استقبالهم كل من الشيخ على الراعي والأستاذ بكر أبو الغريب . وبعد بضعة دقائق ، تبادل خلالها الحضور كلمات الترحيب والمودة ، سأل حسن موجهاً كلامه إلى الشيخ علي الراعي بأسلوب حملت نبرته شيء من التعجب : أين الأستاذ جمال ؟! .. فتتبدل ملامح الشيخ علي ويرتسم على ملامحه الخجل الممزوج بالغضب ليقول بصوت به نبرة حزن: الأستاذ المحترم بعد ما استقبلناه في المطار، وكنا قد جهزنا سيارة لتنقله هو وزوجته إلى دماص ، أبلغنا أنه سيحضر غداً في الصباح بعدما يصطحب زوجته إلى أهلها لأنها حامل ولن تقدر على السفر .. فيقول حسن بصوت استنكار وعلى ملامحه تعبيرات تعجب : هل هذا معقول ! يعود بعد غياب بضعة أشهر وهو يعلم بوفاة أبيه ولا يأتي لرؤية أمه ! .. فيلاحق عطية حديث شقيقه قائلاً : بالتأكيد حالة زوجته المرضية

صعبة وهذا ما جعله لا يتركها حتى تصل إلى بيت عائلتها.. فينظر إليه بكر أبو الغريب نظرة حزينة وهو يقول بصوت غلفه المرارة والآسى: ربنا يرحمك يا ابن عمي، ويصلح حال الجميع . لو كان جمال تزوج من بنات قريتنا كما كان يريد المرحوم لما وصل حالة أم فاروق إلى ما وصلت إليه .. فيقول عطية : هذا قدر ومكتوب وأكيد حالة زوجته الصعبة منعته من الحضور قبل الاطمئنان عليها .. فيهز حسن رأسه بأسلوب سخرية واستهزاء قائلاً: ربنا يشفي الست زوجته ويحميها من عين الحسد.. فينظر إليه الشيخ علي الراعي نظرة صامتة وهو يقول بصوت هادئ : على كل حال هو عائد غداً إن شاء الله وأكيد هيقدر يشرح لنا ظروفه بالتفصيل .. فيقول حسن : بالتأكيد يا شيخ علي وإن شاء الله نحضر غداً بعد صلاة العشاء لنقدم له التعازي في والده . ثم ينظر إلى شقيقه ويقول : هيا يا عطية نعود إلى الدار فالليل قد أمسى وأمامنا عمل شاق في الصباح الباكر .. فيقول الشيخ علي : هل هذا يصح . لن تبرحوا الدار حتى نتناول العشاء فقد جهزت لنا أم فاروق الطعام خصيصاً بمناسبة حضوركم . ثم ينادي على شقيقته وزوجته خضرة لتنجزنا في تجهيز الأكل .. فيقول حسن : يا شيخ علي لسنا ضيوف ولا نريد أن نجهد السِّت سكينة .. فتأتي سكينة لترحب بالحضور بكلمات ترحاب وقد ارتسم على وجهها تعبيرات خجل وهي تقول : أهلاً بكم في داركم . إن شاء الله جمال سيأتي غداً ؛ فزوجته حملها صعب وبالتأكيد ولدي منعها من الحضور خوفاً على الحمل .. فيقول صابر : طبعاً يا خالة . إن شاء الله يعود لنا غداً بإذن الله .. فيسأله بكر أبو الغريب قائلاً بأسلوب استفهام وتعجب: هل سمحوا بنزول المجندين أجازة والبلد تمر بهذه الظروف الصعبة؟!.. فيقول صابر: أنا في أجازة منذ أول أمس .. فيقول الشيخ علي: الله يرحمك يا سادات كان رجل سياسي من الطراز الأول .. قُتل في ذكرى اليوم الذي خلده ... فيقول بكر أبو الغريب : الجماعة التي تطلق على نفسها لقب «جماعة الجهاد » هي المتهمة باغتياله .. فيقول عطية : ربنا يرحمنا جميعاً ويولي علينا رجل صالح .. فيقول الشيخ علي: محمد حسني مبارك ، نائب الرئيس السادات رحمه الله ، هو الذي سيصبح

رئيساً بعدما يُستفتى الشعب على ترشيحه خلال أيام قليلة .. فيقول العوضي مستفهماً : ومن يكون هذا الرجل ؟ وماذا يعني « يُستفتى الشعب على ترشيحه »؟.. فيقول الشيخ علي وهو ينظر في عيون الحضور المترقبة إلى المعرفة : محمد حسني مبارك ، هو نائب رئيس الجمهورية وكان قائد القوات الجوية التي لها فضل كبير في انتصار أكتوبر . وسيصبح رئيسًا بعد موافقة الشعب عليه من خلال صناديق الاقتراع ؛ مثل ما يحدث في انتخابات مجلس الشعب . فمن يوافق على توليه الرئاسة يقول نعم ، ومن لا يرغب يقول لا .. فيقول العوضي وقد ارتسمت على ملامحه تعبيرات لامبالاة : ربنا يصلح الحال يا شيخنا ويهتم بالفلاح ويوفر لنا أرض نزرعها .. ثم ينظر إلى حسن وهو يقول بصوت غلفه الهم والأسف الممزوج بقلة الحيلة : ربنا يعطيك العمر الطويل يا أبي . جدي حصل على فدان وستة قراريط من أراضي الإصلاح التي وزعها جمال عبد الناصر على الفلاحين ، وبعد وفاته ورثت أنت وعمي كل واحد منكما تقريباً خمسة عشر قيراط سيتم تقسيمها على أولادكما بعد عمر طويل .. ثم ينظر إلى الشيخ علي ويقول: يا شيخنا الجليل . الفلاحون يتركون مهنة الفلاحة بسبب نقص الأرض وعدم اهتمام الحكومة بنا وعدم رعايتها لنا ، ولو استمر الحال على ذلك سيترك الكثير من الفلاحين قراهم بحثاً وراء الرزق وسيصبح أولادنا أُجَرَاءُ وعمال ترحيل بالمدن والحضر .. وخلال كلام العوضي كان الشيخ علي ينظره نظرة تأملية ثاقبة حتى ما أنهى كلامه قال له بصوت إعجاب: كل ما قلته صحيح. لكن قدرة الله سبحانه وتعالى تفوق كل القدرات البشرية. والحمد لله أن بلادنا كرمها ﷻ في كتابه العزيز في أربعة وعشرين موضعاً. منها ما هو بصريح اللفظ ومنها ما دلت عليه القرائن والتفاسير ؛ لذلك فبلادنا آمنة بإذن الله رغم كيد الكارهين . ولا نملك يا ولدي إلا الدعاء لله بأن يولي علينا خيارنا ويصلح حال ولاة أمورنا .. فيقول صابر مستفهماً وقد بدت على ملامحه علامات توتر : ماذا أفعل يا أستاذ بكر؟ هل أرجع إلى المعسكر؟! فيقول بكر: لا. طالما لم يتم استدعائك. استمتع بأجازتك ولا تحمل هم شيء.. وفي تلك اللحظة تدخل سكينة وخضرة

ليقدما صواني العشاء ويجلس الجميع يستمتع بالطعام وهم يتحدثون في أمور شتى ؛ كان النصيب الأكبر منها لحادث اغتيال السادات ، وحال القرية في عيد الأضحى الذي سيحل بعد غدٍ . بعدها يعود آل عساكر إلى دارهم ويخلدون إلى النوم ليؤهلوا أنفسهم لاستقبال يوم تالي يجددون من خلاله الأمل في دوام الصحة وراحة البال ويشكرون الله على نعمة القناعة بقسمتهم ونصيبهم في الحياة .

وبعد صلاة عشاء اليوم التالي توجه رجال بيت علي أبو عساكر إلى دار حامد أبو الغريب لتقديم واجب العزاء إلى جمال بعدما وصل إليهم خبر عودته إلى الدار ؛ حيث استقبلهم الشيخ علي بترحاب شديد كما اعتاد وأجلسهم في مضيفة الدار ليأتي جمال بعد بضع دقائق مرتدياً بيجامة حمراء منقوش على ظهرها طاوس ليقول بأسلوب تكبر وعلى تعبيرات وجهه الجمود ، وهو يمد يده إلى عطية عساكر : أهلاً يا عم عطية .. فيمد عطية يده وعلى وجهه تعبيرات تعجب واستهجان وهو يهز رأسه قائلاً بصوت باهت : أهلاً يا ولدي .. وهكذا كان لقاء جمال بكل من حسن وصابر والعوضي تكبر وتعالي قابله استهجان وتعجب .. وبعد هذا الاستقبال التكعيبي ذات النظرات السريالية جلس جمال أمام الحضور ، وهو يضع قدمه على الأخرى بصورة جعلت الحضور ينظروه نظرة اشمئزازية رافضة لم تشغل باله حتى قال : رائع أنني قابلتك اليوم يا عم حسن فلو لم تحضر كنت سأرسل لك مرسال حتى نتقابل .. فيهز حسن رأسه وقد زادت تعبيرات وجهه تعجبًا وهو يقول : هل نسيت عاداتنا وتقاليدنا يا جمال أفندي التي تفرض علينا أن نحضر إلى دارك لنواسيك في وفاة والدك رحمة الله عليه ؟! .. فيقول جمال بصوت غلفه النفع والمادة، وعلى تعبيرات وجهه ملامح حزن : الله يرحمك يا أبي لقد كان رجلاً صالحًا. لقد حزنت عليه وتألمت كثيراً خاصة وأن الخبر جاءني في الغربة التي لا تعرف العواطف والأحاسيس .. فيقول العوضي بصوت فيه حدة : وماذا كنت تريد ؟ .. فيقول جمال موجهاً كلامه إلى حسن وهو يتجاهل النظر إلى الآخرين : أولاً . شكر الله سعيكم والله يرحم جميع موتنا .. ثم يصمت لبضعة لحظات بعدما شهد الانكسار في عيون

خاله الشيخ علي ليقول بصوت هادئ موجهاً كلامه إليه : يا خال . الله يرحم والدي فأنه لم يبخل نحوي بكل ما يملك من مال وعافية . الأرض التي تركها لن تقدر أمي على زراعتها والأفضل أن نتركها لمن يقدر على ذلك والجار أولى بالشفعة .. فيقول حسن بأسلوب استفهام : ماذا تقصد بهذا الكلام يا جمال أفندي ؟ .. فيقول جمال : أنا أرغب في بيع أرض أبي وسوف استثمر أموالها في شيء أستطيع الربح منه.. فيقول الشيخ علي بصوت غلفه الحسرة وعلى وجهه تعبيرات رفض واستنكار وتعجب : وماذا ستفعل أمك بعدما تبيع الأرض ؟! أنت لا تعرف ماذا تعني هذه الأرض بالنسبة لأمك . أنها حياتها بكل ماضيها وحاضرها . إذا كنت تريد أن تخلع نفسك من جذورك ، أترك أمك وشأنها فلن تبيع أرضها التي روتها بعرق عافيتها وغرست فيها كل أمانيها وأحلامها . أحسب نصيبك في الأرض وسوف أتدبر الأمر يا ابن اختي .. فيقول جمال بملامح جامدة وصوت هادئ : كما تريد يا خال إذا كانت هذه رغبتك . سأذهب في الفجر إلى القاهرة وسأعود بعد ثلاثة أيام تكون خلالها قد تدبرت الأمر .. فيقول العوضي بصوت حملت نبرته نغمات تهكم وسخرية : هيا يا والدي نذهب حتى نترك الأستاذ جمال ؛ فمن الواضح أن الطير المرسوم على الجلباب الذي يرتديه يجعله ينام مبكراً .. فيضحك الحضور ضحات ساخرة لبضع ثوان ليقول بعدها جمال بصوت لامبالاة : شرفتم وشكر الله سعيكم . بالفعل أنا سأذهب إلى النوم . أراكم على خير . الدار داركم .. وبعدما ينصرف جمال دون أن يودع ضيوفه وفقاً للعادات والتقاليد الريفية ، ظل الشيخ علي برفقة رجال آل عساكر يعتذر عما بدر من ابن اخته وهو يتحسر على ما وصل إليه حاله ، ولم يتركهم حتى أوصلهم إلى دارهم .. وحتى خلود كل من في دار آل عساكر إلى النوم، ظل كل واحد منهم خلال حديثهم الساهر في ليلة وقفة عرفات يبدي رأيه عما حدث ويبدي استياءه وسخطه على الولد الذي جحد جميل والديه وانتزع نفسه من جذورها وباع كل قيم ومبادئ القرية التي تربى عليها من أجل حفنة من المال الزائل .

ومع شروق شمس يوم عيد الأضحى ، كان أفراد عائلة آل عساكر من الذكور كعادتهم كل عيد قد أدوا صلاة العيد في جامع القرية ، وهم يرتدون الثياب الجديدة ليتقابلوا بعد الصلاة مع باقي أهل القرية يتبادلون التحية والسلام ويرددون الدعاء بدوام الصحة وراحة البال ، ليعودوا بعدها إلى الدار فيجدوا النساء قد جهزن أطباق الفتة باللحم .. وبينما كان صابر يجلس بجوار والده مع باقي أفراد العائلة من الذكور يفترشون الأرض وقد انتهوا من تناول إفطار عيد الأضحى ، نظر إليه والده وعلى ملامحه بهجة وهو ممسك بيده قطعة لحم يلتهمها بصورة بدائية ليقول بصوت أجش بعدما انتهى من تناول طعامه : الأجازة القادمة بإذن الله سنزفك إلى سعيدة فقد اتفقت أنا وعمك على ذلك وسنبني لكما غرفة في صحن الدار بجوار الكرار .. فيترك صابر ما بيده من طعام ويحتضن أبوه ويقبل يده ورأسه وهو يقول : الله يحفظك يا أبي .. ثم يحتضن عمه ويقبل رأسه وهو يقول : الله يحفظك يا عمي. سأضع سعيدة وسأحفظها في عيني إن شاء الله .. فيبتسم حسن وهو يقول بأسلوب ساخر: لقد وضعت السمن الذي في فمك على جبيني. الله يحفظكما يا ولدي . استدعي والدتك وزوجة عمك لنخبرهما بالأمر .. فيهرول صابر يستدعيهما ، وما إن حضرتا أخبرهما عطية بالأمر . وبمجرد سماع صفية الخبر أطلقت زُغْرُودة ملأت جنبات الدار حتى أمسكت فاطمة بفمها وهي تقول : توقفي يا صفية . تذكري أن دار حامد أبو الغريب به متوفي .. فترتسم على وجه صفية تعبيرات خجل ولوم وهي تقول بصوت غلفه الأسف: لقد أنستني الفرحة ذلك. لا تؤاخذني يا أبو صابر فيبتسم لها عطية ابتسامة رضا وهو يقول : مبروك يا أم صابر ويارب نفرح بزواج كل الأولاد . ثم يصمت للحظات يبحث خلالها ببصره عن سعيدة فيقول : أين العروسة ؟ حتى نخبرها بهذا الخبر السعيد .. فيجري خالد نحو حجرة الخزين «حجرة الكرار باللغة العامية» التي تتواجد بها سعيدة وعبير مردداً مكرراً بصوته الطفولي جملة : تعالي يا سعيدة ستتزوجي صابر .. فتمسك سعيدة به وهي تحدثه بصيغة مداعبة : لو كررت هذا الكلام أمام أبوك سأغضب منك ولن أصطحبك

معي إلى دار خالتي سكينة .. فيقول خالد : أبويا عطية هو الذي يطلب رؤيتك حتى يبلغك بذلك .. فتقف سعيدة مرتبكة وقد ارتسمت على ملامحها تعبيرات خجل وترقب .. فتقول عبير بصوت فيه ترقب وفضول بعدما استشفت تعبيرات الصدق على ملامح خالد : هيا نذهب إليهم لنعرف ماذا يريد أبي .. وما أن جاءت سعيدة نحو مجلس العائلة قال لها حسن : مبروك يا سعيدة . زفافك على صابر إن شاء الله الشهر القادم عندما يأتي في أجازته الشهرية .. فيحمر وجه سعيدة وترتعد أطرافها من شدة الخجل وهي تقول : كما تريد يا أبي .. فتتجه نحوها عبير وتقبلها وتحتضنها وهي تقول : مبروك يا سعيدة .. ثم تنظر إلى أخيها صابر وهي تقول بصوت تملكت نبرته نغمات الفرحة والسرور: مبروك يا صابر وإن شاء الله نرى أولادك في القريب.. فيبتسم صابر ابتسامة عريضة وهو ينظر إلى سعيدة ويقول : الله يبارك لكِ يا أختي ويعطيكي الذرية الصالحة .. ثم يلتفت إلى أبيه وهو يقول : هل يمكن أن يكون ليلة زفاف عبير على بركات هي نفس ليلة زفافي على سعيدة الشهر القادم ؟ .. فيقول عطية وقد أضاءت الفرحة ملامح وجهه : ليس لدي مانع . عندما يأتي بركات في أجازته الشهرية بعد يومين نحدد معه يوم الزفاف .. ثم ينظر إلى أخيه ويقول : ماذا تقول في هذا الكلام ؟ .. فيقول حسن : نعم الرأي يا أخي وربنا يكثر من أفراحنا . سنذهب بعد صلاة المغرب إلى دار الشيخ علي ونستأذنه في إنهاء إجراءات عقد القرآن في اليوم التالي لمرور أربعين يوم على وفاة الحاج حامد . ثم ينظر إلى زوجته وسعيدة ليقول : هيا اجمعوا الصحون واصنعوا الشاي سنذهب أنا وعطية لنجلس على المصطبة أمام الدار .. بعدها يتجه الشقيقان لتناول الشاي ومعهما العوضي وصابر ليتحدثون في أمر بناء الحجرة وتجهيز أثاث العروسين حتى استدل ظلام الليل ليتجه الجميع إلى النوم ، ويظل صابر وسعيدة طوال تلك الليلة هائمين في أحلام اليقظة يدفعون الأيام والليالي حتى يلتقيا كزوجين .

وتمر ستة أيام بعد ليلة العيد ، قضاها صابر في مساعدة أبوه في فلاحة الأرض وبناء الحجرة التي سيتزوج بها ، وشراء مستلزمات العرس من أثاث ومتاع ؛ ليجهز

نفسه بعدها ليعود إلى معسكر تجنيده في القاهرة . وفي عشية تلك الليلة ، جلس صابر كعادته يتأمل حال زمانه ويسبح بمخيلته البسيطة ، التي أثقلتها خبرات حياتية يصعب على الإنسان الذي لم يعيش حياة الفلاح البسيطة اكتسابها ، فيما آل إليه الحال منذ تجنيده في الشرطة ، وما واجهه من مذلة وهوان في السنة الأولى في خدمته العسكرية التي من المفترض أن تكون في خدمة الوطن وليس خدمة أشخاص كثير منهم لا يضع حدود بين الانضباط والقسوة . وبينما كان صابر مستغرقًا في ذكرياته التي حفرتها مآسي أول يوم له في معسكر تدريب قوات الأمن المركزي بالقاهرة جاءه العوضي قائلاً : ما الذي يحزنك يا ابن عمي ؟ لقد رأيت على وجهك الحزن والآسى .. فيتنهد صابر نفس عميق وهو يقول : لقد تذكرت أول يوم لي في التجنيد وما واجهته من صعاب .. فيقول العوضي بصوت فيه حسرة وألم: كم كنت أتمنى أن يتم تجنيدي . لكن فقدي إحدى عيني حرمتني من هذا الشرف . ثم يتنهد قائلاً : الحمد لله على كل حال يا ابن عمي .. فيقول صابر : لا تحزن على عدم تجنيدك يا عوضي فأنت هنا تؤدي أكبر خدمة يمكن أن يؤديها الإنسان لبني وطنه . فلاحة الأرض التي تجعل كل سكان المحروسة يأكلون من هذا العمل .. فيبتسم العوضي وهو يقول : هكذا أنت دائماً يا ابن عمي تهون علي الأمر .. ثم يصمت لحظة ليقول بعدها بصوت غلفه الفضول هل يمكن أن تخبرني بهذا الموقف الذي جعلك حزين لهذه الدرجة .. فيقول صابر بصوت حملت نبرته نغمات آسى وحزن ، وهو ينظر في عين العوضي المترقبة لمعرفة ما يحزنه : في أول يوم لي في خدمتي العسكرية ، عندما تم ترحيلي من منطقة التجنيد بالقوات المسلحة إلى معسكر تدريب قوات الأمن المركزي ، لم يرهقني المعاناة المادية في التنقل والإقامة وقلة الماء والطعام التي تعرض لها الجنود منذ شروق الشمس حتى غروبها ، بل كنت أرى في تحمل تلك الصعاب دليل رجولة وشرف جندية . لكن الذي كسر اعتزازي بنفسي وحطم كبريائي هو قيام الضباط الذي استلمنا من منطقة تجنيد الهايكستب بمجرد وصولنا إلى معسكر تدريب الأمن المركزي بضرب زميل لنا وكأنه بهيمة؛ فبعد أن كيل له العديد من اللطمات على وجهه وأسخن جسده بالعصا

الذي يحملها وضع قدمه على رأسه وسب أهله بأبشع الشتائم ، وهو يقول بصوت مليء بالكراهية والبغض : أنا ممكن أدفن أي مجند حي هنا لو تجرأ وتحرك بدون تعليمات مني .. ومن شدة خوف المجندين مما فعله الضابط بزميلنا رأيت في ملامحهم تعبيرات خوف الخراف والماعز من راعيها ، فأصابني الذهول والخوف وهمست في أذن عبد السميع الطوبجي الذي كان يقف بجواري لأعرف ماذا فعل هذا المجند فإذا بأحد أمناء الشرطة المرافقين لهذا الضابط يجذبني من جلبابي ليفعلوا بي أكثر مما فعلوه مع المجند بعد مباركة هذا الضابط ؛ فاسخنوا جسدي بالعصي وسبوا أهلي بكل ما يمكن أن تتصوره من شتائم . بعدها قام الضابط بتحرير أورنيك جزاء (هو عبارة عن تقرير عن المخالفة التي يرتكبها المجند أو الفرد ونوع العقوبة التي سيتم توقيعها) ليتم وضعي في السجن دون أن أعلم ماذا جنيت .. فيقول العوضي بصوت تحملت نبرته بنغمات الاستياء والرفض ، وقد برزت خطوط الغضب على ملامح وجهه : سبحان المعز المذل هل نُزعت من قلوب هؤلاء الأشخاص الرحمة والإنسانية .. فيبتسم صابر ابتسامة قناعة بقضاء الله وهو يقول بصوت يقين : رغم قسوة وغلظة هذه القلوب الميتة ، التي يكثر وجودها خارج ريفنا ، فقد تعلمت على يدهم الصبر على الابتلاء وقوة الاحتمال .. ثم يصمت لحظة ويقول : سأكمل لك ما حدث معي داخل السجن ، وعلى رأي المثل القائل «الذي تخاف منه لا يأتي أحسن منه» . فبعد دخولي سجن المعسكر كان جسدي يلهبني من شدة الضرب ، ولكني لم أصرخ ولم أُظهر ألمي إلى المجندين المحبوسين الذين يقضون فترة عقوبة الحبس التي وُقعت عليهم من ضباط المعسكر . وبعد ما يقرب من بضع ساعات قضيتها داخل هذه الحجرة ، لم استطع تذكر شيء منها سوى الألم الذي كان يلتهم جسدي ، فإذا بمجند مسجون يسكب جاز على نفسه ويشعل بها النار .. فيقول العوضي بصوت هامس شغوف وقد توقفت جميع حواسه لتعرف ماذا حدث : وماذا حدث بعدها ؟ .. فيكمل صابر كلامه : عندما أشعل المجند النار في نفسه ، الذي علمت فيما بعد أنه يُدعى عبد الرزاق ، كان يجري وقد تحول إلى كتلة نار ، فتوجهت نحوه بصورة تلقائية وأنا أنزع البطاطين من على فراش

المجندين وألقيها على جسده واحدة تلو الأخرى حتى استطعت أن أطفأ النار . ومع استغاثة العساكر تم استدعاء الضابط النوبتجي في هذا اليوم ، وكان يُدعى النقيب محمود الكومي ، الذي أسرع بإحضار سيارة إسعاف ونقل عبد الرزاق إلى أقرب مستشفى حيث تم حجزه هناك .. فيقول العوضي بصوت علت حدته وقد أكل الشغف ملامحه : وماذا حدث بعد ذلك ؟ .. فيكمل صابر كلامه بصوت تفاخر واعتزاز بما فعله : بعد ما يقرب من ساعتين وجدت رقيب السجن يفتح الباب ويقول بصوت اشمئزاز : المجند محمد فتحي والمجند علي عبد المتعال والمجند شاكر منصور والمجند صابر عطية مطلوبين عند النقيب محمود الكومي في أقل من خمسة دقائق ارتدوا الملابس العسكرية وانتظموا في طابور أمام الزنزانة «حجرة السجن».. فرفعت يدي وأنا أقول : يا حضرة المساعد «الصول باللغة العامية» أنا لم استلم ملابس عسكرية .. وقبل أن اتفوه بأية كلمة أخرى تحولت ملامح هذا الشخص إلى ملامح ذئب كاسر وهو يتوجه نحوي ويلطمني على وجهي وهو يقول بصوت فظ : هل أذنت لك بالكلام يا ابن «شتائم وسباب بأبشع الألفاظ».. عندئذ لم أستطع التغلب على غضبي فأمسكت بيده ودفعته بعيداً عني ليسقط على الأرض ، وأنا أقول بصوت حاد يكاد يكون قد أسمع جميع من في المعسكر : لا تسب أمي . سأقتلك لو قذفت أمي بأي كلام جارح .. فلما شهد المجندون الرقيب يسقط على الأرض حدث هياج وصياح استمر لبضع دقائق حتى حضر النقيب محمود الكومي ومعه عدد من مجندي أمن المعسكر يحملون العصي والدروع واسخنونا ضربًا حتى كاد أن يُغشى علي من شدة الألم . بعدها تم وضع القيود الحديدية في أيدي الجنود التي أشار عليها الضابط وبدأ الضابط في استدعائنا كل واحد على حدى ليتم سؤاله عما حدث .. وعندما توقف صابر بضع ثوان ليلتقط أنفاسه تنهد العوضي نفس عميق وهو يقول : أكمل يا ابن عمي شوقتني لمعرفة ما حدث لك في تلك الليلة .. فيكمل صابر حديثه قائلاً : عندما جاء دوري ، واصطحبني مجندي الأمن إلى مكتب الضابط كان الخوف قد تملك كل أحاسيسي ودقات قلبي تكاد تمزق طبلة إذني. تقدمت نحو الضابط ووقفت أمامه وهو جالس على أريكة ويضع قدمه على

منضطدة صغيرة ، وكان هناك مجندان من الأمن يقفان إحدهما على يميني والآخر على يساري . وعندما سألني الضابط بأسلوب هادئ : أنت من عساكر الدفعة الجديدة؟ .. فقلت له بصوت تقطعت حروفه من شدة الاضطراب: نعم وهذه أول ليلة لي في الجيش .. فيقول الضابط : اسمك وسنك وبلدك ؟ .. فقلت بصوت مرتعش : صابر عطية أبو عساكر . عمري ٢٠ سنة . من قرية دماص مركز ميت غمر محافظة الدقهلية .. فيقول الضابط بصوت أحتدت نبرته ، وقد بدأت ملامحه في رسم موجات من الغضب : المجند الذي يظن أنه يستطيع فرض سيطرته وإجرامه هنا سوف يقضي باقي عمره في السجن . ثم أشار إلى المجندين الواقفين خلفي لينهالا علي باللطم على القفا بصورة متتالية ، وهم يصرخون بصوت فظ حاد وكأنهم ذئاب تكالبوا على ماعز : انظر أمامك . قف ثابت .. وبعد بضع دقائق من الضرب التكراري على القفا لم يتفوه الضابط بأية كلمة وهو ينظرني نظرة تأملية صماء ، حتى قال بصوت هادئ ، وكأن شيئاً لم يحدث بعدما أشار إليهما بالتوقف عن ضربي : قص علي ما حدث مع عبد الرازق .. فنظرت إليه نظرة مقهورة وقد ابتلت ملامحي بعرق الظلم ، وقلت بصوت ذرفت نبرته صرخات صامتة : اليوم عندما جئنا من منطقة التجنيد لم أعلم ماذا فعلت حتى يتم سجني .. فيستوقفني الضابط وهو يشير بيده إلى هذين المجندين وهو يصيح بصوت عال قائلاً : من أنت أيها الحيوان حتى تعلمنا أداء عملنا .. وعقب انتهاء الضابط من جملته قاما هذان الجنديان بتكرار ضربي بصورة وحشية على القفا وهما يصيحان بنفس الأسلوب بعد كل لطمة على القفا : قف ثابت . انظر أمامك .. وبعد بضع دقائق من الضرب المستمر قال الضابط بصوت هادئ ونظرة ناعمة وكأنه يستمع ويشاهد أغنية حب بعدما أمرهما بالتوقف عن ضربي : هل تذكرت الآن يا صابر ما الذي حدث مع عبد الرزاق ؟ .. فنظرت إليه نظرة مرتعشة وقلت بصوت مرتجف : خلال البضع ساعات التي قضيتها في السجن قبل الحادث لم أتحدث مع أحد . وبينما كنت جالسًا على فراشي شهدت الشخص الذي يُدعى عبد الرزاق وهو يشعل في نفسه النيران فأمسكت بالبطاطين الموضوعة على فراش العساكر وألقيتها على جسده حتى

انطفأت النار .. فيقول الضابـط وفي عينيه تعبيرات ثناء وإعجاب : أنت رجل يا صابر وأنا معجب بقوة تحملك . هل تعرف القراءة والكتابة؟.. فقلت له : نعم فقد تركت المدرسة بعد رسوبي في الشهادة الابتدائية .. فيضحك الضابط وهو يقول: يعني تعرف توقع على المحضر ولن تبصم مثل باقي زملائك . وقع على هذا المحضر وفي الصباح الباكر سأُنهي مسألة الجزاء الموقع عليك وستخرج من السجن.. فقلت له بصوت خرج من لساني وقلبي غير راض عنه وأنا أتجنب النظر إليه: شكراً يا باشا.. فسألني : ما هي مهنتك يا صابر ؟ .. فقلت له : أنا فلاح أزرع أرضنا .. فقال : لا يوجد في الخدمة العسكرية أرض تزرعها يا صابر . سأضع اسمك مع المجندين الذين سيتم تعليمهم قيادة السيارات وستعمل سائقًا . انصراف يا صابر . اصطحبه يا عريف محمد واحضره لي في الصباح .. فخرجت من مكتب الضابط ولم يتعرض لي أحد طوال تلك الليلة التي مرت علي وكأنها كابوس، ولم استطع النوم من شدة فزعي ودهشتي من تصرف هؤلاء البشر ؛ الضابط الذي لم يرحم ، والمجندين الذين يتلذذون بتعذيب وإهانة زملائهم .. فقال العوضي مستفهماً وهو ينظره بعيون صامتة وقلب دامع : ماذا حدث بعدها ؟ .. فيبتسم صابر ابتسامة قناعة وهو يقول بصوت تبلورت في نبرته نغمات تسامح مع النفس : في اليوم التالي خرجت من السجن ورفع الضابط عني الجزاء وتم إلحاقي بمركز تدريب السائقين بالأمن المركزي، وهناك بدأت الأيام تتوالى وتعلمت قيادة سيارات الشرطة بجميع أنواعها، وتم توزيعي بعدها للعمل بإدارة مركبات الأمن المركزي بالدراسة ، ومرت الأيام بحلوها ومرها حتى جاءت الصدفة التي جعلتني أعمل مع العقيد محمد عبد القادر الشخص الخلوق طيب القلب .. فيبتسم العوضي وهو يقول : قصتك هذه أجمل من قصص أبو زيد الهلالي التي يتغنى بها الشيخ علي أبو دراع في المولد . لقد طال سهرنا وسنستيقظ في الفجر هيا نخلد إلى النوم يا ابن عمي .. بعدها يتجه صابر إلى فراشه وقد ألقى بهمومه وأحزانه وراء ظهره ، وترك أمره إلى الله ﷻ فهو على يقين أن الله عادل يوزع الرزق على عباده بقدر ليذهب في نوم عميق غير مبالي بقسوة الظروف التي دفعته للعبودية المقنعة في صورة الخدمة العسكرية ..

وهكذا تمضي الأيام في قرى الريف المصري الذي أصبح سكانه في مواجهة مهب رياح نسيان الدولة لهم وأمواج التغيرات الثقافية والحضارية المحلية والأقليمية والعالمية ، والتي بدأت في التتابع واحدة تلو الأخرى لتحدث زلزلة في التركيبة السكانية للريف المصري ، وتمد وتجزر في الشخصية الريفية البسيطة فتهدم قيمها وعاداتها التي تجذرت وتبلورت بداخلها خلال قرون عديدة .

وتمر الأيام وتدفع الشهور بعضها البعض ويتم زفاف صابر إلى سعيدة وتزف عبير إلى بركات صيام ، ويتزوج العوضي من سعدية شعيب ابنة بهانة زوجة المرحوم السيد الغريب ويسافر إلى العراق ليعمل في مدينة بغداد ضمن الألوف من العمال المصريين الذين دفعتهم ظروف الفقر والحاجة إلى ضروريات الحياة ليتنازلوا عما تبقى لهم من كرامة إنسانية ويقبلوا العبودية مدفوعة الأجر . وتأتي فترة الرديف في تجنيد صابر (الثلاثة الأشهر الأخيرة في فترة التجنيد الإجباري[1]) ، ويبدأ صابر في تجهيز أوراقه حتى يحصل على شهادة أداء الخدمة العسكرية .. وفي عشية اليوم السابق على أجازته الشهرية ، كان صابر معين رقيب نوبتجي توزيع طعام العشاء على سرية السائقين ، حيث حدث شجار بين اثنين من المجندين بسبب أسبقية الوقوف في الصف للحصول على التعيين ليتم على أثرها عرضهم على النقيب عوني

---

(١) التجنيد الإجباري في مصر والذي ينظمه القانون رقم ١٢٧ لسنة ١٩٨٠م الذي حل محل القانون ٥٠٥ لسنة ١٩٥٥م قد حدد مدة التجنيد على أساس المؤهل الدراسي الحاصل عليه المطلوب للتجنيد حيث يقضي المجند الحاصل على مؤهل عالي "جامعي" فترة سنة وثلاثة أشهر والمجند الحاصل على مؤهل فوق متوسط "دراسة في معهد لمدة سنتين بعد الثانوية العامة أو خمس سنوات بعد الإعدادية " لمدة واحد وعشرين شهرًا ، والمجند الحاصل على مؤهل متوسط " الثانوية العامة أو ما يعادلها من دبلومات فنية وتجارية وزراعية " لمدة سنتين وثلاثة أشهر ، والمجند الذي لم يحصل على أي مؤهل يتم تجنيده لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر (يُطلق على هؤلاء المجندين لقب عادة وهم المجندين الحاصلين على شهادة إتمام التعليم الإلزامي أو الذين لم يحصلوا على أي قسط من التعليم . والفئة الأخيرة هي التي يتم تجنيدها في وزارة الداخلية) هذا كله بعد استيفاء شروط اللياقة الطبية وعدم انطباق أحد البنود الواردة في المادة السابعة من الباب الأول الواردة في القانون، والتي تعفي من إداء الخدمة الوطنية .

إسماعيل ضابط نوبتجي المعسكر والذي يشغل منصب قائد سرية الحملة (الحملة تعني المركبات بجميع أنواعها) بالمعسكر .. وبمجرد دخول صابر ومعه المجندان المتشاجران إلى المكتب نظره النقيب عوني نظرة رافضة وقال بصوت حدة حمل نبرة غضب : ما الذي حدث يا صابر ؟ ما المشكلة التي جئتني بها .. فينظره صابر نظرة منضبطة ويقص عليه ما حدث ؟ .. فتزداد نظرة النقيب عوني شراسة وهو ينظر تجاه المجندين ليمسك العصا ويتوجه نحوهما ويضربهما بصورة وحشية لبضع دقائق حتى يتوقف ويقول موجهاً كلامه إلى صابر بصوت اشمئزاز وتعبيرات الغضب تأكل ملامحه : خذ العصا وأكمل الضرب .. فينظر إليه صابر نظرة صامتة رافضة وهو يقول بصوت منضبط : آسف يا سعادة باشا . لن أضرب زملائي .. فينظر إليه النقيب عوني نظرة تأملية شرسة وهو يتحسس أذنه ويقول بصوت جهوري : أعد ما قلته يا عسكري .. فيقول صابر بصوت هادئ منضبط : يا معالي الباشا . لو سعادتك شايف أنهما أخطئا عاقبهما . لكن أنا لن أضرب زملائي .. فتزداد نظرة النقيب عوني شراسة ويرتسم على وجهه تعبيرات عدوانية جعلته أشبه بالنمر عندما ينقض على فريسته ليقول بصوت جهوري حاد : وحياة أمك لأجعلك تندم على اليوم الذي جئت فيه إلى الدنيا .. ثم ينادي على المجند المخصص لخدمته ويأمره باصطحاب المجندين المتشاجرين إلى أمين الشرطة المعين نوتجي السجن ليودعهما هناك . بعدها يتوجه نحو صابر وهو ممسك بيده العصا وتعبيرات وجهه تكاد تنفجر من الغضب ؛ فكيف يتجرأ مجند على عدم تنفيذ أوامره ، ويبدأ في ضربه بصورة وحشية انتقامية وهو يقول : هل تعتقد يا ابن «أبشع أنواع السب في حق الأم» أن العميد محمد عبد القادر سيحميك . سأحاكمك عسكرياً بتهمة التمرد وإثارة المجندين وسأجعلك تقضي أحلى سنوات عمرك في السجن.. فيمسك صابر العصا وينزعها ويلقي بها على الأرض هو يقول : ربنا موجود وقادر على كل شيء.. فيزداد غضب النقيب عوني ويمسك بتلابيب ملابس صابر ويوجه له اللطمات واللكمات والركلات العنيفة ليفقد الوعي وتسيل الدماء من وجهه حتى تحجب

ملامحه .. وبعد بضع ساعات من فقدان الوعي وجد صابر يده مقيدة بقيد حديدي ومربوطة بسرير بعنبر الجراحة بمستشفى الأمن المركزي . وحتى استعاد ذكراته واسترجع ما حدث له وجد ثابت أبو إسماعيل أحد المجندين التابعين لسرية الخدمات يقف بجواره وهو ينظره نظرة حسرة قائلاً له : حمداً لله على سلامتك يا صابر .. فيتحسس صابر رأسه فيجدها مربوطة فيسأل ثابت بصوت واهن متقطع وهو ينظره بنظرة مقهورة : ما الذي حدث لي ؟ هل شُجت رأسي ؟ .. فيقول ثابت بلهجته الصعيدية بصوت مطمئن : الحمد لله . أنت بخير كل ما هنالك بعض الجروح والكدمات التي تم تضميدها .. فينظر صابر إلى يده المقيدة في السرير ويقول بصوت واهن متعجب : لماذا تقيدون يدي ؟! .. فينظر إليه ثابت نظرة حسرة وهو يقول بصوت استحياء : آسف يا أخي . فأنا هنا مكلف بحراستك بعدما وضعك النقيب عوني إسماعيل تحت التحفظ تمهيداً لمحاكمتك عسكرياً .. فيصيح صابر بصوت ألم وتعبيرات وجهه تصرخ من القهر والظلم : لماذا ! ماذا فعلت ؟ هل هذا هو جزاء رفضي بأن أكون عصا أقهر بها المجندين البسطاء . حسبي الله هو نعم الوكيل .. فيقول ثابت بصوت تعاطف : بكل تأكيد النقيب عوني فعل معك ذلك نكاية في العميد محمد عبد القادر . ثم يقول بصوت حسرة : على رأي المثل «اللي ما يقدرش على الحمار يتشطر على البردعة » ؛ فقد كانت العلاقة بينهما غير طيبة وكان العميد محمد عبد القادر دائماً ما يعنفه ، ولولا صلة قرابة النقيب عوني بأحد مساعدي الوزير لنقله العميد من المعسكر .. ثم يصمت لحظة ليقول : لماذا لا تحاول الاتصال بالعميد محمد عبد القادر فهو بالتأكيد يستطيع إخراجك من هذا المأزق .. فيصيح صابر بصوت واهن متقطع : أرجوك يا ثابت خذ محفظتي وإخرج منها رقم تليفون محمد بك واتصل بزوجته ، واخبرها بما حدث لعلها تستطيع الاتصال به في البلد الموجود به . فأنا على يقين أنه سيتصل بالعميد محمود البنا ؛ فقبل سفره الشهر

الماضي في مأموريته العلمية ليحصل على الدكتوراة[1] قال لي لو احتجت شيء اتصل بزوجتي . ولو تكمل جميلك هناك نمرة الشيخ علي الرواي بقرية دماص اتصل به واخبره أنني خرجت في مأمورية ولن أعود باكرًا .. ثم يتحشرج صوته من شدة الحسرة وهو يقول : أنا لم أفعل شيء .. فيقول ثابت بصوت تعاطف : في الصباح الباكر سيتم تغير خدمة الحراسة عليك فهذا ميعاد نزول دفعة الإجازات وأنا بها . سأذهب بنفسي إلى منزل محمد بِك وأخبر زوجته بما حدث وإن كان هناك تليفون خاص به في الدولة الموجود بها سأخذه منها لعلي استطيع الاتصال به .. ثم يصمت للحظة ويقول بصوت غلفه الإحراج والخجل : اعذرني فليس بيدي أن أقيدك وأنا أعلم أنك ستتفهم موقفي ؛ فالنقيب عوني أبلغ الطبيب كذباً أنك تزعمت حركة تمرد ، وأنك شخص خطر ويُخشى من هروبك لذلك وافق الطبيب على قيدك في السرير بعدما تأكد أن حالتك الصحية جيدة ومستقرة .. فيقول صابر بصوت انكسار: أنا أعلم أنك لا تملك من الأمر شيء ، وأشكرك على ما ستفعله يا أخي .. ثم تدمع عينيه وهو يقول بصوت تضرع : اللهم أنت ثقتي في كل كرب ورجائي في كل شدة .. بعدها يأتي الطبيب النوبتجي وينظر جروح وكدمات صابر ويعطيه حقنة مسكنة جعلته يذهب في نوم أراحه من شدة أوجاع الظلم الذي أبتُلي به .

وفي صباح اليوم التالي استيقظ صابر ليجد أمامه الرائد عماد منيب رئيس قسم الأمن بالمعسكر يقف مع الرائد طبيب وائل عكاشة رئيس قسم الجراحة بالمستشفى يتحدثان بصوت منخفض أمام باب العنبر ؛ فيحاول النهوض والتوجه نحوهما فيعوقه القيد الحديدي فينادي على الرائد عماد منيب بصوت استغاثة مكلوم :

---

(١) منذ صدور القانون المنشئ لأكاديمية الشرطة في عام ١٩٧٥م يتم بصورة دورية إرسال الضباط الحاصلين على درجة الماجستير في القانون والشرطة والمقيدين كطلاب للحصول على درجة الدكتوراة في بعثات علمية ترسلها وزارة الداخلية لعدة أشهر في العديد من الدول الأوربية والأمريكية لتجميع المادة العلمية لرسائل الدكتوراة من الجامعات العالمية في دول أوربا وأمريكا . وقد كان لي شرف الحصول على بعثة دراسية إلى جامعة السربون في فرنسا للحصول على درجة الدكتوراة في الحقوق عام ١٩٩٩م .

يا عماد بِك . أنا مظلوم . أنا بريء . ارجوك انجدني .. فيتقدم نحوه الرائد عماد منيب وهو ينظره نظرة تأملية ليقول : اهدئ يا صابر وإن شاء الله لو كنت مظلوم سوف تنكشف الحقيقة. أجلس وأجب عن الأسئلة التي سأطرحها عليك .. فينظر إليه صابر نظرة تلونت خيوطها باليأس والظلم ليقول: حسبي الله هو نعم الوكيل . الله موجود ﷻ يرى ما لا يستطيع المخلوق رؤيته.. فينظر إليه الرائد عماد نظرة صامتة ويبدأ في فتح محضر التحقيق ليوجه إليه سؤاله عن سبب تعديه بالقول على النقيب عوني إسماعيل وإحداث هياج داخل مكتبه، وتعمد إحداث إصابة نفسه والشروع في تحريض المجندين على الهياج والتمرد.. فيقول صابر بصوت تضرع ودعاء: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝ ﴾ . يا عماد بِك أنت تعلم أن هذا لم يحدث . ثم يقص عليه ما حدث بدون إضافة أو نقصان .. فيكتب الرائد عماد ما قاله صابر حتى ما انتهى من إجابته قال له بصوت حملت نبرته نغمة النصح والإرشاد : هل تريد أن ننهي هذه المسألة وتتجنب المحاكمة العسكرية ؟ .. فيقول صابر بصورة تلقائية وبصوت استغاثة : أرجوك يا باشا خلصني من هذه المصيبة فأنا بريء .. فيقول الرائد عماد : سأصطحبك بعد خروجك من المستشفى إلى النقيب عوني لتعتذر له وتستسمحه أن يعفو عنك وأنا سأشفع لك عنده .. فينظر إليه صابر نظرة تأملية مستضعفة لبضع ثوان ويقول بصوت مغلول من شدة ما يشعر به من قهر وظلم مكبل بالضعف وقلة الحيلة : يا عماد بِك . لقد فوضت أمري لله هو أعلم بحالي وهو خير الناصرين. سأفعل كل ما تنصحني به .. فتزداد نظرة الرائد عماد لمعة وتعجب وهو يتأمل ما يقوله صابر ؛ فكيف لشخص أمي أن يتحدث بهذه البلاغة والفصاحة ، فيقول له بصوت غلفه الاستفهام الممزوج بالإعجاب: لم ألحظ فصحة لسانك من قبل . هل تعلمت في المدارس الأزهرية ؟ .. فيقول صابر : الحمد لله أن وهبني نعمة حفظ بعض آيات القرآن الكريم ، والفضل لله ثم للشيخ علي الراعي شيخ مسجد قريتنا الذي كان يتبرع بوقته وجهده لتحفيظ أطفال القرية القرآن . لقد درست حتى السنة النهائية من المرحلة الابتدائية ، والحمد لله فقد خرجت من الدراسة حتى أساعد أبي

في فلاحة الأرض .. فيبتسم الرائد عماد ابتسامة إعجاب وهو يقول : إن شاء الله تنتهي المسألة على خير . وقع على أقوالك بالمحضر يا صابر .. فينظر إليه صابر نظرة خنوع ويمسك بالقلم ويوقع على كل ورقة بالمحضر لينصرف بعدها الرائد عماد خارج المستشفى ، ليظل صابر طوال هذا اليوم مقيد في السرير يفكر في حال زوجته سعيدة ومولوده الذي ينتظره في القريب العاجل ووالديه وأخواته وكيف سيكون حالهما لو دخل السجن ؛ فلم يتبق له من فترة التجنيد الإجباري سوى شهرين ، فيدعو الله أن ينجيه من هذا الكرب .

وفي صباح اليوم التالي عاد صابر إلى المعسكر ليتم وضعه في السجن لحين الانتهاء من التحقيق معه ، والنظر في أمر إحالته إلى المحكمة العسكرية . وبينما كان صابر يجلس مع همومه داخل سجن المعسكر استدعاه الرائد عماد منيب إلى مكتبه . وعندما دخل إلى المكتب كان الرائد عماد قد أنهى مكالمة تليفونية مع زوجة العميد محمد عبد القادر حيث أبلغته رسالة شفوية بأن زوجها يرسل له السلام ويتمنى عليه أن ينهي مسألة صابر . وبعد أداء التحية العسكرية يأمر الرائد عماد الحرس بالانصراف ثم يقول بصوت آمر ناصح : سنذهب إلى مكتب النقيب عوني لتقدم اعتذارك له . لقد أوصتني حرم العميد محمد عبد القادر بإنهاء الموضوع وقد تدخلت شخصياً وجعلت النقيب عوني يقبل الاعتذار حتى لا تحاكم عسكرياً .. فينظره صابر نظرة مستضعفة قائلاً بصوت خانع : ربنا يعطيك الخير يا معالي الباشا.. بعدها يصطحبه إلى مكتب النقيب عوني ، وبمجرد وصولهما إلى المكتب قام الحرس بعد أداء التحية العسكرية بالانصراف ليخيم على المكان الصمت لبضع لحظات كان النقيب عوني ينظر خلالها إلى صابر نظرات حانقة كارهة رسمت على وجهه الغضب والبغض ، بينما قابل صابر تلك النظرات بعيون صامتة وقلب ملتهب ، حتى قال الرائد عماد موجهاً كلامه إلى صابر : أشكر عوني بِك لأنه تفضل وغير التهم المنسوبة إليك حتى لا تحال للمحكمة العسكرية .. فيقول صابر بصوت مكسور وهو ينظر إليه نظرة صماء وقلبه يصرخ من شدة الظلم ؛ فبعد أن أهدر النقيب عوني كرامته وجرح أدميته فهو مخير بين تجرع الظلم والاعتـذار لمن ظلمه ،

أو دخول السجن وتحطيم قلب زوجته ووالديه وحرمانه من رؤية مولوده الذي ينتظره بكل حواسه : أنا لم أقصد ما فعلت يا باشا والله غفور رحيم .. فينظر عوني إليه نظرة شرسة وهو يقول بصوت شماتة : لولا وساطة عماد باشا لزججت بك في السجن لسنوات . احترم نفسك واقضي ما تبقى لك من تجنيد بدون مشاكل . أنت مهما كنت مجند فلاح ليس لك أية قيمة في المجتمع .. فيستمر صابر في النظر إليه نظرة صماء ومشاعره الملتهبة تكاد تقتله من شدة الحسرة والألم ، ولم ينطق بأية كلمة حتى قال له الرائد عماد : وقع على المحضر بعد التعديل .. فاتجه صابر بصورة عفوية ووقع على المحضر ليتم بعدها عرضه على قائد المعسكر الذي وقع عليه جزاء الحبس لمدة أسبوع كعقاب على التحدث بطريقة غير لائقة مع ضابطه الأعلى حسبما كُتب في المذكرة التي حررها النقيب عوني ، ليمضي أسبوع السجن على صابر وكأنه دهر ؛ حيث لم تفارق مخيلته ما تعرض له من ضرب وسب ، فكيف يكون مجني عليه ويحكم عليه بالسجن . ولكونه إنسان ما زال يمتلك قلب عطر وروح ذكية فقد فوض أمره إلى ربه فتسامح مع نفسه وتغلب على ما في قلبه من حقد وكراهية .

وبعد خروجه من سجن المعسكر وحصوله على أجازته الشهرية توجه مباشرة إلى منزل العميد محمد عبد القادر الكائن بحي المعادي ليطمئن على الأسرة ويشكرهم على ما فعلوه معه ، بعدها يتوجه عائداً إلى قريته .. ومع غروب الشمس كان صابر قد وصل إلى مدخل القرية ليعبر الكوبري ويتجه نحو دارهم التي تبعد مسافة بضع مئات من الأمتار . وبينما كان صابر مترجلاً نحو الدار شاهد حسان الطوبجي والد عبد السميع وهو يعبر الكوبري مصطحباً بهائمه عائداً إلى داره فتوجه نحوه وهو ينظره نظرة مودة ممزوجة بشفقة قائلاً : كيف حالك يا عم حسان وكيف حال الخالة ستيته .. فينظره حسان الطوبجي[1] نظرة مودة صادقة ويقول

(١) الفلاح البسيط ذات الخمسة وخمسون عامًا الذي يمتلك بضعة قراريط من أراضي الإصلاح الزراعي ويرتبط بالأرض مثل ملايين الفلاحين نظرائه في قرى الريف المصري الذين لم يهجروا عادات وتقاليد الريف القديمة التي توارثها الفلاح المصري عبر قرون عديدة .

بصوت ترحاب : حمداً لله على سلامتك يا ولدي . كيف حالك في الجيش ؟ .. فينظر إليه صابر نظرة صامتة أخفت ورائها شعور القهر والانكسار ويقول : الحمد لله يا عم حسان . كل شيء على ما يرام .. فتدمع عيني حسان ويقول بصوت غلفه الشوق والحنين : كم افتقد صديقك يا ولدي . الله يرحمه ويسكنه فسيح جناته .. فيرتسم على ملامح صابر تعبيرات أسى وحزن عندما يتذكر صديقه الصدوق ، الذي توفى أثر انقلاب سيارة شرطة في أحد المأموريات التي قامت بها قوات الأمن المركزي بطريق «الكونتيلا – النقب» لحشد قواتها هناك بعد استلام المواقع الحدودية من القوات الإسرائيلية وفقاً لمعاهدة كامب ديفيد، ليقول بصوت حزين: الله يرحمه يا عم حسان ويجعل مثواه الجنة ؛ فقد مات شهيداً وفي المكان الذي استشهد عنده شقيقك علي الطوبجي وفاروق ابن الحاج حامد أبو الغريب . لقد أكرمه الله بالشهادة.. فيمسح حسان الطوبجي دموعه العالقة بعينيه وهو يقول بصوت مشروخ: ربنا يحفظك يا ولدي .. فيقول صابر : كيف حال صالح ؟ .. فتزداد تعبيرات حسان آسى وحزن وهو يقول : منذ سفره إلى العراق منذ أكثر عام لم يرسل لنا سوى خطابين كان آخرها من ثلاثة أشهر .. فيقول صابر : إن شاء الله يصلك منه خطاب. هل تريد أن أساعدك في شيء.. فيقول حسان: أشكرك يا ولدي.. فيشكره صابر وهو يدعو له بدوام الصحة وراحة البال ليفترقا بعدها ويسلك كل منهما الطريـق إلى داره ... وخلال المسافة إلى داره ظل صابر يفكر في صديقه عبد السميع الذي ضحى بحياته في التجنيد الإجباري ، وكل ما حصل عليه أهله من تعويض كان بضعة مئات من الجنيهات ومعاش شهري لم يتجاوز بضع عشرات من الجنيهات ، وتذكر ما قاله النقيب عوني فلاح معدم ليس لك أية قيمة في المجتمع ، فتبدأ نفسيته في الانكسار ، ويتولد لديه فكرة ترك عمل الفلاحة واحتراف مهنة قيادة التنيارات التي أصبح يجيدها بصورة احترافية .

ومع وصول صابر إلى البيت ، كانت صفية جالسة في صحن الدار ممسكة بصنية مملوءة بالأرز تنقيه من الشوائب العالقة وتعبيرات وجهها الصامتة التي تحمل قهر الزمان كأنها تُسبح بحمد خالقها . فيتقدم نحوها ليقبلها وهو يقول لها بصوت

لهفة وشوق : كيف حالك يا أمي . افتقدتك كثيراً .. فتنهض صفية لتحتضنه وهي تقول بصوت غلفه صياح الفرحة: حمد لله على سلامتك يا صابر . تأخرت يا ولدي. لقد كان أبوك سيسافر في الصباح إلى معسكرك في القاهرة ليستعلم عنك .. فيقول صابر بصوت استفهام بعدما قبل يد أمه : ألم يتصل ثابت زميلي بالشيخ علي ؟ .. فتقول صفية : نعم اتصل زميل لك وأبلغه بذلك . لكننا كنا قلقين يا ولدي. حمدًا لله على رجوعك سالماً. ثم تتجه نحو حجرة سعيدة وتصيح بصوت حاد: تعالي يا سعيدة زوجك عاد من الجيش وتطلق زغرودة قوية .. وفي خلال بضع ثوان كانت سعيدة قد هرولت من حجرتها نحو صوت صفية لتقف صامتة لبضع ثوان يتبادل خلالها الزوجان النظرات الحانية العاشقة ثم يتقدما بخطوات هادئة حالمة لترتمي سعيدة في أحضان زوجها باكية بكاء فرحة عودته سالماً ، وهي تقول : حمدًا لله على سلامتك يا صابر لقد كنا قلقين عليك .. فيقبل صابر رأسها ويقول : افتقدتك يا سعيدة . كيف حالك وكيف حال الحمل ؟ .. فتبتسم سعيدة وهي تمسح دموع فرحتها وتقول بصوت تملكت نبرته الفرحة : الحمد لله فأمي وخالتي صفية يقولا أني قاربت على الوضع ؛ فالحمل في بداية الشهر الثامن .. فيبتسم صابر ابتسامة حالمة رسمت على ملامحه المقهورة خطوط أمل وهو يقول : ربنا يبارك لنا في المولود ويجعله ولدًا صالحًا .. ثم يصمت للحظات ليقول بصوت لهفة : أين أبي وعمي وخالتي فاطمة والأولاد ؟ .. فتقول صفية بصوت غلفه الضيق : لقد ذهب أبيك وعمك وخالتك فاطمة إلى دار السيد الغريب حتى يأتوا بسعدية .. فيقول صابر بصوت استفهام وعلى وجهه تعبيرات استنكار : لماذا تركت سعدية الدار ؟ فقد شدد العوضي قبل سفره إلى العراق على بقائها في دار أبو عساكر .. فتقول صفية بصوت حملت نبرته نغمات استهجان : منذ سفر ابن عمك وهي تتعمد افتعال المشاكل مع خالتك فاطمة ومع سعيدة ، وحتى مع فرحانة وباسمة ؛ فلم يسلم أحد من الصدام الذي تفتعله كل يوم .. فيقول صابر بصوت تملكه الحنقة وقد ارتسمت على وجهه تعبيرات رافضة : سبحان الله لقد ترك العوضي داره وأهله من أجل أن

يرضيها ويأتي بالأموال ، وفي النهاية تخرج عن طوعه ولا تنفذ وصيته .. فتقول سعيدة : أنها متمردة ومحبة للمال مثل أمها ، ولم نكن نحبذ تلك الزيجة لولا إصرار العوضي .. فيقول صابر بصوت استنكار : لا تغتابي أحد يا سعيدة . ربنا يهدي النفوس ويصلح الحال إن شاء الله .. ثم يصمت للحظات ليقول : أين أحمد ومحمد وخالد ؟ .. فتقول سعيدة : محمد وخالد ذهبا معهم .. ثم تصمت للحظات وترتسم على وجهها ملامح حزن وتقول : أحمد اشتد عليه المرض الأسبوع الماضي وكان ينزف بكثرة ، وبفضل الله ثم الشيخ علي والحاج محمد العناني تم إيجاد سرير بمستشفى ميت غمر العام ، والأطباء سيقومون بإجراء عملية جراحية له بعد استقرار حالته .. فتتبدل ملامح صابر وتعلو جبهته تعبيرات ألم ويقول بصوت حزين : اللهم اعفيه واعف عنه وارحمه يا ارحم الراحمين .. فتبكي صفية وهي تقول بصوت مكلوم متحشرج والدموع تسيل على وجنتيها : ربنا يشفيك يا ولدي لقد تألم كثيراً . والله لولا ضيق ذات اليد لأدخلناه أحسن مستشفى في مصر . الحمد لله على كل شيء .. فيتجه صابر نحو أمه ويمسك يديها ويقبلها وهو يقول بصوت قناعة ورضاء بما قدره الله : إن شاء الله يا أمي سيطيب أحمد وكل ألم تعرض له سيكون في ميزان حسناته . سأذهب لأستحم من عناء السفر حتى تُجهز سعيدة الطعام ويعود أبي وعمي لنأكل سوياً . فأنا جائع جداً ، ولم أكل منذ الصباح .. فتهم سعيدة تسخن له المياة وتجهز له الملابس النظيفة والحمام ليحصل صابر على حمام دافء يزيل ما علق بجسده من أوساخ خلال يومه الطويل الذي سبقه أيام في سجن المعسكر لم يحصل خلالها على حمام دافء .

وعندما انتهت صفية وسعيدة من تجهيز طعام فلاحي (الجبنة القريش – القشطة – الخبز المرحرح – والطماطم والخيار والبصل والجرجير) على طاولة طعام الدار «طبلية باللغة العامية » كان صابر قد حصل على حمام دافء ، وجلس في صحن الدار ينتظر حضور الغائبين .. وبعد بضع دقائق من الانتظار الصامت عاد الغائبون إلى الدار ليجدوا صابر أمامهم يستقبلهم بفرحة وشوق فيتهافتوا على

احتضانه في لهفة وشوق وحنين ، ثم يجلسون لتناول الطعام .. وخلال تناولهم الطعام سأل صابر أبيه بصوت قلق وعلى وجهه تعبيرات حزن : ما العملية التي سيجريها أحمد ؟ .. فيترك عطية ما بيده من طعام ويقول بصوت أب مكلوم وتعبيرات الحسرة والألم تسيطر على ملامحه : الطبيب أخبرني أن مضاعفات البلهارسيا أدت إلى فساد الطحال ولابد من استئصاله .. فيقول حسن بصوت مواساة : سبحانه وتعالى قادر على كل شيء وبإذن الله سيطيب وسيكون في أحسن صحة .. فيقول عطية وتعبيرات ملامحه تتضرع إلى رب العالمين : اللهم أني فوضت إليك أمري وأنت أرحم الرحمين . سأذهب أنا وصفية بعد صلاة الظهر إلى المستشفى لنطمئن عليه .. فيقول صابر بصوت تأكيد : سأذهب معكما يا أبي .. وبعد لحظات من الصمت يقول صابر متسائلاً وهو ينظر إلى عمه : لماذا لم ترجع سعدية إلى بيتها ؟ .. فيقول حسن بصوت استنكار وتعبيرات ملامحه تكسوها الحيرة والغضب : لقد كنت غير راض عن سفر العوضي وتركه لزوجته ؛ فقد خرجت عن طوعه ، ولا تريد العيش معنا في دار مشتركة .. فيقول صابر : يا عمي المشكلة ليست في سفر العوضي المشكلة في خالتي بهانة ؛ فهي تعتقد أن العوضي يحلب الأموال في بلاد الغربة ، ولا تعلم كم العرق والجهد الذي يدفعه في مقابل هذه النقود .. فيقول عطية : عدم القناعة الذي يسيطر على الكثير منا جعلنا لا نرضى بما قسمه الله لنا ، وبركة الرزق القليل لم تعد موجودة في قلوب العباد وأصبحنا ننظر في أرزاق غيرنا .. فيقول حسن بصوت قناعة ورضاء بعدما فَرَك كفيه ليزيل ما علق بهما من طعام وقبل وجهي يمينه شكراً لله على نعمته : ربنا يصلح حال العباد ويديم علينا نعمته .. فيفعل بعدها بالتتابع كل الجالسين على الطاولة ما فعله حسن وهم يرددون كلمات الحمد والشكر لله .. وبعد تناول الطعام جلس عطية وحسن وصابر على المصطبة أمام الدار لتناول الشاي ليدور بينهما أحاديث متنوعة في شتى أمور حياتهم ليقيموا بعدها صلاة العشاء ويذهب كل واحد إلى فراشه ، ويظل صابر حتى وقت متأخر من الليل رغم الإرهاق والتعب مستيقظًا يتحسس دفء مشاعر

وأحاسيس زوجته التي ظلت تبادله أحاسيس الحب والعشق حتى ذهبا في نوم عميق يظللهما المودة والألفة والسكينة والآمان .

ومع انكسار ظهيرة شمس اليوم التالي كانت صفية قد جهزت الزاد والزواد لزيارة المريض ، وتوجهت بصحبة عطية وصابر نحو السكة الزراعية ليستقلوا سيارة أجرة حملت الركاب في صندوقها الخلفي حتى آخر سنتيمتر في الكابينة بصورة قد تكون أكثر قسوة من نقل البهائم والحيوانات . وبعد المعاناة البدنية ، التي اعتاد عليها أهل الريف خلال تنقلهم من القرى إلى المراكز والمدن ، وصلت السيارة إلى مركز ميت غمر في حوالي نصف ساعة ليهبط منها عائلة أبو عساكر حتى يستقلوا سيارة كارو تنقلهم إلى مستشفى المركز لينتظروا أمام البوابة لحين ميعاد زيارة المرضى والمخصص لها من الساعة الخامسة حتى الساعة السابعة مساءً .. ومع دخولهم إلى عنبر الباطنة بعد فتح باب الزيارة لم يجدوا أحمد على السرير المخصص له فتوجه صابر نحو الممرضة المسؤولة عن عنبر الباطنة في الطرقة المقابلة ، وبتعبيرات قلق وتوتر يقف صابر أمام طاولة التمريض ليسأل المسؤولة بصوت مرتعش : أين أحمد أبو عساكر ؟ .. فتقول الممرضة بصوت حملت نبرته المواساة : الولد تعب جداً بالأمس ونزف كثيراً وقد اضطر الدكتور لإجراء جراحة عاجلة له حتى يوقف النزيف ، وهو الآن في عنبر الجراحة تحت الملاحظة .. فيرتسم على وجه صابر ملامح ألم وهو يقول بصوت مخنوق من الحزن : هل يمكننا رؤيته ؟ .. فتقول الممرضة قبل رؤيته توجه إلى الدكتور عبد الناصر فهو يريد أهله .. فيهز صابر رأسه وهو يقول بصوت توكل : سأذهب وأخبر أبوه وأمه لنتوجه سوياً إلى الدكتور . شكراً يا سيدتي .. ثم يتوجه نحو عنبر الباطنة بخطى بطيئة مهمومة .. وبعيون زائغة مستضعفة ونظرات مكسورة من شدة الحزن يسأل كل من عطية وصفية نفس السؤال في الوقت ذاته : أين ولدي ؟ .. فيخبرهما صابر بما قالته له الممرضة .. فتدمع عيون صفية وقد ظهرت على ملامحها خطوط تكعيبية حفرتها قسوة الأيام وهي تصيح بصوت مغلول : ولدي . أحمد. يا رب خذ من كبدي وبطني وارحمه .. فيمسك صابر بيدها ويضمها إليه ويقول : اذكري الله يا أمي فهو الشافي القادر على

كل شيء .. فيقول عطية بصوت تضرع تجمعت بنبرته كل أحاسيسه المستضعفة والمتضرعة إلى ربها : فوضت أمري إليك يا رب .. فيمسك صابر بيد أبيه وبالأخرى يمسك يد أمه ليتوجهوا إلى مكتب الدكتور عبد الناصر .. وبعد وصلهم ظلوا منتظرين أمام المكتب لعدة دقائق حتى حضر الدكتور ، وما أن شاهده صابر سأله بصوت لهفة: السلام عليكم. حضرتك الدكتور عبد الناصر؟.. فينظر إليه الطبيب نظرة صامتة ويقول : ماذا تريد ؟ .. فيقول صابر : أنا أخو أحمد أبو عساكر وهذان أبوه وأمه . أخبرتنا الممرضة المسؤولة عن عنبر الباطنة أنك تريد مقابلتنا .. فيقول الطبيب بصوت استعجال وعلى وجهه تعبيرات صماء : لقد نزف أحمد كمية كبيرة بالأمس وقد اضطررت أن إجري عملية جراحة تصليبية من أجل وقف نزيف المرئ ، وعندما ستستقر حالته سأجري له عملية استئصال الطحال .. فتبكي صفية بكاء صامت والدموع تنساب على وجنتيها وهي تقول : قرة عيني يا ولدي . ربنا يرحمك من العذاب ويشفيك .. فيقول الطبيب بنفس نبرته السابقة : أنا تطوعت لإجراء العملية وسأجري له العملية الثانية . هناك بعض الأوراق التي يجب توقيعها قبل ذلك . ثم ينظر إلى عطية نظرة آمرة وهو يقول : أذهب إلى الممرضة إحسان ووقع أو أبصم على هذه الأوراق . ثم ينصرف وهو يتجنب نظرات الأم المكلومة والأب المقهور .. وبخطوات مغلولة وعيون تائهة مكلومة توجه عطية بصحبة صفية وحسن إلى الممرضة إحسان التي أعطتهم الإقرار ، الذي تضمن عدم مسئولية الطبيب في حالة حدوث الوفاة أو مضاعفات نتيجة العملية الجراحية . ليقرأه صابر ويوقع عليه عطية .. وبعدما أخذت الممرضة الإقرار نظرت إليها صفية نظرة توسلية وهي تقول بصوت باكي: هل سنرى ولدي؟ .. فتقول الممرضة بصوت أسف وعلى وجهها تعبيرات شفقة على حال الأم المكلومة : للأسف الدكتور عبد الناصر منع الزيارة عن المريض ونقله إلى غرفة العناية المركزة. يمكنكم أن تأتوا غداً.. فتزداد نظرة صفية المكلومة انكسارًا وهي تقول بصوت حزين مكسور : هل يمكن أن أراه ولو من بعيد ؟ اللهم احفظك من كل مرض وشر . ثم تمسك يدها وتنحني عليها وتقبلها بصورة عفوية .. فتنزع الممرضة يدها وتقول بصوت حزين :

لا تبكي يا خالة . تعالي معي وسأجعلك تشاهديه لبضع دقائق دون أن يلاحظك أحد .. فتحاول صفية تقبيل يدها مرة أخرى فتنزع إحسان يدها وتمسك بيد صفية وتقول : من أي مكان أنتِ يا خالة ؟ .. فيقول عطية وعلى وجهه تعبيرات شكر : نحن من قرية دماص . اللهم يعطيكي كل خير يا سيدتي ويمنع عنك المرض ويسترك في الدنيا والآخرة .. فتقول إحسان وهي تصطحب صفية نحو حجرة العناية المركزة : أنا من قرية كفر بهيدة وممكن اطمئنكم كل يوم على أحمد. الشخص الذي سيأتي إلى قريتنا يسأل على زوجي الأسطى حامد أبو المال؛ فدارنا بجوار كوبري السكة الزراعية .. فيقول صابر : جزاكي الله كل خير يا سيدتي سأحضر إلى داركم كل يوم بعد المغرب لأطمئن على أخي .. وبعد بضع دقائق ألقت خلالها صفية بنظرها على أحمد في حجرة العناية المركزة عادت بصحبة زوجها وولدها إلى دارهم بعدما واجهوا نفس المعاناة التي واجهوها خلال ذهابهم من القرية إلى المستشفى .. ويمر أسبوع ظل صابر يتردد خلاله كل يوم على قرية كفر بهيدة ليطمئن على أخيه من زوج الممرضة إحسان ، الذي كان يعمل سائق سيارة أجرة لنقل الركاب على طريق سفر القاهرة ميت غمر ونشأت بينهما مودة وإعجاب جعلته يعرض عليه العمل كسائق سيارة أجرة على طريق القاهرة ميت غمر بعدما ينتهي من أداء الخدمة العسكرية .

ومع انكسار حدة حرارة شمس اليوم السابق على عودته إلى القاهرة لينهي تأدية أخر شهر في فترة تجنيده التي جاوزت الثلاث سنوات بشهرين ، كان صابر قد جهز حقيبته وملابسه الشرطية واتجه بعدها للذهاب ليطمئن على أخيه أحمد كما اعتاد طوال الأسبوع السابق . وبينما كان صابر يهم بركوب سيارة أجرة تنقله إلى قرية كفر بهيدة فإذا به يشاهد سيارة الأسطى حامد أبو المال وهي تتجه نحو مدخل القرية فيهرول نحوه ويستوقفه بصوت مودة وترحاب قائلاً: أهلاً وسهلاً يا أبو عادل . شرفت قريتنا بالزيارة. أنا كنت ذاهب إليكم .. فيهبط حامد من السيارة وهو ينظر إليه نظرة حزينة ليقول بصوت مواساة : البقاء لله يا صابر . لقد توفى أحمد ظهر اليوم ، وجئت لآخذك لتستلم الجثمان من المستشفى.. فترتسم على ملامح صابر تعبيرات صدمة وتنساب

الدموع من عينيه ليقول بصوت متحشرج مخنوق بعد ثوان من البكاء الصامت : إنا لله وإنا إليه راجعون . اللهم ارحمه وأحسن مثواه ، وإلهمنا الصبر على البلاء يا أرحم الراحمين .. فيمسك حامد بيده ويفتح باب السيارة ويقول له : اركب . لابد أن نسرع حتى نستخرج شهادة الوفاة وندفن الجثمان قبل صلاة العشاء .. فيقول صابر والدموع ما زالت تنساب على وجنتيه : هل نذهب إلى الدار ونصطحب معنا أبي وأمي ؟ .. فيقول حامد بصوت نصح: من الأفضل أن نذهب وحدنا ولا داعي أن نثقل عليهم، والوقت ليس في صالحنا.. فيهز صابر رأسه وهو يركب السيارة ويقول بصوت إيجاب حزين : هيا بنا .. لينطلق بعدها حامد بالسيارة بسرعة نحو المستشفى ليتم إنهاء إجراءات استلام الجثمان واستخراج شهادة الوفاة قبل غروب الشمس ليرجعا بعدها إلى قرية دماص ويتوجها إلى دار أبو عساكر حتى يلقي الأهل النظرة الأخيرة على أحمد قبل أن يواري جثمانه الثرى .. ورغم المرض العضال الذي ظل يأكل جثمان أحمد وأوصله إلى حالة مرضية ميؤوس من شفائها طبياً فقد كانت صفية وعطية متمسكان بأمل الشفاء من عند الله ، ولكنهما رغم ذلك ورغم حزنهما الشديد على فراق فلذة كبدهما فقد استقبلا الخبر بقلب مؤمن واحتسباه عند الله سبحانه وتعالى ؛ فقسوة الظروف لم تضعف من إيمان هذه القلوب الذكية الطيبة التي انفطرت منذ نشأتها على القناعة والرضا بما قسمه الله مهما تجرعت من بؤس وشقاء وحرمان وقهر؛ فالقيم والسلوك والعادات التي توارثها الفلاح المصري عبر الأجيال أثقلت هذه القلوب بالقناعة والرضا بالمقسوم مهما واجه من قسوة إنسان أو طبيعة .

وتمر الأيام والشهور بحلوها ومرها بربيعها وخريفها وينهي صابر فترة تجنيده الإجباري التي قضاها في الأمن المركزي ، والتي رغم قسوتها وعدم إنسانيتها في كثير من الأحيان فقد أكسبته كثير من الخبرات الحياتية التي كان من المستحيل عليه اكتسابها في القرية ؛ فقد اصطدم صابر بحياة المدينة وتعايش معها ، واستطاع رغم قلة تعليمه أن يدرك ما بها من أمور معقدة ومركبة ويستوعب ما بها من لون رمادي، ولم يقهره ما بها من وجوه متقلبة وقلوب صماء بدلت المشاعر والأحاسيس بالمال والمصلحة ولفظت التقاليد والعادات المصرية التي تميز بها سكان شمال وادي

النيل على مدار سنين طويلة . وكان أهم تغيير في حياة صابر هو تركه مهنة الزراعة وامتهانه حرفة قيادة السيارات واتجاهه للعمل كسائق سيارة أجرة على طريق «القاهرة – ميت غمر»؛ فبعد ولادة ابنته أمل ، التي جاءت إلى الدنيا في يوم استلامه شهادة تأدية الخدمة العسكرية في ٢٥ يناير ١٩٨٤م ، استلم صابر عمله مع الأسطى حامد أبو المال ليحصل على مبلغ ستة جنيهات يومياً نظير عمله ذهاباً وإياباً بالسيارة الأجرة من موقف سيارات مركز ميت غمر إلى موقف سيارات الأجرة بشارع رمسيس .. وفي يوم الخميس ٣١ مايو ١٩٨٤م ، والذي كان يوافق أول أيام شهر رمضان عام ١٤٠٤هـ ، ومع وصول صابر كعادته كل يوم بعد صلاة العصر إلى كوبري دماص على السكة الزراعية وجد أحمد الحلواني[١] وسالم السكري[٢] واقفين عند مدخل القرية ، وما أن وقع بصرهما عليه نظراه بنظرة غاضبة على غير المعتاد وعندما اقترب منهما وألقى عليهما السلام لم يجيباه ، وازدادت نظراتهما الغاضبة حدة حتى قال لهم صابر بصوت تعجب حمل نبرته استفهام غاضب : السلام لله ورمضان كريم . لماذا لم تردا السلام ؟! .. فيقول أحمد الحلواني بصوت تملك نبرته الغضب : لم يعد بيننا وبينكم سلام بعد اليوم . ألم تعلم ماذا فعل العوضي ابن عمك ؟! .. فتتبدل تعبيرات ملامح الغضب التي ارتسمت على وجه صابر بملامح صدمة وهو يقول بصوت تساؤل : ماذا فعل العوضي ؟ .. فيقول أحمد الحلواني : لقد أصبح بيننا وبينكم ثأر يا أولاد أبو عساكر . لقد قتل ابن عمك

---

(١) شاب قروي لم يتجاوز عمره العشرين . يعمل في تجارة السمك مع أبوه ، ولم يحصل على أي قدر من التعليم . ذهابه إلى القاهرة ومدن الحضر بصحبة والده أحدثت بداخله خللاً في السلوك الشخصي وجعلته يتنازل عن كثير من العادات والتقاليد الطيبة التي يتمتع بها أهل القرية ؛ فأصبحت شخصيته مثل كثير من نظارئه في الريف أشبه بالمسخ .

(٢) ابن خالة أحمد الحلواني وأحد أولاد عمومة صلاح السكري . شاب في الخامسة والعشرين من عمره ترك مهنة الزراعة ، مثل كثير من أهل القرية في ذلك الوقت لعدم امتلاكهم أرض زراعية وعدم جدوى العائد المادي من العمل كأجير ، واتجه للعمل في حرفة المعمار وسافر إلى العراق وعاد بعد سنتين ومعه نقود افتتح بها مقهى على الطريق زودها بتلفزيون ملون وفيديو يعرض به الأفلام العربية والأجنبية . تُعد شخصيته نموذج على التشوه النفسي والاجتماعي الذي أصاب الشخصية الريفية نتيجة للتغيرات الاقتصادية والاجتماعية في تلك الآونة .

هاشم الحلواني وصلاح السكري في العراق وتم الحكم عليه بالإعدام .. فتتملك ملامح صابر الهلع والفزع وهو يقول بصوت حاد حملت نبرته الصدمة وعدم التصديق : لا إله إلا الله . معقول! بالتأكيد أنتما تمزحان .. فيقاطعه أحمد الحلواني قائلاً بصوت غلظة : لن يذهب دم ابن عمي بدون ثأر .. فينظر إليه صابر نظرة حزينة صامتة لبضع ثوان ثم يهرول ناحية دارهم ، وهو في حالة فزع وهلع غير مصدق لما سمعه .

ومع وصول صابر إلى دار أبو عساكر سمع أصوات بكاء ونحيب فاطمة العراقي وزوجته سعيدة ، وشاهد عمه حسن جالس على المصطبة صامت وقد تضخمت خطوط الحزن التي خلفتها السنين على ملامحه وهو يكرر ، بصوت صدمة مخنوق من شدة الحزن والألم على فراق ابنه البكر «حسبنا الله هو نعم الوكيل. اللهم أني لا أسألك رد القضاء ولكني أسألك اللطف فيه» .. فتتسمر قدم صابر وهو ينظر إلى أبيه الذي كانت دموعه تنساب على وجنتيه وهو يردد : ربنا يرحمك يا عوضي ويغفر لك .. فتتصلب قدم صابر ولا يستطيع الحركة من شدة هول ما حدث، ويختل توازنه حتى قاما الشيخ علي الراوي والأستاذ بكر الغريب بمساعدته في الجلوس على المصطبة . ليظل صامت ينظر إلى ملامح أبيه وعمه نظرة حسرة وألم غير منصت لكلمات المواساة التي يرددها الحاضرين من أهل القرية .. وتمر الدقائق ودموع صابر الصامتة الحارقة تأكل ما بداخله من صفاء وسكينة ، وهو يسمع ما يردده الحضور ويرى دموع الحزن والقهر في عيون عمه وأبيه والخوف والفزع في عيون خالد ومحمد . حتى استجمع حطام مشاعره وسيطر على شتات تفكيره ليقول بصوت تساؤل تحملت نبرته بنغمات الهم والآسى موجهاً كلامه إلى الشيخ على الراوي : لماذا يقتل العوضي أولاد قريته ؟! كيف وصل إليكم هذا الخبر؟ .. فيقول الشيخ علي الراوي بصوت حزين ونظرة مهمومة : لقد قامت السلطات العراقية بإرسال تقرير إلى الخارجية المصرية تضمن قيام العوضي بارتكاب جريمة القتل العمد في حق هاشم الحلواني وصلاح السكري ، وقد تم محاكمته وأصدرت

المحكمة حكم بإعدامه شنقاً .. فيسأل صابر بصوت غلفه الحدة : وكيف وصل هذا الخبر المشؤوم إلينا ؟ .. فيقول الشيخ علي : لقد أخطرت وزارة الخارجية وزارة الداخلية بتلك القضية وتفصيلات ما تم بشأن محاكمة العوضي ، وقد أرسلت وزارة الداخلية إشارة عن طريق المركز إلى العمدة ليخطر أهلية القتيل والقاتل .. فيقول صابر بصوت مشروخ وقد كست ملامحه التعجب الممزوج بالآسى : لماذا يقتل العوضي ؟! أكيد لم يرتكب هذه الجريمة . هل تصدق أن العوضي صاحب القلب الطيب الذي كان يكره العنف يقتل أبناء قريته ؟! بالتأكيد هناك خطأ وهو مظلوم .. ثم ينفعل ويحتد صوته وهو يكرر هذه الجملة ، وقد ارتسمت على ملامحه تعبيرات انفعال هستيري حتى يمسك به الشيخ علي ويضمه إليه وهو يقول بصوت مواساة ونصح : أذكر الله يا ولدي وأدعو له بالمغفرة والرحمة ، وأعلم أن سبحانه وتعالى ارحم بعباده .. فتنهمر دموع صابر وهو يقول بصوت تضرع ومغفرة : اللهم أغفر له وأرحمه . اللهم صبرنا على ما بلانا . أنت أعلم بحالنا يا رب العالمين .. فيتوجه عطية نحو الشيخ علي وهو يمسح دموعه العالقة بعينيه ليقول متسائلاً بصوت انكسار : ماذا سنفعل يا شيخ علي ؟ هل سنترك العوضي في بلاد الغربة بدون مساندة .. فيقول الشيخ علي بصوت هادئ غلفه الحكمة : قبل أي شيء لابد لنا من معرفة هل تم تنفيذ حكم الإعدام أم لا . فإذا كان قضاء الله قد نفذ فليس لنا إلا الدعاء . أما إذا كانت محاكمته لا زالت مستمرة فلابد لنا من الذهاب إلى هناك وتوكيل محام للدفاع عنه ، ولكن هذا الفرض يتطلب أموال كثيرة .. فيقول حسن بصوت حاد تملكه الأمل : مهما كانت التكلفة فلن نترك العوضي بدون مساندة .. فيقول صابر : سأذهب صباح الغد إلى العميد محمد عبد القادر في القاهرة عسى أن يدلنا على ما يساعدنا في هذه المسألة .. فيقول الشيخ علي بصوت قبول : سنذهب معك غداً والله المستعان .. ويقول الأستاذ بكر أبو الغريب بصوت غلفه التأكيد : سأحضر سيارة سليم الشيخ لتكون معنا طوال اليوم وسأتوجه إلى السفير عامر الشال ابن خالة زوجتي فهو يعمل في وزارة الخارجية وسيساعدنا في هذه المسألة ..

وبعد بضعة دقائق من الصمت الحزين الذي خيم على المكان ، وتخلله أصوات بكاء نساء أهل الدار ، كانت الشمس قد قاربت على الغروب في أول أيام شهر الصيام وبدأ الحاضرين بالانصراف عدا علي الراوي وبكر أبو الغريب اللذان مكثا مع عائلة أبو عساكر وقد احضرت سكينة الراعي ونبوية عبد الرازق وخضرة أبو تميم طعام الإفطار لدار أبو عساكر ليتناول الجميع الطعام و ينصرفن إلى بيوتهن ، بينما يظل علي الراوي وبكر أبو الغريب وعطوة العراقي جالسين مع صابر وحسن وعطية يتباحثون ويتدبرون أمرهم لإيجاد حل لهذه المصيبة التي حلت عليهم حتى يقترب ميعاد السحور فينصرف الضيوف إلى دارهم بعدما أكدوا على التقابل في الصباح الباكر ليذهبوا سوياً إلى القاهرة .

وفي الصباح الباكر توجه صابر بصحبة أبيه وعمه حسن وخاله عطوة والشيخ علي والأستاذ بكر إلى القاهرة ؛ حيث ذهب صابر مع الشيخ علي إلى منزل العميد محمد عبد القادر بحي المعادي ، بينما توجه حسن بصحبة عطية وعطوة وبكر الغريب إلى منزل السفير عامر الشال بحي مصر الجديدة .. وعندما وصل صابر وعلي الرواي إلى منزل العميد محمد عبد القادر استقبلهما بترحاب وحفاوة شديدة وقد لاحظ تعبيرات الحزن والألم التي تتملك ملامح صابر فسأله : أراك حزيناً مهموماً يا صابر . ماذا حدث ؟ .. فيروي صابر بصوت حزين مهموم ما حدث إلى ابن عمه في العراق ، وما آل إليه حال عمه وزوجة عمه وزوجته وأبوه وكل أفراد العائلة بعد علمهم بهذا الخبر المشؤوم.. وبآذان صاغية وعقل محلل تابع محمد عبد القادر كل ما قاله صابر ، وبمجرد انتهاء صابر من سرد الأحداث سأله قائلاً : ماذا كانت علاقة ابن عمك بالقتيلين قبل سفرهما إلى العراق ؟ .. فيقول صابر بصوت استفهام وقد ارتسمت على وجهه تعبيرات عدم فهم واستغراب : ماذا تقصد يا معالي باشا؟.. فيقول محمد عبد القادر: هل كان بينه وبينهما أي خلافات ؟ .. فيقول صابر: لا . فقد كان صلاح السكري صديقه .. فيقول محمد عبد القادر: منذ متى والعوضي بعيد عن بيته؟.. فيقول صابر : لقد كانت آخر زيارة قام بها العوضي منذ

أكثر من تسعة أشهر؟ .. فيقول محمد عبد القادر : متى سافر ابن عمك إلى العراق؟ ومن الذي أحضر له العمل؟ وهل سافر معه القتيلان في نفس الوقت؟ .. فيقول صابر : لقد سافر العوضي عن طريق مكتب سفريات لتشغيل العمالة المصرية بالقاهرة منذ ما يقرب من عامين ، صاحب المكتب يرتبط بصلة قرابة إلى زوجته . أما هاشم الحلواني وصلاح السكري فقد سافرا معه منذ تسعة شهور وهو الذي احضر لهما العمل هناك .. فيسأله محمد عبد القادر : هل تقيم زوجته معكم في نفس الدار ؟ .. فيقول صابر بصوت غلفه الحيرة وقد بدأ الشك يدب في قلبه تجاه ما يقصده محمد عبد القادر من هذه الأسئلة : لا . لقد كانت تقيم معنا في نفس الدار ، لكن بعد سفر العوضي افتعلت المشاكل مع زوجة عمي وزوجتي وتركت الدار لتسكن مع والدتها . ولما عاد العوضي في إجازة قام بشراء قطعة أرض مجاورة إلى الدار التي تسكن بها أمها أقام عليها دار بالخرسانة المسلحة والطوب الأحمر .. ثم يقول بعد لحظات من الصمت بصوت إيحاء رافض لما يقصده محمد عبد القادر : هل تساعدنا يا محمد بِك في معرفة تفاصيل ارتكاب العوضي لهذه الجريمة ، ومعرفة إذا كان قد تم تنفيذ حكم الإعدام فيه ؟ جزاك الله كل خير يا سعادة الباشا .. فيقول محمد عبد القادر : معرفة تفاصيل الجريمة شيء سهل ؛ فبكل تأكيد التقرير الذي أرسلته الخارجية المصرية سيحتوي على صورة مختصرة عن كيفية ارتكاب الجريمة ، والدافع على ارتكابها ، وما تم بشأن ضبطه ومحاكمة العوضي بمعرفة السلطات العراقية .. فيقول الشيخ علي الرواي وهو يبتسم في وجه العميد محمد عبد القادر ابتسامة تقدير ورجاء: وكيف يمكننا معرفة هذه التفاصيل يا سيادة العميد؟.. فيرد عليه محمد عبد القادر الابتسامة وهو يقول : في الصباح الباكر سأتصل باللواء عاكف النمر المدير المسؤول عن أمن وزارة الخارجية وسأستعلم منه عن تلك الواقعة ؛ فاليوم يوم جمعة عطلة رسمية .. فيقول الشيخ علي : جزاك الله كل خير يا سعادة الباشا .. ثم ينظر إلى صابر ويقول : هيا بنا يا صابر نسرع لنلحق بصلاة الجمعة في جامع السيدة زينب ثم نتقابل معهم في موقف ميدان رمسيس الساعة

٣ مساء .. فيهُمّ صابر بالوقوف وهو يقول بصوت رجاء وتمني وتعبيرات وجهه يكسوها الرجاء : استحلفك بالله يا سعادة الباشا أن تهتم بهذا الموضوع . ولو تسمح لنا نحضر لك غداً عصراً .. فيقول محمد عبد القادر بصوت تأكيد : بإذن الله سأنتظركم غداً في مكتبي بالدراسة . أنت تعرف المكان يا صابر فالمكتب في رئاسة قوات الأمن المركزي بالدراسة .. فيقول علي : جزاك الله خيراً يا سعادة الباشا . في رعاية الله حتى نلتقي غداً .. ليصطحب محمد عبد القادر ضيفيه حتى باب المنزل على وعد باللقاء غداً ؛ ليظل صابر طوال الطريق إلى جامع السيدة زينب صامت يتجنب الحديث ويفكر في الأسئلة التي طُرحت عليه .. وبعد إداء صلاة الجمعة في جامع السيدة زينب اتجه صابر والشيخ علي إلى موقف سيارات الأجرة بشارع أحمد حلمي ليتقابلا مع حسن وصحبته ، الذين تقابلوا مع السفير عامر الشال حيث وعدهم بالاستعلام عن تلك القضية وإخبارهم بما توصل إليه في القريب العاجل ، ليعودوا جميعاً إلى قرية دماص قبل غروب الشمس .

وقبل حلول آذان المغرب ببضع دقائق كان صابر وعطية وحسن قد وصلوا إلى دارهم ليجدوا النساء قد جهزن طعام الإفطار فيجلسوا جميعاً مفترشين الأرض مع حلول الآذان يدعون دعاء الصائم عند الإفطار آملين من الله أن يرحمهم ويفك كربهم ويرفع البلاء عنهم .. وبعد تناول الطعام وأداء صلاة المغرب جلس صابر وعطية وصفية يواسون حسن وفاطمة ويبشروهم بفرج قريب من عند الله .. وبينما كانت سعيدة تقف أمام باب الدار تلاطف ابنتها أمل حتى تكف عن البكاء جاءت سعدية وهي تحمل ابنها محمد بصحبة أمها بهانة، وقد تملك الحزن والخوف والفزع من ملامحهما. وبمجرد رؤية سعيدة لهم رحبت بهم بمودة وشوق رغم ما بينهما من خلافات، ودعتهم إلى الدخول وهي تصيح على أمها بصوت حملت نبرته نغمة مزجت بين الحزن والفرحة : محمد جاء يا أمي مع سعدية وخالتي بهانة .. فتنهض فاطمة وتسرع نحوهما تستقبلهم بكلمات ترحاب ومودة لتأخذ بعدها حفيدها من أمه وتحتضنه وقد اغرورقت عيناها بالدموع وهي تقول بصوت مختنق : اللهم فك كرب أبيك وارجعه

لنا سالماً .. فتنهمر سعدية في البكاء بصوت هستيري احضر جميع من في الدار ، وهي تقول بصوت نحيب وعويل حاد : لقد أعدموا العوضي . تيتم ولدي ولم يعد لي سند في هذه الدنيا .. فتصرخ فاطمة وسعيدة وهما يقولان في وقت واحد : ماذا تقولي ؟ كيف عرفتي هذا الخبر ، ومن الذي أخبركِ به ؟ .. فتقول بهانة بصوت نحيب وهي تبكي بكاءً صاخبًا : لقد جاء شخص من قرية ميت محسن إلى دارنا وأخبرنا بهذا الخبر المشؤوم .. فيتعالى أصوات بكاء فاطمة وسعيدة وينهار حسن من الحزن ؛ فرغم علمهم بخبر محاكمة العوضي فقد كان جميع أفراد عائلة أبو عساكر متمسكين ببصيص أمل نجدته وفك كربه .. وبعد بضع دقائق يمتلئ الدار بالأهل والأقارب ، الذين جاءوا لمواساة عائلة أبو عساكر في محنتها .. وبعد حضور الشيخ علي وسماعه الأخبار التي نقلتها بهانة اصطحب صابر إلى خارج الدار ليقول له بصوت تساؤل : هل عرفتم من يكون هذا الشخص الذي جاء إلى دار المرحوم السيد أبو الغريب ؟ .. فيقول صابر بصوت حزين وتعبيرات الآسى تكسو ملامحه : لقد أخبرتنا الخالة بهانة أن شخص من قرية ميت محسن ، كان يزامل العوضي في العمل بالعراق ، حضر إلى دارهم عصر اليوم وأخبرهم بخبر إعدامه .. فيقول الشيخ علي بصوت حيرة وعلى وجهه علامات استفهام وتعجب : لماذا ذهب هذا الشخص إلى دار بهانة ولم يأتي إلى داركم ؟ .. فيرتسم على وجه صابر تعبيرات تساؤل ويقول بصوت خافت : يجب أن نعرف من هذا الشخص ونذهب إليه؛ فبالتأكيد أنه يعرف تفاصيل الحادث وسيحل لنا هذا اللغز.. ثم يهم بالنهوض وهو يقول: سأجعل سعيدة تستدعي سعدية لنسألها.. فيقول الشيخ علي: اجعل زوجتك تُحضرها بمفردها دون أن تراها بهانة.. وبعد بضعة دقائق تأتي سعدية بصحبة سعيدة ليتعرف منها الشيخ علي عن اسم الشخص الذي أخبرهم بهذا الخبر، ويتفق مع صابر أن يذهب في صباح اليوم التالي إلى قرية ميت محسن ليتقابل مع هذا الشخص ، بينما يذهب صابر إلى العميد محمد عبد القادر في القاهرة .. وبعد بضع ساعات ينصرف الأهل والأقارب من دار أبو عساكر ليظل حسن وصفية في حالة ذهول ويأس غير مصدقين أنهما فقدوا الأمل في نجاة

ابنهم . وتمر ساعات الليل على صابر وهو شارد الذهن يفكر فيما استواحه من مقابلة محمد عبد القادر وكلام الشيخ علي حتى غلبه النوم ، وهو يحلم بأن يكون ما حدث منذ أمس ما هو إلا أضغاث أحلام .

ومع اقتراب وقت الظهيرة كان صابر قد وصل إلى القاهرة وتوجه إلى رئاسة قوات الأمن المركزي بحي الدراسة حيث استقبله محمد عبد القادر بمكتبه بترحابه المعهود وابتسامته البشوشة . وبعد ثوان من النظرات الصامتة المرتقبة قال صابر بصوت تمني تملكه الشغف : هل توصلت إلى شيء يا معالي الباشا ؟ .. فينظر إليه العميد محمد نظرة تأملية لبضع لحظات ليقول بصوت تساؤل : هل تعرف ماذا كان يعمل ابن عمك في العراق ؟ .. فيقول صابر : لقد كان يعمل في الزراعة .. فتزداد نظرة العميد محمد حدة وهو يقول: وهل الأموال التي كانت تصل إلى أهله يمكن لأحد أن يكسبها من الزراعة؟ .. فيقول صابر بصوت صدمة وقد ارتسمت على وجهه ملامح قلق وتساؤل : العوضي لم يكن يرسل أموال إلينا وكل ما جمعه من مال اشترى به قطعة أرض ، وبنى عليها دار بالخرسانة المسلحة . ماذا تقصد يا سعادة الباشا .. فيقول العميد محمد بصوت به شيئاً من الحدة : ابن عمك كان يعمل بتجارة المخدرات والعملة في العراق وقد اختلف مع شركائه وقتلهما ، والتقرير ومحاضر التحقيقات التي أجرتها معه السلطات العراقية تفيد أنه اعترف بارتكابه الجريمة بدافع الانتقام وقد تمت محاكمته محاكمة عاجلة ونُفذ فيه حكم الإعدام منذ أسبوعين ؛ فتجارة العملة والمخدرات في العراق تُعد من الجرائم العظمى بعد اندلاع الحرب مع إيران .. فينزل الخبر على صابر كالصاعقة ويرتسم على وجهه تعبيرات ذهول ليقول بصوت تعجب مصدوم : العوضي يعمل في تجارة المخدرات ويقتل ! أكيد الموضوع غير صحيح .. فيقول العميد محمد وهو ينظر إلى صابر نظرة شفقة : الانتقام لم يكن بسبب المال ولكن بسبب العرض ؛ فابن عمك قتل لأن أحد القتيلين تعرض إلى سمعة زوجته واتهمها بالزنا بعد خلاف على توزيع العائد من بيع المخدرات .. فتزداد تعبيرات الذهول والصدمة على ملامح صابر ويظل يردد

جملة: استغفر الله العلي العظيم لبضع دقائق حتى قال له العميد محمد بصوت نصح: من الأفضل ألا يعرف أحد بتلك التفاصيل . اللهم أرحمنا وأسترنا جميعاً في الدنيا والآخرة .. فيقول صابر بصوت تملكه الحسرة وتعبيرات ملامحه يعلوها الخجل والإحساس بالألم : لا تؤاخذنا يا معالي الباشا إذا كنت قد تسببت في إحراج سيادتكم .. فيقول محمد عبد القادر بصوت مواساة : اللهم صبر أهله . لا تأسف على ما حدث يا صابر .. فيقول صابر بصوت مكبوت وفي عينيه دموع جافة صامتة ساكنة : شكراً على صنيعك معي يا معالي الباشا . اللهم يديم عليك من فضله . ثم ينهض وهو يقول : إن شاء الله أراك دائماً على خير .. فينهض محمد عبد القادر ويصطحبه إلى خارج المكتب مودعاً بأسلوبه الودود المعهود ليظل صابر طوال طريق عودته شارد الذهن غير مصدق ما حدث إلى ابن عمه ، وتظل الأخبار التي سمعها من العميد محمد عبد القادر تزلزل مشاعره وتفجر تفكيره طوال ساعات النهار حتى قرر الذهاب إلى الشيخ علي الراوي بعد صلاة العشاء والتراويح ؛ فحديثه معه دائماً يهدأ من غضبه ويُسكن من أحزانه .

وبعد أداء صلاة التراويح والعشاء بجامع القرية توجه صابر مع الشيخ علي إلى داره ليتعرف منه على ما توصل إليه في قرية ميت محسن .. وخلال الطريق من المسجد إلى دار الشيخ علي وحتى جلوسهما بمضيفة الدار ظل صابر صامت يفكر فيما قاله العميد محمد عبد القادر ، ومسألة الشرف والعرض التي يجب عليه أن يحبسها في قلبه . وقد لاحظ الشيخ علي التوتر النفسي والقلق اللذين يسيطرا على صابر فسأله بصوت كاشف بعدما جلسا في حجرة مضيفة الدار : هل أخبرك العميد محمد عبد القادر بشيء عكر صفوك إلى هذه الدرجة ؟ .. فينظر إليه صابر نظرة صامتة ويقول بصوت حزين : لقد أكد لي إعدام صابر في العراق . الله يرحمه ويرحم الجميع ويغفر له ، ويسامحه على ما فعل .. فترتسم على وجه الشيخ علي تعبيرات استنكار ويقول بصوت غاضب : يا ولدي لقد ذهبت إلى الشيخ عماد أبو ريه أمام جامع قرية ميت محسن وسألته على الشخص الذي جاء إلى دار المرحوم

السيد أبو الغريب وقد أخبرني أن هذا الشخص ينتمي إلى عائلة الشنتوري ، وكان يعمل في تجارة المخدرات وقضى بالسجن بضع سنين قبل سفره إلى العراق ولم يرجع إلى القرية منذ بضع سنين .. فترتسم على ملامح صابر تعبيرات حزن صامت لبضع لحظات بعدما أيقن أن العوضي تورط مع هؤلاء الأشخاص في تجارة المخدرات ليقول بصوت مهموم : اعتقد أنه من الأفضل أن نهمل هذا الموضوع ونتوجه بالدعاء إلى الله أن يرحم العوضي ويغفر له خطاياه .. ثم يصمت لبضع لحظات وهو يقول بصوت استفهام : هل تقابلت مع أحد من دار هاشم الحلواني أو دار صلاح السكري؟. فينظر إليه الشيخ علي نظرة تأملية كاشفة ويقول بصوت غلفه التعجب: رغم أني أتفق معك أن نغلق البحث والحديث في مسألة العوضي إلا أنني متعجب من هذا الكلام ؛ فبعد كل الإصرار الذي رأيته في عينيك بالأمس لتعرف تفاصيلات هذا الموضوع تعود اليوم وتقول ذلك! هل أخبرك العميد محمد عبد القادر بشيء جعلك تقول هذا الكلام ؟ .. فيقول صابر بصوت مهموم : لقد أخبرني العميد محمد بأن العوضي كان يتاجر في المخدرات واختلاف مع صلاح وهاشم على المال فقتلهما . الله يغفر له ويصبرنا على ما بلانا .. فيقول الشيخ علي بصوت مواساة وهو ينظر إلى صابر نظرة شفقة وتعاطف : الله يرحمنا جميعاً يا ولدي . من الأفضل أن لا يعرف أحد بهذا الكلام .. فيقول صابر بصوت تساؤل منهوك وتعبيرات الضيق تسيطر على ملامحه : هل تقابلت مع أحد من دار صلاح السكري أو هاشم الحلواني؟ .. فيقول الشيخ علي : لقد ذهبت إلى دار أبو العلا السكري ودار عزت الحلواني وقدمت لهما العزاء في وفاة ولديهما .. فيقول صابر بصوت لهفة وقد ارتسمت على وجهه تعبيرات شغف وفضول لمعرفة ما يفكر فيه عائلتي الحلواني والسكري : كيف حالهما وماذا قال لك كل منهما ؟ فعندما تقابلت مع أحمد الحلواني وسالم السكري أخبرني بأنهما لن يتركا دم القتيلان يذهب بدون ثأر .. فيقول الشيخ علي مستنكراً بصوت حاد : لا تشغل بالك بما قاله هذان الفاسقان فرغم حزن وغضب كل من أبو العلا وعزت فلم يتحدثا عن ثأر ؛ فعاداتنا وتقاليدنا في قرية

دماص لم تعرف الأخذ بالثأر .. فيقول صابر وهو ينظر إلى الشيخ علي نظرة حملت خيوطها ألوان قاتمة : اللهم ارحمنا جميعاً وجنبنا الشر .. ثم يصمت بضع لحظات ليهم بالوقوف وهو يقول : أشكرك يا شيخ علي . اسمح لي بالانصراف ففي الصباح الباكر سأذهب إلى عملي فقد توقفت عن العمل منذ أول أمس .. فينهض الشيخ علي وهو يقول : اللهم أرزقك بالرزق الحلال يا ولدي وبارك لك في ذريتك. ثم يصطحبه إلى خارج الدار ليعود صابر إلى داره وقد أودع ما بداخله من هموم وأحزان إلى ربه ، وظل يكرر بداخل نفسه جملة «فوضت أمري إلى الله هو نعم المولى ونعم النصير» حتى استكن ما بها من هموم وأحزان وذهب في نوم عميق .

وتدور عجلة الزمن ، التي لم تتوقف منذ بدء الخليقة لتودع أشخاص وأحداث وتستقبل أشخاص وأحداث بصورة متواترة لا يتأثر رتمها بأحزان أو أفراح بشر ، حتى جاء نهاية شهر ديسمبر عام ١٩٩٠م وقد تمكنت الأمراض الاجتماعية من سمات الشخصية العامة للفلاح المصري بصورة ملحوظة ليلفظ الكثير من أجيال الشباب في الريف المصري عادات وتقاليد وثقافة توارثها السلف منذ عقود طويلة وتحل محلها ثقافة مسخ ليس لها لون أو طعم مثل المزروعات التي تُزرع في الصوبات باستخدام الأسمدة .. وبينما كان صابر عائدًا كعادته بعد عصر كل يوم بعد انتهاء عمله شاهد ابن عمه خالد يتشاجر مع محمد الحلواني «الشقيق الأصغر لأحمد الحلواني وأحد أبناء عمومة هاشم الحلواني الذي قتله العوضي في العراق» عند مدخل القرية فتوقف بسيارته وفرق بينهما وأخذ خالد ليركب معه السيارة ولم يلتفت إلى الألفاظ النابية التي كان يطلقها محمد في حقهما .. وبعد بضعة أمتار من تحركهما بالسيارة قال صابر بصوت عتاب حاد وهو ينظر إلى خالد نظرة غاضبة في مرآة السيارة : لماذا تعديت عليه بالضرب بهذه الصورة يا خالد؟ ألا تعلم أن العلاقة بيننا وبين عائلة الحلواني لا تحتمل ذلك .. فتدمع عين خالد بدموع حارقة وهو يقول بصوت متحشرج باك تملكه الغضب : لقد تعرض إلى شرف سعدية زوجة المرحوم أخي ونعتها بالزانية وشكك في نسب محمد ابن العوضي . ثم ينهمر في بكاء

شديد قائلاً : لقد قال هذا الكافر الذي ليس له دين أو اخلاق أن صلاح السكري كان يعاشر زوجة أخي قبل سفره إلى العراق . ولم يكن صلاح وحده فالكثير من قرية ميت محسن كانوا يعاشرونها .. فتتبدل ملامح صابر ويرتسم على وجهه تعبيرات صدمة وذهول وهو يقول بصوت مكسور : أنه كلام صغار يا خالد ، وكان من الأفضل أن لا تضربه بهذه الطريقة .. فينظر إليه خالد نظرة تعجب والدموع تنهمر من عينيه وهو يقول بصوت استهجان : ما هذا الذي تقوله يا ابن عمي. هذا الكلام ليس كلام صغار فهذا الفاسق يردد ما سمعه على لسان حسين عبد الرزاق وطه أبو ستيت؛ فهما بعد عودتهما من العراق يرددان هذا الكلام، ويقولا أن أخي قتل هاشم الحلواني وصلاح السكري بسبب ذلك .. فيقول صابر بصوت تملكه الهم والغضب الحزين بعدما توقف بالسيارة أمام الدار وهو ينظر إلى ابن عمه نظرة تأملية صامتة رسمت على ملامحه العجز وقلة الحيلة : هيا يا خالد ادخل إلى الدار واستحلفك بكل عزيز ألا تتحدث مع أحد في هذا الموضوع حتى أذهب إلى الشيخ علي وأحضره لنرى ما الذي سنفعله .. فيقول خالد بصوت حزين: سأدخل إلى الدار ولن أتحدث مع أحد حتى تأتي .. وبعد أن يهبط خالد من السيارة يتوجه صابر إلى دار الشيخ علي ليحضره معه حتى يتشاور مع أبيه وعمه فيما سيفعلون في هذه المسألة .

وبعد ما يقرب من ساعة عاد صابر بصحبة الشيخ علي إلى دار أبو عساكر ليجدا جمع من أهل القرية حول وداخل الدار ، وهناك أصوات بكاء ونحيب تنبعث من الداخل . فهرول مفزوعاً إلى صحن الدار ليجد أبوه وأمه وشقيقه محمد وعمه وزوجته وابن عمه خالد وابنة عمه باسمة جثث هامدة وسط بركة من الدماء فتقدم نحو كل جثة بجسد مرتجف وعيون زائغة مذهولة وهو ينزع ما على وجهها من قماش بصورة تتابعية أفقدته الإحساس بالواقع فأخذ يردد بصوت دامع كلمات من السيرة الهلالية وسط بكاء وحسرة كل من يشاهدونه : «دمعي جري فوق خدي سكايب ، ونيران قلبي كلما أقول تنطفي يزيد لها بين الضلوع لهايب .. أيا دهر يا

غدار ما لك غدرتني ففارقت خلاني وكل الحبايب» وبعد بضع دقائق من حالة فقدان الإحساس بالواقع أطلق صابر صرخة مدوية وهو ينادي بصوت جلجل جنبات الدار وتعبيرات الحسرة والألم والغضب تزلزل ملامح وجهه : سعيدة . أمل. أين أنتما ؟ .. فتتجه نحوه نبوية وهي تصرخ بصوت باكٍ حملت نبرته نغمة طمأنينة : سعيدة وأمل ذهبوا مع خالتك سكينة عند دار الطوبجي ليطمئنوا على باسمة بنت فرحانة (تزوجت فرحانة من عبد الرحمن الطوبجي الشقيق الأصغر لعبد السميع الطوبجي الذي ترك الفلاحة وعمل في المعمار عامل بناء) .. فينظر إلى الشيخ علي نظرة حزينة عكست ما بداخل صابر من حزن وغضب وهو يقول: لن أدع الكافر الذي فعل ذلك يفلت من يدي سأنتقم منه شر انتقام . بالتأكيد أولاد دار الحلواني هم من فعلوا بعائلتي ذلك .. فيقول شرف عماشة أحد الحاضرين والتي تلاصق داره دار أبو عساكر بصوت يقين : أنا شفت أحمد الحلواني وأخوه محمد وابن عمهما مصطفى وهما يحملون السيوف ويقتحمون داركم ، وقد حاولت الدخول لكنهما كان قد أغلقوا البوابة وسمعت صراخ واستغاثة من الداخل لمدة بضع دقائق وقد تجمعنا وكسرنا باب الدار فوجدنا أمر الله قد نفذ في كل من كان في الدار ، ولم نجد القتلة داخل الدار فقد هربا من ناحية دار صيام .. فيهرول صابر نحو الزَّريبَةُ ويلتقط المنجل من على الحائط ويسرع إلى خارج الدار وسط صياح الحاضرين ورجائهم بعودته . وخلال بضع دقائق استطاع الجيران من السيطرة على صابر قبل وصوله إلى دار عبد الفتاح الحلواني .. وقوع هذه الجريمة البشعة التي كانت مؤشر نتاج التأثيرات الثقافية التي أصابت الشخصية الريفية كانت حديث القرية والقرى المجاورة ، وتداولتها البرامج الإخبارية المقروءة والمسموعة والمرئية وكانت محور اهتمام المختصين في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية ؛ فقتل النساء والأطفال بالدم البارد لم تشاهدها قرى الريف من قبل ، ومن الأرجح أن تأثير ثقافة العنف الدموي المستورد عبر أفلام السينما الأجنبية بجانب ثقافة الغابة التي استوردها القرويون من أهل المناطق العشوائية في المدن التي كانوا يترددون عليها

خلال رحلة البحث عن مورد رزق كانت أحد أهم العوامل المؤثرة في إحداث هذا التغير السلبي في السمات الشخصية للمجتمع الريفي .. وخلال بضع ساعات كانت الشرطة قد قبضت على القتلة وقامت بعمل محضر أثبتت من خلاله إرتكابهما جريمة القتل العمد مع سبق الإصرار ليتم عرضهما على النيابة ، وفي خلال بضعة شهور من تقديمهما إلى محكمة الجنايات تم الحكم عليهما بالإعدام .. وقد ظل صابر وسعيدة رغم مرور بضعة أشهر من وقوع الجريمة وهما في حالة نفسية سيئة لم تعد تطيق الدار التي قُتل فيها الأهل ، ولا الأرض التي أصبحت أشبه بالأرض البور ؛ ليقررا مع فرحانة وسعدية بيع الأرض والدار ويرحلا إلى مدينة القاهرة ليستقروا في الأحياء الشعبية الذي استقطبت مئات الألوف من المهاجرين من قرى الريف ليبدأوا حياة جديدة في مكان جديد بعدما لفظتهم الأرض التي نشأوا بها ولم يعد لهم فيها رزق ولا عزيز .

بعد بيع بضعة قراريط الأرض والدار ، وتوزيع العائد المادي وفقاً للأنصبة الشرعية، قام صابر بشراء شقة سكنية في إحدى العمارات السكنية بإحدى الشوارع المتفرعة من شارع أحمد بدوي بحي شبرا ، واشترى المفروشات والأثاث اللازم بالإضافة إلى سيارة ميكروباص تم تشغيلها أجرة داخل مدينة القاهرة على طريق «رمسيس – الحي السابع»؛ ليحدث تغير جذري في حياة صابر وسعيدة وينتقلوا من حياة القرية الهادئة البسيطة إلى حياة المدينة الصاخبة المركبة .. ورغم اختلاف ثقافة سعيدة التي تشبعت بالعادات والتقاليد القديمة للريف المصري فقد استطاعت بعد فترة قليلة استيعاب وفهم حياة المدينة بكل إيجابياتها وسلبياتها والتعايش مع مختلف الفئات الاجتماعية التي تسكن معها في نفس العقار ؛ فالعقار الذي كان يتكون من ثلاثة طوابق في كل طابق شقة سكنية كان صابر وسعيدة

يقطنان بالدور الأول يجاورهما في الدور الثاني الأستاذ نسيم مرقص[١]. وفي الدور الثالث يسكن الأسطى عادل الميكانيكي الشهير بـ عادل الدكر[٢] . وبطبيعة الحال لم يجد صابر صعوبة في التأقلم على حياة مدينة القاهرة والتعايش مع مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية ؛ فقد كان تجنيده هناك لمدة ثلاث سنوات وعمله سائق على سيارة أجرة بين طريق القاهرة ميت غمر قد أثقل شخصيته ، وأكسبها خبرة التعامل مع مجتمع المادة والمصالح المتصارعة .

أحلام صابر وسعيدة في العيش حياة كريمة هادئة مستقرة لم تتوقف رغم فقدان الأهل في حادث مأسوي حيث احتسبوهم عند الله لتستمر الحياة ، ولكن ما كان يؤرقهما هو تكرار سقوط الحمل ثلاثة مرات خلال خمس سنوات بعد ولادة ابنتهما أمل وتأخر الحمل لقرابة عامين ؛ خاصة وأن طبيبة أمراض النساء والولادة في مستشفى ميت غمر العام ، والتي أجريت لها أخر عمليات تنظيف للرحم بعد آخر سقوط للجنين ، أخبرتهما بضرورة عمل فحوصات طبية متقدمة لوجود

---

(١) الشخصية الصعيدية المسيحية صاحبة القلب المتسامح والعقل الراجح الذي يتفانى في عمله ويأمل في زرع وغرس القيم والمبادئ الإنسانية في نفوس الأطفال الصغار الذين يدرس لهم . جاء إلى القاهرة في منتصف ستينات القرن العشرين من مدينة بني مزار بعدما حصل على دبلوم المعلمين؛ حيث كان تعينه بمدرسة شبرا الابتدائية . استقر في هذه الشقة السكنية وتزوج في بداية السبعينات من السيدة أنجيل إحدى قريباته من مدينة بني مزار ، وهي شخصية لا تختلف عنه في سماحة القلب وراجحة العقل . لم يشأ الله أن يمنحهما الأولاد وأعطهما راحة البال وصفاء النفس.

(٢) الشخصية القاهرية المتشبهة بأولاد البلد في أفلام السينما المصرية عمره لم يتجاوز الخامسة والأربعين، ويمتلك ورشة لإصلاح السيارات في شارع الورشة الذي يضم العديد من الورش الصغيرة التي يمتلكها حرفيين من مختلف الحرف . متزوج بسيدتين ؛ السيدة بهية ذات الأربعين عامًا وتسكن معه في هذا العقار منذ أكثر من عشرين عامًا ، ورافقته منذ أن كان يعمل عامل باليومية في إحدى الورش الميكانيكية ، وهي من الشخصيات القوية الصلبة والخلقة الحسنة التي جعلتها في شبابها مرغوبة للزواج من كثير من الشباب من مختلف الفئات الاجتماعية ولكنها اختارته بعدما رق قلبها له وأعجبت بشخصيته الفتية التي كانت تشبه الشخصية التي جسدها فريد شوقي في كثير من أدوار شبابه ، وكرست حياتها في خدمة زوجها وبنتيها ، ولم يكسر صلابتها واعتزازها بنفسها زواج زوجها بفتاة تصغره بأكثر من عشرين عامًا بعدما كثر رزقه ليشتري لها شقة سكنية بعمارة فخمة بشارع شبرا ويمكث معها معظم أيام الأسبوع ، خاصة بعدما أنجبت له الولد .

مشكلة طبية يجب علاجها .. وبينما كانت سعيدة جالسة مع السيدة أنجيل بشقتها بالدور الثاني ، في انتظار أمل حتى تنتهي من مراجعة دروسها مع الأستاذ نسيم مرقص، لاحظت أنجيل ما بداخل سعيدة من حزن فسألتها بصوت استفهام ودود: ما الذي يحزنك يا سعيدة ؟ أرى في عينيكِ شيء يقلقك.. فتنظر إليها سعيدة نظرة تأملية لبضع لحظات تذكرت خلالها أمها فأنذرفت الدموع من عينيها وهي تقول بصوت مكبوت من الحزن بلهجتها الفلاحي التي ما زالت تحتفظ بها في الحديث : الله يرحمك يا أمي .. فتنظر إليها أنجيل نظرة قلوقة وهي تقول بصوت شغوف : ماذا حدث يا ابنتي ؟ .. فتقول سعيدة وهي تجفف دموعها : لقد تأخر الحمل وأخشى أن أكون قد أصبحت عاقر ؛ فالطبيبة التي أجريت لي عملية تنظيف الرحم بعد سقوط الجنين أخبرتني بضرورة عمل فحوصات طبية في حالة تأخر الحمل .. فتنظرها أنجيل نظرة مطمئنة وهي تقول بصوتها الهادئ : ربنا يبارك لنا في أمل ويعطيك لها أخوة بنين وبنات . لو وافق زوجك صابر سأصطحبك إلى الدكتورة فريدة طبيبة أمراض النساء والولادة بالمستشفى القبطي ؛ فهي ابنة خالي وستعمل لنا كل ما نطلبه . لا تشغلي بالك بشيء وإن شاء الله ستحملي في أقرب وقت .. فتنظر إليها سعيدة نظرة صامتة لبضع لحظات وقد جففت دموعها ، وهي تقول بصوتها ذات النبرة البريئة ولهجتها الريفية البسيطة : ربنا يعطيك الخير يا ست أنجيل (لفظ ست هنا دليل احترام وتبجيل من سعيدة في حق أنجيل) ويديم عليك الصحة وراحة البال .. فتبتسم أنجيل وهي تقول بصوت غلفه السرور : ربنا يسعدك يا سعيدة ويعطيكي ما تريدي .. وفي تلك اللحظة تخرج أمل وهي تجري مسرعة نحو أمها لترتمي في أحضانها وهي تقول بصوتها الطفولي وابتسامتها البريئة تملئ المكان بالبسمة والأمل : أنا حصلت على الدرجة النهائية في كل المواد ، والأستاذ نسيم أعطى لي نجمة في كل الكراسات .. فتقول أنجيل بصوت تمني باسم: ممكن أحصل على حضن وقبلة جميلة من حبيبة أنجيل .. فتجري أمل نحوها

وهي تضحك ضحكة طفولية وتحضنها وتقول : أنا بحب طنط[1] أنجيل كثيراً.. فتزداد حضن أنجيل حنانًا وهي تقول: طنط أنجيل تحب أمل كثيراً .. وفي تلك اللحظة يأتي الأستاذ نسيم وهو ينظر إليهما بسعادة وفرحة ويقول بصوته الهادئ المعهود : نحن نعتبر أمل ابنتنا ونحبها كثيراً .. فتقول سعيدة بصوت حملت نبرته مزيج من نغمات الشكر والفرحة وتعبيرات الخجل الممزوجة بالبهجة تسيطر على ملامحها : الله يعزك يا أستاذ نسيم ويساعدنا على رد جميلك معنا ؛ فلولا مساعدتك إلى أمل ما كانت استوعبت دروسها بهذا الشكل .. فينظر نسيم إليها نظرة تأملية صامتة وهو يقول بصوت تواضع ومودة : يا سعيدة . أمل ليست تلميذة عندي بالمدرسة فقط وليست بنت جاري فقط ، فمنذ أن رأيتها وعيونها البريئة وطفولتها التي تمتلئ حيوية وذكاء تجعلني أتمنى أن تكون ابنتي .. فتنظر إليه سعيدة نظرة تأملية صامتة لبضع ثوان وهي تتمتم بسورة الفلق بداخلها ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾ ، ثم تقول : أشكرك يا أستاذ نسيم . هيا بنا يا أمل نعود إلى البيت لنجهز طعام العشاء إلى أبيكِ .. فتقول أنجيل وهي تحضن أمل : أراكي غداً يا أمل .. فتقول أمل وهي تبتسم : إن شاء الله يا طنط .. فتقول أنجيل بصوت تأكيد موجهة كلامها إلى سعيدة : غداً في نفس الميعاد نكمل حديثنا يا سعيدة . تصبحين على خير .. فتقول سعيدة وهي تهز رأسها وتعبيرات الخجل تمسك ملامحها ، وهي ترمق بطرف عينيها ملامح الأستاذ نسيم : إن شاء الله يا ست أنجيل . السلام عليكم .. فيقول كل من أنجيل ونسيم في صوت واحد : وعليكم السلام . ويكمل نسيم حديثه قائلاً بصوت ودود : بلغي تحياتي إلى الأسطى صابر .. فتقول سعيدة وهي تمسك بيد أمل وتتجه نحو باب الشقة والخوف من الحسد يتملكها متجنبه النظر إلى نسيم وأنجيل : إن شاء الله يا أستاذ .

---

(١) طنط معناها : عمة أو خالة باللغة الفرنسية (tante) ، و تم استخدمها في مصر في مفرادات اللغة العامية لمخاطبة أو الحديث عن الخالة أو العمة أو عن أى سيدة فى نفس مقام والدة الشخص المتحدث .

وفور عودة سعيدة إلى منزلها كان الخوف من حسد ابنتها الوحيدة قد تملك كل جوارحها فأسرعت بإحضار طاسة البخور لتشعل بداخلها كمية من البخور ، وتقوم بتحريك الطاسة في دوائر متتالية من جميع الجوانب فوق رأس أمل وهي تستعيذ بالله من شر الحسد والعين .. وبينما كانت سعيدة تفعل ذلك كانت ضحكات أمل البريئة تملئ جنبات الحجرة ، حتى ما انتهت سعيدة من أعمال الرقية الشرعية التي اعتادت على سمعها ومشاهدتها قالت أمل بصوت استفهام وهي تنظرها نظرة تأملية فرحة : ماذا يعني جملة «رقيتك واسترقيتك من عين الحسود ومن كل عين شافتك ولم تصل على النبي محمد» .. فتنظر إليها سعيدة نظرة أمومة حانية وهي تقول بصوت افتقد لمعرفة الحقيقة : أنا أمنع عنك الحسد وشر العين يا حبيتي حتى لا يصيبك مكروه .. فتبتسم أمل ابتسامة براءة وقد ارتسمت على ملامحها المفعمة بالحيوية والذكاء تعبيرات تأمل واستفهام وهي تقول : وماذا يعني الحسد ؟ هل هو الشر ؟ .. فتقول سعيدة وقد زادت حدة لهجتها الريفية وهي تتأفأف من إحراج ابنتها الصغيرة لها بكلمات لا تتأكد من معناها : نعم . الحسد[1] يعني الشر الذي يمكن أن يصيب الشخص عندما ينظر إليه شخص آخر ليس عنده الأشياء الذي يمتلكها .. فتبدأ تعبيرات أمل في الصمت وتظهر بداخل عيونها التي تشبه عيون المهرة علامات تساؤل وهي تقول بصوت تاهت منه نغمات البراءة : هل تخافي علي من نظرات الأستاذ نسيم وطنط أنجيل ؟ .. فتنظر إليها سعيدة نظرة دهشة وتعجب ؛ فكيف لطفلة يتجاوز عمرها السبعة أعوام ببضعة أشهر أن تفهم الأمور بهذه السرعة ، لتقول لها بصوت تظاهر بالرفض والاستنكار : بالطبع لا . فهما يحبانك كثيراً . لا تقولي ذلك أمام أحد .. وفي تلك اللحظة يدخل صابر من باب الشقة وهو ينادي على أمل كما تعود كل يوم عند رجوعه من العمل منذ سكنهم في هذا البيت ، فتجري أمل نحوه وهي تنادي بصوت تملكه الفرحة

---

(١) الحسد هو أن يتمنى شخص زوال النعمة من شخص آخر وأن تكون له . وهو بخلاف الغبطة فإنها تمني مثلها من غير حب زوالها عن المغبوط . والتحقيق أن الحسد هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود ، وهي أول معصية وقعت من الخلق لما حسد إبليس آدم ، ثم حسد قابيل هابيل .

وتعبيرات وجهها تكاد تصرخ من شدة السعادة : أبويا جيه . أبويا جيه . هيه هيه (جملة مصرية عامية يطلقها الأطفال تعبيراً عن فرحتهم بحضور أبيهم إلى البيت) . لترتمي بين ذراعيه تتحسس حنان ودفء حضن الأب وهي تقول : افتقدتك كثيراً يا أبي . هل أحضرت العسلية[1] معك ؟ .. فيضحك صابر ضحكة عريضة وهو يقبل رأس ابنته قائلاً بصوت أبوي حنون : هل يمكن أن أنسى الشيء الذي تحبه أمل حياتي ؛ ليخرج العسلية من جيبه ويعطيها لها .. فتمسك أمل يده وتقبلها وهي تقول : أشكرك يا أبي .. فتقول سعيدة بصوت تعلقت بنبرته نغمة قلق وتوتر : هيا يا أمل أذهبي إلى حجرتك فقد حان ميعاد نومك .. فتقول أمل وهي تنظر إليها نظرة طاعة ودودة : نعم يا أمي . وتنظر إلى أبيها نظرة محبة وتقول بصوت هادئ : تصبحان على خير. ثم تذهب إلى حجرتها وتسترخي على سريرها حتى تذهب في النوم.. وبعدما جلس صابر على الطبلية «طاولة الطعام» وجلست بجواره سعيدة ليتناولا طعام العشاء سوياً لاحظ صابر تعبيرات القلق والتوتر على ملامح زوجته فسألها بصوت استفهام باللهجة الريفية : ماذا بكِ يا ابنة عمي .. فتزداد ملامح سعيدة توترًا وتقول بصوت متقطع انخفضت نبرته: الست أنجيل تستأذنك أن أذهب معها عند طبيبة أمراض ولادة بالمستشفى من أجل عمل التحاليل حتى أستطيع الحمل والإنجاب .. فينظر لها صابر نظرة غاصبة حادة بعدما ترك الطعام وهو يقول بصوت حاد : ماذا تقولي ؟ لقد أخبرتك من قبل بعدم التقرب بهؤلاء الأقباط ؛ فهما ليس من ديننا ، ويكفي أنني وافقت على ذهاب أمل عندهم لتذاكر دروسها مع الخواجة نسيم . فالاختلاط معهما يجب أن يكون بحساب .. فتقول سعيدة بصوت مكسور وتعبيرات الحزن تأكل ملامحها: أرجوك يا صابر . أنا أريد الذهاب إلى الحكيمة حتى استطيع الإنجاب . أرجوك يا صابر لا ترفض. لن أذهب مع الست أنجيل وابحث أنت عن حكيمة لنذهب إليها .. فيقول صابر بعدما هدأت ملامحه : غداً في صلاة الفجر سأتحدث مع الشيخ جابر ليدلني على حكيمة

---

(١) العسلية هي حلوى شعبية مصرية تصنع من العسل الأسود (عسل قصب السكر) ويضاف لها أحيانا سمسم على الإطار الخارجي لها بعد التصنيع وأحيانا بعض المكسرات لتحافظ على قوامها من الرطوبة .

نذهب إليها .. فتقول سعيدة بصوت استفهام وهي تنظره نظرة تأملية صماء : من يكون الشيخ جابر ؟ ومنذ متى وأنت تصلي الفجر في الجامع ؟! .. فيقول صابر : الشيخ جابر هو رجل صالح تعرفت عليه من بضعة أيام حيث ركب معي السيارة في طريق عودته إلى داره ، وقد نشأت بيننا محبة في الله . ومنذ هذا اليوم يعود معي كل يوم من موقف الحي السابع في أخر نقله لي وأقوم بتوصيله إلى منزله بحارة البدراوي المتفرعة من شارع شبرا.. فتقول سعيدة : هل هو إمام مسجد مثل الشيخ علي الراوي ؟ .. فيقول صابر : لا. هو طالب في كلية الطب التابعة للأزهر الشريف، كما أنه يؤم المصلين في زاوية أنصار السنة المحمدية في الحارة التي يسكن بها ، وقد تواعدت معه وأخلصت النية لله أن أُؤدي كل الفرائض هناك وإن لم استطع سأؤديها في أقرب جامع بإذن الله .. فتقول سعيدة وهي تنظره نظرة صامتة : الله يبارك لك ويكافئك على صلاحك وتدينك ويهبك الذرية الصالحة .. فيقول صابر: أخلصي النية لله وتوكلي عليه سبحانه وتعالى وسوف نأخذ رزقنا إن شاء الله.. فتقول سعيدة بصوت طاعة غلفه الطمأنينة وهي تنظر إلى زوجها نظرة تقدير : اللهم أرزقنا بالذرية الصالحة . وبارك لنا في رزقنا .. فيقول صابر : اللهم آمين . سأذهب للنوم حتى استطيع قيام الفجر .. فيذهب الاثنان إلى حجرة نومهما ليتم بينهما الجماع ، ثم يذهب صابر في نوم عميق بعدما حصل على حمام دافئ لتظل سعيدة تفكر فيما ستحمله لها الأيام ، وتدعو ربها أن يهبها الستر وراحة البال حتى تذهب هي الأخرى في النوم .

وتمضي الأيام وتدفع الشهور ببعضها البعض ليأتي يوم ٢٥ يناير عام ١٩٩٢م ، اليوم الذي ستكمل فيه أمل عامها الثامن وقد أصبحت في السنة الثالثة من المرحلة الابتدائية ومستواها الدراسي يبشر بأنها من التلاميذ المتميزين . وخلال هذه الفترة توطدت علاقة صابر بـ جابر عبد العليم أو كما يُطلق عليه «الشيخ أبو نضال» الذي أصبح مؤخراً أميراً تنظيم الجماعة الإسلامية الجهادية بالقاهرة ؛ حيث انضم إلى

مجموعة الشيخ جابر وتم تثقيفه بالثقافة السلفية الجهادية[1]، وحقق رغم بساطة تعليمه تفوقًا ملحوظًا داخل الجماعة وأصبح من نشطائها . وخلال تلك الفترة تم عرض سعيدة على إخصائية أمراض نساء وتوليد تابعة لجماعة الجهاد حيث بدأت مرحلة العلاج والمتابعة بعد إجراء الفحوصات والتحاليل التي أفصحت عن وجود التهابات حميدة بالرحم سيتم إزالتها بالأدوية .. وبعد انتهاء العام الدراسي ظهيرة هذا اليوم كانت سعيدة كعادتها كل يوم دراسي تصطحب أمل من المدرسة وتعود بها إلى البيت ، وعند وصولها إلى باب المنزل شهدت أختها فرحانة تجلس على الرصيف المجاور إلى المنزل وهي تحمل طفلها الرضيع «عبد السميع» الذي لم

---

(١) سلفية جهادية هو مصطلح أُطلق منذ نهاية ثمانينيات القرن الماضي على بعض جماعات الإسلام السياسي التي تتبنى الجهاد منهجاً للتغيير ، وقد تم بروزه كتيار فكري مميز في منتصف سبعينات القرن الماضي أبان حكم الرئيس الأسبق محمد أنور السادات . ويعلن هذا التيار أنه يتبع منهج سلف المسلمين وأن الجهاد أحد أركانه وأن الجهاد الذي يجب وجوباً عينياً على المسلمين يتم تطبيقه ضد العدو المحتل وضد النظام الحاكم المبدل للشريعة الإسلامية ويحكم بالقوانين الوضعية أو النظام المبالغ في الظلم والقهر ؛ فهي الجماعات أو الأفراد الذين حملوا فكرة الجهاد المسلح ضد الحكومات القائمة في بلاد العالم الإسلامي أو ضد الأعداء الخارجين ، وحملوا فكراً محدداً يقوم على مبادئ الحاكمية وقواعد الولاء والبراء وأساسيات الفكر الجهادي السياسي الشرعي المعاصر كما هو مفصل ومعروف في أدبياتهم . ويعتبر تيار السلفية الجهادية نفسه تياراً مطبقاً للمنطق الإسلامي الصحيح المستقى من القرآن والسنة والإجماع متمثلاً في العقيدة وفقه الجهاد وفقه السياسة الشرعية في الحكم على والتعامل مع المحتل والمبدل للشريعة ؛ فهو يرى أن التغيير بالقوة هو أنسب وأصح الوسائل للتحرر وتحكيم الشريعة وتصحيح البنية الأساسية الدينية والاجتماعية والسياسية . وتعتبر السلفية الجهادية هي ثاني أبرز تيارات الحركة السلفية المعاصرة مع السلفية العلمية (السلفية العلمية أحد فصائل التيار السلفي وفصيل سلمي يحمل أطروحة دعوية وعضية بالأساس ويركز دعاتها جهودهم على الجوانب الفقهية والعقائدية وطلب العلوم الشرعية وهم في ذلك متقيدون بالمراجع السلفية العلمية كمصر ، وخاصة بالمؤسسة الدينية الوهابية في السعودية . ظهر هذا التيار في تسعينات القرن الماضي واجتهدوا في تبليغ أفكار السلفية العلمية في صفوف الشباب وازداد انتشاره بفضل الفضائيات النفطية وشبكة الانترنت . أما عن موقفهم من السلطة فان السلفيون العلميون يحرمون الخروج عن الحاكم ولو كان ظالماً) ومصادرهم واحدة ، وإنما يختلفون مع تيار السلفية العلمية والإخوان في تبنيهم لخط ومنهج التحرك الثوري أو المسلح من أجل التغيير وليس التربية والتعليم أو البرلمان من أجل الإصلاح لرأيهم بأن هذه الأنظمة متجذرة ومدعومة من الخارج وفشل معها الإصلاح ، والتيارات الأخرى تعتبر أن هذا استعجال للتغيير وتعريض للنفس للتهلكة وبعضها يعتبر هذا خروج على الحاكم الذي تجب طاعته.

يتجاوز عمره أربعة أشهر على صدرها ، وتمسك بطفلتها باسمة التي تجاوز عمرها العامين ببضعة أشهر ، وتعبيرات الآسى والقهر تحجب ملامح وجهها الجميل . وبمجرد تقابل نظراتهما نهضت فرحانة وهي تحمل عبد السميع وقد تعلقت باسمة بطرف جلبابها لتتجه نحو شقيقتها بخطى شواقه لتلتقي الشقيقتان وترتمي كل منهما في حضن الأخرى تتحسس رائحة الماضي ، وهما يتبادلان كلمات الشوق والمودة وتعبيرات ملامحهما كستها الفرحة الممزوجة بالأسى .. وبعيون دامعة وقلب امتلئ بالفرحة تنظر سعيدة إلى باسمة وتقول بصوت غلفه السعادة والفرحة وهي تمسكها وتضمها إلى صدرها : كيف حالك يا باسمة ؟ افتقدتك كثيراً .. فتمسك باسمة بيدها وهي تنظر إليها نظرة استغراب لبضع لحظات لتقول بصوت طفولي مهموم وهي تنظر إلى أمها نظرة باكية : جائعة يا أمي .. فتحملها سعيدة وتضمها إليها بحنان وهي تقبلها لتقول : سنأكل حالاً يا حبيتي .. ثم تتركها لتحمل عبد السميع وهي تنظره نظرة حانية ودودة لتقبله قائلة بصوت تملكه الفرحة والسعادة: ما شاء الله. سبحان الخلاق فيما خلق. أنه يشبه العوضي رحمه الله .. فتنهمر الدموع من عيون فرحانة وهي تبكي بكاء صامت ، وقد تركت أمل من يدها قائلة بصوت مكبوت من الهم : الله يرحم الجميع يا أختي . افتقدتك كثيراً لقد مضت أربعة شهور منذ ولادة عبد السميع ولم نتقابل . كيف حال زوجك ؟ .. فتقول سعيدة بصوت ترحاب وهي تحمل عبد السميع بيد وتمسك باسمة باليد الأخرى : الحمد لله على النعمة . هيا ندخل إلى الدار حتى نجهز الطعام ونأكل ونكمل حديثنا فقد اشتقت إلى كلامك الطيب يا أختي .. فتمسك فرحانة بيد أمل وتسير متجهة مع شقيقتها نحو باب مسكنها وهي تبتسم ابتسامة صامتة قائلة بصوت حنون : بسم الله ما شاء الله . لقد كبرت أمل وأصبحت عروسة . سبحان الله فقد أصبحت تشبه أختك باسمة . طال الله في عمرها .. فتبتسم سعيدة ابتسامة اعتزاز وتقول بصوت حملت نبرته نغمات اشتياق إلى أختها المتوفية ممزوجة بحنان الأم تجاه ابنتها الوحيدة : الله يرحمك يا باسمة ويبارك فيكي ويصلح حالك يا أمل .. وبعد دخولهم

إلى المنزل وجلوسهم في صالة استقبال البيت توجهت سعيدة بعدما نزعت الخمار من على رأسها ومعها أمل لتجهز الطعام حتى تأكل فرحانة وباسمة . وبينما كانت فرحانة تطعم ابنتها باسمة وهي تحمل ابنها عبد السميع سألتها سعيدة بصوت سيطرت على نبرته القلق بعدما رأت الدموع الصامتة تنهمر من عينيها: ماذا حدث يا فرحانة؟ لماذا تبكي؟.. فتزداد دموع فرحانة انهماراً ويترتسم على وجهها الشبابي الجميل تعبيرات شيخوخة قاسية وهي تقول بصوت مكبوت حملت نبرته صراخاً صامتاً : لم أعد أطيق العيش في دار أبويا حسان الطوبجي فكل من هنية زوجة صالح وسالمة زوجة عبد الجواد تنغص علي حياتي ؛ فهما يمنعان عني الزاد ، ويتفقان مع حماتي فيجعلوني أقوم بكل أعمال الدار . ثم تصمت للحظات وتقول بصوت متحشرج مشروخ من شدة الحزن والإحساس بالقهر : بالأمس بعدما قمت بتنظيف وترتيب الدار كانت هنية تجلس مع ابنتها شادية بجوار باب الدار وكان عبد السميع نائمًا على الأرض بجوار أخته في صحن الدار على مقربة منهما وقد ألقت وهي تلعب مع نفسها قطعة من الخشب سقطت أمام سالمة فقامت بضربها بالخشبة على يدها ، ولما جئت على صراخ باسمة سمعت هنية تقول بصوت كراهية وحقد : بالتأكيد البنت مثل أمها لا تعرف الحياء ولا الأدب اضربيها بشدة .. فلما رأيت سالمة تهم نحو باسمة لتضربها هلعت نحوها وأمسكت العصا وكسرتها وألقيت بها بعيداً وأنا أقول : إن شاء الله ستنكسر يدك .. فحدثت بيني وبين هنية تبادل شتائم وحاولت الاعتداء علي بحذائها فأخذته منها وأسختها ضربًا هي وابنتها ، ولما جاءت حماتي ونعتتني بأنني أخت السفاح القاتل ويجب على زوجي تأديبي وضربي بالحذاء ، فما كان مني إلا أن قلت لها : عيب يا خالتي ، وأخذت باسمة وعبد السميع ودخلت حجرتنا وأغلقت علينا الباب حتى جاء عبد الرحمن . وبعدما دار بينه وبين أمه حديث ، واحتد عليها بالكلام حدثت مشاجرة بالأيدي مع أخوه صالح كاد أن يقتل كل منهما الآخر لولا حضور رجال دار أبو سالم ودار العناني والشيخ علي الرواي لحدث ما لا يحمد عقباه . وفي المجلس الذي انعقد تعهد

كل منهما بالتزام إبعاد وتجنب امراته عن الأخرى.. فتقول سعيدة بصوت تساؤل وتعبيرات الحزن والغضب تتحكمان في ملامحها وهي تنظر إلى فرحانة نظرة تأملية : ولماذا تركتي الدار ؟ .. فتقول فرحانة ومازالت ملامح القهر والإحساس بالذل تكسو ملامحها : في اليوم التالي عاد عبد الرحمن وقد ترك العمل مع أخيه صالح[1] وقرر البحث عن عمل وقال لي أن أذهب عندك حتى تستقر أمور المعيشة.. فتقول سعيدة بصوت جمعت نبرته بين نغمات الترحيب والشفقة والحزن وهي تنظرها نظرة حانية : أهلاً بكِ يا فرحانة ويا رب تجلسي معنا بصفة دائمة .. فتقول فرحانة وهي تمسح دموعها وتنظر إلى شقيقتها نظرة شكر وعرفان : ربنا يحفظك يا أختي ويهبك أنتِ وزوجك المال والذرية الصالحة .. فتقول أمل بصوت طفولي حزين وملامح تأثرت بدموع خالتها وهي ممسكة بيد باسمة تحاول حملها : يا رب تجلسوا معنا طوال العمر يا خالتي ، وربنا ينتقم من الذين ظلموك في دار حسان الطوبجي .. فتمسك فرحانة برأسها وتقبلها وهي تقول بصوت مودة : ربنا يسامحهم يا أمل . سبحان الله كل ملامحك وروحك تذكرني بخالتك باسمة .. فتقول سعيدة بصوت حزين : الله يرحمك يا باسمة ماتت ولم ترى يوم حلو في حياتها ، وكانت تتمنى الموت بعد طلاقها من ابن العناني .. فتقول فرحانة بصوت غلفه التشفي : الحمد لله ربنا لم يترك حقها ؛ فبعد طلاقه منها وزواجه من زاهيا بنت الجنايني لم يرزقه الله بالذرية وأهلها يقولوا أنه مصاب بالعقم.. فتقول سعيدة بصوت لامبالاة وعلى وجهها تعبيرات صماء : اللهم لا شماتة .. ثم تقول بصوت ترحاب بعدما تخلصت من ملامح الحزن واللامبالاة : سأجهز لكم حجرة أمل لتناموا بها . هيا يا أمل نجمع حاجاتك ونضعها في حجرتي .. فتقول أمل بصوت تملكت نبرته الفرحة : هيا يا أمي .. وتمضي ساعات النهار وقد ظلت سعيدة وفرحانة يترحمان على الأهل ويتذكران الماضي بكل ما به من ذكريات سعيدة ومؤلمة.

---

(١) بعد عودة صالح من العراق كان قد جمع بعض المال وقام باستثماره في مجال أعمال مقاولات البناء وكان شقيقه يعمل معه باليومية .

ومع اقتراب الساعة من السابعة مساءً دق جرس باب المنزل حيث توجهت أمل مسرعة لتفتح الباب ظناً منها أن أبوها قد عاد فإذا بها تجد نسيم وهو يحمل في يده كعكة ملفوفة ، وبصحبته أنجيل تحمل عروسة صغيرة .. وبنظرات حانية ودوده وصوت غلفه المحبة قالت أنجيل : كل سنة وأنتِ طيبة يا أمل وعقبال مائة عام في خير وسلام ومحبة .. فتنظر أمل إليهما نظرة تأملية رسمت على ملامحها الطفولية البريئة تعبيرات فرحة وسعادة وهي تمسك العروسة وتقول بصوت استفهام : هل هذه العروسة لي ؟ .. فيقول نسيم : كل سنة وأنتِ طيبة يا أمل اليوم عيد ميلادك الثامن .. وفي تلك اللحظة تأتي سعيدة مرحبة بضيفيها عندما سمعت أصواتهما وقد ارتسمت على وجهها تعبيرات ترحيب أخفت ورائها إحساسها بالخوف من حضور صابر ، وهي تقول بصوت مهزوز : أهلا وسهلا تفضلا .. فيقول نسيم بصوت هادئ بعدما تحسس الإحراج في عيون سعيدة : كل سنة وأمل طيبة . اليوم عيد ميلادها الثامن . أعذريني يا سعيدة لو كنا جئنا بدون سابق ميعاد . وبلغي تحياتي إلى الأسطى صابر ثم يهم بالانصراف ، بينما تقول أنجيل بصوت غلفه الاستحياء : هل ستتركيني أقف ولا تدعيني للدخول .. فتحاول سعيدة التغلب على حالة التوتر والخوف التي سيطرت عليها وهي تقول بلهجتها الريفية بصوت جمعت نبرته نغمات الترحيب المغلولة بالتوتر : أهلا وسهلا تفضلي البيت بيتك يا ست أنجيل . ثم تقول بصوت تعجب : عيد ميلاد أمل ؟! .. فتبتسم أنجيل وهي تجلس على الكنبة الأسيوطي المجاورة لباب الشقة وتقول بصوت إيضاح : في القاهرة يعتاد الناس على الاحتفال بيوم ميلادهم كل عام ويتناولوا الكعكة «تورتة باللغة العامية» ويُطفئ الشخص صاحب عيد الميلاد شموع مضاءة على الكعكة بعدد السنين التي مرت على ميلاده .. فتقول سعيدة بصوت استغراب : ولماذا نفعل ذلك ؟ .. فتقول أنجيل وهي تنظر إليها نظرة عطوفة والبسمة ما زالت مرسومة على وجهها : لابد للإنسان أن يسعد بحياته ويحاول أن يخلق جو من البهجة والسعادة في وجود أهله وأحبائه ؛ فالاحتفال بيوم ميلاد الإنسان تجعله يتذكر مناسبة دخوله

إلى هذا الوجود أو استمراره بالحياة فيه .. وفي تلك اللحظة تحضر فرحانة إلى صالة البيت تنظر إلى أنجيل نظرة تأملية استكشافية بعيون محرومة لبضع لحظات ، وتعبيرات الذل والقهر محفورة على جبينها وهي تحمل ابنها الرضيع وابنتها باسمة تمسك بطرف جلبابها لتقول بصوت ضعيف بلهجتها الريفية البسيطة: السلام عليكم.. فتنظر إليها أنجيل نظرة تأملية صامتة وهي تقول: وعليكم السلام. أنتِ شقيقة سعيدة .. فتقول سعيدة : نعم يا ست أنجيل . فرحانة شقيقتي . وباسمة وعبد السميع أولادها .. ثم تنظر إلى شقيقتها وتقول بصوت اعتزاز موجهة كلامها تجاه أنجيل : هذه الست أنجيل جارتنا في الدور الثاني وزوجها مدرس في المدرسة التي تتعلم بها أمل .. فتدقق فرحانة النظر لبضع ثوان حتى تتأكد من رؤيتها للصليب المعلق على صدر أنجيل ؛ فترتسم على ملامحها علامات توجس وهي تقول بصوت باهت تاهت منه نغمات الترحيب : أهلا يا ست .. ثم تنظر إلى الكعكعة الموضوعة على مائدة السفرة الملاصقة للكنبة الجالسة عليها أنجيل ، والتي كانت الأخيرة قد أخرجتها من علبتها ووضعت بها ٨ شمعات ، لتقول فرحانة بصوت استغراب بلهجتها الريفية التي تعطشت حروفها : ما هذا ؟ .. فتبتسم أنجيل وهي تقول : هذه حلوى بمناسبة عيد ميلاد أمل.. فتقول فرحانة بصوت لامبالاة، رغم أنها لا تعرف ماذا يعني عيد ميلاد أمل، وهي تنظر إلى الصليب المعلق على صدر أنجيل نظرة ريبة واستهجان : نعم . نعم .. ووسط نظرة سعيدة القلقة المتعجبة ونظرة فرحانة المرتابة المستهجنة ، والنظرة الطفولية البريئة المملوءة بالفرحة والبهجة في عيون أمل ، والنظرة الطفولية المذهولة في عيون باسمة، كانت أنجيل التي تجاهلت نظرة الريبة والاستهجان قد أطفت النور بعدما أضاءت الشموع الموضوعة على التورتة ثم جعلت أمل تقف على كرسي أمام المائدة لتقول بعدها بصوت غلفه الفرحة والسرور ووجه ملأته ابتسامة محبة : رددوا معي ما سأقوله . ثم أخذت تنشد أغنية عيد الميلاد وتصفق بيديها وهي تمسك بأمل تحضنها وتتمايل بها. ثم تقول موجهة كلامها إلى أمل: انفخي في الشموع واطفئيها يا

حبيبتي.. وبعد بضع دقائق من إطفاء الشموع كانت أنجيل قد قامت بتقطيع التورتة إلى قطع صغيرة وأعطت سعيدة وأمل وفرحانة كل واحدة منهن قطعة . وقد ظلت فرحانة خلال تلك الدقائق تنظر إلى الصليب نظرات ارتياب ممزوجة بتعجب واستهجان ، ووضعت ما أعطته لها أنجيل على المائدة ولم تأكل ومنعت ابنتها من تذوق التورتة .. وأمام بكاء باسمة الشديد قالت أنجيل بصوت نزعت منه نبرة الانفعال وهي تنظر إلى فرحانة نظرة صامتة : لا تخافي يا فرحانة هذه التورتة تم شراؤها من محل يملكه رجل مسلم مكتوب على العلبة .. فتنظر إليها سعيدة نظرة خجل وتنظر إلى شقيقتها نظرة عاتبة، وهي تقول موجهة كلامها إلى أنجيل بصوت تظاهرت نبرته بعدم مبالاة فرحانة بذلك : لا تؤاخذينا يا ست أنجيل فنحن لا نعرف التورتة من قبل ، وشقيقتي لا تحب أكل الأشياء التي لا تعرفها .. فتقول أنجيل بصوت تظاهرت نبرته بالقناعة وقد ارتسمت على وجهها تعبيرات صماء : صحيح الإنسان لا ينبغي أن يأكل الطعام الذي لا يألفه .. ثم تنظر إلى أمل نظرة حانية وهي تتجه نحوها تقبلها وتقول : كل سنة وأنتِ طيبة يا أمل وعقبال مائة عام وأنتِ أحسن واحدة في الدنيا . ثم تقول وهي تنظر فرحانة وسعيدة : لقد تأخر الوقت ويجب أن أعود إلى منزلي. أسعد الله مسائكم.. فتقول سعيدة بصوت مجاملة: شرفتِ بيتنا بزيارتك يا ست أنجيل وربنا يديم المحبة . أبلغي شكرنا إلى الأستاذ نسيم .. فتقول أنجيل : لا شكر على واجب يا سعيدة . نحن نعتبر أمل ابنتنا.. فتقول سعيدة : ربنا يحفظك يا ست أنجيل .. وبعد انصراف أنجيل ودخول أمل إلى حجرتها انفجرت فرحانة بالسؤال قائلة بصوت تعجب وقد ارتسم على ملامحها تعبيرات استنكار : هل رأيتِ الصليب الذي يملئ صدرها ؟! كيف تتناولي معها الطعام وكيف تجعليها تقترب من ابنتك بهذا الشكل ؛ البنت متعلقة بها بشكل كبير . ألا تخشي عليها من هذه السيدة غير المسلمة ؟! .. فتقول سعيدة بصوت غلفه التعجب وقد ارتسمت على ملامحها الحيرة: هل تعلمي أن هذه السيدة هي أطيب سيدة تقابلت معها في القاهرة ؛ فهي تحب أمل بحق وتصدُق معي في جميع تصرفاتها

ولا تكذب ، وتتود إلينا وتفعل معنا كل خير . وزوجها يقوم بإعطاء أمل دروس خصوصية بدون مقابل .. فتقول فرحانة بصوت استنكار : على كل حال . لا تختلطي معها بهذه الصورة ، ولا تجعلي أمل تقترب منها أكثر من ذلك.. فتقول سعيدة بصوتٍ تعجب: سبحان الله أنتِ ترددي كلام صابر.. ثم تهز رأسها وتقول: لا تشغلي بالك بهذا الأمر فأنا لا أذهب عندها إلا مع أمل عندما تتلقى الدروس من زوجها الأستاذ نسيم . دعكِ من هذا الأمر . كيف حال خالتي سكينة ؟ هل مازال جمال ابنها لا يسأل عنها ؟! .. فتتأفف فرحانة ويرتسم على وجهها ملامح استنكار وهي تقول بصوت تملكه الغضب : منذ حوالي شهر ، بعد علم خالتك سكينة بأن زوجة ابنها انجبت له ولد ، توجهت إلى القاهرة ومعها الزادة والزوادة وذهبت إلى منزل أسرة زوجته ، ويقال أنهم استقبلـوها استقبال فاتر وأرجعها ابنها إلى دماص في نفس اليوم حيث ظلت مهمومة مريضة في دراها لفترة طويلة ، وظلت نبوية امرأة خالك وخضرة امرأة الشيخ علي بجوارها حتى تعافت .. فتقول سعيدة بصوت استنكار غلفه الحزن وتعبيرات وجهها تكاد تصرخ من استنكارها لجحود الأبن بوالدته : سبحان الله . بعد كل ما فعلته مع هذا الجاحد يكون هذا جزاؤها . والله لن يجني سوى الخزى والعار .. ثم تصمت للحظات وتقول بصوت فضول : هل هناك أخبار عن محمد ابن العوضي وأمه ؟ .. فتقول فرحانة بصوت غلفه حزن عميق : لا الله إلا الله . منذ تركها دماص ونحن لم نعلم عنها شيء حتى وصلتنا أخبار بأنها تزوجت من شخص عربي من نفس بلد زوج بشرى شقيقتها وتقيم في القاهرة ومعها أمها .. فتقول سعيدة وهي تحمل باسمة من على الأرض بعدما ذهبت في النوم ، وقد ارتسمت على ملامحها علامات حزن واستنكار : ربنا يسامحها ويصلح حال محمد بإذن الله . سأضع باسمة في السرير وأذهب لأجهز العشاء .. فتنهض فرحانة وهي تقول : عبد السميع ذهب أيضاً في النوم سأضعه بجوارها لنذهب ونجهز الطعام .

وبعدما جهزت سعيدة الطعام مع شقيقتها ووضعته على الطبلية ظلت فرحانة تقص لها أخبار أهل قرية دماص ، وعندما اقتربت الساعة من العاشرة انفتح باب الشقة ودخل صابر إلى صالة البيت ليجد ابنة عمه تجلس مع شقيقتها على الكنبة الأسيوطي . وبترحاب شديد ووجه بشوش وعيون أخوية قال بصوت مودة وترحيب : أهلاً يا فرحانة . نورتِ القاهرة . أين عبد الرحمن والأولاد ؟ .. فتستقبله فرحانة بفرحة شديدة وقد ارتسمت على وجهها تعبيرات فرحة وهي تمد يدها لتسلم عليه قائلة بصوت بهجة : أهلاً يا ابن عمي . افتقدناك . ربنا يخليك ويحفظك .. ثم تصمت لبضع لحظات لتقول بصوت نُزعت منه الفرحة ، وقد أكل الحزن ملامح وجهها وترغرغت عينيها بالدموع : لقد أرسلني عبد الرحمن لأقيم عندكم في القاهرة حتى يدبر لنا دار أخرى بعدما تركنا دار أبويا حسان الطوبجي .. فتتبدل البسمة المرسومة على وجه صابر بعلامات تساؤل قلوقة ليقول بصوت تساؤل : ما الذي جعلكم تتركون دار عم حسان ؟ .. فتنهمر الدموع من عيون فرحانة ويتعلثم لسانها لتقوم سعيدة بسرد ما روته لها شقيقتها من مشاكل مع زوجة صالح وزوجة عبد الجواد شقيقي عبد الرحمن ، والمشاجرة التي تمت بين عبد الرحمن وصالح وأمه .. وبعيون غاضبة وملامح مستنكرة كان صابر يستمع إلى زوجته حتى ما انتهت من سردها قال بصوت هادئ حملت نبرته نغمات كاظمة للغضب وهو ينظر إلى فرحانة نظرة شفقة حانية: لا تشغلي بالك بما حدث؟ والحمد لله أنكِ بخير.. سأذهب باكرًا إلى دماص وأحضر عبد الرحمن فأنا احتاج إليه معي في العمل .. فتقول سعيدة بصوت تساؤل غلفه التعجب : ماذا سيعمل معك ؟ فهو لا يعرف قيادة السيارة ؟! .. فيقول صابر : سيعمل معي تابع «منادي» على الميكروباص يجمع الأجرة .. فتقول فرحانة بصوت مخنوق وهي تمسح دموعها : عبد الرحمن أسطى في المعمار ويوميته من هذا العمل تصل إلى خمسة عشر جنيهًا .. فيقول صابر : يعمل معي بصفة مؤقتة حتى يدبر أمره .. ثم يصمت للحظات ويقول موجهاً كلامه إلى سعيدة: هل جهزتِ الطعام فأنا جائع جداً .. فتقول سعيدة : نعم الطعام على الطبلية . هل تحب أن أحضره

لك على مائدة السفرة ؟ .. فيقول صابر : نعم حتى أتمكن من الحديث مع فرحانة .. وبعدما أحضرت سعيدة الطعام ووضعته على مائدة السفرة جلس صابر يتناول طعامه فإذا به يلاحظ وجود شموع عيد الميلاد بجواره فيمسكها ويسأل بنبرة تساؤل وتعجب : هل انقطع التيار الكهربائي ؟ هذه الشموع شكلها مختلف ! .. فتنظر إليه سعيدة نظرة مرتبكة وتقول بصوت غلفه التوتر : الست أنجيل حضرت ومعها كعكة «تورتة » وأخبرتنا بأن هذا اليوم هو عيد ميلاد أمل الذي يجب أن نحتفل به بإضاءة شموع بعدد سنين عمرها لتقوم أمل بإطفائها .. فيقول صابر بصوت حدة وقد ارتسمت على وجه ملامح غضب وانفعال : عيد ميلاد ! استغفر الله العظيم . هل نتشبه بأهل الكفر والألحاد يا سعيدة ؟ فهذه عادة دخيلة على المسلمين وفعلها تقليد لأعداء الله تعالى، ومن تشبه بقوم فهو منهم . بعد اليوم لا حديث مع هذه السيدة ، ودروس أمل سأبحث لها عن أخت من الجماعة تساعدها في استذكارها .. فتقول سعيدة بصوت ضعيف تعلثمت كلماته: كما ترى. أرجوك لا تغضب فأنا لا أعلم بأمور الدين مثلك.. فتقول فرحانة : لقد توجست خيفة من هذه السيدة بعدما رأيت الصليب معلق على صدرها . واستغربت كيف تقبلا أن يعلم أمل شخص على غير ديننا .. فيقول صابر بصوت علت فيه نبرة الحسم : كنت أعتقد أن الأمر لن يتعدى مساعدة أمل في دروسها، ولم أفطن إلى الشر الذي يمكن أن نجنيه من الاختلاط بهؤلاء الأقباط. أين أمل؟.. فتقول سعيدة بصوت مكسور : أعتقد أنها قد ذهبت في النوم .. ويخيم الصمت على المكان لبضع دقائق أنهى خلالها صابر تناوله للطعام ، ثم يتوجه إلى حجرة النوم وهو يقول : نورتِ بيتك يا فرحانة . أنا ذاهب للنوم وبعد صلاة فجر الغد إن شاء الله سأذهب إلى دماص من أجل إقناع زوجك بالعمل معي حتى يتدبر أمره .. فتقول فرحانة بصوت غلفه الفرحة : الله يبارك لك في مالك ويرزقك بالذرية الصالحة يا ابن عمي .. وعندما دخل صابر إلى غرفة النوم لاحظ دموع أمل وهي مصطنعة النوم فاقترب منها ونظرها نظرة تأملية قلوقة وهو يضع يده على رأسها مستعيذاً بالله من الشيطان الرجيم .. فتفتح أمل عينيها وتقول بصوتها

الطفولي البريء وتعبيرات وجهها يعلوه الحزن: لماذا تمنع عنا الاختلاط بـ طنط أنجيل والأستاذ نسيم؛ فهما يحبوننا كثيراً ولم يفعلوا معنا إلا الخير يا أبي .. فيقول صابر بصوت يقين : أنتِ ما زلت صغيرة يا أمل ولن تستوعبي هذا الأمر. من اليوم لن تذهبي عند الخواجة نسيم.. فتقول أمل بصوت مكبوت وفي عينيها بكاء صامت ؛ فرغم معرفتها بطيبة قلب أبيها وتأكدها من حبه لها إلا أنها أيقنت أنه لن يتراجع عما قاله : نعم يا أبي سأفعل ما تريد .. فيقول صابر وهو يقبل رأسها : بوركتي يا ابنتي . هل أديتِ صلاة العشاء قبل النوم ؟ .. فتقول أمل وما زال الحزن مكبوت بداخلها : نعم يا أبي .. فيقول صابر: اللهم تقبل منكِ .. بعدها يتمدد صابر على السرير وخلال بضع دقائق يذهب في نوم عميق لتظل أمل تفكر فيما قاله أبوها وهي حزينة تدعو الله بقلب متضرع أن لا يحرمها من حب أنجيل ونسيم اللذان يعاملها وكأنها ابنتهما ؛ فقد ارتبطت أمل بهما ارتباط روحي يصعب الفكاك منه بهذه السهولة حتى تغلب عليها النعاس لتذهب في النوم.

ومع شقشقة صباح اليوم التالي كان صابر قد خرج بسيارته الميكروباص متجهاً نحو قرية دماص ، بعدما صلى الفجر كعادته في زاوية أنصار السنة المحمدية ؛ ليصل إلى دار الشيخ علي الراوي قبل حلول الساعة الثامنة صباحاً . وبعد لقاء ودي حار متبادل بين الاثنين جلسا في المضيفة ليطلق بعدها صابر حديث مطول عن أحوال الفساد والكفر اللذان طغى في البلاد ، يعززه الأحاديث والتفسيرات الفقيه التي يطلقها أصحاب فكر السلفية الجهادية . وبعدما استمع له الشيخ علي الراوي بآذان صاغية كاشفة سأله بصوت تعجب وملامح استغراب : لقد اطلعت على الكثير من أمور الفقه وأصول الدين بصورة تدعو للتعجب! وأصبحت ملابسك وهيئتك تشبه ملابس الجماعات الإسلامية المتشددة.. فينظر إليه صابر نظرة تأملية صامتة لبضع ثوان تذكر خلالها أقوال أعضاء الجماعة فيما يتعلق برجال الدين التابعين للدولة ، وكيف أنهم يُستخدمون كأبواق للنظام الحاكم ويتم من خلالهم إباحة المحرمات وإيجاد العقبات أمام تطبيق شرع الله ، فيقول بصوت فيه شيء من الحدة :

وما العيب في ملابسي وهيئتي ؟ أنا أرتدي الملابس الشرعية وأُطلق لحيتي كسنة عن نبينا محمد عليه الصلاة وأفضل السلام .. فينظر الشيخ علي إليه نظرة كاشفة لبضع لحظات استشعر خلالها ما حدث إلى صابر من تغيير في السلوك والعقيدة فقال بصوت به مسحة من خيبة الأمل : لا عيب يا ولدي أن ترتدي مثل هذه الملابس ، أو أن تطلق لحيتك سنة عن رسول الله . لكن الأهم من ذلك هو الالتزام بدين الله تعالى والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة وبالعلم والمعرفة وخدمة المجتمع ، والسعي فيما ينفع الناس .. فيقول صابر بصوت اقتناع مصطنع بعدما تحسس ما بداخل الشيخ علي من أحاسيس : نعم يا شيخنا .. ثم يصمت للحظات ويقول : هل علمت ما حدث من أولاد الطوبجي مع فرحانة ؟ .. فيقول الشيخ علي بصوت غلفه الاستنكار وملامح الآسى تكسو وجهه من شدة ما وصل إليه حال أهل القرية : نعم يا ولدي .. ثم يتأفف قائلاً : سبحان الذي يغيِّر ولا يتغيَّر . منذ عودة صالح من العراق ، وقد جمع معه بعض المال وقُدر له أن يفلت به من أحداث حرب الخليج ليشتغل في مجال مقاولات البناء ، وهو يظن أنه أصبح من كبار رجال المال في بر المحروسة ويتعامل حتى مع أخوته بتعالي شديد ، وقد استطاع الاستحواذ والسيطرة على دار حسان الطوبجي ولم يعد يستطيع أحد أن يملي عليه كلام حتى أبوه . خير ما فعل عبد الرحمن عندما جعل فرحانة تذهب عندكم .. فيقول صابر بصوت استفهام : هل تأتي معي حتى أعرض على عبد الرحمن أن يعمل معي في القاهرة فمن الصعب جداً أن يتدبر دار مستقلة، ولا يصح أن يهجر زوجته وأولاده.. فيقول الشيخ علي بصوت تعجب : وهل يستطيع شخص معدم مثل عبد الرحمن أن يجد دار في القاهرة ؟! .. فيقول صابر : في القاهرة الملايين من المعدمين يتجمعون في مناطق عديدة يتهافتون على أقل القليل من الرزق ، والذي يُعد في جميع الأحوال بالنسبة لكثير منهم أفضل من العيش في قرى لم يعد لهم فيها شيء يبكون عليه .. فيقول الشيخ علي بصوت مجروح وعلى وجه تعبيرات حسرة : اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا ، اللهم قنا واصرف عنا شر ما قضيت . في زمن ليس ببعيد يا ولدي كانت قريتنا رغم بساطة الحياة فيها أشبه لمعظم الفلاحين بالماء

بالنسبة إلى السمك .. ثم يتنهد نفس عميق ليقول : أعتقد أن عبد الرحمن ليس في القرية ؛ فبالتأكيد خرج ليبحث عن رزقه . هيا نبحث عنه فربما نجده على كوبري القرية ينتظر من يستأجره ليعمل عنده باليومية .. فيقول صابر وهو يهمّ بالنهوض : هيا يا شيخ علي .. وبالفعل بعد السؤال على عبد الرحمن وجداه على كوبري القرية . وبعد ترحاب ، ولقاء حار تم بين صابر وعديله ، رحب عبد الرحمن بما عُرض عليه ليذهب إلى دار حسان الطوبجي ويأتي بحاجاته لينطلقا الاثنان بعد توديعهما للشيخ علي نحو مدينة القاهرة ؛ حيث استطاع صابر بمساعدة أخوانه في الجماعة من إيجاد حجرة بمنافعها فوق سطح عقار في إحدى الشوارع المتفرعة من شارع الترعة البولاقية بشبرا لتستقر فرحانة وأولادها بجوار شقيقتها ، ويترك عبد الرحمن حرفة المعمار ويتجه للعمل كتباع مع صابر .. وخلال بضعة أشهر يتمكن عبد الرحمن من تعلم مهنة قيادة السيارات ، وينخرط مع الريفيين النازحين القابعين على هامش المدينة والذين لفظتهم قراهم بثقافتهم الريفية التي شوهتها الأمراض الاجتماعية ليرتموا في مأوى عشوائيات سكنية أصبحت تطوق مدينة القاهرة بصورة سرطانية لم تعط لها السلطة الحاكمة أي اهتمام[1] .. وخلال تلك الفترة ازداد نشاط صابر داخل تنظيم الجماعة وتم الزج به للتدريب على تنفيذ بعض أعمال العنف المسلح ضد أشخاص ومؤسسات الدولة ؛ ليصبح من المرشحين لتنفيذ ما يُطلب منه ، خاصة بعد القبض على عدد كبير من الأعضاء البارزين في التنظيم والمعلومين لدى جهاز مباحث أمن الدولة .

---

(١) لم تحرص الأنظمة الحاكمة السابقة على مدار أكثر من خمسة عقود علي تحسين الظروف المعيشية لهذه العشوائيات ، وإنما على العكس فقد راحوا يكرسون ظروف التفرقة بين أبناء الوطن الواحد وظهرت شوارع كأنها حدود فاصلة بين أحياء الأسياد والعبيد ، التي كانت سائدة في القرون الوسطي ؛ مساكن ينعم أهلها بحمامات الجاكوزي والتبريد والتدفئة بالكهرباء والغاز ومناطق أخري تعيش وسط تلال من القمامة وتعوم فوق بحور من المجاري وتشرب من مياه الصرف ، وتمثل مناخاً مناسباً لنمو البؤر الإجرامية التي تشكل خطراً حقيقياً على المجتمع . فهذه العشوائيات بعد فترة قليلة من إقامتها تحت مرأى ومسمع من السلطة الحاكمة تحولت إلي بيئة خصبة لانتشار الأمراض الناتجة عن التلوث بكل أشكاله ، وتنامت فيها أوكار الجريمة من بلطجة وإرهاب واغتصاب ودعارة وسرقة حتى تصدر هذه المناطق إلى جميع أنحاء المجتمع أجيالاً جديدة من محترفي الإجرام وفاقدي الانتماء .

وفي أحد أيام شهر سبتمبر من عام ١٩٩٢م وأثناء توجه صابر إلى موقف سيارات الأجرة بشارع رمسيس ، كعادته كل يوم بعد أدائه لصلاة الفجر في زاوية أنصار السنة المحمدية ، فوجئ بمجموعة من رجال الشرطة تعترض طريقه وتسحبه إلى خارج السيارة ليتم السيطرة عليه وشل حركته ثم وضعه في قفص سيارة ترحيلات كانت بصحبتهم ، حيث تم وضع عصابة سوداء على عينيه ليُرحل إلى فرع جهاز مباحث أمن الدولة بشبرا الخيمة ، ليقضي طول ذلك اليوم في زنزانة انفرادية لا تتعدى مساحتها ٢ متر طول في ٢ متر عرض ، بعدما ذاق من تعذيب ما كان يسمعه من أعضاء التنظيم الذين واجهوا الاعتقال من قبل[1] ؛ فعندما تم إنزال

---

(١) الروايات التي يسردها الأشخاص الذين تم الإفراج عنهم بعد اعتقالهم إدارياً بقرار من وزير الداخلية بعد توصية من جهاز مباحث أمن الدولة ، نظراً لخطورتهم على النظام العام وفقاً لحالة الطوارئ المعلنة منذ مقتل الرئيس الراحل أنور السادات، خلال الثلاثة عقود السابقة ، كثيرة وكلها تتفق في أنهم واجهوا أبشع أنواع التعذيب التي من وجهة نظرهم تُعد أبشع من التعذيب الذي يواجه المعتقلون الفلسطينيون على يد قوات الاحتلال الإسرائيلية .. ولكن لماذا كانت مواجهة النظام السابق مع الجماعات الإسلامية التي تبنت الفكر الجهادي بهذا العنف الدموي غير الإنساني؟ بكل بساطة فالفكر الجهادي الذي كان يدعو إلى الخروج على الحاكم الفاسد الذي لا يطبق أحكام الشريعة الإسلامية ، أو تأتي سياساته بقوانين وأحكام وقرارات تخالفها ، كان خلال العقود الأربعة السابقة يمثل الكابوس المزعج للأنظمة السياسية الحاكمة في البلاد العربية، خاصة الدول التي يعيش معظم سكانها في فقر، وتُعد مصر من أكثر الدول العربية التي انتشر منها وفيها هذا الفكر . وقد ألتقت المصالح والغايات الغربية مع نظيرتها في هذه البلدان حيث أصبح المد الإسلامي يمثل خطراً ذات أبعاد عقائدية وثقافية وتاريخية على الدول الغربية المسيحية ذات المنهجية العلمانية ، فاتجهت إلى مساندة ودعم الأنظمة العربية التي يتواجد بها هذا الفكر بصورة صريحة ومباشرة فدعمته بالمال والوسائل ومنحته الضوء الأخضر للبطش بأعضاء هذه الجماعات تحت مسمى مواجهة الإرهاب . العنف المفرط الذي اتبعه نظام مبارك في مواجهة الفكر الإسلامي الجهادي ، وإن استطاع أن يكبح جماح التطلعات السياسية لهذه الجماعات بمختلف إيدلوجياتها، إلا أنه ارتكب في سبيل ذلك أخطاء على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والأمني؛ فعلى المستوى الاقتصادي فقد أفرط نظام مبارك في تخصيص الاعتمادات المالية من موازنة الدولة لصالح الأجهزة الأمنية التي أسند لها مواجهة الكثير من الموضوعات الحياتية التي يُعد مواجهتها بالطرق الأمنية إهداراً للمال. وعلى المستوى الاجتماعي فقد كان لتوغل الشرطة في كثير من الأمور الحياتية للمواطن وعدم قيامها بمهامها الأساسية في حماية أمن المواطن ، بجانب فساد سلوك كثير من رجال الشرطة وإحساسهم = =

المعتقلين من سيارة الترحيلات تم إجبارهم على الانبطاح أرضاً لمدة قاربت نصف ساعة ليأتي بعدها عددًا من المجندين لينزعوا ملابسهم عنهم ليمر بعدها المعتقلون بين طابورين من العساكر بعرض مترين . الطابور الأول يتشكل من عسكر تحمل في يدها عصا غليظة ، والطابور الثاني يتشكل من عسكر يمسك بالكلاب الشرسة التي تنبح مثل الأسود الجائعة . وأمام أصوات هذه الكلاب يتجه المعتقلين نحو الطابور الآخر ليتم ضربه بصورة وحشية من قبل المجندين في مشهد مصغر من فيلم الكرنك وفيلم البريء . وبعد بضع ساعات من التنكيل وإهدار الكرامة الإنسانية يتم وضع صابر في الزنزانة ، وهو معصوب العينين مكبل الأيدي والأرجل بعدما انهار نفسياً وبدنياً بصورة تامة .. وفي صباح اليوم التالي استيقظ صابر ليجد ما يصطحبه إلى خارج الزنزانة التي وضع بها يقول له بصوت امتلئ بالتهديد الممزوج بالكراهية : هل تعلم يا ابن «أبشع ألفاظ القذف والسب في حق أمه» لو لم تعترف بما سيسألك عنه أحمد باشا الخشن ستواجه الموت ؟ .. فيقول صابر وتعبيرات الرعب والفزع تكسو ما يظهر من تعبيرات وجهه بصوت ارتعشت نبرته وتزلزلت نغماته من شدة الخوف : ماذا حدث ؟ أين أنا ؟ .. فيقول هذا الشخص : أنت في جهنم الحمرة يا ابن «أبشع كلمات السباب والقذف في حق الأب والأم» .

بأنهم ذوي حيثية خاصة ووضعية فوق المواطن العادي ، سبب مباشر في خلق فجوة نفسية بين الشعب والشرطة اتسعت حلقاتها بمرور الوقت لتصل إلى درجة اعتبار رجال الشرطة هم سياط الحاكم و سيفه الظالم . وعلى المستوى الأمني فقد كان للاهتمام بالأمن السياسي ، الذي كان يهدف إلى حماية الأشخاص القائمين على النظام ، وتنفيذ مخطط توريث الحكم سبباً مباشراً في فشل الشرطة في أداء دورها المتعلق بحماية النظام العام ، فازداد معدل الجريمة في ظل مجتمع انتشرت به المناطق العشوائية .. وفي النهاية فرغم رفضنا إلى الأساليب غير الإنسانية التي واجهها المعتقلين من أصحاب الفكر الجهادي بصفة خاصة ، وأصحاب فكر ما يُطلق عليه تيار الإسلام السياسي بصفة عامة ، إلا أننا لا نتفق معهم في استخدام العنف المسلح وما نتج عنه من ضحايا أبرياء وترتب عليه كثير من المفاسد الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ليست على المستوى المحلي فقط ، وإنما امتدت آثاره لتشمل المستوى الدولي ؛ حيث تم استخدام تلك الأفعال في سبيل تشوية صورة الإسلام ومحاربة المسلمين ثقافياً واقتصاديا بل وعسكرياً مثلما حدث في العراق وأفغانستان بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م التي راح ضحيتها أشخاص أبرياء .

هل تعتقد أنك كنت ستفلت من فعلتك الشنعية يا إرهابي . ثم يدفعه إلى داخل غرفة ويقيده في كرسي ثم يغلق بابها بقوة .. فتزداد حدة الرعشة التي أصابت جسد صابر وهو يقول بصوت استفهام مختنق ومهزوز يتوقع الألم البدني المؤلم : يا هذا . أين أنا ؟! ثم أخذ يردد ما تيسر له من سورة العنكبوت الأية (٤٠) ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ وبعدما يقرب من ساعة من الترقب والانتظار المميت الذي كان له تأثيرًا سلبيًا على الحالة النفسية لصابر سمع صوت باب الحجرة ينفتح وأصوات أقدام تتجه نحوه ليُنزع من على وجهه الغمامة السوداء ، ويتم فك قيوده ليرى أمامه شخص ذو ملامح هادئة بسيطة ينظر إليه نظرة تأملية كاشفة وعيون فاحصة وهو يقول بصوت توحي نبرته أنها لشخص طيب القلب يشير بيده ليخرج من في الحجرة ، التي لم تزد مساحتها عن ستة أمتار (٢ × ٣) وليس لها أية منافذ ولم يكن بها سوى منضدة مستديرة حولها مقعدين ومعلق فوق المنضدة كشاف ضوء ينبعث منه ضوء كثيف : كيف حالك يا صابر ؟ أتمنى أن تكون عاقل وتجيب بصدق على ما سيطرح عليك من أسئلة .. فينظر إليه صابر نظرة انكسار وهو يقول بصوت تظاهرت نبرته بالتماسك : يا معالي الباشا . أنا لا أعرف سبب وجودي هنا ولا أعرف أين أكون .. فيقول ضابط أمن الدولة : أنت رهن الاعتقال الإداري يا صابر ، وإذا لم تتعاون معنا سيوجه إليك تهمة الانتماء إلى جماعة ذات أفكار متطرفة تهدف إلى قلب نظام الحكم بالقوة المسلحة . وهذه الجريمة قد تصل عقوباتها إلى الأشغال الشاقة المؤبدة .. فيقول صابر بصوت منهك وهو ينظر إلى الضابط نظرة صامتة بعيون زائغة : ماذا تريد مني بالضبط يا سعادة البِك «البيه باللغة العامية » .. فيلاحقه الضابط قائلاً : ما هي علاقتك بالشيخ جابر الملقب بأبو نضال ؟ .. فيقول صابر بصوت ما زالت نبرته تصطنع التماسك : الشيخ جابر كان يركب معي السيارة كل يوم بعد انتهاء عمله ، وقد نشأت بيننا علاقة محبة في الله، وبفضل نصائحه أصبحت أصلي في زاوية أنصار السنة المحمدية التي يؤم المصلين فيها ،

واستطعت حفظ أكثر من عشرين جزءًا من القرآن في مقرأة الزاوية في عدة أشهر بجانب دروس الشريعة والفقه التي أداوم عليها هناك يومياً ما بين صلاة المغرب والعشاء .. فيقول الضابط بصوت هادئ وتعبيرات وجهه لم تتحرك ساكنة لهذا الكلام : لماذا كنت تذهب إلى معسكر الجماعة في مدينة أسيوط ؟ .. فيقول صابر بصوت فقدت نبرته التماسك وقد بدأت تعبيرات وجهه في الاهتزاز : أنا كنت أذهب مع العديد من أخواني كنوع من النشاط الرياضي في النادي الرياضي الخاص بجمعية أنصار السنة المحمدية لتعلم فن الدفاع عن النفس .. فتتحول تعبيرات الضابط من الهدوء إلى العاصفة ، وهو يقول بصوت أشبه بنفير الحرب وقد سلط ضوء المصباح في وجه صابر : من الواضح أن استقبال الأمس لم يكن كافيًا من أجل معرفة الحقيقة الغائبة عنك . يا أسطى صابر لقد اعترف عليك زملائك ؛ فأنت بالنسبة لهم مجرد شخص جاهل ليس لك أي وزن ضحوا بك كنوع من استراتيجيات المواجهة معهم .. فتبدأ تعبيرات التوتر العصبي اللاإرادي في التملك من صابر وتبدأ تعبيرات وجهه في الارتجاف وكتفه الأيمن يصطدم بوجهه وهو يضع يده على عينه قائلاً : استراتيجيات مواجهة ؟! ماذا تقصد يا سعادة البِك ؟ .. فيقول الضابط بصوت سيطر عليه الانفعال المصطنع : يعني ضحوا بك من أجل إنقاذ الأعضاء الأكثر نفعاً منك . فأنت بالنسبة لهم مجرد عضو تافه ليس لك وزن .. فيقول صابر بصوت يقين وتعبيرات التوتر العصبي اللاإرادي ما زالت تسيطر عليه: يا سيدي أنا لم أفعل شيء . هل كل ذنبي أنني أصلي في المسجد وأطلق لحيتي واتق الله في أعمالي .. فتهدأ تعبيرات الضابط وهو يقول بصوت هادئ : حسناً يا شيخ صابر . كما تريد . عندما تعرف لماذا ذهبت إلى معسكر تدريب الجماعة في مدينة أسيوط أطلب مقابلتي أنا المقدم أحمد الخشن .. ثم يضرب الجرس ليأتي الحرس ويضع الغمامة على عين صابر ويقيد قدميه ويديه ، ويذهب به إلى الزنزانة ليواجه خلال الثلاث أيام التالية مع باقي المعتقلين من الجماعة السلفية الجهادية مختلف أنواع التعذيب البدني والنفسي لتنهار قوة تحمله ويطلب مقابلة المقدم أحمد الخشن .

وفي صباح اليوم الرابع من حضوره إلى فرع مباحث أمن الدولة بشبرا الخيمة اصطحب الحرس صابر إلى مكتب المقدم أحمد الخشن وهو معصوب العينين مقيد اليدين والقدمين . وبعد فك وثاقه وإزالة الغمامة عن عينه وجد المقدم أحمد الخشن ينظره بابتسامة هادئة وهو يشير بأصابعه إلى الحرس ليخرج خارج الغرفة ثم يقول بصوت ناعم : لعلك تذكرت أسباب ترددك على معسكر أسيوط ؟ .. فيقول صابر بصوت متهالك وعيون زائغة من شدة التعب والإرهاق البدني والعصبي : قبل أن أتحدث في هذا الموضوع هل لي أن أسألك معروف ؟ .. فيقول أحمد الخشن بأسلوب ناعم : بكل تأكيد يا صابر إذا كان ذلك في استطاعتي .. فيقول صابر بأسلوب رجاء وتمني : إن شاء الله تستطيع يا باشا . سيارتي . استحلفك بالله يا باشا أن تسلمها إلى زوجتي فهي مصدر رزقنا الوحيد .. فينظر إليه المقدم أحمد الخشن نظرة تأملية وهو يقول بصوت غلفه النصح : كل طلباتك مجابة بإذن الله إذا صدقتني القول في إجابتك على الأسئلة التى سألقيها عليك .. فيقول صابر بصوت استسلام وعيون مكسورة : تفضل يا معالي الباشا أسأل وأنا سأقول كل ما أعرفه .. فيقول الخشن : لقد استطاعنا القبض على كل أفراد تنظيم الجماعة السلفية الجهادية والتي تزعمها أبو نضال قبل تنفيذ الاغتيالات التي كنتم تتدربون على تنفيذها . كل المطلوب منك هو الاعتراف بتفاصيل التدريب ونوع الأسلحة والمهام التي كُلفت بها ، والأشخاص الذين قمت بالاتصال بهم .. فيقول صابر بصوت خنوع : لقد ذهبت إلى معسكر أسيوط حتى أتعلم فن القتال والتدريب على استخدام الأسلحة، ولم أكن أعلم أي شيء عن أية اغتيالات .. وبعد حديث مطول استمر لأكثر من ثلاث ساعات استطاع خلالها المقدم أحمد الخشن من إقناع صابر بالتوقيع على محضر تضمن اعترافاته بالانضمام إلى جماعة ذات أفكار متطرفة والتدريب على فنون القتال والحرب بغرض قلب نظام الحكم بالقوة ، كما استطاع أحمد الخشن الحصول من صابر على أسماء الأشخاص الذين ارتبطوا بالتنظيم والأشخاص المقربين منهم ليتم اعتقالهم كإجراء وقائي حتى يتم استجوابهم والتأكد بأن وجودهم خارج المعتقل

لا يمثل خطورة على الأمن والنظام العام[١] .. وخلال بضعة أيام تم إحالة صابر وأعضاء التنظيم إلى المحكمة العسكرية التي حكمت خلال بضعة أشهر عليه بالسجن لمدة خمس سنوات ، وعلى أعضاء التنظيم بأحكام تراوحت بين الأشغال الشاقة المؤبدة والسجن خمس سنوات ، ليتم بعدها إيداع صابر في سجن شديد الحراسة بمنطقة سجون طره بمدينة القاهرة .

وخلال فترة اعتقال ومحاكمة صابر أمام المحكمة العسكرية واجهت سعيدة العديد من المشاكل المادية والنفسية ؛ حيث ظل الميكروباص مصدر رزقهم الوحيد

---

(١) خضعت مصر على نحو متصل لأحكام قانون الطوارئ (رقم ١٦٢ لسنة ١٩٥٨) منذ إعلان حالة الطوارئ في أعقاب اغتيال الرئيس السابق أنور السادات في أكتوبر ١٩٨١م . ومنذ ذلك الوقت ومع قيام مجلس الشعب بتجديد حالة الطوارئ بشكل شبه آلي تمتع رئيس الجمهورية بالحق في اعتقال المشتبه فيهم أو الخطرين على الأمن والنظام العام والترخيص في تفتيش الأشخاص والأماكن دون التقيد بأحكام قانون الإجراءات الجنائية . وقد تم تفويض رئيس الجمهورية لوزير الداخلية في إصدار قرارات الاعتقال بناءً على حقه الدستوري في التفويض ليصبح المتصرف الرئيسي في إصدار قرارات الاعتقالات هو القائم على رأس جهاز الشرطة بعد تقرير من مباحث أمن الدولة في حالات الاعتقال السياسي (الأشخاص الذين لم يرتكبوا أفعال مجرمة وفقاً لقانون العقوبات لكنهم وفقاً للسلطة التقديرية لجهاز مباحث أمن الدولة فأن وجودهم خارج المعتقلات يشكل تهديدًا للنظام والأمن العام بحجة تبنيهم أفكارًا متطرفة تهدد استقرار النظام والأمن) أو تقرير من مصلحة الأمن العام في حالات الاعتقال الجنائي (الأشخاص الذين لم يتم إدانتهم بإرتكاب أفعال مجرمة وفقاً لقانون العقوبات والمعروف عنهم بالإتجار في المخدرات أو العملة أو ارتكاب أعمال بلطجة تهدد الأمن العام بناءً على تقارير مصلحة الأمن العام) . كما أجاز قانون الطوارئ لرئيس الجمهورية حق إحالة محاكمة المتهمين في مثل هذه القضايا للمحاكم العسكرية التي لم توفر الضمانات التي يتمتع بها المتهمين أمام المحاكم المدنية ، ونتج عنها مشاكل خطيرة فيما يتعلق بإقامة العدالة على نحو منصف وحيادي ومستقل لعل كان أخطرها صدور أحكام بالإعدام على أشخاص مدنيين دون أن تتوفر لهم فرصة استئناف الأحكام الصادرة ضدهم ليتم إزهاق أرواحهم بصورة سريعة كان الغرض منها هو التخلص من هؤلاء الأشخاص وتحقيق الردع لكل شخص يفكر في معاداة النظام بأية صورة ، وفي حالات ليست قليلة تم إعدام أشخاص أبرياء لم يثبت ارتكابهم جرائم أو كانت جريمتهم لا تستحق على أقل تقدير لو نظرتها المحاكم العادية سوى السجن ؛ فعلى سبيل المثال فالمتهمين بالشروع في قتل الأديب نجيب محفوظ تم إعدامهم في جريمة لا تستحق أقصى عقوبة لها وفقاً لقانون العقوبات سوى السجن لمدة خمس سنوات .

تحت التحفظ على ذمة القضية حتى أفرجت عنه نيابة أمن الدولة العليا طوارئ بعد ما يقرب من شهر ليقوم عبد الرحمن الطوبجي بقيادته في مقابل نصف الإيراد . وأمام الديون التي تراكمت بسبب تكاليف القضية قامت سعيدة بالتصرف في كل المدخرات التي احتفظ بها صابر ، حتى ميراثها التي كانت تحتفظ به فقد قامت بتسييله والتصرف في معظمه لتكملة مصاريف تكاليف القضية . وبخلاف الإرهاق المادي فقد جاء خبر اعتقال صابر ثم الحكم عليه بالسجن خمس سنوات بمثابة الصدمة والكارثة التي حطمت معنويات سعيدة وجعلتها أشبه بحطام إنسانة؛ فقد امتلأ قلبها بالآهات بعدما فقدت الرفيق والصديق والأخ والزوج والعشيق ، فقد صار البيت بدون صابر أشبه بالجسد الذي فقد الروح ، وأصبح قلبها ينبض بنبضات تائهة حزينة فقدت رغبتها في الحياة . ورغم المساندة والدعم المعنوي ، الذي قدمه أهل دماص وفي مقدمتهم الشيخ علي الراعي وزوجته خضرة وعطوه العراقي وزوجته نبوية وملازمة شقيقتها فرحانة وابنة عمها عبير أبو عساكر «شقيقة صابر» لها خلال تلك المحنة ، فلم تستطع سعيدة التغلب على إحساس الضياع واليأس الذي تمكن منها حتى زيارتها لزوجها في سجن شديد الحراسة بعد شهر من صدور الحكم عليه ؛ حيث استطاع صابر رغم الكارثة التي يواجهها من مدها بروح الصبر على المحنة التي يواجهوها والعزيمة على مواصلة الكفاح من أجل ابنتهما أمل .. وعقب عودتها من أول زيارة لها لزوجها بصحبة فرحانة وعبد الرحمن الطوبجي ذهبت سعيدة بصحبة شقيقتها لتأتي بابنتها أمل التي تركتها عند عمتها عبير في حي شبرا الخيمة ؛ حيث استقرت هناك هي وزوجها بركات صيام بعد ترقيته إلى كادر الضباط عقب تخرجه من المعهد الفني للقوات المسلحة والتحاقه للعمل في مطار ألماظة .. وبعد حديث مطول دار بين سعيدة وعبير عن أحوال صابر اشترك فيه كل من عبد الرحمن وفرحانة جاءت أمل إلى الحجرة التي يجلسون بها وهي تبكي بكاءً شديدًا لترتمي في أحضان أمها، وهي تقول بصوت متقطع مصدوم حزين: هل أبي مجرم وسيظل في السجن طوال حياته ولن أراه مرة أخرى ؟! ..

فتتجه كل من عبير وفرحانة نحوها حيث احتضنتها سعيدة وهي تقول بصوت استفهام مصدوم والدموع تنهمر من عينيها : من الذي قال لك هذا الكلام؟ .. فتقول أمل بصوتها الطفولي البريء المهموم وهي تنظر إلى عمتها نظرة صامتة : شادي ابن عمتي هو الذي قال ذلك .. فتقول عبير بصوت تملكه الغضب وتعبيرات وجهها تكسوها ملامح الخجل : والله سأضربه على هذا الكلام .. فتقول فرحانة بصوت مواساة وهي تمسك بيد أمل لتحضنها وتقبل رأسها : معلش يا أمل . لا تحزني فكلام شادي غير صحيح وإن شاء الله سيعود صابر بعد وقت قصير.. ثم تنظر إلى عبير نظرة عاتبة وتقول بصوت به حرقة: من أين جاء شادي بهذا الكلام؟.. فتتوجه عبير إلى الحجرة التي يتواجد بها ابنها وتقوم بضربه وهي تعنفه بسبب ما قاله إلى عبير حتى قال بصوت باكٍ غاضب : هذا كلام أبي وهو قاله لكِ . لماذا تضربيني ؟ .. فتتجه فرحانة نحوهما وتمسك بـ شادي وتبعده عن أمه وهي تقول بصوت حدة: توقفي يا عبير . الولد يردد كلام سمعه ، وربما لم يفهمه ورده خطأ.. وبعد ما يقرب من ساعتين تنصرف سعيدة وفرحانة ليعودوا إلى دارهم ، وتظل أمل حبيسة حجرتها طوال تلك الليلة تفكر فيما قاله لها ابن عمتها وهي تمسك بصورة ابيها تحاول تحسس ملامحه واستشعار رائحته ، بينما ظلت سعيدة تدعو الله وتستعيذ من الشيطان حتى تبعد أحاسيس اليأس وفقدان الأمل التي عاودتها لتتجه نحو ابنتها تخفف من أحزانها حتى يذهبا الاثنين في النوم .

وتمر الأيام وتبدأ سعيدة في استعادة عافيتها البدنية وإحساسها بحتمية مواجهة الحياة مهما كانت الصعاب فتتجه لتركيز كل اهتماماتها اليومية نحو ابنتها الوحيدة أمل التي واجهت انتكاسة نفسية بعد اعتقال وسجن والدها كان لها تأثيرًا سلبيًّا على مستواها الدراسي ، لولا مساندة الأستاذ نسيم الذي تناسى الإساءة التي وجهها له صابر بعد قيام زوجته بالاحتفال بعيد ميلاد أمل العام الماضي وروح الكراهية التي أطلقها تجاهه بدون مبرر ، والدعم والتأهيل النفسي الذي حصلت عليه من أنجيل وبهية وبناتها .. وفي عصر يوم الاثنين ٢٢ فبراير عام ١٩٩٣م ، والذي كان يوافق

أول أيام شهر رمضان الكريم عام ١٤١٣هـ ، كانت سعيدة تجهز طعام الإفطار قبل حضور فرحانة وزوجها عبد السميع وأولادهما لتناول طعام الإفطار معها في أول أيام الصيام ، فإذا بـ بهية جارتها تأتي إليها ومعها ابنتها صافي وعلى وجههما تعبيرات حزن وآسى وعلى لسانهما صمتاً حائراً .. فتستقبلهما سعيدة استقبال ودود وهي تمسك الأواني التي تطهو بها حتى لاحظت تعبيرات الحزن والأسى المرسومة على وجههما فتقول بصوت استفهام : أرى الحزن في وجهكما يا ست بهية . ما الذي حدث ؟ .. فتقول بهية بصوت تملكه الألم والحسرة : أنا أعلم جيداً أنكِ إنسانة مؤمنة وتعرفي أن قضاء الله لا يستطيع أحد منعه .. فتترك سعيدة ما بيدها من أواني لتسقط على الأرض وقد ارتسمت على وجهها تعبيرات استباقية صادمة وهي تقول بصوت غلفه الهلع والفزع: هل حدث شيء إلى زوجي؟ .. فتقول بهية بصوت نفي: لا زوجك بخير.. ثم تصمت للحظات وهي تقول بصوت ألم: الأسطى عبد الرحمن زوج فرحانة أختك عندما كان يسير بالسيارة تحت كوبري ٦ أكتوبر سقطت أمامه سيارة من أعلى الكوبري فاصطدم بها ، وهو في مستشفى الهلال وحالته خطيرة.. فتقول سعيدة وهي تصرخ من شدة الصدمة: من الذي أبلغكِ بذلك؟.. فتقول بهية وهي تمسك بيدها في محاولة لتهدئتها : أختك فرحانة ذهبت فور سماعها الخبر إلى مستشفى الهلال حيث اتصل بنا أحد جيرانها وأخبرنا بالحادث .. فتهرول سعيدة مسرعة لترتدي عباءتها وتنطلق إلى الشارع لتلاحقها صافي[1] ويستوقفا تاكسي ينقلهما إلى مستشفى الهلال ليتقابلا مع فرحانة التي كانت في حالة انهيار تام بعدما علمت أن زوجها أصيب بكسور مضعفة في الحوض والفخذ وارتجاج في المخ وحالته خطيرة .. وبعد حوالي ساعة من الترقب والانتظار اللذين سيطرا على فرحانة وسعيدة ومن بصحبتهم جاءهم الطبيب الذي فحص حالة عبد الرحمن ،

(١) تبلغ من العمر ٢٠ عامًا وتدرس في كلية الآداب جامعة عين شمس قسم الفلسفة السنة الثالثة . غاية في الحسن والجمال مثل والدتها ، وتتمتع بقلب طيب وخُلق حميدة . شخصية نسائية تقليدية تهتم بعمل البيت وطهي المأكولات وتهوى حياكة الملابس .

وأخبرهم بأنه سيتم تجهيز المصاب خلال مدة لا تتجاوز ٤٨ ساعة لإجراء عملية جراحية سيتم خلالها تثبيت العظام بمسمار نخاعى تشابكى للساق والفخذ ، ويجب توقيع أهله بالموافقة الكتابية على إجراء العملية. كما أخبرهم بأن وجودهم بالمستشفى ليس له داعٍ خاصة وأن المصاب موضوع تحت الملاحظة في غرفة العناية المركزة للتأكد من عدم وجود نزيف داخلي. بعدها تتوجه سعيدة بصحبة صافي وفرحانة لتحضر عبد السميع وباسمة من عند إحدى جيران فرحانة ويتجهوا إلى منزلها، حيث كانت بهية قد أعدت لهم طعام الإفطار واستضافتهم ليجلسوا جميعاً على مائدة الطعام يحاولون التخفيف عن فرحانة، ومواساتها والدعاء لزوجها بالشفاء غير مدركين حتى هذا التوقيت حجم الكارثة المادية الناتجة عن تلك الحادث بعدما تحطمت السيارة تماماً ولم تعد صالحة للتشغيل لتفقد كلتا الشقيقتين مصدر دخلهما .. وتمر أيام تستوعب خلالها كل من سعيدة وفرحانة حجم الكارثة التي ألمت بهما فقد فقدت كل منهما مصدر دخلها الوحيد، ولم يتبق لهما من مال سوى بعض الأموال المتبقية من ميراث أبيهما . وخلال هذه الأيام القليلة يجري عبد الرحمن عملية جراحية ليخرج بعدها من المستشفى ويعود إلى بيته طريح الفراش لفترة ستمتد حسب ما قاله الأطباء إلى ما يقرب من عامين حتى يستطيع المشي على قدميه، ولكنه لن يستطيع العمل كسائق أو في الأعمال التي تتطلب مجهودًا من أي نوع .

وتدفع الأيام ببعضها البعض وتتجه سعيدة وفرحانة لمواجهة متطلبات الحياة المادية وقسوة إشباع الجوع ، وتستطيع فرحانة إيجاد مصاريف علاج زوجها ؛ فبعد تدهور الحال واستدانت فرحانة من جيرانها وعدم مقدرتها على السداد ، خاصة بعدما رفض صالح وعبد الجواد مساعدة أخيهما بالمال وهو بعيد عن دار أبيه ، ساعدتها أحد جارتها للعمل معها في خدمة الشقق السكنية المفروشة التي يسكنها عرب وأجانب . وبعد بضعة شهور وتحت إلحاح فرحانة وسياط الجوع والحاجة قبلت سعيدة العمل مع شقيقتها .. وتمر الأيام بمرها وقسوتها على سعيدة وهي

تكافح من أجل توفير الطعام والملابس لابنتها ومصاريف الزيارة إلى زوجها في السجن مرة كل شهر ، والتي كانت تكلفها طعام وأدوية واحتياجات مسموح بدخولها إلى المسجونين . وفي أحد أيام شهر أغسطس عام ١٩٩٣م وبعدما تركت سعيدة ، كعادتها كل يوم ذهابها إلى عملها في شارع شهاب بالمهندسين ، ابنتها أمل عند جارتها بهية اتصلت تليفونياً من كوشك تجاري على محطة الأتوبيس بـ مديحة[1] التي كانت تقوم بإدارة الشقق المفروشة التي تقوم سعيدة وفرحانة بنظافتها لتستعلم عن مكان عملها في هذا اليوم فأخبرتها مديحة بصوت غلفه الثناء والتحفيز بعد مبادلتها السلام : أنتِ محظوظة يا سعيدة . هناك أسرة خليجية تريد معها سيدتين لخدمتهما طوال وجودهم بالقاهرة والعائد المادي كبير .. فتقول سعيدة بصوت لهفة: ما هي المدة التي ستقضيها هذه العائلة في القاهرة؟ وكم من النقود سيدفعوها؟.. فتقول مديحة بصوت تشويق: سيمكثون قرابة أربع سنوات وكل واحدة منكن ستأخذ قرابة سبعمائة جنيه شهرياً .. فتقول سعيدة بصوت غلفه الفرحة : ومتى سأبدأ معهم العمل ؟ .. فتقول مديحة : رتبي أمورك بعد غد .. فتقول سعيدة : هل ألغيتي ميعاد اليوم فقد كنت جاهزة لتنظيف شقة ١٥ عمارة ٣٣ .. فتقول مديحة بصوت تأكيد : اذهبي الآن وستجدي شهد «سكرتيرة مديحة » في انتظارك هناك . رتبيها ونظفيها جيداً فالمستأجر الجديد سيأتي مساء اليوم . أراكي بخير يا سعيدة ثم تغلق الاتصال .. فتغلق سعيدة الاتصال بعدما تتأكد من قيام مديحة بإنهاء المكالمة لتدفع ثمنها ثم تتجه إلى محطة الأتوبيس لتستقل الأتوبيس المتجه إلى المهندسين ، وتظل طوال الطريق من شبرا حتى المهندسين تفكر في كيفية إقناع مديحة بتشغيل

---

(١) سيدة في نهاية العقد الثالث من العمر . ذات حسن وجمال ومظهر أنيق . مطلقة منذ عدة سنوات ، حيث لم يستمر زواجها أكثر من بضعة شهور . ذات علاقات اجتماعية متعددة ومتشعبة . حاصلة على بكالوريوس خدمة اجتماعية واتجهت منذ تخرجها من الجامعة للعمل في مجال السمسرة العقارية وتجارة العملة ، وحققت بعض المال استطاعت من خلاله شراء شقة سكنية بحي المهندسين تباشر من خلالها عملية السمسرة العقارية وتأجير الشقق المفروشة وخدمة رجال الأعمال، وجميع أعمال الوساطة التجارية.

فرحانة معها حتى إن وصلت للشقة التي ستقوم بتنظيفها تتصل بشقيقتها وتخبرها بأن تتحدث مع مديحة حتى تقنعها بأن تأتي معها لخدمة العائلة الخليجية . وقد تحقق لها ما أرادا واستعد الاثنتان للذهاب إلى عملهما الجديد بعدما رتبت كل منهما أوضاعها حتى تتمكن من التواجد في العمل من الساعة الثامنة صباحاً حتى الساعة الثامنة مساءً كل يوم عدا يوم الجمعة ؛ حيث ستترك سعيدة ابنتها عند جارتها بهية التي أصبحت مع ابنتيها صافي وشهندة[١] خلال الفترة الماضية من أقرب الناس إليها . وفيما يتعلق بـ فرحانة فقد اتفقت مع جارتها شادية[٢] على رعاية زوجها وأطفالها في مقابل حصولها على مائة وخمسين جنية شهرياً .

وفي صباح اليوم المحدد لذهاب سعيدة وفرحانة لاستلام عملهما الجديد ارتدت كل منهما أفضل ما لديها من ثياب (عباءة سوداء مطرزة باللون الذهبي على الصدر والأكمام والأطراف وطرحة سوداء مطرزة بالخرز وحذاء أسود لامع بدون كعب) وتوجهتا بصحبة مديحة لمقابلة العميد الركن مهندس معز الصالح[٣] بالفيلا

---

(١) تبلغ ١٨ عامًا تدرس في كلية الحقوق جامعة عين شمس السنة الأولى . جميلة ولديها كاريزما وحضور برّاق ، واستطاعت رغم صغر سنها من اكتساب خبرة التخاطب والتفاعل مع كل واحد حسب مستواه الفكري والاجتماعي من خلال الأنشطة الطلابية في الجامعة .

(٢) سيدة في منتصف العقد الثالث تسكن في الحجرة الملاصقة إلى حجرة فرحانة ، ضمن خمسة حجرات على سطح عقار قديم في شارع الترعة البولاقية . لا تعرف لها أهل حيث تربت في ملجأ للأيتام وتزوجت وعمرها ١٨ سنة بشخص مثلها تربى في ملجأ للأيتام ولا يُعرف له أهل . سافر زوجها إلى العراق منذ خمس سنوات ولا تعرف عنه شيء منذ أكثر من ثلاث سنوات . توفيت ابنتها الوحيدة منذ سنتين بعد إصابتها بالتهاب كبد وبائي حيث عجزت عن إيجاد مصاريف علاجها . مثل كثير من البسطاء فقد أكل الفقر والقهر ملامح أنوثتها البسيطة . تركت عملها في مشغل لحياكة الملابس منذ شهر ولم تجد لها عملاً آخر .

(٣) البالغ من العمر ٤١ عامًا ويرتبط بصلة مصاهرة مع الأسرة الحاكمة لدولة الكويت . حاصل على بكالوريوس الهندسة والعلوم العسكرية من الكلية الفنية العسكرية المصرية وخدم في الديوان الأميري منذ تخرجه ، وكان مسئولاً عن مركز المعلومات حتى صدور قرار تعينه في وظيفة المستشار العسكري لسفارة الكويت في مصر . يتمتع بقدر كبير من الذكاء والفطنة ويكرس معظم وقته في

التي استأجرتها السفارة له بشارع وادي النيل المتفرع من شارع جامعة الدول العربية (من أشهر شوارع حي المهندسين ومدينة القاهرة) حيث تقابلوا مع سامح الشامي[1] الذي أوكله المستشار العسكري في مقابلة العمالة المصرية التي سيتم التعاقد معها للعمل في الفيلا (الخدم – الحارس – الطباخ – السفرجي) .. وبنظرة تأملية فاحصة أطلقها سامح إلى كل من سعيدة وفرحانة بعدما رحب بـ مديحة قال بصوت ترحاب وثناء موجهاً كلامه إليها : اعتقد يا مدام مديحة أن اختياراتك دائماً في محلها. الفيلا أكثر من رائعة وحازت على إعجاب كل أفراد أسرة سعادة المستشار.. فتقول مديحة بصوت علت به نغمات أنوثة وهي تنظره نظرة إعجاب: أشكرك يا أستاذ سامح. والحمد لله أننا شرفناك أمام السفارة.. فيتبسم سامح ابتسامة ملاطفة وهو يقول : بالطبع يا مدام أنتِ صاحبة زوق رفيع وتعرفي كيف تختاري ما يطلبه منكِ عملائك .. ثم ينظر إلى سعيدة نظرة باسمة ويقول : ما اسمك ؟ .. فتقول وهي تنظره نظرة مستضعفة : خادمتك سعيدة .. ثم يقول وهو ينظر إلى فرحانة : وأنتِ .. فتقول وهي تنظره نظرة تأملية صامتة : اسمي فرحانة . شقيقة سعيدة .. فينظر إليهما بالتتابع وهو يقول بصوت إرشاد ونصح : مدام مديحة تثني عليكما وأنا أثق في كلامها . أرجو أن تكونا عند حسن ظن سعادة المستشار وأسرته . الفيلا ثلاثة أدوار . الدور الأرضي لاستقبال الضيوف وتناول الطعام ، والدور الأول ستسكن به الزوجة الأولى السيدة ليلى الصالح وأولاده شاهين وجابر ، والدور الثاني ستسكن به الزوجة الثانية السيدة نهال المقدسي وولدها حمد.. ثم ينظر إلى فرحانة ويقول: خدمتك ستكون في الدور الأول مع السيدة ليلى بجانب التناوب

الإطلاع والمعرفة . تعرض خلال غزو القوات العراقية للكويت للأسر وعمليات تعذيب على يد العراقيين أضعفت من قدرته الجنسية .

(١) شاب مصري في منتصف العقد الثالث . حاصل على ليسانس أداب قسم إعلام شعبة علاقات عامة ويتحدث اللغة الانجليزية بطلاقة . أنيق الهندام وسيم الملامح يتحدث بأسلوب منسق براق يجذب إليه النساء . من عائلة تنتمي إلى الطبقة المتوسطة تسكن بشارع شبرا . يعمل في السفارة الكويتية منذ أكثر من عامين .

على ترتيب ونظافة الدور الأرضي مع سعيدة .. وينظر إلى سعيدة ويقول : خدمتك ستكون في الدور الثاني مع السيدة نهال. وهذا طبعاً بصورة مبدئية حتى يقر سيادة المستشار وزوجتيه هذا الكلام.. فتقول مديحة بصوت يقين ومازالت نظرة الأنوثة الحالمة مرسومة على وجهها : فرحانة وسعيدة من أفضل النساء التي عملت لدى مكتبي. واعتقد أنهما سيكونا عند حسن ظن الجميع.. فيقول سامح: السيد المستشار وعائلته سيحضرون إلى الفيلا غداً وستكون مهمتكما تنظيف المكان وترتيبه. سأتركما وأعود الساعة الخامسة لتكونا قد أنجزتما العمل .. فتقول سعيدة بصوت إيجاب خانع وهي تنظره نظرة طاعة : إن شاء الله يا سيدي عندما تأتي سنكون قد أنجزنا كل شيء.. فينظر إليها سامح نظرة صامتة ويقول: إن شاء الله .. ثم ينظر إلى مديحة ويقول : هل ستأتي معي؟ .. فتزداد حدة النظرة الحالمة في عيون مديحة لتقول بصوت غلفه الفرحة : نعم . لينصرفا الاثنان ويتركا سعيدة وفرحانة يقوما بأعمال النظافة وترتيب المنزل حتى يعود سامح ، ويتمم على الفيلا لينصرف بعدها الجميع كل إلى حال سبيله .

وفي صباح اليوم التالي توجهت سعيدة وفرحانة إلى الفيلا حيث تقابلا مع سيد الطباخ[١] وحسانين السفرجي[٢] وتنشأ بينهما ألفة ومودة خلال الساعات الأولى التي قضوها في طهي وتجهيز طعام الغداء في انتظار مقابلة العميد الركن معز الصالح ..

---

(١) في منتصف العقد السادس من العمر . ذو بشرة سمراء . تعود أصوله إلى النوبة . طيب القلب مثل معظم سكان النوبة ويتميز ببشاشة الوجه وحلاوة اللسان . ورث مهنة الطبخ عن أبيه الذي كان يعمل ضمن الحاشية الملكية في عهد الملك فؤاد ثم الملك فاروق . عمل لدى أسرة استقراطية من بقايا العهد الملكي لمدة قاربت الثلاثين عام حتى هاجر من تبقى منها إلى خارج البلاد ليظل يعمل بصورة غير منتظمة لدى عدد من الأسر المصرية.الثرية ، والأسر العربية التي استوطنت مصر لبعض الوقت . يسكن بحي أمبابة مع زوجته ولديه ثلاثة أبناء يمتهنوا مهنة الإرشاد السياحي وكلهم متزوجين ومقيمين في الأقصر .

(٢) في أوائل العقد الخامس من العمر ذو بشرة سمراء يرتبط بصلة قرابة مع سيد الطباخ ولازمه في خدمة الأسرة الارستقراطية ، وفي معظم أعماله اللاحقة . لا يختلف في طبائعه وعاداته عن سيد الطباخ. متزوج ولم ينجب أولاد ومقيم مع زوجته في شقة بنفس العقار الذي يسكن به سيد الطباخ.

ومع حلول آذان العصر حضر المستشار العسكري وأسرته في موكب مكون من ثلاثة سيارات فارهة، حيث كان برفقته سامح الشامي ، بينما استقلت كل زوجة مع أولادها سيارة. وبمجرد دخول معز وزوجته الأولى ليلى[١] وولديها شاهين[٢] وجابر[٣] ، وزوجته الثانية نهال[٤] وابنها حمد[٥] إلى الفيلا تجمعت الحاشية بجوار مائدة الطعام في انتظار أوامر منهم.. وبعد جولة سريعة قامت بها العائلة لتفقد الفيلا ومحتوياتها بعد إعادة ترتيبها اتجهوا للجلوس على مائدة الطعام ؛ حيث تم تجهيز الطعام الذي طلب سامح إعداده حسب ما أمره به العميد معز . وفي عجالة سريعة قبل البدء في تناول الطعام اتجه سامح وقدم إليهم كل واحد من الحاشية ووظيفته .. وبنظرة تأملية ثاقبة وصوت هادئ قال معز باللهجة المصرية : أنا أثق في اختيارات سامح وإن شاء الله تستمروا معنا طوال وجودنا بالقاهرة .. ثم تبدأ العائلة في تناول طعامها بعدما يستأذن سامح بالانصراف . وبعد تناول الطعام

---

(١) ابنة عم معز وتبلغ من العمر ٣٦ سنة . تزوجها منذ ما يقرب من ثمانية عشر عام . متواضعة الجمال وتحاول تعويض ذلك بارتداء أفخم الثياب والمجوهرات . ذات شخصية متكبرة ومغرورة تحمل بداخلها تعالي تجاه الخدم الذي يعمل لديها ، وتعاملهم معاملة السيد للعبد . حضرت إلى مصر مرات عديدة للسياحة والتنزهة وتعرف كثير من طبائع المصريين .

(٢) يبلغ ١٧ عامًا يشبه كثيراً أمه في الشكل والطباع . تم قبوله بالجامعة الأمريكية بالقاهرة لدراسة إدارة الأعمال .

(٣) يبلغ ١٦ عامًا يختلف عن أخيه ويتمتع بقلب طيب وعقل راجح ومظهر حسن . رغم صغر سنه فقد حصل على الثانوية العامة من دولة الكويت ، وتم ترشيحه للقبول ضمن الطلبة الوافدين بكلية الشرطة بعد اجتياز اختبارات اللياقة الصحية والبدنية .

(٤) تبلغ من العمر ٢٨ عامًا . تنتمي إلى عائلة فلسطينية استوطنت الكويت بعد حرب ١٩٤٨م ، وتجنست بالجنسية الكويتية بعد استقلالها عن بريطانيا ، ووالدها كان يعمل ضمن صغار الموظفين بحاشية القصر الأميري . على قدر كبير من الجمال والأنوثة الطاغية وتتمتع بخفة روح وذكاء اجتماعي يجذب إليها المحيطين بها مما جعل ليلى الصالح تغار منها وتحقد عليها وتكيد لها .

(٥) صبي يبلغ العاشرة . ذو ملامح جميلة مثل والدته ويتمتع بحيوية وبراءة طفولية . تم إلحاقة للدراسة بالصف الخامس بالمدرسة الألمانية بالدقي .

اتجهت كل زوجة إلى مسكنها بالفيلا مصطحبة معها خادمتها لتتعرف على مطلباتها، حتى إن جاءت الساعة الثامنة استأذنت الشقيقتين لتعود كل واحدة منهن إلى منزلها وبداخلها بريق أمل نحو حياة أفضل بعدما تأكد استمرارهم في العمل الذي سيدر عليهما عائدًا ماديًّا تستطيع من خلاله كل منهما أن تسد رمق فلذة كبدها وتقف بجوار زوجها في محنته .

ويمر ثلاثة أشهر وتصبح سعيدة بفضل طاعتها وخنوعها مقربة إلى قلب نهال التي تحسست طيبة قلب مخدومتها ونقاء مشاعرها فأحسنت معاملتها وقربتها إليها. وفي المقابل ورغم المعاملة الغليظة التي كانت تعاملها ليلى إلى خادمتها فقد استطاعت فرحانة مداهنتها وكسر حدة غلظتها ، وتقربت منها بنقل أخبار نهال عن طريق شقيقتها .. وخلال هذه الفترة لم يعكر صفو سعيدة سوى صدور قرار من مصلحة السجون بمنع الزيارة عن المساجين والمعتقلين بسجن شديد الحراسة[1] لتظل رغم تظاهرها بالسعادة والفرحة طوال فترة وجودها مع مخدومتها تبكي بكاءً صامتًا وراء وجه بشوش .

* * * * *

(١) أغلقت وزارة الداخلية سجن شديد الحراسة بطره ومنعت الزيارة عن نزلائه منذ أواخر عام ١٩٩٣م بقرارات إدارية متعاقبة بحجة دواعى أمنية لفترة جاوزت ست سنوات حتى صدور عشرة أحكام من محكمة القضاء الإداري بإلغاء تلك القرارات .

الفصل الثاني

جرائم بلا جاني والفاعل معلوم

عذاب التمزق والضياع والإحساس بالمهانة إزاء الظروف القاسية التي فرضها الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، واستفادت منها مجموعة أشخاص تبلورت في مراكز قوى داخل المجتمع المصري منذ إعلان مصطلح ما يُطلق عليه «الحرب على الإرهاب» بعد انكسار الاتحاد السوفيتي وحرب الخليج الثانية ، هدمت معنويات المواطن المصري البسيط ؛ حيث استوطنت قلوب وعقول الغالبية العظمى من المصريين المصالح والأطماع والأنانية التي لا ترى في الحياة مثلاً أعلى غير الانتهازية والتسلق والسعي الحثيث وراء المصالح الشخصية دون اهتمام بالمصلحة العامة ، فتهدمت المثل وضاع ما تبقى من قيم وساد محلها الجشع والطمع والأنانية السحيقة التي لا ترى في الحياة مثلاً أعلى لتصاب الشخصية البسيطة المقهورة التي لم تستطع دخول معترك الانتهازية بالضيق والسخط على المجتمع بعدما تحولت الحياة المحيطة بها إلى غابة يأكل فيها القوي الضعيف ويستباح فيها دماء المصريين بدون ثمن . هذا الوضع البائس جعل هذه الشخصية المقهورة المذلولة تتجه أما أن تكون شخصية خنوعة كارهة ساخطة مرغمة على تجرع الذل والمهانة وهي تضمر الحقد والبغض للمجتمع الذي نُزعت منه الرحمة والعدل ، أو شخصية كارهة رافضة تتجه إلى الدخول في عالم الجريمة الذي من وجهة نظر مرتكبيها تعتبر السبيل الوحيد لمواجهة حياة الغابة التي يسكن فيها . وهذا الوضع

المتدني للقاعدة العريضة لجموع الشعب المصري جعلت الجرائم ترتكب في حق المجتمع ، ولكن الجاني يصبح مجهولاً حتى ولو بدا معلومًا لدى الجميع .

الحياة في فيلا معز الصالح جاءت مليئة بالمتناقضات فحياة زوجته الأولى الثرية ذات الحسب والنسب امتلأت بحياة اللذة والمتعة والصخب بعد أيام معدودة من تواجدها بالقاهرة، ومن خلال حفلات الطرب والصخب التي أقامتها ليلى الصالح توطدت علاقاتها مع مديحة وسامح اللذين أشرفا على تجهيز وترتيب أماكن تلك السهرات والتعاقد مع الفنانين والفنانات . بينما كانت حياة زوجته الثانية هادئة مليئة بفعل الخير ؛ حيث كرست نهال كل أوقاتها لتربية ابنها تربية صالحة ، واشتركت في العديد من الجمعيات الخيرية التي تساعد اللاجئين التي شردتهم الحروب في دول عديدة وأصبحت خلال وقت قصير من النشطاء في هذا المجال .. وفي يوم رأس السنة الميلادية لعام ١٩٩٣م أعدت السيدة ليلى حفلة كبيرة دعت إليها عددًا من الأسر الكويتية المقيمة في القاهرة ، وأشرف على إعداد تلك الحفلة سامح ومديحة اللذين انخرطا في علاقة محرمة ، وكانت ليلى تتركهما في الجناح التي كانت تستأجره في الفنادق عند إقامة حفلاتها الترفيهية وقد شاهدتهما من قبل أثناء ممارستهما الجنس سوياً دون أن يشعران بوجودها ، ومنذ ذلك التاريخ وهي تحاول الإيقاع بـ سامح ليشبع رغباتها الجنسية التي لم يستطع زوجها تلبيتها منذ فترة .. وفي عصر ذلك اليوم طلبت ليلى من سامح أن يأتي إلى الجناح التي حجزته في فندق سمراميس حتى تتابع معه بعض الأمور المالية الخاصة بالحفلة . وفي الميعاد المحدد حضر سامح لتستقبله ليلى في حجرة استقبال الضيوف ، وبعد الحديث عن تكاليف الحفلة وتفاصيلها لبضع دقائق كانت خلالها ليلى تنظره نظرة شهوانية متوحشة حتى قالت له بصوت إغراء باللهجة الكويتية : تعالى نتناول كأس مارتيني فالجو في غاية البرودة .. فينظر إليها سامح نظرة تأملية وهو يقول بصوت تساؤل وتعجب : هل ستتناولي الخمر قبل الحفل؟!.. فتقول ليلى بصوت نعومة وقد ارتسمت على وجهها تعبيرات إيحاء برغبتها الجامحة في الجماع معه : كأس واحد لن يسكرني ولكنه

سينعش قلبي ويبرد مشاعري .. فيقول سامح بصوت تعمد إظهار نغمات قبول بعدما استقبل هذه التعبيرات وهو ينظرها نظرة ثاقبة : المارتيني للنساء والفودكا للرجال .. فتبتسم ليلى قائلة وهي ما زالت تنظره بنظراتها الشهوانية المتوحشة : تعالى معي فالبار في غرفة النوم ثم تمسك يده وهي تتمايل في محاولة لملامسة جسده حتى تصل إلى البار فتجلسه على ركن البار ثم تصطنع أنها ستمسك بزجاجة الخمر لترتمي في أحضانه ويتطور بينهما الأمر ويتحقق لها ما أرادت لعدة مرات في خلال بضع ساعات لينصرف بعدها سامح ليباشر مهامه في الإشراف على الحفل ، ويتركها في الجناح في نشوة نفسية لم تشعر بها من قبل حيث استطاع سامح برجولته الفتية من ترويد هذه الأنوثة وإخضاعها لتكون تحت طواعيته .. ومع بداية حفل رأس السنة النظرات المليئة بالألوان القاتمة التي كانت تطلقها ليلى نحو مديحة لفتت انتباه الأخيرة وجعلتها تتساءل عن سبب هذه النظرات خاصة وأن الحالة المزاجية لليلى على ما يبدو كانت في غاية الانبساط والسرور والانشراح . تلك النظرات القاتمة التي كانت تُطلقها ليلى نحو مديحة تلاشت عندما بدأ الفنانين في تقديم الأغاني الخليجية والشامية والمصرية الصاخبة التي أسكرت وعي الحضور ودفعتهم للتراقص وإشباع رغبتهم المكبوتة في جو تخدرت فيه ما تبقى من فضيلة وأخلاق وقيم اجتماعية تنتمي إلى مجتمع شرقي محافظ .. وبينما كانت ليلى ترقص على أنغام أغنية فريد الأطرش «لكتب على أوراق الشجر» تقدمت نحو سامح وأمسكت بيده ليرقص معها وسط مجموعة من النساء الخليجيات بصورة أثارت غيرة مديحة ليرتسم على ملامحها تعبيرات غضب واستياء ، وبدون سابق إنذار تترك ليلى حلبة الرقص وتتجه نحوها وهي تنظرها نظرة استعلاء لتهمس في أذنها بصوت غلفه الاحتقار : أنا لا أحب الوجه الكئيب . اتركي الحفلة فوراً .. فتنظر إليها مديحة نظرة صدمة وذهول وهي تقول بصوت غلفه التساؤل الممزوج بالتعجب: هل حدث شيء؟ ما الذي حدث! .. وأمام الموسيقى الصاخبة لم تسمعها ليلى لتتركها بعدما تشير بأصابعها نحو باب القاعة ثم تعود وتعاود الرقص وهي تردد كلمات الأغنية..

وعندما شاهد سامح مديحة وهي تغادر القاعة وتعبيرات البكاء مرسومة على ملامحها توجه خلفها إلى خارج القاعة ليستوقفها قائلاً بصوت استفهام : ما الذي حدث؟! .. فتمسح مديحة دموعها وهي تقول بصوت تعجب غلفت نبرته انكسار: لقد طردتني ليلى من الحفل ولم أعرف السبب ! ... فيمسك سامح بمنديل ورق ويمسح دموعها وهو يقول بصوت تعاطف : بالتأكيد هناك سوء فهم سأقوم بعلاجه . أذهبي إلى البيت وسأتصل بِك بعد انتهاء الحفل .. فتنظره مديحة نظرة تأملية ملؤها الشك وهي تقول بصوت تملكه الحزن والغضب : من الواضح أن هناك أشياء غريبة تحدث . ثم تنصرف وقد تملكها شعور بأن هذه السيدة قد ألقت بشباكها وأغرت سامح لتظل طوال هذه الليلة هائمة على وجهها تفتش عما بداخلها من ظنون وشكوك تجاه عشيقها الذي أصبح يمثل لها الحياة بكل معانيها .

ومع دقات الساعة الثانية عشر ظهراً لأول أيام العام الميلادي الجديد كانت مديحة قد قتلها الانتظار فقامت بالاتصال بـ سامح بمكتبه بسفارة الكويت فلم تجده؛ حيث أخبرها الشخص الذي تلقى الاتصال بأنه في مأمورية عمل لدى منزل سعادة المستشار العسكري . وعندما اتصلت بمنزل ليلى واستفسرت من فرحانة عن مخدومتها فلم تجدها فأسرعت ترتدي ملابسها وتخرج منطلقة بسيارتها نحو فندق سمراميس لتتسلل نحو الجناح التي استأجرته ليلى ، وتتحايل على عاملة خدمة الغرف وتدخل إلى هناك . وبأقدام خفية مرتعشة تقدمت نحو حجرة النوم لتجد ليلى مستغرقة في النوم وهي شبه عارية في أحضان سامح الذي كان هو الآخر في حالة نوم عميق وهو شبه عاري فتتسمر قدماها وتصاب بحالة من الذهول وقد شلت الصدمة تفكيرها لتظل تنظرهما لبضع ثوان حتى جال في خاطرها فكرة تصويرهما في هذا الوضع بعدما تذكرت أن كاميرتها موجودة بحقيبتها منذ أمس عندما كانت تصور فيلا أحد العملاء فتقوم بتصويرهما عددًا من الصور دون أن يشعرا بها ، ثم تنطلق مسرعة إلى الخارج وتظل منتظرة في بهو الفندق لفترة جاوزت الثلاث ساعات تفكر

في الانتقام من هذه السيدة التي جرحت كرامتها وأوقعت بالرجل الذي امتلك كل جوارحها وأحلامها ورغباتها ؛ فخلال الشهور القليلة التي ارتبطت بها مع سامح استطاع أن يأسر عقلها وقلبها ورغباتها وأصبح مجرد التفكير في البعد عنه أو خصامه يعني فقدان الحياة .. وما أن شهدت سامح يخرج من المصعد تقدمت نحوه بخطوات سريعة وعيناها تطلقان نيران الغيرة ولهيب شعور الانتقام وهي تقول بصوت غضب مغلول : ماذا كنت تفعل مع هذه السيدة طوال هذا الوقت ؟ .. فما أن شاهدها سامح في هذه الحالة نظر إليها نظر هدوء مصطنعة قائلاً بصوت تساؤل : لماذا أنتِ منفعلة هكذا ؟ ثم يمسك يدها ويقول بصوت تنغمت نبرته بإيحاء العشق : تعالي نجلس في الكافتريا ونتحدث بهدوء فالسيدة ليلى ستترك الجناح الليلة ويمكننا قضاء باقي اليوم هناك .. فتنظر إليه مديحة نظرة تأملية صامتة وهي تسير معه نحو الكافيتريا حتى أن جلسا قالت له بصوت نُزعت منه نبرة الانفعال: أنا انتظر هنا منذ ثلاث ساعات . ماذا كنت تفعل معها؟.. فيمسك سامح يدها وهو ينظر إلى عينيها نظرة استطاعت الاستحواذ على كل جوارحها وهو يقول بصوت هادئ : هذه السيدة المغرورة المتكبرة التي تتعامل معنا بمفهوم أنها السيدة ونحن عبيدها سألقنها درسًا لن تنساه طوال عمرها.. فتضغط مديحة على يده وهي تنظره نظرة رغبة واشتياق قائلة بصوت خنوع: أنا أسالك ماذا كنت تفعل عندها ؟ .. فيقول سامح بصوت تظاهرت نبرته بالضيق : لو بالفعل تحبيني لا تسأليني عن أي شيء الآن . فبعد ما فعلته معكِ بالأمس وأنا أخطط للثأر من هذه السيدة البغيضة وسأضع منخارها في الأرض حتى تعرف أننا لسنا بعبيد إحسانها .. فتقول مديحة وهي تقبل يده وتنظره نظرة أنوثة مغرمة بعدما خدرتها تلك الكلمات وأقنعت نفسها تحت وطأت مذلة العشق وخشية الحرمان من معشوقها بأن ما يفعله سامح مع هذه السيدة وسيلة لينتقم منها : هل تحبني لهذه الدرجة ؟ .. فيقول سامح بصوت عشق مصطنع : بالطبع أحبك .. فتقول مديحة : هل تحب أن تشرب شيء؟ فيقول سامح وهو ينظرها نظرة اشتياق مصطنعة : بالطبع

سنشرب كل ما نحب في الجناح فأعتقد أن المرأة الشمطاء قد تركت المكان . هيا بنا نكمل حديثنا هناك .. فتنظر إليه مديحة نظرة مستضعفة وهي تقول بصوت رجاء: حبيبي. اعتقد أنه قد حان الوقت أن يكون لنا شقة مستقلة نعيش بها ولا نخشى أحد ؛ فكل مرة نكون بها في الفندق نتسحب مثل اللصوص حتى لا يضبطنا أحد .. فيقول سامح بصوت تساؤل وهو ينظرها نظرة استفهامية : أنتِ تعرفي كل ظروفي وقد تحدثنا في هذا الموضوع من قبل . زواجنا سيكون في القريب بعدما استطيع تأمين مستقبلي .. فتقول مديحة : الحمد لله . أنا استطعت إدخار أموال لا بأس بها وسأشتري شقة وسأقوم بتأثيثها .. فيقول سامح بصوت مراوغ : حبيبتي. أنا أعرف أن هذا تصرف حسن منك لكن رجولتي لا تقبل أن أعيش في بيت زوجتي. في المستقبل القريب إن شاء الله سيكون عندي شقة وستتزوج.. فتقول مديحة : نتزوج عرفي ونتقابل في شقتي حتى تدبر أمرك .. فيقول سامح : لو كان ذلك يرضيكي أنا موافق . هيا بنا الساعة جاوزت الرابعة وليس أمامنا سوى بضع ساعات .. فتنهض مديحة وهي ممسكة بيده ليصعد الاثنان خلسة إلى الجناح ويظلا هناك بضع ساعات يمارسان خلالها الجنس ثم يذهب كل منهما في طريقه بعدما استطاع سامح بشخصيته الداهية ورجولته العاتية من إطفاء نيران الغيرة ولهيب الإحساس بالخيانة، وإقناعها بصورة غير مباشرة بأنه يفعل الرزيلة مع هذه السيدة حتى ينتقم منها لما فعلته معها .

وتمر الأيام والشهور وتستمر العلاقة الآثمة التي جمعت سامح بهاتين السيدتين اللتين حاولت كل منهما استخدام ما لديها من إغراءات ليستمر في تجرع الخطيئة منها ويسقيها كأس الرذيلة ؛ فالسيدة العربية الثرية ذات الجمال المتواضع والتي قاربت على سن اليأس أغدقت عليه الأموال والهدايا حتى يستمر في معاشرتها ، وكانت آخر تلك الإغراءات شقة تمليك في شارع أحمد عرابي بالمهندسين قارب ثمنها المائة ألف جنيه . أما السيدة المصرية الشابة ذات الحسن والجمال والمظهر الأنيق ، والتي ساعدها عقلها التجاري في جمع بعض المال ، فقد كانت تغدق عليه هي الأخرى بالهدايا والأموال

بالإضافة إلى أنوثتها التي كانت في أغلب الأحيان ترجح كفاتها في قلب الشاب الوسيم الذي تاهت منه القيم والمبادئ وتملك قلبه وعقله الجشع حب المادة واللذة والمتع الدنيوية مهما كان طرق الحصول عليها ؛ فقام بإيهام ليلى أنه تخلص من مديحة ليرضي غرورها ويستطيع ابتزازها ، كما أخبر مديحة بأنه تخلص من ليلى بعدما كسر كبريائها وحطم غرورها . ورغم الشكوك التي ملأت قلب مديحة حول قيام سامح بإنهاء علاقته بـ ليلى إلا قوة تأثير سامح عليها خدر تلك الشكوك ، وجعلها تقنع نفسها بتصديق ما يقوله لها.. وفي ظهيرة يوم الجمعة الأخيرة من شهر سبتمبر لعام ١٩٩٤م ، وبينما كانت سعيدة كعادتها ترتب وتنظم الدور الأول من الفيلا وتجهز ملابس مخدومتها لتقوم بكيها ، جاء إليها عم حسانين مسرعاً وعلى وجهه تعبيرات صماء وهو يقول لها : لقد اتصلت بِك سيدة تدعى بهية وكانت تسأل عنكِ منذ قليل ولما منعتني السيدة ليلى من استدعائك سألت تلك السيدة عن سبب المكالمة فأخبرتني أن ابنتك أمل مريضة ويجب ذهابك إلى المنزل الآن .. فتصرخ سعيدة صرخة مكتومة لتقول بصوت فزع وقد تملك الهلع من ملامحها : مريضة ! لقد تركتها في الصباح بصحة جيدة .. وفي تلك الأثناء تأتي نهال لتقول بصوت غلفه الشفقة بعدما سمعت الحديث الذي دار بينها وبين حسانين : إن شاء الله تكون بخير هيا جهزي نفسك سأذهب معكِ إلى منزلك لنطمئن عليها . ثم تتوجه إلى معز لتخبره بما حدث وتستأذنه لتذهب مع سعيدة .. وفي ذلك الوقت تصادف حضور سامح ليرتب بعض الأمور الخاصة بالعمل . ونظراً لوجود السائق في أجازة ، ولكون سامح يسكن بجوار سعيدة في شبرا فقد طلب منه معز أن يرافق زوجته في هذا المشوار الإنساني . وخلال بضع دقائق كانت نهال قد اصطحبت خادمتها وابنها وتوجهت مع سامح إلى منزل سعيدة في شبرا .. وأثناء الطريق من الفيلا إلى منزل سعيدة بشبرا كانت دموع سعيدة تنهمر في بكاء صامت وهي تُتمتم وتهمس بالدعاء لله ليحفظ ابنتها من كل سوء .. دموع سعيدة وبكائها الصامت وكلمات التوسل والدعاء كانت تقابلها كلمات طمئنة من نهال وسامح ، ودعاء من حمد .. وبمجرد وصول السيارة إلى العقار التي تسكن به

سعيدة تهبط لتفتح الباب لمخدومتها وهي تقول باكية : ربنا يحفظك ويبارك لك في سيدي حمد .. فتضع نهال يدها على كتف سعيدة وهي تقول : إن شاء الله تكون ابنتك بخير .. فتتقدم سعيدة نحو شقتها في الدور الأرضي وتفتح بابها وهي تقول بصوت رجاء : تفضلي يا ست هانم . تفضل يا سيدي حمد . تفضل يا أستاذ سامح .. فتقول نهال بصوت استفهام متعجب : هل ابنتك تجلس هنا وحدها ؟! .. فتقول سعيدة بصوت أكله الهم و القلق : لا يا ست هانم . أمل تجلس مع جارتي طوال اليوم حتى أعود من العمل .. فتقول نهال : أين تسكن جارتك .. فتقول سعيدة : في الدور الثالث بنفس العقار . لو تأذني لي أنادي على جارتي .. فتقول نهال : بكل تأكيد .. فتنادي سعيدة بصوت حاد انطلقت معه نبرات شعورها بالخوف والفزع لتخرج إليها صافي وهي تقول بصوت مطمئن : سعيدة . الحمد لله أمل كويسة وصحتها جيدة . سقطت من على السلالم ورجلها انجزعت والدكتور طمأننا . فتقول سعيدة بلهفة : أين هي ؟ .. فتقول صافي: أطلعي هي نائمة الآن .. فتقول سعيدة بصوت سعادة ودموع الفرحة تملئ عينيها: معايا الست نهال والأستاذ سامح ربنا يبارك لهما حضرا معي ليطمئنا على أمل .. فتقول صافي : يا أهلا وسهلا اتفضلوا .. وفي تلك اللحظة تحضر بهية لتنظر الحضور وهي تقول بصوت طمأنينة: الحمد لله يا سعيدة أمل بخير . ثم تنظر إلى ضيوفها وهي تقول بصوت ترحاب : يا أهلا وسهلا شرفتي بيتنا المتواضع يا ست هانم.. فتقول نهال بصوت تواضع وباللهجة المصرية: الشرف لينا .. ثم تنظر إلى سعيدة وهي تقول : الحمد لله أن ابنتك بخير .. ثم تخرج من حقيبتها مبلغ من المال وتعطيها لها وهي تقول : اشتري لها شيئًا تحبه .. وفي تلك اللحظة كانت صافي قد هبطت لتستقبل ضيوف سعيدة وهي تنظر إلى نهال نظرة تبجيل قائلة بصوت تمني: أرجو أن تشرفي بيتنا المتواضع يا مدام نهال فمن كثرة ما تحكي لنا سعيدة عنك ونحن نتمنى رؤيتك .. فتنظر إليها نهال نظرة باسمة وهي تقول بصوت مجاملة : ربنا يحفظك.. فتقول سعيدة وهي تنظر إلى صافي نظرة ودودة : الأنسة صافي ابنة جارتي بهية .. لولا مساعدتهم لي ورعايتهم لأمل لما استطعنا العيش.. فتقول صافي

وهي تنظر نظرة إيجابية إلى سامح ، الذي ظل صامتاً ينظر إلى صافي نظرة تأملية ثاقبة متأملاً خلقتها الحسنة وجمالها الفريد : سعيدة من أطيب القلوب التي عاشرتها طوال حياتي ، وابنتها أمل تحمل بداخلها كل الصفات الطيبة ونحن نعتبرهما من أفراد أسرتنا.. وفي تلك اللحظة كانت بهية قد نزلت لتستقبل ضيوف سعيدة بكلمات ترحاب ودودة ووجه بشوش مبتسم ثم تقول بصوت رجاء وتمني : أرجوكي يا نهال هانم لا تحرمينا من شرف استقبالك في بيتنا المتواضع .. فتبتسم نهال وهي تقول : الشرف لي . ثم تنظر إلى سامح وتقول : سنرى أمل ونجلس قليلاً .. فيقول سامح بصوت طاعة وهو يتلصص ببصره تجاه صافي : كما تريدي حضرتك .. ومع صعودهم إلى مسكن بهية جلس الحضور في حجرة استقبال الضيوف ليتناولوا الشاي بعدما اطمأنت سعيدة وضيوفها على أمل . وخلال المدة التي قاربت الساعة تبادل كل من سامح وصافي نظرات الإعجاب ، وكان الخيط الوحيد الذي يمكن لكل منهما أن يتوصل إلى الآخر هو معرفة سامح بأنها تدرس في كلية الأداب جامعة عين شمس ومعرفة صافي أنه يعمل في قسم العلاقات العامة بسفارة الكويت . كما تبادلت كل من نهال وشهندة الأحاديث عن حقوق الإنسان وعن منظمات المجتمع المدني التي تساند وتدافع عن حقوق اللاجئين لتُعجب نهال بشخصية شهندة وتثني عليها .. وكما كان اللقاء حارًا وودودًا كان توديع نهال وابنها وسامح وداع حار مليئ بكلمات الثناء والشكر على قبول تشريفهم بالزيارة ؛ حيث ودعت سعيدة مخدومتها بكلمات شكر وثناء ودعاء . بينما ودعتها بهية وصافي وشهندة بابتسامات إعجاب وتقدير وكلمات ثناء خرجت من القلوب .

وتمر أيام على لقاء سامح بـ صافي ويظل وجهها الجميل وخلقتها الحسنة تجول بخاطره ، وخلال أحلام يقظته ومنامه لتكون أول فتاة تؤثر فيه بهذا الشكل الرومانسي . وأمام هذه الأحلام التي لم يعتاد عليها سامح يقرر اختلاق الظروف حتى يتقابل مع صافي ويتحدث إليها ، ولم يجد خير من مقر كلية الأداب لاختلاق الصدفة التي تجعله يتقابل معها .. ففي عصر أحد أيام الأسبوع الثاني من أكتوبر

توجه سامح إلى كلية الأداب جامعة عين شمس ، حيث كان في مأمورية بالقرب من الجامعة . وأمام مدرج السنة الرابعة بقسم الفلسفة شاهد صافي تخرج من القاعة فتوجه نحوها بخطوات واثقة وابتسامة حالمة لتنظره هي الأخرى بنظرة تأملية صامتة ، حتى اقترب منها وهو يقول بصوت اصطنعت نبرته الفرحة بلقائها صدفة: ربّ صدفة خير من ألف ميعاد . كيف حالك يا أنسة صافي .. فيرتسم على وجه صافي تعبيرات باسمة وهي تقول بصوت قبول: الحمد لله يا أستاذ سامح . كيف حالك أنت . هل جئت إلى هنا في عمل ؟! .. فينظر إليها سامح نظرة تأملية فاحصة ويقول بصوت هادئ تملكت نبرته الثقة بالنفس : بالطبع لا فقد جئت من أجل استخراج نسخة من شهادة التخرج ، ومن حسن حظي أني تقابلت معكِ .. فتبتسم صافي ابتسامة خجل وهي تقول بصوت هادئ استشعر ما بداخل سامح من إعجاب: كنت أتوقع أن تأتي؛ فأسلوبك في السؤال عن الكلية والقسم وهل سأذهب إلى هناك في الأسبوع الأول جعلني على يقين أنك ستأتي في هذا الميعاد .. فينظر إليها سامح نظرة إعجاب ويقول بصوت تاهت منه نبرة الغرور التي اعتاد أن يتحدث بها مع الجنس الآخر: اعتقد أن مستوى ذكائك يتناسب مع مستوى جمالك.. فتبتسم صافي ابتسامة خجل ممزوجة بالثقة بالنفس وهي تقول : أشكرك .. فيقول سامح بصوت تمني : اعتقد أنكِ انتهيت من محاضرتك اليوم . هل لنا أن نجلس في كافيتريا الكلية نتناول سوياً أي مشروب .. فتنظر إليه صافي نظرة تأملية صامتة وتقول بصوت استفهام : ماذا تريد مني يا أستاذ سامح ؟ أنا فتاة من حي شعبي وتربيت على الصراحة والوضوح . اعتقد أن شاب وسيم مثلك على ما يبدو ينتمي إلى عائلة ذات مركز اجتماعي مرتفع سيكون لديه العديد من الفتيات اللاتي يرغبن في طلبه هذا .. فيقول سامح بصوت تظاهر بالثقة وهو يمعن النظر في عينيها : اعتقد أنني قبل مجيء إلى هنا وأنا أتحسس شخصيتك الفريدة ولم أقصد مضايقتك . كل ما هنالك أن شعور الإعجاب نحوك دفعني للبحث عن وسيلة للتحدث معكِ.. فتبتسم صافي ابتسامة صامتة وهي تقول بصوت استفهام: عن أي شيء تريد

التحدث معي؟ .. فيقول سامح بصوت تظاهر بالاتزان وقد بدأت تعبيرات الإحراج تتسلل إلى ملامحه : ماذا لو قلت لكِ أني معجب بِك وأريد معرفتك أكثر.. فتنظر إليه صافي نظرة تأملية صامتة وتقول بصوت تملكت نبرته الصراحة : أنا أيضاً مثل كثير من الفتيات معجبة بِك يا أستاذ سامح . فأنت شاب وسيم وذو شخصية قوية وبراقة تجعلك فارس أحلام فتيات كثيرة .. فينظر إليها سامح نظرة إيجاب ويقول بصوت تمني ممزوج بتساؤل : هل نكمل حديثنا في الكافيتريا ؟ .. فتقول صافي وهي تنظره بنظرة صامتة : يا أستاذ سامح . أنا لا أتكلف أو اتصنع الرفض بقبول طلبك . لكني تعودت ألا أفعل شيء بدون علم أمي. لو أردت معرفتي أكثر سأخبر أمي برغبتك، ولو سمحت لي سنرى الوسيلة المناسبة التي أستطيع بها رؤيتك ليتعرف بها كل منا على طبائع الآخر .. فيقول سامح بصوت تملكت نبرته نغمات مزجت بين التساؤل والتعجب وهو ينظرها نظرة صماء: هل والدك متوفي؟.. فتقول صافي بصوت غلفه الانكسار والخجل : لا . أبي ما زال على قيد الحياة لكنه تركنا وتزوج بإمراة أخرى أنجبت له الذكور .. فيقول سامح بصوت تعلقت بنبرته نغمة أسف ممزوجة بنغمة إعجاب : اعتقد أن والدتك سيدة عظيمة يا صافي وأرجو أن تخبريها بأنني أرغب في أن نتعرف على بعض أكثر ، وتأكدي أن نظرتي لكِ ليس بها سوى الخير . ثم يخرج من حافظته كارت مدون به أرقام تليفوناته بالعمل والمنزل وهو يقول بصوت تمني ورجاء : أرجو الاتصال إذا وافقت والدتك على لقائنا .. فتبتسم له صافي ابتسامة قبول وهي تقول : سأخبر أمي برغبتك وإن شاء الله سأتصل بك .. فينظر إليها سامح نظرة مسرورة ويقول بصوت ثقة وهو يهم بالانصراف : في انتظار تليفونك . أراكي على خير .. فتقول صافي وتعبيرات الإيجاب استحوذت على ملامحها : إن شاء الله .. ومع عودة صافي إلى منزلها كان شعور الفرحة قد تملكها بعدما استشعرت صدق مشاعر سامح لتسرد على أمها ما حدث ، وتستأذنها في مقابلته في الكلية . وأمام استشعار بهية برغبة ابنتها في التقابل مع سامح وافقت على أن يلتقيا في الكلية لفترة حددتها بشهر حتى يقرر كل منهما ما

يريده من الآخر فلو توافقت الطباع وأراد الارتباط فيجب عليه أن يتقدم بصفة رسمية ليخطبها .. وخلال المدة التي حددتها بهية كانت لقاءات صافي بـ سامح المتكررة قد جعلت كل منهما يتعلق بالآخر ؛ فسامح صاحب العلاقات النسائية المتعددة ، والذي فقد خلالها ضميره وتاهت منه القيم والأخلاق ، أصبح لا يفكر في مادة ولا يرغب في متعة محرمة بعدما تسللت مشاعر الحب الصادق تجاه صافي من قلبه وعقله ليبدأ في اختلاق الحجج والأعذار لكل من ليلى ومديحة حتى يبعد عنهما . أما صافي فقد استطاعت صدق مشاعر سامح تجاهها وأسلوبه المهذب الرقيق من تملك مشاعرها وجوارحها ليستقر في وجدانها بأنه فتى أحلامها الذي سيحقق كل أمانيها .

ومع مرور شهر منذ أول لقاء تم بين سامح وصافي اتفق الاثنان على تحديد موعد مع الأسطى عادل الدكر لطلب يدها بصورة رسمية . وبالفعل تحدثت بهية مع زوجها في هذا الشأن ورحب بالفكرة ليتم تحديد ميعاد الأول من رجب الذي كان يوافق الجمعة ٢ ديسمبر ١٩٩٤م للقائهما ، بعدما اطمئن عادل أن العريس يمتلك شقة ولديه وظيفة مرموقة وينتمي إلى عائلة طيبة (فوالد سامح الأستاذ طاهر الشامي المحامي يعمل مدير عام في أحد المصالح الحكومية ووالدته السيدة فوزية تعمل مديرة لمدرسة ثانوي حكومي وأخته سميرة التي تصغره بعامين تعمل مرشدة سياحية . وتسكن العائلة في عمارة عمر أفندي بشارع شبرا الرئيسي) .. وفي اليوم السابق على حضور سامح إلى منزل صافي ، وكعادتها في صباح يوم الخميس كانت ليلى تستمع لأخبار نهال من مخدومتها فرحانة . وعند سردها لأخبار مخدومة شقيقتها ، والزيارة التي قامت بها لمنزل سعيدة وإعجابها بشهندة شقيقة صافي التي سيخطبها الأستاذ سامح نزل عليها هذا الخبر كالصاعقة التي زلزلت أعماقها ؛ فبعد كل ما تفعله معه يخدعها ويقوم بالبحث عن امرأة أخرى ، فكيف وهي - كما تعتقد - السيدة ذات الحسب والنسب يأتي شخص من العبيد ويتجرأ على اللعب بمشاعرها.. وبعد ثوان من الذهول العاصف الذي عصف بأحاسيس ليلى استوقفت حديث

فرحانة قائلة باللهجة الكويتية التي تعطشت حروفها : اذهبي عني الآن يا وجه الشؤم .. فتصاب فرحانة بصدمة من الخوف وترتعش أطرافها وهي تقول بصوت اهتزت نبرته : هل صدر مني شيء يا سيدتي ؟! .. فتزداد تعبيرات وجه ليلى قتامة وهي تقول بصوت احتدت نبرته الحانقة : قبح الله وجهك يا وجه البوم . ألا تسمعين . اذهبي بعيداً عني الآن ولا تدعي أحد يدخل الغرفة .. فتهرع فرحانة إلى خارج الغرفة التي تجلس بها مخدومتها لتظل ليلى تفكر في كيفية تهرب سامح منها خلال الشهر الماضي ، والحجج الكاذبة التي أطلقها عن مرض والدته ليتهرب من معاشرتها رغم إلحاحها وتوسلاتها له ، ويمتلئ قلبها بلهيب الغيرة ونار الغضب ويستقر في وجدانها وعقلها كيفية إبعاده عن هذه الفتاة وإرجاعه إلى أحضانها الشيطانية ، فتقوم بالاتصال التليفوني بالسفارة وتتحدث مع سامح لتبارك له على الخطبة وتتظاهر بالفرحة وتخبره بأنها ستقيم لهما حفل الخطوبة وستتكفل بكل المصاريف .. وخلال اللقاء الذي تم بين عائلة سامح وعائلة صافي حدث القبول والتوافق بينهما ليتم الاتفاق على تفاصيل الزواج من شبكة ومهر وجهاز ويتحدد عقد القران رابع أيام عيد الفطر المبارك .

لم تكن ليلى الصالح هي الخطيئة الوحيدة ، التي حاول سامح بكل سعته النفسية أن يتخلص منها ويتراجع عن الاستمرار في ارتكابها . لكن الخطيئة الأكبر كانت مديحة التي كانت على يقين أنه سيتزوجها ؛ فوضعت كل مشاعرها وجوارحها تحت طوعه يحركها كيفما يشاء ، وأصبحت لا تتقبل مجرد التفكير في أنه يتلاعب بها . لذلك فلم تفلح محاولات سامح في البعد عنها جسدياً فاستمرت بينهما اللقاءات الجنسية في شقتها . وفي إحدى اللقاءات التي جمعت بينهما كانت ليلى تتبع تحركات سامح فشاهدتهما معاً فاشتاط قلبها غيرة وحنقة ؛ لتختلط مشاعر الغيرة بالغضب بالرغبة في الانتقام من سامح ومديحة ويوسوس لها تفكيرها الشيطاني إلى البحث عن وسيلة لتصويرهما وهما في فراش الخطيئة، واستخدام هذا التصوير لتحقيق مأربها الخبيثة . وبالفعل استطاعت ليلى بمعرفة أقران السوء من

الإيقاع بهما وتصويرهما وهما يمارسان الرزيلة بعدما وضعوا لهما كاميرات مراقبة في حجرة النوم .. بعد حصول ليلى على شريط فيديو مسجل عليه ممارسة سامح الجنس مع مديحة اتصلت بسامح لتخبره بأنها تريد مقابلته ؛ حيث فوجئت بأن شخصًا مجهولاً أوصل إليها شريط فيديو مسجل عليه فيلم إباحي له مع مديحة . وأمام الذهول الممزوج بالفضول الذي أكل عقل ووجدان سامح قرر مقابلتها في مساء ذلك اليوم في الشقة التي اعتادا التقابل بها .. وفي الميعاد المتفق عليه حضرت ليلى إلى الشقة لتجد سامح في انتظارها وعلى وجهه تعبيرات صماء قاتمة وهو يتجنب تلاقي عينيه بعينيها ، وفي المقابل ارتمت ليلى في أحضانه وقد ارتسمت على وجهها تعبيرات تحفز لمعرفة رد فعل سامح بعد رؤيته لشريط الفيديو .. وبعد بضع ثوان من الصمت تحدث سامح وقلبه يأكله الفضول بصوت غلفت نبرته التساؤل وعلى ملامحه ارتسمت تعبيرات مصطنعة بعدم المبالاة : لقد أخبرتيني بأن أحد أرسل إليكِ شريط فيديو . هل الشريط معكِ ؟ .. فتمسك ليلى بيده وهي تحاول جذبه نحوها وهي تقول بصوت ثقة ، وتعبيرات ترقب رد فعله تغلف عينيها: تعال نشاهد هذا الشريط سوياً وبعدها سأنتظر منك الإجابة على أسئلة كثيرة تدور في عقلي .. وبعد مشاهدة الفيلم بأكمله ظل سامح لبضع دقائق في حالة ذهول غير مصدق لما شاهده يتساءل مع نفسه عن كيفية تصويره . وأمام نظرات ليلى التأملية الصامتة والتي أخفت وراءها بركانًا من إحساس الغيرة القاتلة سألها سامح بصوت إنكسار وهو يتجنب النظر إليها : كيف وصل إليكِ هذا الشريط ؟ .. فتقول ليلى بصوت تصنعت نبرته التعجب الممزوج بالغضب ، وقد ارتسمت على وجهها تعبيرات حزن وانزرفت من عينيها دموع التماسيح : كل ما يهمك كيف وصلني هذا الشريط ولا يهمك لماذا وصلني ؟! كنت أتمنى لك كل السعادة مع خطيبتك وبكل حب كنت سأحضر فرحك رغم أنك حطمت مشاعر أنوثتي ببعدك عني . لماذا فعلت كل ذلك معي ؟ .. فيقول سامح بصوت مُسْتَذَلّ خافت وتعبيرات الصدمة تتملك كل ملامحه : لقد توقف عقلي عن التفكير ولم أعد أعرف ماذا أقول .. فتقول ليلى

بصوت متحشرج ودموع التماسيح تنهال على وجنتيها : الشخص الذي أرسل هذا الشريط يعرف بالعلاقة التي كانت بيني وبينك ولو علم زوجي بهذه العلاقة سيقتلنا .. فيصمت سامح لبضع ثوان حتى استجمع تفكيره المشتت ليقول بصوت غلفه الأسف : لا تخافي لا يعرف أحد بعلاقتنا سوى مديحة فقد شاهدتنا سوياً من قبل .. فتتوقف دموع التماسيح المنهمرة على وجه ليلى وتتبدل تعبيرات الحزن بتعبيرات حانقة وهي تقول بصوت حاد : كيف شاهدتنا ؟ .. فيقول سامح : شاهدتني بعدما غادرت الجناح الخاص بِك في فندق سميراميس بعدما ظلت تنتظر في بهو الفندق أكثر من ثلاث ساعات .. فتقول ليلى بصوت انفعالي وتعبيرات الغضب تكاد تفجر ملامحها وهي تمسك بتلابيب ملابس سامح : هل تعرف أنك تعاشرني ؟ .. فيقول سامح بصوت تخوشنت نبرته وهو يمسك يدها ويضمها إليه حتى يهدأ من روعتها : لا . أنا لم أقص عليها شيء ولكنها كانت تشك بوجود علاقة بيننا .. فتحاول ليلى تخليص يدها من يده فتلتقي عينيها الخبيثتان بعينيه العاصيتان فتفتك غريزتها المتوحشة بغريزته ويجمعهما الشيطان في فراش الخطيئة .. وبعد إشباع رغباتها الشيطانية تغادر ليلى الشقة لتترك سامح هناك ليظل لبضع ساعات يفكر فيما حدث غير مصدق ما شاهده في الفيديو الذي أصبح سيف مسلط على رقبته ، ولا يعرف الشخص الذي قام بتصويره ، ولا سبب إرسال هذا الشريط إلى ليلى .. وخلال بضعة أيام ظل سامح في حالة توتر وارتباك حتى هداه تفكيره إلى البحث في شقة مديحة عن أي شيء يمكن عن طريقه حل هذا اللغز المعقد ؛ فعقد العزم على الذهاب إلى مسكنها في غيبتها لعله يجد الخيط الذي يحل به هذا اللغز ، لكنه لم يجد شيء يفسر به غموض ما حدث ، فيقرر مواجهة مديحة بهذا الشريط لعله يجد تفسيرًا لكيفية تصوير هذا الشريط وسبب إرساله إلى ليلى .

وفي عشية تلك الليلة تقابل سامح مع مديحة بمسكنها وقد بدى عليه التوتر والحيرة ليظل خلال بضع دقائق ينظر إلى مديحة نظرة تأملية فاحصة وعلى وجهه تعبيرات شاردة ولم يلق بالاً لملاطفة ومداعبة مديحة له ، حتى استشعرت ما بداخله

من توتر واضطراب فتوقفت عن ملاطفته لتسأله بصوت تعجب : ماذا بك ؟ أراك مشغولاً عني ؟ ألست مشتاقًا لي مثل ما أنا مشتاقة لك ! .. فينظر إليها سامح نظرة صامتة لامعة لبضع لحظات ثم يقول بصوت مزجت نبرته بين الحيرة والتساؤل : هل أرسلتي شريط فيديو إلى ليلى الصالح ؟ .. فتقول مديحة بصوت استغراب وتعجب بعد لحظات من إمعان النظر في وجه سامح المتوتر : شريط فيديو ! ماذا تقصد؟ هل نسيت ماذا فعلت معي هذه الشمطاء الفاجرة المتكبرة .. فيقول سامح بصوت خافت : هذه السيدة تدعي أن شخص ما أرسل إليها شريط فيديو مسجل عليه فيلم ونحن نمارس الجنس سوياً هنا في منزلك .. فتبتسم مديحة ابتسامة سخرية وهي تقول بصوت استهزاء : فيلم جنس تم تصويره في بيتي . اعتقد أنها فقدت عقلها .. ثم تصمت لحظة لتأخذ نفسًا عميقًا ثم تقول بصوت غلفه الضيق والاستنكار : وماذا تريد تلك الساقطة بهذه الأكذوبة ؟ .. فيقول سامح بصوت غلفه الانكسار وهو ينظرها نظرة حزينة : للأسف أنا لم أصدق هذا الكلام حتى شاهدت الشريط. ثم يضع يده داخل حقيبته ويخرج شريط الفيديو ويعطيه لها ويقول: لو لم تصدقيني. شاهدي هذا الشريط.. فتنتزع من يده شريط الفيديو وتتجه مسرعة نحو جهاز عرض شرائط الفيديو وتضع بداخله الشريط لتشاهد نفسها وهي تمارس الجنس مع سامح في غرفة نومها ، فتصاب بصدمة عنيفة وتصرخ باكية بصرخة انفعالية امتلأت نبرتها بالدهشة والذهول والتعجب: كيف؟! من الذي قام بتصويري؟! بكل تأكيد هذه الساقطة هي التي فعلت ذلك وستتعمد نشر هذا الشريط .. ثم تصمت لبضع ثوان تذكرت خلالها الصور التي قامت بتصويرها فتهدأ حدة انفعالها وتقول بصوت انخفضت نبرة انفعاله وقد ارتسم على وجهها ملامح ترقب : أترك أمر هذه الساقطة لي وأنا سأتكفل بإخراسها . لكن لابد لنا أن نتزوج حتى نسكت كل الألسنة . نحن لا ينقصنا شيء ومسألة أنك تريد تكوين نفسك قبل زواجنا ليست لها ضرورة الآن .. فيرتسم على وجه سامح تعبيرات ملتوية اصطنعت قلة الحيلة ، وهو يقول بصوت تظاهرت نبرته بالضعف : هناك موضوع كنت أتجنب الحديث فيه معكِ . لكن الأمر لا يمكن تجنبه الآن . لقد اختار

لي أمي وأبي عروس ترتبط عائلتها بصلة قرابة بعائلة أمي وهما مصممان على إتمام هذه الزيجة ، وقد أخبرتهما بعلاقتنا ورفضا رفضاً باتاً ارتباطي بامرأة مطلقة .. فتشتعل نظرة مديحة غضبًا وانفعالاً وهي تقول بصوت باكٍ مصدوم : وماذا ستفعل هل ستتزوجها وتتركني .. فيقول سامح بصوت مراوغة : لقد توقف عقلي عن التفكير ، ولم أعد استطيع اتخاذ القرار الصحيح .. فتنهمر مديحة في بكاء هستيري وهي تصرخ بصوت مكلوم : هل تريد التخلص مني ؟ أنا لا استطيع العيش بدونك . لو تخليت عني سأتخلص من حياتي .. فيضمها سامح إليه بلمسات حنان وهو يقول بصوت طمأنة : اهدئي وكل شيء له حل . وأهم شيء الآن هو معرفة كيفية تصويرنا ، والشخص الذي فعل ذلك ، وما الغرض الذي دفعه لذلك .. فتمسك مديحة بيده وتقبلها وهي تنظره نظرة أنوثة مستضعفة والدموع تنهمر على وجنتيها وتقول بصوت غلفه التوسل : أرجوك يا سامح تزوجني وأنا سأقبل أن أكون الزوجة الثانية لو أردت الزواج بالفتاة التي اختارتها والدتك .. فينظر إليها سامح نظرة صامتة لبضع ثوان ثم يقول بصوت تظاهر بالموافقة : قبل أن نتخذ أي خطوة في الزواج لابد لنا من معرفة الشخص الذي فعل معنا ذلك وماذا يريد ؟ .. فتقول مديحة بصوت طمأنة والدموع عالقة في عينيها : اترك هذه المسألة لي فهذه الساقطة هي التي فعلتها ، وأنا سأتكفل بإسكاتها دون حدوث أية مشاكل .. فينظر سامح في يده ليجد الساعة قد قاربت العاشرة فيقول بصوت حملت نبرته نغمات اعتذار : للأسف لابد أن أذهب الآن فطائرة سميرة ستقلع إلى واشنطن الساعة الثانية صباحاً ولابد أن تكون في المطار الساعة ١٢ ليلاً .. فتنظر إليه مديحة نظرة حزينة وهي تقول : أنا مشتاق لك فنحن لم نتقابل منذ ثمانية أيام . على كل حال بلغ تحياتي إلى أختك وإن شاء الله تعود سالمة .. فيهم سامح بالانصراف بعدما يقبل مديحة ليعود إلى بيته وهو محملاً بتساؤلات عديدة غامضة لم يجد لها إجابة مقنعة . بينما ظلت مديحة طوال الليل تفكر في كيفية مواجهة ليلى الصالح ؛ حيث كانت على يقين أنها وراء هذا الفيديو ، فاستقر في تفكيرها الاتصال بها ومقابلتها لعرض الصور التي معها عليها وتهديدها ومقايضة هذه الصور بشريط الفيديو .

وفي صباح اليوم التالي كانت مديحة قد اتصلت بـ ليلى وأخبرتها برغبتها في مقابلتها لأمر مهم يتعلق بها ، وبكل ثقة وأسلوب متعالي متغطرس وافقت ليلى على اللقاء وحددت اللقاء في الساعة السادسة مساء بكافيتريا فندق سميراميس .. وقبل الموعد المحدد بدقائق كانت مديحة تجلس على المائدة المقابلة لباب الكافيتريا في انتظار ليلى التي جاءت في الميعاد المحدد ، وفي مخيلتها أن مديحة جاءت تتوسل إليها وتستعطفها حتى لا يقع شريط الفيديو في يد أحد وأنها ستكون طوع يدها ستنفذ كل ما ستطلبه منها .. وعند دخول ليلى إلى القاعة كالعادة كان في استقبالها مدير القاعة ومساعديه اللذين رافقوها إلى الطاولة التي اعتادت الجلوس عليها . وبعد ثوان تركت مديحة طاولتها واتجهت نحو طاولة ليلى لتجلس بجوارها دون أن تستأذنها أو تلقي عليها السلام ، وقد ارتسمت على وجهها تعبيرات سخرية صماء.. وبأسلوب استنكار وصوت غلفه الكبر بلهجة كويتية تعطشت حروفها قالت ليلى وهي تنظر إلى مديحة نظرة متدنية : لقد طلبتي مقابلتي . ماذا تريدي . اختصري في الحديث فليس لدي وقت أضيعه مع أمثالك .. فتبتسم لها مديحة ابتسامة صفراء وهي تقول بصوت ساخر بعدما أخرجت بعض الصور من حقيبتها: مولاتي . صاحبة الصون وسليلة الشرف لو يسمح وقتها تشاهد هذه الصور .. فتمسك ليلى الصور وتنظر إليها واحدة تلو الأخرى وتعبيرات الصدمة المذهلة تكاد تقتلها حتى قالت بصوت مخنوق : من الذي قام بتصوير هذه الصور ؟ .. فتتنهد مديحة نفس عميق وقد ارتسمت على وجهها علامات تشفي قائلة بصوت غلفه التهديد والوعيد : هل يهمك من قام بتصوير تلك الصور ؟! أم يهمك أن تتخلصي من تلك الصور حتى لا تقع في يد زوجك ؟ .. فتزداد تعبيرات الصدمة والذهول التي تملكت من ملامح ليلى وهي تقول بصوت حملت نبرته نغمات مخنوقة متقطعة: ماذا تريدي ؟ .. فتكمل مديحة حديثها قائلة : كيف قمتي بتصويري أنا وسامح في شريط فيديو ولماذا ؟ .. فتقول ليلى بصوت ترقب وهي تمعن النظر في عين مديحة : لقد خدعني سامح وأوهمني أنه أنهى علاقته بِك واستغل حبي له وجعلني اشتري له

شقة وسيارة . وقد اكتشفت أن علاقتكما ما زالت مستمرة ، وأنه سيتزوج بفتاة جارة الخادمة سعيدة بأموالي فأردت أن انتقم منه واستطاعت أن استأجر من يقوم بتصويركما وكنت أنوي الانتقام منه .. فتسوقفها مديحة قائلة بصوت استفهام غاضب وقد ارتسمت على وجهها تعبيرات صدمة ودهشة ممزوجة بتساؤل ولم تلقِ بالاً للوسيلة التي تم تصويرها بها : يتزوج بجارة سعيدة ! كيف عرفتِ ذلك ؟ .. فتقول ليلى بصوت اصطنع الضعف وقلة الحيلة وقد ارتسمت على ملامحها الجامدة تعبيرات حزن مصطنع : لقد أخبرني أنه سيتزوج بفتاه اسمها صافي عادل والدها يمتلك ورشة لإصلاح السيارات بحي شبرا وتقيم في نفس العقار التي تسكن به سعيدة؛ حيث تعرف عليها في اليوم الذي اصطحب معه سعيدة ونهال لمنزل الخادمة لتطمئن على ابنتها المريضة .. فتقول مديحة بصوت حانق : أنتِ كاذبة . كفاكي حقد وكراهية . سامح لن يتزوج غيري . ابتعدي عنا . ويجب أن تعلمي أن شريط الفيديو في مقابل الصور . أنا وسامح سنتزوج ولن تستطيعي إبعاده عني . وتأكدي أن لدي الكثير الذي استطيع به تحطيم حياتك وحياة أسرتك . ثم تنهض مسرعة وهي تنظرها نظرة باغضة لتقول بصوت حملت نبرته مزيجًا من نغمات التهديد والوعيد والاستهجان : هل نُزعت الرحمة من قلوبكم . ابتعدي عن طريقي وإلا سأكون عقاب الدنيا الذي سيرسله الله لكِ .. وبعد انصراف مديحة ظلت ليلى جالسة في مكانها تفكر لما يقرب من ساعتين في الكارثة التي وقعت بها ؛ فهذه الصور لو وقعت في يد زوجها سيقتلها . كما استوقف تفكير ليلى ما قالته لها مديحة عن أسرتها لتظل تتساءل وتفكر عنما تعنيه بهذه الجملة ، ولم تصل إلى شيء فتغادر الفندق وتعود إلى مسكنها وقد امتلئ قلبها بنار الحقد والكراهية تجاه مديحة وسامح، ويراودها فكرة التخلص منهما بأية وسيلة .

منذ لقائها بليلى لم يهدأ بال مديحة فأخذت تتحرى صدق ما روته لها عن ارتباط سامح بقصة حب وخطوبة بفتاة تسكن بجوار سعيدة ، ولم تجد خيرًا من فرحانة لتساعدها في ذلك خاصة بعدما وقفت معها خلال المحنة التي تعرضت لها منذ

بضعة أشهر؛ حيث أسلمت فرحانة جسدها إلى شاهين تحت ضغط الحاجة والخوف والرغبة الجسدية التي حُرمت منها منذ مرض زوجها بشكل يشبع رغباتها التي اعتادت عليها ، فكان نتاج هذه الفعلة الشنعاء حمل سفاح تخلصت منه بمساعدة مديحة التي اصطحبتها لطبيب أمراض نساء وتوليد يعمل في الخفاء مع الساقطات والفتيات اللاتي تحملن بطريقة غير شرعية . فالظروف الاجتماعية والاقتصادية وحياة الشقاء والبؤس والحرمان الذي يعيشه أشخاص الطبقة المهمشة قد تدفع الكثير من هؤلاء التعساء إلى الإنخراط في عالم الرذيلة والتخلص من حطام القيم والمبادئ الروحانية التي تهدمت تحت براكين الفقر والجوع وزلازل الحاجة ؛ فعند حضور فرحانة للخدمة في الفيلا لم تكن تتخيل في يوم من الأيام أنها ستسقط في بئر الخيانة وتمارس الرزيلة بمحض إرادتها بعد أن راودها الشاب صاحب الحسب والنسب والمال عن نفسها ، لكنها النفس البشرية المليئة بالتقلبات والتناقضات وفقاً للمعطيات المحيطة بها .. قصة الحب التي جمعت صافي بـ سامح وكثير من تفاصيل إتمام الزواج تم نقلها إلى مديحة لتتأكد من خداع سامح لها ، وتقرر في نفس الليلة التي عرفت فيها تفاصيل هذه العلاقة أن تواجهه بكل ما لديها من حقائق فتتصل وتخبره بأنها تريد مقابلته في أمر ضروري لا يحتمل التأخير ، ولا يمكن مناقشته بالتليفون.. وفي الميعاد المحدد حضر سامح إلى شقة مديحة التي قابلته بفتور وملامح ساكنة على غير عادتها . وبعد جلوسهما ظلت مديحة صامتة تتأمل ملامح وتعبيرات وجهه الزائفة لبضع ثوان حتى قالت بصوت غلفه الترقب : هل تعرف شخص اسمه عادل الدكر ؟ .. فينظر إليها سامح نظرة تأملية فاحصة وهو يقول بصوت حملت نبرته نغمات هادئة : نعم . فهو والد العروس .. فترتسم على ملامح مديحة تعبيرات قاتمة وتعلو حدة نبرة صوتها وهي تقول : والد الأنسة صافي حبيبة القلب التي تسكن في نفس العقار التي تقيم به سعيدة . صاحب ورشة إصلاح السيارات والمتزوج بالسيدة بهية والدة العروس وله زوجة أخرى ولا يقيم معهن . العروس التي تعرفت عليها في اليوم الذي ذهبت فيه بصحبة السيدة نهال مع سعيدة لتطمئنوا على أمل، ونشأة بينكما قصة حب تصلح لتكون فيلم رومانسي.. فيقول سامح

بصوت اصطنع اللامبالاة وتعبيرات وجهه تصطنع الهدوء وهو يمعن النظر في وجه مديحة : وماذا بعد ؟ لقد عرفتي كل شيء ووفرتي علي وقت طويل كان سيضيع في التمهيد لكشف هذه الحقيقة .. فتنخرط مديحة في بكاء شديد وهي تقول بصوت باكي متحشرج: لم يعد في استطاعتي التخلي عنك حتى لو كنت تريد التخلص مني.. ثم تصمت لحظات لتأخذ نفسًا عميقًا وهي تنظر إليه لتقول : حتى لو تخلصت مني فلن تستطيع التخلص من ليلى الصالح التي قامت بتصويرنا ونحن نمارس الجنس لتنتقم منك بعدما أوهمتها بأنك تخلصت مني واِحْتَلَت عليها لتشتري لك شقة وسيارة . هذه السيدة لن تستطيع الانتقام منك طالما أنا معك .. فيقول سامح بصوت تظاهرت نبرته بعدم المبالاة وهو ينظرها نظرة ساكنة أخفت ورائها موجات من الشغف والفضول : أنا لا أخشى أحد ، ولم أجبر أحد على فعل شيء . ولن تفرض علي أية امرأة مهما تكون أن أعيش معها تحت التهديد ومهما كانت النتائج .. فتزداد حدة بكاء مديحة وهي تقول بصوت صراخ مكبوت : خسارة يا سامح كنت أتوهم فيك الرجولة والأصل الطيب . لقد تقابلت مع الساقطة التي احتلت عليها . لا تخشى شيء منها فهي لن تستطيع إيذائك .. ثم تمسك بالصور التي وضعتها بجوارها وتعطيها إلى سامح الذي ظل يضحك ضحكة ساخرة وهو يتفحصها حتى دمعت عينيه ليقول بصوت متحشرج : شر البلية ما يضحك . هل أنا أمام إنسان أم جان ؟! كيف استطعتي تصوير تلك الصور؟! .. فتقول مديحة بصوت تهكم وهي تنظره نظرة غاضبة: اعتبرني الجنية «أنثى الجن» التي لن تفرط في الإنسي الذي أحبته.. ثم تتنهد وتقول : الصدفة وحدها هي التي ساقتني لتصوير هذه الصور في اليوم الذي ضبطك فيه معها في فندق سميراميس . المهم هذه الصور هي السلاح الرادع الذي سيجعل هذه الساقطة تتجنب الانتقام منك وإفضاحي معك ؛ فأنا لم اقترف أي ذنب سوى أنني أحببتك وتوهمت أنك تحبني فأسلمتك عقلي وقلبي لتفعل بهما ما تريد .. ثم تنظر إليه نظرة ترقب وتقول بصوت جمعت نبرته مزيجًا من نغمات التوسل والتهديد والنصح : زواجي منك أصبح ضرورة حتمية حتى نتجنب المصائب . ورغم كل ما فعلته معي فلا زال قلبي يرغب في الغفران ولا يستطيع

البعد عنك .. فيقول سامح بصوت مزجت نبرته نغمات الندم وقلة الحيلة بعدما أمعن النظر في تعبيرات وجهها ، واستوعب نغمات التهديد والنصح التي في صوتها: أنا اعترف بالخطأ الذي ارتكبته في حقك . ولكن أنا أعلم جيداً مدى طيبة قلبك ونبل شخصيتك . أنا لا أستطيع مصارحة أهلي بالزواج بامرأة مطلقة تكبرني في السن .. فتمسك مديحة بيده لتقاطع حديثه قائلة بصوت إيجاب وهي تنظره نظرة استعطاف : تزوجني ولن يعرف أهلك . ولو أردت الزواج بـ صافي لن أعترض .. فينظر إليها سامح نظرة تأملية صامتة لبضع لحظات ويقول بصوت استفهام رافض: هل سيعرف أخوك بمسألة زواجنا؟ .. فتقول مديحة بصوت حسرة غلفه الحسرة الممزوجة بالامبالاة : لا تشغل بالك بأخي ، ولو كان معرفته بزواجنا سيزعجك لن أخبره .. فيهز سامح رأسه وقد ارتسمت على وجهه تعبيرات صماء وهو يقول : كما تريدي . سأنصرف الآن وغداً نكمل حديثنا .. فتقول مديحة : سأنتظرك غدًا في نفس الميعاد ولو وافقت على كلامي سنعقد القران عند أقرب مأذون .. فيهز سامح رأسه لينهض ويهم بالانصراف وقد بدى على ملامحه الإجهاد النفسي وهو يقول : إن شاء الله . أراكي غداً .. لينصرف سامح إلى منزله ويظل حبيس حجرته يفكر حتى وقت متأخر من الليل في المأزق الذي وقع به؛ فالارتباط بمديحة قد يعرض حياته مع صافي للفشل ، وعدم ارتباطه بها معناه التعجيل بنهاية حياته مع صافي . وأمام هذه الاختيارات الصعبة يفضل سامح اختيار أقل الفروض ضرر – من وجهة نظرة الشخصية – ليقرر الزواج بمديحة في السر حتى يضمن وقوفها بجانبه في مواجهة ليلى الصالح ، وليستطيع إتمام زواجه من صافي .

وتمر بضعة أشهر يتزوج خلالها سامح مديحة سرًا ويعقد قرانه على صافي ويستمر في مراوغته لهما . تلك المراوغة كانت مدفوعة بخوفه من فقدان صافي ؛ الإنسانة الوحيدة التي شعر تجاهها بمشاعر حب حقيقية ، ولم يفكر في استغلالها مادياً أو معنوياً . وكانت رغبته في التخلص من الشخصية المادية الجشعة التي تعيش بداخله ليس بالأمر الهين ؛ خاصة وأن التخلص من هذه الشخصية المادية الجشعة

كان يتحتم عليه التنازل عن ما اغتصبه من أموال من ليلى ومديحة ، وهذا يعني أن يبدأ من الصفر ليجمع أموال يشتري بها مسكن يليق بمركزه ومستواه الاجتماعي ويتزوج بالفتاة التي أحبها وسيارة يستطيع بها التنقل بوسيلة ترفيهية اعتاد عليها، ولم يعد في مقدرته التنازل عنها ليستقل المواصلات العامة التي كانت تقدم خدمات غير آدمية لن يستطيع إنسان مثل سامح تحملها وهو الشخص الذي تجرع الرفاهية وأدمن حياة اللذة والمتعة . لذلك ، فقد راودته الشخصية الشريرة الجشعة التي تغذت على حب النفس والتسلق على مقدرات الآخرين ليعود إلى أحضان الرزيلة مع الشخصية الأكثر شراً ، ويتخيل أنها قد نسيت أو تناست ما فعله معها هو ومديحة؛ حيث كانت هذه المرأة المتسلطة ذات القلب الصلد الحقود المتعالي تبيت لهما النية لتتخلص منهما ، فأغدقت عليه العطايا وطمأنته بأنها لا تبغي من الدنيا سوى أن يبقى بجوارها ويشبع أنوثتها المتعطشة لرجولته. وفي أحد لقاءات ليلى بـ سامح، والتي كانت تتم في مسكن سميرة العنزي[1] إحدى صديقات ليلى ، وبعد ممارستهما للرذيلة ، وجدت ليلى صورة ابنها ملقاة على أرضية الحجرة بجوار السرير فأصابها الذهول والصدمة وهي تمسك بصورة ابنها قائلة باللهجة الكويتية وبصوت غلفه الغضب: معقول. شاهين. هذا من دور أولادها. والله لن أسكت على ذلك يا سميرة. تخونيني في ابني ! .. فيقول سامح بصوت استفهام وقد ارتسمت على ملامحه الفضول: ما الذي فعلته سميرة مع ابنك ؟ .. فتقول ليلى بصوت تملكه الغضب بصورة عفوية وقد ارتسمت على وجهها تعبيرات تعجب ممزوجة باستياء : لقد

---

(١) شخصية شبيهة بصديقتها وفقاً للمثل القائل «الطيور على أشكالها تقع». كويتية الجنسية وفي بداية العقد الخامس من عمرها . من العائلات الكويتية العريقة ، وتمتلك ثروة كبيرة تقدر بعدة ملايين من الدولارات . أرملة أحد كبار رجال الدولة في الكويت ؛ حيث قُتل زوجها أثناء اجتياح القوات العراقية للقصر الأميري . تركت الكويت منذ بداية الغزو العراقي ، واستقرت في مصر حيث تزوجت بأحد المغنيين الشباب المغمورين وأغدقت عليه بالمال ، وأنتجت له العديد من شرائط الكاسيت وفيلم سينمائي وضعه على طريق النجومية .

جُنت سميرة . هذه صورة شاهين ملقاة تحت سريرها .. فيمسك سامح الصورة يتفحصها لبضع ثوان ليجدها متسخة بصورة أثارت حفيظته فيقول بصوت حملت نبرته نغمات يقين : هذه الصورة لا يمكن أن تكون في حوزة سميرة ؛ فهي متسخة بصورة ملحوظة، واعتقد أنها كانت في حوزة شخص آخر يعيش في بيئة غير نظيفة.. فتتأمل ليلى كلام سامح فتزداد تعبيراتها فزازة، وهي تقول بصوت غضب مكبوت: سأستعلم من سميرة عن هذا الأمر.. ثم تتنهد نفس عميق وتتصنع النسيان وهي تقول بصوت تساؤل : أين ستقضي يوم شم النسيم القادم .. فيبتسم سامح ابتسامة مقتضبة وهو يقول بصوت هادئ : عند صافي في البيت .. فتضحك ليلى وهي تقول: تجلس في البيت يوم شم النسيم . لا . سأترك لك اليخت ، ويمكنكما الذهاب إلى القناطر أنت وخطيبتك .. فيقول سامح : أنا لا أعلم كيف أقود اليخت.. فتزداد ضحكات ليلى صخبًا لتقول بعدها : لو تريد أن أكون معكما سأصطحب سميرة وزوجها .. فينظر إليها سامح نظرة قبول ويقول بصوت استفهام ممزوج بتعجب : هل سيأتي ريكوس ؟ اعتقد أن صافي ستحضر لتشاهد هذا الأراجوز الذي يتخيل نفسه مطربًا .. فتستمر ليلى في إطلاق الضحكات الصاخبة المصطنعة لتقول بعدها بصوت إيجاب : لو تريد . سأجعلك تتعلم قيادة اليخت في أقل من ٤٨ ساعة .. فيقول سامح بصوت مزجت نبرته بين نغمات القبول والاستفهام : كيف ؟ .. فتقول ليلى : سأجعل الكابتن حسين الذي علم شاهين وجابر يعلمك ، وإذا أردت الحصول على تصريح بقيادة اليخوت في نهر النيل هذا أمر سهل .. فيقول سامح بصوت لهفة ممزوج بالفضول : شم النسيم سيأتي هذا العام يوم الاثنين ٢٤ أبريل ولم يتبق سوى ١٨ يومًا .. فتقول ليلى بصوت غلفه اليقين : لو تريد سأجعلك تبدأ دروس قيادة اليخوت باكرًا .. فيقول سامح بصوت قبول وقد ارتسمت على وجهه تعبيرات فرحة وسرور : نعم . غداً الخميس بعد العصر سأكون جاهزًا .. فتتجه ليلى نحو التليفون وتجري اتصالها بالكابتن ليتم تحديد ميعاد اللقاء . بعدها ينصرف سامح إلى حال سبيله ، وقد استهوته فكرة قيادة اليخت وهو لا يعرف المكيدة التي

تنتظره .. وبعد انصراف سامح ظلت ليلى تفكر وتبحث عن سبب وجود صورة ابنها في حجرة نوم سميرة قبل سؤالها وبعد إمعانها التفكير توصلت أن هذه الصورة تخص فرحانة ؛ فهي التي قامت بتنظيف وترتيب هذه الحجرة الليلة الماضية ، وسميرة في الغردقة منذ ثلاثة أيام . ومن هذا الاستنتاج الذي وصل لمرحلة اليقين بدأت ليلى في التفكير في مراقبة تصرفات فرحانة ؛ حيث دب في قلبها الشك تجاه خادمتها وتوهمت أنها تُدبر مكيدة لشاهين بمساعدة مديحة. ليمتلئ قلبها بالغل والكراهية وتنوي قتلها لو صح ما تظنه .

ويمر أسبوع منذ لقاء سامح مع مديحة استطاعت ليلى كشف علاقة فرحانة بابنها شاهين ، الذي رغم استطاعته من ممارسة الرزيلة مع كثير من الفتيات ذوات الجمال والمستوى الثقافي والاجتماعي المرتفع ، فقد وقع في عشق جسد فرحانة التي كانت رغم تواضع مظهرها وملبسها تمتلك جسد مليء بالأنوثة الطاغية لم ير ويتلذذ بمثله رغم تجارب الرذيلة المتعددة التي مارسها مع نساء وفتيات من مختلف الأشكال والألوان .. الشيء الذي كان يثير غضب ليلى من هذه العلاقة هو الظن الذي تملك منها بأن مديحة تستخدم فرحانة ضدها فعقدت العزم على الانتقام منهم (فرحانة – سامح و مديحة) ، وتبلور في مخيلتها فكرة شيطانية حددت تنفيذها يوم شم النسيم. ففي الوقت الذي سيقوم سامح بالتنزه مع صافي على اليخت ستلاحقهما بيخت آخر ومعها عبده سرفيس[1]، حيث سيتم وضع مخدر في المشروبات التي تم تحضيرها لهما وبعدما تتأكد من تخديرهما يتم اغتصاب صافي بمعرفة عبده سرفيس وتصويرها عارية في صور منفردة. وفي نفس الوقت يتم استدارج كل من فرحانة

(١) مسجل خطر سرقة بالإكراه . حُكم عليه بالسجن لمدة خمسة عشر عامًا في قضية سرقة بالإكراه ، وعقب خروجه من السجن تزوج بإحدى الساقطات التي تدير شبكة لممارسة الدعارة وتم استخدامه بواسطة بعض رجال المال والأعمال في أعمال بلطجة وإرهاب بجانب مساهمته في تسير عدد من الحملات الانتخابية في عدد من الدوائر بمنطقة المهندسين والعجوزة .

ومديحة إلى إحدى الشقق التي سيتم اقتحامها بمعرفة بوليس الآداب ليتم الزج بهما في قضية ممارسة دعارة ؛ فبمساعدة عبده سرفيس تم الاستعانة ببعض الفتيات أصحاب السوابق والاعتياد على ممارسة الدعارة للتواجد في أحد الفيلات الموجودة بضواحي القاهرة ، والتي تتكون من دورين ، حيث يتم التحايل على فرحانة بواسطة شريفة خادمة سميرة العنزي وإيهامها بأن هناك أحد شيوخ العائلة المالكة في الكويت ومعه زوجته سيحضران إلى القاهرة ثاني أيام شم النسيم والشخص المسئول عن الفيلا طلب منها القيام بأعمال النظافة في مقابل مبالغ كبيرة سيتقاسمها، خاصة وأن مخدوماتها في مثل هذه المناسبات تغادرن القاهرة ولا تحتاجان إليهما . وبالفعل استأذنت فرحانة مخدوماتها يوم شم النسيم وسمحت لها بالتغيب في هذا اليوم عن العمل ليتم حضور فرحانة بمفردها إلى الدور الأول من الفيلا بعد اعتذار شريفة عن الحضور بسبب استدعاء مخدوماتها لها لتسافر إليها فجأة في الليلة السابقة ليوم شم النسيم . وفي نفس الوقت سيتم التحايل على مديحة لتحضر إلى الدور الثاني مع أحد الأشخاص الذي يوهمها أنه يريد استئجار الفيلا التي تم عرضها للإيجار عن طريق مكتبها .. وبالفعل فقد استطاعت ليلى تنفيذ فكرتها الشيطانية وأصبحت مديحة وفرحانة متهمتان بممارسة الدعارة ؛ حيث أُثبت في محضر الشرطة ، الذي ضبط واقعة ممارسة عدد من الساقطات للدعارة متلبسين في فيلا تم إستئجارها بمعرفة إحداهن، أن مديحة وفرحانة بشهادة تلك الساقطات كان يمارسن الرذيلة مع راغبي المتعة في مقابل الحصول على مبالغ مالية .. الشيء الأكثر خسة ونذالة كان من نصيب صافي التي كانت الضحية الأكثر براءة في هذا الفعل الإجرامي ؛ فبعد اغتصابها وتصويرها عارية تم وضعها بجوار سامح ، بعدما تم وضع بقايا من سائل منوي خاص بسامح على ملابسها الداخلية وداخل فرجها . هذا المني كانت ليلى قد استخرجته من واقي ذكري خلال ممارستها للجنس معه في آخر لقاء بينهما ، والذي تم قبل الحادث بأقل من ١٥ ساعة وقامت بوضعه في ثلاجة طوال هذه الفترة . وبعد إرساء اليخت في القناطر الخيرية كانت صافي قد استفاقت من تأثير

المخدر لتجد نفسها في أحضان سامح وهو ما زال تحت تأثير المخدر فيصيبها الهلع والفزع عندما تتذكر طريقة فقدانها للوعي ، وتتحامل على نفسها حتى تصل إلى دورة المياة وتخلع ملابسها بعدما شعرت بالآم في فرجها فتجد أثار دماء وسائل منوي على ملابسها الداخلية فتصرخ صرخة مدوية ، وتنادي على سامح بصوت استغاثة وهي تتجه نحوه مترنحة حتى إن وصلت إليه تهزه بقوة وعنف شديد ليستعيد وعيه بصورة مشوشة فتتجه لسكب مياة مثلجة على جسده حتى يستعيد وعية بصورة مكنته من النهوض ، وقد أصابه الفزع والهلع من حالة البكاء والنويح التي كانت عليها صافي ليسألها بصوت تعجب ممزوج بالفضول وعلى وجهه تعبيرات استغراب : ما الذي حدث ؟ هل فقدنا الوعي ؟ أشعر بغثيان شديد ولا أقدر على الوقوف .. فتمسك صافي بتلابيب ملابسه وتدفعه بقوة وهي تصرخ في وجهه بصوت هستيري: ماذا تقول؟ هل تريد التهرب مما فعلته معي؟ لماذا فعلت ذلك يا سامح . لقد كنت أرغب في حدوث ذلك في ليلة الزفاف ، وليس وأنا تحت تأثير المخدر .. فيبدأ سامح في استيعاب ما حدث، وينهض وهو في حالة عدم اتزان ليتجه نحو كابينة القيادة فيجد نفسه في مرسى القناطر الخيرية فأخذ يستعيد ذاكرة ما حدث . وبعد بضع دقائق من نويح وبكاء صافي وصمت وذهول سامح تحضر دورية شرطة من إدارة المسطحات المائية يقودها ضابط برتبة رائد ويقف بلنش الدورية أمام اليخت ويصعد إلى أعلى سطحه . وبعد انتشار تلك القوة حول اليخت يتوجه الضابط نحو سامح ويسأله بأسلوب خشن وعلى وجهه تعبيرات فظاظة : ما الذي يوقفك هنا يا أستاذ . ألا تعلم أن هذه المنطقة محظور الوقوف بها ؟ أنت تقف بجوار استراحة رئاسة الجمهورية ! .. فينظر إليه سامح نظرة استغاثة وهو يقول بصوت تملكت نبرته نغمات صدمة وفزع ممزوجة باستنجاد : لقد فقدنا الوعي ولا نعرف ما الذي أتى بنا إلى هنا .. فيضحك الضابط ضحكة سخرية وهو يقول بصوت تهكم : من الواضح أن الصنف كان شديد فأخذ عقلك .. ثم تتبدل ملامح السخرية والتهكم التي كانت مرسومة على وجه الضابط بملامح غلظة وهو يقول :

أين تحقيق شخصيتك ورخصة تسير اليخت يا معالي العاشق .. فترتسم على وجه سامح تعبيرات ذهول وهو يقول بصوت استغاثة : أنا سامح الشامي مدير العلاقات العامة بالسفارة الكويتية وهذه زوجتي وأخر ما نتذكره هو أننا كنا أمام مبنى ماسبيرو ، وقد فقدنا الوعي بعد تناولنا للعصير الموجود في ثلاجة اليخت ولما استعدنا الوعي وجدنا أنفسنا هنا .. فيكرر الضابط سؤاله بنفس الأسلوب والنبرة : تحقيق شخصيتكما ورخصة سير اليخت ؟ .. فيتوجه سامح نحو حافظته ليخرج منها تحقيق الشخصية ورخصة تسير اليخت فلم يجدها فينظر إلى الضابط نظرة استغاثة ممزوجة بتوسل وهو يقول بصوت مصدوم : يا أفندم من الواضح أننا تعرضنا لعملية سرقة فحافظة نقودي وتحقيق الشخصية ورخص تسير اليخت تم سرقتهم .. فيهز الضابط رأسه بأسلوب ساخر ثم ينظر إلى صافي نظرة ارتياب ويقول بصوت استهزاء : وأنت يا مدام جوليت أين تحقيق شخصيتك ؟ .. فتنهمر الدموع من عيون صافي ويرتسم على ملامحها تعبيرات صادمة عندما لم تجد حافظة نقودها وتحقيق شخصيتها ومصاغها وشبكتها ، وتقول موجهة كلامها إلى الضابط: لقد تعرضنا للسرقة وأعتقد أن اللصوص اغتصبوني تحت تأثير المخدر .. فيتسمر سامح ويصاب بحالة من الغثيان من هول ما سمع ويقول بصوت ذهول وعيون تائهة : بالتأكيد أنا في كابوس ! ماذا تقولي ؟ اغتصبوكي ! .. فتصاب صافي بحالة من البكاء الهستيري وهي تقول بصوت ندم : يا ليتني لم أخرج معك . يا رب ارحمني . يا ليتني مت قبل أن يحدث ما حدث . يا ليتني أموت . كيف سأوجه الناس بما حدث ؟ .. فتتبدل ملامح السكون الذاهل التي ارتسمت على وجه سامح ليحل محلها غضب جارم ويقترب من صافي ويمسك يدها بشدة وهو يصيح بصوت انفعالي احتدت نبرته : كيف عرفتِ ذلك ؟ تكلمي .. فيقاطعه الضابط قائلاً بصوت أمر : من فضلك . اتركها ودعها تحكي تفاصيل ما حدث .. ثم يخرج من جيبه منديل ورق ويعطيه لها قائلاً بطريقة ناعمة وصوت تعاطف بعدما أمر القوة المصاحبة له بالابتعاد : أرجوكي اهدئي واحْكي ماذا حدث بالتفصيل ..

فتمسح صافي دموعها وتبدأ في سرد الأحداث منذ تقابلها مع سامح في الصباح حتى اكتشافها الدم على ملابسها الداخلية .. وما أن سمع سامح ما قالته صافي عن وجود دم على ملابسها الداخلية حتى جن جنونه ؛ فأخذ يصرخ في وجهها قائلاً بصوت انفعالي احتدت نبرته وتعلقت بها نغمات مزجت بين الصدمة والذهول وعدم الرغبة في تصديق ما حدث : ماذا تقولي ؟ ماذا يعني ذلك ؟ هل تم اغتصابك وفقدتي عذريتك ؟ هل تعتقدي أني سأسكت على ذلك ؟ .. فيمسك الضابط بيده ويأخذه بعيداً عنها ويقول له بصوت نصح وإرشاد ، وقد بدى على وجهه ملامح تأثر بما سمعه من صافي : إهدأ يـا أستـاذ سامح وكل شيء سيتم معالجته . من الواضح أنك إنسان مهذب ومتعلم. لقد قلت أنها زوجتك، وهي كما فهمت من كلامكما أنها بكر . ماذا يعني ذلك؟.. فيقول سامح بصوت مكلوم ومازالت تعبيرات الغضب تأكل وجهه : أنا عاقد قرآني عليها ولم يتم زفافنا بعد .. فيقول الضابط : هل تتصل بأهلها حتى يأتوا فوجودهم ضروري في جميع الأحوال .. فيصمت سامح لبضع ثوان وهو ينظره نظرة تأملية ثم يقول: هل يوجد تليفون نستطيع الاتصال منه؟.. فيقول الضابط: سنذهب عندي في المكتب وهناك تستطيع الاتصال بمن تريد؟.. فيقول سامح بصوت استفهام تعلقت بنبرته نغمة قلق وخوف: عندك في المكتب؟ في قسم الشرطة!.. فيبتسم الضابط ابتسامة خفيفة قائلاً: لا. أنا الرائد وجدي عابد من قسم شرطة مسطحات القناطر الخيرية، والمكتب على بعد دقيقة من هنا . أرجوك لا تنفعل على خطيبتك وكن هادئ قبل اتخاذ أي قرار حتى نتحرى ونتعرف بصورة مبدئية على ما حدث . وفي النهاية القرار لكما.. فيقول سامح بصوت تساؤل كست نبرته نغمات انكسار وتعبيرات وجهه تعبر عن بركان من الغضب الكامن : هل يمكن أن ننهي الموضوع بدون عمل محضر . فهذا الإجراء سيعرض سمعتنا للقيل والقال .. فينظر إليه الضابط نظرة تأملية صامتة لبضع ثوان ويقول : يا أستاذ سامح الواقعة التي تتحدث عنها تمثل جناية اغتصاب مقترنة بسرقة وعدم تقدم المجني عليه ببلاغ يمنح الجاني فرصة تكرار جريمته . وفي جميع

الأحوال يجب أن أتحرى عن شخصيتكما ، وعن سبب وجودكما بجوار استراحة رئيس الجمهورية . فهناك بلاغ من الجهات الأمنية المعنية بتأمين المقر ، ويجب تسديد المخالفة وإرسال ما تم اتخاذه من إجراءات إلى تلك الجهات .. فيقول سامح بنفس نبرته السابقة : يا رب . استرها وارحمنا ليس من أجلي ولكن من أجل هذه الإنسانة البريئة .. وخلال دقائق يتم اصطحاب سامح وصافي إلى قسم شرطة القناطر للمسطحات المائية ليتحدث سامح مع بهية تلفونياً ويبلغها عن مكانهما ويخبرها بضرورة الحضور ومعها قسيمة الزواج وكارنية الجامعة أو أي إثبات شخصية لصافي ؛ حيث تعرضوا للسرقة وليس لديهما إثبات شخصية . فتهلع بهية وتتصل بزوجها وتخبره بما حدث ليتقابل الاثنان ويذهبا سوياً إلى القناطر الخيرية ، وهما في حالة قلق وتوتر غير مدركين حجم الكارثة التي ألمّتْ بابنتهما .. وحتى حضور بهية وعادل الدكر ظل سامح في حالة ذهول وارتباك وغضب شديد غير مصدق ما حدث ، بينما كانت صافي في حالة شبة انهيار وكل ما كانت تنطق به بين الحين والآخر جملتين : «يارب استرها معي». « يا رب أنا راضية بقضائك».

وقبل حضور بهية وعادل إلى قسم المسطحات المائية بالقناطر كان الرائد وجدي عابد قد عرض الواقعة على مأمور قسم المسطحات ، وتلقى منه تعليمات بضرورة حث المجني عليها على التقدم ببلاغ حتى يتم عمل محضر بالواقعة وقيده في قسم شرطة القناطر الخيرية لعرضه على النيابة للنظر والتصرف . بجانب تحرير مخالفة الوقوف في أماكن غير مرخص الوقوف بها ، والسير بدون رخصة تسير الياخت .. وبمجرد وصول عادل وبهية إلى قسم الشرطة قصت عليهما صافي ما حدث بالتفصيل في حضور الضابط ، الذي اطلع على كارنيه الكلية الخاص بـ صافي وقسيمة زواجها من سامح ورخصة قيادة سيارة خاصة بسامح كانت موجودة بالمصادفة مع صور ضوئية من بطاقتهما الشخصية . وعند سماع عادل وبهية لما حدث لابنتهما أصابهما صدمة زلزلت كيانهما ؛ فأخذت بهية تصرخ صراخ عويل وهي تحتضن ابنتها التي دب الوهن في ملامحها وأصبحت كالوردة التي ذبلت ، بينما

ظل عادل ينظر إلى الأرض وهو يضع كلتا يديه على رأسه لبضع ثوان ثم نهض واتجه نحو سامح وصاح في وجهه بصورة هيستيرية وملامح الغضب والرغبة في الانتقام تسيطر على تعبيرات وحركات وجهه : ما الذي جعلك تختلي بابنتي خلوة شرعية وقد افهمتنا أنكما ذاهبين في رحلة مع أصدقائكم ؟ والله لن أسامحك أبداً على ذلك . ويجب أن تعلم أنك السبب في حدوث ذلك ولو تخليت عن صافي سأنتقم منك .. فينظر إليه سامح نظرة حزينة رسمت على وجهه ملامح ندم وهو يقول بصوت رجاء وتوسل : الخطأ كله خطأي . ارجوك يا عمي . نحن لا نريد فضائح ولا داعي لعمل محضر وأنا أقسم لك أنني لن أتخلى عن صافي ، ولن أترك الجاني وسأنتقم منه بنفسي .. فينظر إليه عادل نظرة تأملية غاضبة ويقول بصوت حملت نبرته نغمة تعجب ثم نغمة إصرار : هل تريد أن نذهب من هنا ولا نبلغ الشرطة عن الجريمة الشنعاء التي وقعت في حق ابنتي . هل تريد أن نقوم بعمل الشرطة ؟ والله لن أفعل ذلك فابنتي مجني عليها ، وليس لها ذنب أنها كانت معك .. وفي تلك اللحظة يحضر الضابط ويتحدث مع عادل وسامح ليدور بينهما نقاش لفترة قاربت الساعة عن مسألة تقدم صافي ببلاغ رسمي عن واقعة اغتصابها؛ حيث أصر عادل الدكر على تحرير المحضر على الرغم من تحفظ سامح . عقب ذلك يحرر الرائد وجدي عابد محضر شرطة يُثبت من خلاله إدعاء صافي وسامح بتعرضهما للسرقة بعد تخديرهما ، وتعرض صافي للاغتصاب ؛ ليتم تحريز الملابس الداخلية الخاصة بـ صافي، والتحفظ على اليخت ، ثم يرسل المحضر بأطرافه إلى قسم شرطة القناطر الخيرية ليقيد في دفتر قيد القضايا ويتم عرض المحضر والمجني عليها على النيابة المسائية في نفس اليوم . وعقب سماع أقوال كل من صافي وسامح يقرر وكيل النيابة عرض صافي على إدارة الطب الشرعي بالقليوبية لتوقيع الكشف الطبي عليهما ، وندب خبير من الطب الشرعي لمعاينة مسرح الجريمة ، ورفع البصمات والتحفظ على ما يوجد من أثر ، وتحريات المباحث الجنائية عن الواقعة ، واستدعاء مالكة اليخت «السيدة ليلى الصالح» والأشخاص الذين ذُكرت أسمائهم في محضر جمع

الاستدلالات لسماع شهادتهم.. ومع اقتراب عقارب الساعة من الحادية عشر مساءً كان الطبيب الشرعي بإدارة الطب الشرعي بالقليوبية قد انتهى من توقيع الكشف الطبي على صافي وإثبات تعرضها لفض غشاء البكارة وتناولها هي وسامح لمادة مخدرة تستخدم في التخدير قبل إجراء العمليات الجراحية . بعدها ينصرف الجميع إلى حال سبيلهم حيث تعود صافي بصحبة والديها إلى منزلها وهم في حالة انهيار نفسي وعصبي غير مصدقين لما حدث ؛ ليظل الوجوم والحزن يسيطر عليهم بعدما سُرقت من عيونهم البسمة واغتُصبت من وجدانهم السكينة والآمان.. وعلى الجانب الآخر عاد سامح إلى منزله وهو يكظم ما لديه من غضب وأحزان فيفاجئ بوالده يبلغه بوجود استدعاء له من قسم شرطة مدينة نصر ، كما يبلغه بأن السيدة ليلى الصالح اتصلت به وتريد أن يتصل بها فور عودته أياً كان الوقت . ليتجه سامح عقب دخوله إلى حجرته بالاتصال بـ ليلى تليفونياً ويخبرها بما حدث ، وهو في حالة نفسية متخبطة لم تجعله يفكر بأنها هي التي وضعت لهما المخدر وهي التي دبرت ونفذت هذا العمل الإجرامي غير الإنساني الذي ينم عن شخصية فاجرة سافرة نُزعت من قلبها كل القيم الإنسانية .. وبأسلوب تظاهر بالصدمة والذهول قابلت ليلى كلام سامح بكلمات تظاهرت بالمواساة والوقوف بجانبه بكل ما تستطيع من دعم ، وطمأنته أنها ستذهب إلى النيابة وستؤيد كل ما قاله في المحضر .. الشيء الذي شغل بال سامح طوال تلك الليلة ما تناقش فيه مع كل من الضابط ووكيل النيابة بخصوص الشخص الذي أحضر المشروبات إلى اليخت ؛ فقد كان سامح على يقين بأنه الذي ارتكب هذا الفعل أو على الأقل هو الخيط الذي ستتوصل الشرطة عن طريقة إلى مرتكب هذه الجريمة .. بجانب الترقب والانتظار بالقبض على الجاني ، والذي كان يشغل حيز كبير من تفكير سامح طوال تلك الليلة ، فقد كان الخوف من مواجهة الأهل والأقارب والجيران بما حدث لخطيبته يشغل الجزء الأكبر من تفكيره وجعله في حالة عدم اتزان نفسي وعصبي لم تجعله يفطن إلى الخديعة التي تعرض لها .

وفي صباح اليوم التالي ، وبينما كان سامح حبيس حجرته يفكر فيما حدث في الليلة السابقة دق جرس التليفون ليفأجأ بسعيدة وهي تستنجد به بصوت مكلوم قائلة : انجدني يا أستاذ سامح . فرحانة والست مديحة محبوستين منذ أمس بقسم مدينة نصر ، وعندما ذهبت إلى هناك عرفت أنهما على ذمة قضية دعارة .. فيقول سامح بصوت استفهام مصدوم : ماذا تقولي مديحة وفرحانة في قضية دعارة ؟! .. فتقول سعيدة بنفس نبرة الاستغاثة والتوسل: أرجوك يا أستاذ سامح تحضر بسرعة. الست مديحة طلبت مني أن أتصل بِك وأُبلغك أنها تعرضت إلى خدعة ومكيدة ، وأنها بريئة وتريد أن تأتي لها بمحامي . أرجوك يا أستاذ سامح تعال ومعك المحامي فأختي فرحانة محبوسة معها ، وأنا لا أعرف أين أذهب فلو عرف زوجها بهذا الموضوع سيقتلها .. فيضع سامح السماعة من شدة هول المفاجأة ، وتنتابه حالة بكاء شديد وهو يردد : معقول كل هذا يحدث في يوم واحد ! رحمتك يا رب . هل أفصحت مديحة عن زواجنا في محضر الشرطة . لابد من الذهاب إلى هناك . عاهرة ! لا بالتأكيد لا يمكن أن تكون مديحة عاهرة . بالتأكيد أنا في كابوس مزعج . ماذا لو اكتشفت صافي أنني متزوج ؟! وبصورة تلقائية يرتدي سامح ملابسه ويتوجه إلى قسم شرطة مدينة نصر ليظل خلال الطريق يردد تلك الجمل ولم يجد تفسير لما يحدث له .. وبعد وصوله إلى قسم الشرطة توجه إلى مكتب ضابط نوبتجية التحقيقات ، الذي كان برتبة ملازم ولا يتجاوز عمره الثانية والعشرين ، وعرفه بشخصيته وسأله عن التهمة الموجهة إلى مديحة وفرحانة بصوت غلفه الترقب الممزوج بقلق وتعبيرات وجهه تكاد تختفي من شدة الخجل والتوتر .. فينظره الضابط نظرة دونية قائلاً بصوت غلفه البغض والاشمئزاز الممزوج بالتعالي : من أنت ؟ .. فيقول سامح بصوت مهزوز مرتبك : أنا سامح طاهر مسؤول العلاقات العامة بسفارة الكويت. زوج مديحة ؟ .. فيقول الضابط بأسلوب تهكم وسخرية : زوج السيدة مديحة المتهمة في قضية دعارة .. فتزداد تعبيرات القلق والتوتر على وجه سامح وهو يقول بصوت حملت نبرته نغمات الخزى والعار : هل يمكن أن أعرف ما

الذي حدث؟.. فيستمر الضابط في إطلاق نظرته الدونية قائلاً بنفس نبرته السابقة: يا أفندي. شرطة مباحث الآداب ضبطت زوجتك مع مجموعة من العاهرات متلبسين بممارسة الدعارة ، وقد تم قيد المحضر هنا في القسم مساء أمس ، وجميع المتهمين خرجوا في الصباح الباكر ليتم عرضهم على نيابة آداب مدينة نصر .. فيقول سامح بصوت انكسار وتعبيرات وجهه تكاد تصرخ من شدة ما لحق به من مصائب: هل تم ضبطها وهي متلبسة ؟ .. فينظر إليه الضابط نظرة ضيق ويقول بصوت به غلظة : يا أستاذ . لا تضيع وقتي أذهب واستفسر من النيابة . أذهب إلى حال سبيلك .. فينظر إليه سامح نظرة حسرة ممزوجة بغضب مكتوم وهو يقول بصوت استنكار : أنا اسألك عن شيء يتعلق بعملك . لماذا تتحدث معي هكذا ؟ انا لست مجرم أو حرامي .. فينهض الضابط من محله وهو يصيح في وجه سامح بصوت غليظ: ماذا تقول يا زوج الست؟ أذهب من هنا وإلا جعلتك عبرة لكل القوادين.. فينظر سامح إليه نظرة ساكنة ويتمالك نفسه من الغضب بعدما استوعب أنه في موقف ضعف ليقول بصوت غلفه الاستكانة : سأذهب وربما نتقابل مرة أخرى .. فيقول الضابط بصوت جهوري والغضب يسيطر على كل ملامحه : اذهب إلى الجحيم .. فيغادر سامح القسم ويتوجه إلى محل نيابة آداب مدينة نصر ، ويتقابل مع وكيل النيابة الذي يتولى سلطة التحقيق في القضية ويستعلم منه عن كيفية ضبط مديحة وفرحانة والتهم الموجهة إليهما ؛ فيخبره وكيل النيابة أن مديحة وفرحانة لم يضبطا في حالة تلبس ونظراً لظروف ضبطهما ، حيث كانت كل منهما ترتدي ملابسها كاملة وقت ضبط الجريمة ، بجانب أنه لم يسبق ضبطهما في قضايا آداب أو أية قضايا أخرى ، فقد أُصدر قرار بالإفراج عنهما بكفالة خمسمائة جنيهاً لكل منهما . وقد أسرع سامح بتدبير مبلغ الكفالة لزوجته بعد خروجه من مكتب وكيل النيابة ليدفعه في خزينة النيابة حتى يتم الإفراج عنها بعد التأكد من أنها غير محبوسة على ذمة قضية أخرى .

ومع حلول الساعة الثالثة كان سامح قد اصطحب زوجته إلى خارج القسم بعد الإفراج عنها ، وفي صمت حزين تستقل مديحة السيارة وينطلقا سوياً إلى مسكن مديحة حيث تظل دموعها الصامتة تنساب على وجنتيها ، وهي تنظر إلى سامح نظرة استعطاف مستضعفة وعلى ملامحها تعبيرات صدمة وذهول ممزوجة بقلق وتوتر . وبمجرد دخولهما إلى صالة البيت ترتمي مديحة على قدم سامح وهي تبكي بكاءً هستيريًّا وبصوت متحشرج متقطع مخنوق تقول : والله العظيم أنا بريئة. والله أنا لا أعرف أي شخص من المتهمين ، وكل كلامهم افتراء وكذب .. فيتجه سامح ويمسك يدها ويجذبها نحوه وهو ينظرها نظرة تأملية حانية قائلاً بصوت انهزام : لقد أراد شخص أن ينتقم مني شر انتقام ونجح في تلويث سمعتي وشرفي.. فتنظر إليه مديحة نظرة تأملية وقد توقفت عن النحيب وهي تقول بصوت استفهام مبحوح غلفه الفضول : ماذا تقصد ؟ هل تعرف الشخص الذي فعل معي ذلك ؟! فيقول سامح بصوت حملت نبرته نغمات حانقة ، وقد ارتسمت على ملامحه تعبيرات الأسى والرغبة في الانتقام : لو صح ظني لن يكفيني قتلها .. فتمسك مديحة بيده وتتوقف دموعها وهي تنظره نظرة تأملية فاحصة رسمت على ملامحها تعبيرات استنتاجية قاتمة لتقول بصوت مبحوح : هل تقصد أن ليلى الصالح هي التي فعلت معي ذلك لتنتقم منك ؟ .. فيلاحقها سامح بصوت غلفه الأسى والندم ويقص عليها ما حدث مع صافي بالتفصيل .. وخلال سرده لما حدث معه بالأمس كانت تعبيرات مديحة أشبه بالبركان النشط الذي يلقي بحمم من الغضب حتى ما انتهى من كلامه ظلت تنظره نظرة حانقة لبضع ثوان ، ثم قالت بصوت صراخ مكلوم : هل ما زلت على علاقة بهذه السيدة بعد كله ما فعلته معنا ؟ أنت مثل العاهرات تبيع جسدك لهذه السيدة . هل تستغلني أنا وصافي أيضاً ؟ .. فينهض سامح من مكانه ويلطمها على وجهها لطمة عنيفة ويمسك بتلابيب ملابسها وهو يقول بصوت غضب عارم امتلأت نبرته بالغلظة : اخرسي . لو تفوهتي بمثل هذا الكلام فأنتِ طالق .. فتبكي مديحة بكاءً شديدًا وتلطم وجهها بصورة هستيرية لبضع ثوان ثم

تقول بصوت غلفه النحيب وهي تنظره نظرة حسرة وألم : حسبي الله هو نعم الوكيل . لماذا تفعل ذلك معي ؟! هل جزائي أنني أحببتك أكثر من نفسي ؟! هذه الساقطة الفاجرة بكل تأكيد كانت تخطط لتنتقم منا ، وقد نجحت في الإيقاع بك بعدما أغرتك بالمال .. ثم تأخذ نفسًا طويلاً متقطع وتقول بصوت مزجت نبرته نغمات التوعد بالانتقام من ليلى والحسرة والألم مما حدث لها: سأنتقم منها شر انتقام. هل نسيت الصور التي بحوزتي ؟ .. فيقول سامح بصوت تحملت نبرته بنغمات خجل ممزوجة بحسرة وندم وهو يتجنب النظر إليها : لقد أعطيتها الصور والنيجاتيف في مقابل شريط الفيديو .. فتصرخ مديحة صرخة حادة وبحركات لا إرادية تضرب سامح بكلتا يديها على صدره وهي تقول بصوت بكاء صارخ نادم: حرام عليك . ألهذه الدرجة استغفلتك هذه الأفعى ! ألهذه الدرجة أنا رخيصة في نظرك . فيمسك سامح يدها وبنظرة غاضبة يقاطع كلامها بصوت انفعالي قائلاً : أرجوكي . اهدئي ؛ فالندم والانفعال لن يفيدونا في شيء .. فتجلس مديحة وهي ما زالت تبكي بكاءً صارخًا وتقول: لقد لوثت شرفي وبكل تأكيد ستصبح سمعتي على كل لسان. لقد أحكمت هذه المرأة الفاجرة تدبير انتقامها مني ومنك واستطاعت خداعك وأنت تظن أنها طوع يديك . ماذا أفعل في المصيبة التي أوقعتني بها ؟ ثم تنخرط في بكاء صامت وتعبيرات وجهها تكاد تنفطر من شدة الحسرة والألم .. فيمسك سامح رأسها ويمسح دموعها ويقول بصوت غلفه الإحساس بالندم المفعم بالرغبة في الانتقام : لو تأكدت أن هذه المرأة هي التي فعلت ذلك لن يكفيني قتلها سأمثّل بها وانتقم منها شر انتقام .. ثم ينظر في ساعة يده ويقول : أنا مضطر للانصراف .. فتنظر إليه مديحة نظرة لامبالاة ودموعها الصامتة تنهمر على وجنتيها وتقول بصوت مبحوح : أرجوك في الصباح احضر لي مبلغ خمسة آلاف جنيه فأنا سأحتاج إلى مصاريف محامي بجانب أنني أحتاج لراحة من العمل حتى استعيد عافيتي النفسية والجسدية .. فيهز سامح رأسه ويقول : غداً بعد المغرب سأتي ومعي المبلغ .. فتقول مديحة : سنذهب سوياً إلى مكتب سالم غنيم المحامي غداً بعد المغرب

فهو من المحامين أصحاب الشهرة والصيت في القضايا الجنائية ؛ فميعاد العرض على النيابة بعد ثلاثة أيام ويجب أن أوكل محامي ليحضر معي التحقيق .. فيقول سامح بصوت لا مبالاة وهو يهم بالانصراف : إن شاء الله .. ثم ينصرف سامح مسرعاً ليذهب إلى منزل صافي ليترك مديحة تندب حظها الذي جعلها تقع في عشق شخص - وفقاً لما اكتشفته وشعرت به بعد معرفتها بأنه أعطى الصور إلى ليلى الصالح في مقابل مادي - لا يحب إلا نفسه ويتخذ ألهه هواه ، ولا يتردد في التنازل عن أي شيء في مقابل تحقيق رغباته المادية الجشعة التي لا تعرف دين ولا أخلاق .

وخلال ثلاثة أيام لاحقة على حدوث الجريمة ورغم الجهود المضنية التي بذلتها الشرطة لم يتوصل رجال المباحث بمديرية أمن القليوبية إلى مرتكب الحادث ولم تفلح جهودهم في تفسير سيناريو الجريمة بصورة صحيحة ، حيث كانت الخطة التي وضعتها ليلى ونفذها عبده سرفيس محكمة الدقة ويصعب اكتشافها ؛ فبعد مناقشة حسانين السفرجي ، الذي يعمل في فيلا معز الصالح وقام بتوصيل المشروبات وجميع مستلزمات الرحلة التي حسب ما أدعت به ليلى الصالح لزوجها وأمام النيابة العامة - التي حضرت إليها بمحض إرادتها - أنه كان من المفروض قيامها بهذه الرحلة مع سميرة وزوجها وسامح وخطيبته . ونظراً لسفر سميرة وإحساس ليلى بالإرهاق فقد قررت عدم الذهاب وتركت اليخت إلى سامح كنوع من المكأفاة والمجاملة لتفانيه وإخلاصه في العمل . وأمام ذلك لم يكن أمام رجال البحث الجنائي سوى التفكير في سيناريو ارتكاب سامح لجريمة الاغتصاب وإدعائه بأنها تعرضا للسرقة والاغتصاب ، خاصة وأن تقرير المعمل الجنائي والطب الشرعي أفاد بأن بقايا المشروبات التي تناولها كل من صافي وسامح لم يكن بها أية مواد مخدرة ولا توجد على بصمات الأكواب غير بصماتهما فقط . فبدأ فريق البحث الجنائي في البحث عن دليل مادي يثبت صحة هذا الاستنتاج فلم يكن أمامهم سوى استصدار أمر من النيابة بعمل تحليل دم لرفع البصمة الوراثية لسامح، ومضاهاتها بالبصمة الوراثية للجاني عن طريق تحليل السائل المنوي الذي تم رفعه

من على الملابس الداخلية لصافي وقت ضبط الجريمة . وبالفعل تم استصدار أمر من النيابة بمضاهات البصمة الوراثية لسامح لتأتي النتيجة إيجابية ، ويثبت بالدليل المادي أن سامح هو من قام بمعاشرة صافي وفض بكارتها ؛ ليتم استصدار أمر بضبطه وإحضاره لمواجهته بنتائج التحليل قبل توجيه له تهمة البلاغ الكاذب وتضليل العدالة وإزعاج السلطات . كما أمرت باستدعاء صافي لمواجهتها بالأدلة الجديدة وأخذ أقوالها .. وخلال هذه الأيام الثلاثة حدث الكثير من الأحداث الدرماتيكية التي لم يكن يتوقع حدوثها ؛ فبعدما استطاعت سعيدة تدبير مبلغ الكفالة في اليوم التالي لخروج مديحة يتم الإفراج عن شقيقتها ، وتعود إلى منزلها ليلاً في وقت لم يكن في حسبان زوجها عبد الرحمن الذي كان يظن كما أخبرته سعيدة أن زوجته سافرت فجأة مع مخدومتها وستعود بعد بضعة أيام . وبعيون ملهوفة على رؤية أولادها ، وقلب جريح مقهور من الظلم التي تعرضت له ورعبها من معرفة زوجها بهذه التهمة الباطلة ، وإحساس بالندم على ارتكابها الخطيئة وخيانة زوجها وإصرارها على التوبة والمغفرة والتضرع إلى الله بأن يسترها ولا يفضحها توجهت فرحانة بخطوات محملة بالهموم والأشجان والندم نحو الحجرة التي تسكن بها لتدخل حجرتها فتجد عبد السميع وباسمة نائمين فتقبلهما وتحضنهما وتتحسس ملامحهما البريئة ودموعها تتساقط على وجنتيهما . وأمام انغماسهما في نوم عميق تركتهما لتبحث عن زوجها فلم تجده فتخرج تبحث عنه خارج الحجرة ؛ فهو ما زال يتعكز على عكازين ولا يستطيع النزول إلى الشارع .. وعندما لم تجده على السطح توجهت بصورة تلقائية إلى حجرة شادية لتستعلم منها عنه فإذا بها تسمع صوت عبد الرحمن بالداخل وباب وشباك الحجرة موصدين ، فأخذت تسترق السمع وهي تتلصص عليهما من خلف شباك الحجرة لتفاجأ بشادية تمشي في الحجرة عارية فتصاب بحالة من الذهول والصدمة التي أفقدتها النطق وجعلت قدميها تتسمر في مكانها ، حتى أنغمرت في بكاء صامت حارق وهي تضع يديها على فمها لبضع دقائق استرجعت خلالها ما فعلته من خطيئة مع شاهين والفاحشة التي ارتكبتها في

حق زوجها وحق نفسها لتستشعر أن ما حدث ويحدث لها هو عقاب من الله فتنصرف مسرعة نحو الشارع وهي في حالة عدم اتزان نفسي وتأخذها أقدمها إلى منزل مديحة .. وبعيون شاردة أضناها القهر الاجتماعي ونفسية مهلهلة مجروحة غدرت بها أيامها وقفت فرحانة تطرق باب مسكن مديحة ، وفيضان من دموع البؤس والقهر الممزوجة بشعور الندم والألم محجوبة في عيونها أمام سدود الذهول والصدمة .. وما أن فتحت مديحة باب مسكنها حتى انهمر فيضان الدموع من عيون فرحانة وهي تقول بصوت مهتز ضعيف مرتجف : هل تسمحي لي بالدخول يا ست مديحة .. فتمسك مديحة بيدها وتجذبها إلى الداخل وتغلق الباب ثم تقول بصوت امتلأت نبرته بنغمات ترحاب ممزوجة بالفضول لمعرفة ما الذي حدث لها ، وملامح وجهها الشاحبة كستها الشفقة : اتفضلي يا فرحانة . تعالي نجلس واهدئي حتى تستطيعي إخباري بما حدث .. وبعدما قامت مديحة بإجلاس فرحانة وتهدأتها حتى توقف فيضان الدموع المنهمر من عيونها ، وهدأت الرعشة التي تملكت جسدها ، تحدثت فرحانة بصوت مكلوم مبحوح مرتعش : لقد رأيت زوجي في أحضان امرأة أخرى دون أن يشعرا بي ، ولم أدري بنفسي ولم أعرف أين ساقتني قدماي . بالتأكيد كل ما يحدث لي هو انتقام من الله على خطيئتي.. ثم تنهمر في بكاء شديد وهي تقول: يا رب ارحمني وأمتني حتى أرتاح من هذا العذاب . يا رب الطف بحالي واسترني . ليس من أجلي لكن من أجل أولادي الضعفاء اللذين ليس لهما عائل غيري .. فتقول مديحة بصوت حزين وهي تضع يدها على كتف فرحانة ترثي حالها وتواسيها، وفي عينيها تساؤل وفضول ورغبة جامحة في الكشف عن لغز تواجدها بالفيلا في الوقت التي داهمتها شرطة الآداب : أن الله يغفر الذنوب مهما كانت جسيمة أو كثيرة . وأنتِ لو كنتِ ارتكبتي الخطيئة في السابق ورجعتي عنها فبكل تأكيد فقد غُفرت لكِ . ومسألة خيانة زوجك لكِ وإن كانت شيء مؤلم وجارح فالأيام كفيلة بأن تمحوها.. ثم تأخذ نفسًا طويلاً وهي تقول بصوت غلفه التساؤل والحيرة وقد ارتسمت على وجهها مشاعر مرارة وألم وحسرة : لم استطع استكمال حديثي معكِ

في ليلة القبض علينا. لقد أخبرتيني أن شادية خادمة سميرة العنزي هي التي عرضت عليكِ تنظيف الفيلا وأوهمتكِ أنها تخص رجل من أثرياء الكويت . هل كانت ليلى الصالح تعلم بذلك ؟ .. فتقول فرحانة بصوت حزين مكبوت حملت نبرته نغمة يقين : لا . الست ليلى لم تعرف شيء عن ذهابي إلى هناك . فهي كل عيد تقضيه كعادتها خارج القاهرة مع أصدقائها ومعارفها وتعطيني أجازة . ولما عرضت علي شريفة هذا الموضوع استأذنتها في أجازة يوم شم النسيم فوافقت ، فأخبرت شريفة أني سأذهب معها . وفي عشية اليوم السابق على العيد جاءتني شريفة وأخبرتني أنها ستسافر مع سيدتها وأعطتني العنوان واسم الشخص الذي سيقابلني هناك . ثم تجهش في البكاء قائلة بصوت متحشرج غلفه الندم : لقد طمعت في مبلغ الثلاثمائة جنيه . يا ليتني لم أذهب إلى هناك . لو علم زوجي بما حدث سيقتلني .. فتقول مديحة بصوت تساؤل حمل نبرة تعجب : هل ستستطيعي إخفاء هذا الأمر عن زوجك ! .. فتقول فرحانة بنفس نبرة صوتها وما زالت تعبيرات الندم والحسرة والخوف من المجهول مرسومة على ملامحها ، وهي تتحدث برهة قصيرة لتمسح دموعها ثم تكمل حديثها على نفس المنوال : يا ست مديحة زوجي كما تعلمي مصاب في الحوض والفخد منذ الحادث الذي حدث له ، وهو ما زال يتعكز على عكازين ولا يستطيع الخروج . ولا يعرف عني شيء سوى أنني أعمل لدى أسرة كويتية في مقابل ستمائة جنيه غير الأكراميات من ملابس وطعام . والمحامي الذي جاءت به سعيدة أخبرها أن إفراج النيابة عني وحبس الآخرين مؤشر قوي على خروجي براءة من هذه التهمة الباطلة ، وإن شاء الله سيكون الحكم في صالحنا وأنا كلي أمل أن تبقى المصيبة التي أصابتني في الخفاء ؛ فلو عرف زوجي سيقتلني حتى لو كنت بريئة .. فتقول مديحة بصوت به حرقة الغل والرغبة في الانتقام وتعبيرات وجهها تكاد تنفجر من شدة ما بداخلها من كراهية وبغض تجاه ليلى الصالح : لقد تأكدت أن هذه الفاجرة هي التي أوقعتنا في هذه الكارثة .. فتتوقف فرحانة عن البكاء والدموع ما زالت عالقة بعينيها لتقول بصوت صدمة ودهشة: الست ليلى

تفعل ذلك ! لماذا ؟ .. فتقول مديحة بصوت يقين بعدما أخرجت ما بداخل تجويف صدرها من نفس مغلول : هذه المرأة حطمت حياتي لتنتقم مني أنا وسامح وصافي ، ولا أعرف لماذا فعلت ذلك معكِ .. فتقاطعها فرحانة وهي تقول بصوت تساؤل غلفه التعجب وملامح الدهشة تكسو وجهها : ما الذي تقوليه يا ست مديحة ! الست ليلى تنتقم من الأستاذ سامح ومنكِ! لماذا؟ ولماذا تظني أنها فعلت ذلك بي؟!.. فتقول مديحة بصوت باكٍ والدموع تناسب من عينيها : أنا وسامح متزوجين منذ شهور . ثم تفصح لها عن علاقة سامح بـ ليلى ، ورغبة هذه المرأة الشريرة في تدمير حياتها وحياة سامح بعدما امتلئ قلبها بالغل والكراهية عندما اكتشفت أنها لم تكن سوى وسيلة يستغلها سامح لجلب المال ؛ فقد أغدقت عليه تلك الشيطانة بالمال ، وكانت مستعدة لعمل أي شيء حتى تحتفظ به لنفسها ، ولما علمت أنه تزوجني وسيتزوج بـ صافي وأحست برغبته في التخلص منها دبرت هذه المكيدة ونفذتها بصورة شيطانية .. فتتوقف ملامح فرحانة وتقول بصوت تساؤل هامس مذهول : وأنا. لماذا تفعل معي ذلك ؟! أنا لم أفعل معها شيء فأنا خادمتها وأفعل أي شيء تطلبه مني ! .. فتقول مديحة بصوت تفكير : اعتقد أنها اكتشفت ما كان بينك وبين شاهين من علاقة فأرادت الانتقام منكِ .. فتتبدل ملامح السكون الذي ارتسمت على وجه فرحانة بملامح خوف ورهبة عندما تذكرت ما قاله شاهين لها في آخر لقاء جمع بينهما «أنه يشك بأن أمه تراقب تصرفاتهما معاً» لتعود مشاعر اليأس والإحباط والتخبط لتتملك منها لتقول بصوتها البائس المبحوح : لقد انتهيت يا ست مديحة . لقد فقدت كل شيء في هذه الدنيا ؛ الأهل، الزوج . حتى إحساسي بأولادي تاه مني منذ خدمتي مع الست ليلى .. ثم تبكي دموع تعلقت بها حرقة الندم وألم عذاب الضمير وهي تقول بصوت تقطعت حروفة من شدة النحيب : شادية التي كنت أعطف عليها تفعل ذلك معي . لماذا ؟! .. فتقول مديحة بصوت غلفه الشفقة والإحسان وهي تنظر إلى فرحانة نظرة رحمة وعطف : هوني على نفسك يا فرحانة وإن شاء الله سيفرجها عن قريب . ستمكثي معي هذه الليلة وفي الصباح تعودي إلى

بيتك ولا تشعري زوجك بشيء .. ثم تلمع عينيها من شدة الغضب وهي تقول بصوت تملكه الغل : سننتقم من الأفعى التي حطمت حياتنا .. فتقول فرحانة بصوت حملت نبرته نغمة مستضعفة ونظرة الرهبة والخوف قابعة في عينيها بعدما تخيلت أنها ستكون في مواجهة ليلى الصالح بجبروتها وعنفونها : يا ست مديحة أنا امرأة ضعيفة ولا أملك شيء من الدنيا سوء الضعف وقلة الحيلة . كيف أستطيع مواجهة جبروتها وعنفونها ؟! .. فتقول مديحة بصوت به مسحت تفاؤل : اتركي هذه المسألة الآن . يمكنك النوم في حجرة الاستقبال حتى الصباح . ولو شعرتي بالجوع يمكنك الأكل ؛ الثلاجة مليئة بالطعام .. فتقول فرحانة بصوت شكر : الله يكرمك ويسترك يا ست مديحة . وتنصرف بعدها مديحة وتدخل حجرتها لتظل حبيسة أفكارها طوال تلك الليلة تحاول إيجاد وسيلة تنتقم منها من ليلى الصالح . بينما تظل فرحانة مسترخية على الأريكة يساورها فكرة التخلص من حياتها ، ولكن غريزة حب البقاء وشعور الرهبة والخوف من خسارة الدنيا والآخرة يتغلب على تلك الهواجس حتى تقرر ترك أمرها إلى الله الذي يعلم أنها رغم خطيئتها وارتكابها لجريمة الزنا بأنها معذبة دفعها الحرمان وقسوة الظروف للانقياد إلى بئر الرذيلة .

وفي يوم استدعاء النيابة إلى سامح لمواجهته بنتائج تحليل البصمة الوراثية وتوجيه تهمة البلاغ الكاذب وإزعاج السلطات له ، توجهت صافي إلى هناك بصحبة والدها ووالدتها لسماع أقوالها ومواجهتها بنتائج التحليل وكلهم شغف وفضول وترقب لمعرفة لماذا قامت المباحث بالقبض على سامح بالأمس ، وما هي الأدلة الجديدة التي يريد وكيل النيابة مواجهة صافي بها .. ومع اقتراب عقارب الساعة من التاسعة صباحاً حضر سامح إلى مكتب وكيل النيابة بصحبة قوة من الشرطة ويداه مقيدة بالقيد الحديدي . وبعد دخوله إلى المكتب تم فك القيد ليجلس سامح وهو ينظر نظرة حائرة لبضع ثوان وتعبيرات وجهه تكاد تصرخ من شدة الدهشة والتساؤل ؛ فلماذا تقتاده الشرطة بالقوة إلى هنا . حتى قال بصوت حدة وعصبية : لماذا جئتم بي إلى هنا بهذا الشكل . أنا مجني عليه ولست مجرم ! .. فينظر إليه وكيل

النيابة نظرة تأملية صامتة لبضع لحظات ويقول : من الواضح أنك لم تربط بين عينة الدم التي تم أخذها منك وبين بقايا المني الذي تركته على ملابس زوجتك .. ثم يمعن النظر في وجه سامح وهو يقول بصوت حاد بعدما وجه أمره إلى كاتب النيابة بإعادة فتح المحضر وإثبات حضور سامح : أنت متهم بتضليل العدالة وتقديم بلاغ كاذب بتعرض زوجتك للاغتصاب ؟ .. فينزل الخبر على سامح كالصاعقة ويتوقف لسانه عن الكلام لبضع ثوان ليقول بصوت دهشة وذهول بعدما كرر وكيل النيابة سؤاله بصورة أكثر حدة : ما الذي تقصده ؟! هل أنا الذي اغتصبت صافي ؟! .. فينظر إليه وكيل النيابة نظرة صماء ويقول : يا سامح . القانون لا يعاقب الزوج إذا ما عاشر زوجته . لكنك تقدمت ببلاغ كاذب إلى الشرطة ، وهذه جريمة يعاقب عليها القانون .. فيقول سامح بصوت مخنوق وتعبيرات الدهشة تسيطر على ملامحه: أنا لم أعاشر صافي وقد فقدنا الوعي يوم الحادث، وكل ما تقدمنا به في البلاغ حدث.. فيقول وكيل النيابة: هل قمت بمعاشرة زوجتك وأدعيتما أنها تعرضت للاغتصاب؟.. فيقول سامح بصوت رفض وتعبيرات وجهه الشاحبة تكاد تصرخ من شدة ما يشعر به من ظلم : لا . لم يحدث أنني عاشرتها . وكل ما ذكرناه عن تعرضنا للتخدير والسرقة ، وما ذكرته صافي عن واقعة اغتصابها صحيح .. فيقول وكيل النيابة بنفس لهجته التي بدأ بها التحقيق : تحليل البصمة الوراثية أثبت تطابق بصمة الحامض النووي للسائل المنوي الموجود على الملابس الداخلية لزوجتك مع بصمة الحامض النووي لعينة الدم التي تخصك . فبماذا تبرر ذلك ؟ .. فيقول سامح بصوت إنكار وتعبيرات وجهه تكاد تصرخ من شدة المفاجأة الظالمة التي زلزلت تفكيره : أكيد هذا التحليل غير صحيح . أنا لم أفعل ذلك .. فيقول وكيل النيابة : يا سامح . تحليل البصمة الوراثية يؤكد أنك الفاعل . لذلك أنت متهم بارتكاب جنحة البلاغ الكاذب وإزعاج السلطات .. فيقول سامح بصوت حاد مكلوم تضخمت به نبرة الرفض : كل هذا غير صحيح لقد تم تخديرنا وسرقتنا وتم اغتصاب خطيبتي . والله هذا حرام . بالتأكيد هناك مكيدة دبرها الجاني حتى ينتقم مني .. فينظر إليه وكيل

النيابة نظرة تأملية فاحصة ويقول: يا سامح النيابة في تحقيقاتها والقضاء في أحكامه لا يعترفان سوى بالأدلة والبراهين ؛ فالأقوال المرسلة ليست لها أية قيمة طالما لم يقدم المدعي البينة على إثباتها . فما بالك وقد أثبتت التحاليل أنك الفاعل ؟.. فيقول سامح بصوت حاد اختنقت نبرته من شدة الانفعال : والله العظيم أنا بريء ولم أفعل ذلك بالتأكيد هناك خطأ .. فينظر إليه وكيل النيابة نظرة صماء ثم يستدعي الحارس ويقول له : لو كانت السيدة صافي عادل قد حضرت دعها تدخل .. فيقول الحارس : السيدة صافي متواجدة بالخارج .. وبمجرد دخول صافي إلى مكتب وكيل النيابة وجدت سامح وهو جاهش بالبكاء وعلى وجهه تعبيرات صدمة وفزع فتوجهت نحوه بصورة تلقائية لتقول له بصوت غلفه القلق والفضول والفزع والدموع عالقة في عينيها : ما الذي حدث ؟ لماذا تبكي ؟! .. فيقول وكيل النيابة موجهاً كلامه إلى صافي بأسلوب هادئ : أجلسي هنا يا صافي «يشير لها بالجلوس في المقعد المقابل للمقعد الذي يجلس عليه سامح » وستعرفي كل شيء فقد تم اكتشاف الحقيقة .. فتتجه صافي لتجلس وتعبيرات وجهها امتلأت بالترقب والقلق والدموع تتساقط من عينيها وهي تقول بصوت شغف موجهة كلامها إلى وكيل النيابة : هل توصلتم إلى الجاني ؟ .. فينظر إليها وكيل النيابة نظرة تأملية استكشافية وهو يقول بصوت غلفه اليقين : لقد جاء تحليل البصمة الوراثية لعينة الدم الخاصة بسامح مطابقة للبصمة الوراثية الخاصة بالجاني .. فتصرخ صافي صرخة فزع وذهول وملامحها ترتعش من شدة الصدمة : ماذا تقول ؟! هل تقصد أن سامح هو الذي فعل ذلك معي ؟! بالتأكيد هناك خطأ .. فيقول سامح بصوت منهك : والله العظيم أنا مظلوم يا صافي . أكيد فيه خطأ .. فيقول وكيل النيابة موجهاً كلامه إلى سامح : من فضلك لا تتحدث إلا بعدما أوجه إليك أسئلة .. فتنظر صافي إلى سامح نظرة تأملية صامتة وتعبيرات الصدمة والهلع تسيطر عليها ، وتقول بصوت دهشة تقطعت نبرته موجهة كلامها إلى وكيل النيابة: وما الذي يجعل سامح يفعل ذلك؟ أنا زوجته! .. فيقول وكيل النيابة : من الواضح أن الأستاذ سامح قام بتخديرك

أولاً ليرتكب فعلته ثم قام بتخدير نفسه حتى يوهمنا أنك تعرضتي للاغتصاب ، أو تكوني قد اشتركتي معه في جريمة إزعاج السلطات وتقديم بلاغ كاذب ، وهذا ما استبعده .. فتقول صافي بصوت رفض واستنكار والدموع تناسب من عينيها : هل تعتقد يا حضرة وكيل النيابة أني اشترك في إفساد حياتي بيدي ؟! ولماذا يفعل سامح ذلك ! ليس هناك سبب يجعلني أصدق أنه يفعل ذلك .. فيقول وكيل النيابة : هل لديك أية أقوال تريدي الإفصاح عنها .. فتقول صافي وما زالت الدموع تنهمر من عينيها : بكل تأكيد سامح بريء وهناك خطأ . لماذا يفعل سامح ذلك ؟! .. فينظر وكيل النيابة إلى سامح ويقول : هل أنت مُصِرّ على أقوالك .. فيقول سامح بصوت مستضعف بصيغة توسل : والله أنا لم أفعل ذلك . أنا بريء . ثم ينظر إلى صافي والدموع تتساقط من عينيه ويكرر ما قاله بصوت حاد : أنا بريء يا صافي والله بريء .. فيقول وكيل النيابة موجهاً كلامه إلى كاتب النيابة : أمرنا نحن سامي راغب وكيل نيابة القناطر بالإفراج عن المتهم سامح طاهر الشامي بكفالة قدرها مائتي جنيه ، وإحالة القضية إلى محكمة الجنح للفصل فيها بناءً على قرار الإحالة .. وبعدما انتهى وكيل النيابة من التحقيق ، وقام كل من سامح وصافي بالتوقيع عليه تم استدعاء الحرس لاتخاذ إجراءات حبس سامح احتياطياً حتى يتم دفع مبلغ الكفالة .. وعندما خرجت صافي من مكتب وكيل النيابة كانت تبكي بكاءً شديدًا ، وهي في حالة نفسية وعصبية سيئة من شدة المفاجأة التي لحقت بها . وعندما علم عادل الذكر بالتهمة الموجهة إلى سامح جن جنونه وأراد الفتك به لولا تدخل الحرس الذي قام بتهدئته ؛ ليصطحب ابنته وزوجته ويعودوا إلى مسكنهم .

وتمر بضعة أيام تتدهور خلالها الحالة النفسية والعصبية لكل الأشخاص الذين وقعوا تحت براثن انتقام ليلى الصالح ، وتتلوث مشاعر حب صافي لسامح ويصل الأمر بها إلى الرضوخ لرغبة والدها والموافقة على رفع دعوى طلاق ضده .. وعلى أثر علم معز الصالح بما يشاع فقد تم الاستغناء عن فرحانة وسعيدة ، كما تم تصعيد أمر سامح إلى السفير الكويتي ليتم إجباره على تقديم استقالته .. وبعدما حققت

ليلى الصالح مآربها في الانتقام امتنعت عن مقابلة سامح رغم إلحاحه لمقابلتها أكثر من مرة ليصاب بحالة توتر نفسي حاد ، ويتولد بداخله رغبة جامحة في الانتقام منها بعدما فقد كل شيء بسببها ؛ فحتى مديحة خرجت من دائرة سيطرته ولم تعد تطيق معاشرته بعدما باع الصور التي كانت سلاحها الرادع في مواجهة سموم الأفعى ليلى الصالح .. الرغبة الجامحة في التعرف على كيفية تدبير ليلى لواقعة اغتصاب صافي ، والشخص الذي نفذ الجريمة بعد تخديره هو وصافي دفعته لمراقبتها وتتبع خطواتها حتى يتمكن من الانفراد بها وطمأنتها وإرغامها على الاعتراف له بأي وسيلة عن التساؤلات التي تدور في ذهنه ويحل اللغز الذي حول حياته إلى جحيم ، فلم يجد فى تفكيره سوى فكرة تصويرها عارية بكاميرا الفيديو اليدوية الخاصة به ، وبدأ في التفكير لاستدراجها في ذلك . وبالفعل وأثناء عودة ليلى في ساعة متأخرة من الليل من إحدى سهراتها فوجئت بسامح داخل سيارتها ، وقد ارتسمت على وجهه تعبيرات حزينة بائسة وهو يقول بصوت غلفه الإحساس بالضياع : لماذا لا تريدي مقابلتي ؟ هل صدقتي أنني فعلت ذلك ؟ والله أنا بريء ثم يصطنع البكاء وهو يمسك بيدها قائلاً : أنا لم أكن أتخيل أن تتخلي عني .. فتنظر إليه ليلى نظرة توجس ماكرة وتقول بصوت تظاهرت نبرته بالهدوء : بكل تأكيد أنا أعرف أنك بريء . أنا لا اتهرب منك لكن الظروف الآن لا تسمح لنا بالمقابلة .. فيقول سامح بصوت توسل ورجاء ودموع الخداع عالقة بعينيه : أرجوكي يا ليلى لا تتركيني اليوم . فأنا افتقد أحضانك . افتقد حنانك . افتقد رائحتك .. فتبدأ نظرات ليلى الماكرة في الانكسار وتتملك الغريزة منها فتقول بصوت قبول وتعبيرات الغريزة الجنسية تجاه سامح تسيطر على مشاعرها : تعال نذهب إلى شقة سميرة فأنا أيضاً مشتاقة لك .. فيقبل سامح يدها وهو يقول بصوت تصنع الفرحة والسرور : لا أتخيل أن تتركيني وتتخلي عني. أنا لا استطيع البعد عنكِ.. فتبتسم ليلى ابتسامة حركتها نشوة الانتصار، وعلى وجهها تعبيرات سرور أخفت ورائها متعة إرضاء غرورها لتقول بصوت أنوثة متوحش يرغب في افتراس رجولة سامح وهي تنظره نظرة متعطشة : رغم كل

ما حدث منك فالرغبة التي أشعر بها تجاهك تجعلني أغفر لك أي شيء . بعدها تنطلق مسرعة نحو مسكن سميرة وفي أقل من دقائق معدودة تكون أمام العقار لتخرج السيارة بعدما اتفقت مع سامح أن يلحق بها بعد دقائق من صعودها.. وبالفعل يصعد سامح إلى مسكن سميرة وقد امتلئ قلبه بالتحفز والرغبة المستميتة لتصويرها وهي تمارس الرزيلة لإرغامها على البوح والاعتراف بتفاصيل تدبيرها لاغتصاب صافي والزج بمديحة في قضية الدعارة .. وبخطوات جريئة وقلب متحفز وصل سامح إلى مسكن سميرة ليجد ليلى في انتظاره داخل حجرة النوم كعادتها في كل لقاء بينهما وهي ترتدي ملابس إغراء مثيرة وممددة على السرير تتلوى مثل الافعى الجائعة فيضع شنطة يده التي أخفى بداخلها الكاميرا في الاتجاه المقابل للسرير ويتجه نحوها ، وما أن اقترب منها هجمت عليه لتلتف حوله بغريزتها المتوحشة ويتحقق لسامح ما أراد . وفي اليوم التالي ينسخ سامح الفيلم على شريط فيديو ويبدأ في التمهيد لمساومة ليلى حتى يعرف كيف دبرت ونفذت هذه الجرائم ، ويبرئ نفسه أمام صافي وأهلها ، ويسترد شرفه ويحفظ لعائلته سمعتها التي أسقطتها تلك التهمة الباطلة في مستنقع الوضاعة والخئة والنذالة والبيئة الفاسدة .

وفي عشية هذا اليوم يتقابل سامح مع ليلى بمنزل سميرة ليعرض عليها شريط الفيديو ، وقد سيطر الترقب من رد فعلها والتحفز على مواجهتها بحقيقة أمرها وإجبارها على البوح بما اقترفته من أثم على كل مشاعره .. وما أن شاهدت ليلى الشريط حتى انتابتها حالة من الصدمة والذهول وأخذت تنظر إلى سامح نظرة تأملية مصدومة رسمت على وجهها خيوط سوداء مثل أذرع الإخطبوط العملاق الذي يصارع شباك الصيادين ، وبصوت تساؤل صارخ تعلقت بنبرته نغمة ذهول ممزوجة بغضب مكبوت تشدقت أحرف كلماته باللهجة الكويتية : آه يا مصري ! كيف ولماذا فعلت ذلك ؟ هل نسيت كل ما فعلته معك .. فيقول سامح بصوت غل وتعبيرات الكراهية تسيطر على كل ملامحه : بالفعل أنا لا أنسى كل ما فعلته معي . يا ساقطة . يا أقذر وأقبح امرأة قابلتها في حياتي . سأدمر حياتك كما دمرتي حياتي ..

فترتعش ملامح ليلى من شدة الصدمة وهي تقول بصوت مخنوق ارتجفت حروفه : ماذا تقول ؟ وعن أي شيء تتحدث؟ .. فيمسكها سامح من طيات ملابسها بعنف ويلطمها لطمة عنيفة وهو يقول بصوت امتلأ بالغل وتعبيرات وجهه تكاد تنفجر من شدة الغضب : لماذا فعلتي ذلك ؟ لماذا نفذتي جريمتك السفلة في صافي ؟ ولماذا فعلتي ذلك مع مديحة وفرحانة ؟ .. فتنهض ليلى من محلها مثل النمر الثائر وتدفع سامح بقوة وتجري نحو حجرة النوم وهي تخرج مسدس من حقيبة يدها وتنزع مفتاح الآمان ، وقبل أن يلحق بها سامح ويمسك يدها تضغط على الزناد لتنطلق رصاصة الموت وتستقر في قلبه فيسقط صريعاً في الحال لتظل تنظر إليه وهو صريع نظرة تأملية شرسة ، وهي تقول بصوت تشفي وتعبيرات وجهها تكاد تنهش أحشاءه : آه يـا مصري . هل تظن أنك تستطيع خداعي . هـذا جزاء ما فعلته معي يا سليل العبيد . ثم تخرج من حجرة النوم وتتجه نحو جهاز عرض شرائط الفيديو وتنزع الشريط منه وتضعه في حقيبة يدها ، وتجلس لتشعل سيجارة وتستغرق في التفكير في كيفية التخلص من جثة سامح ومحو آثار الجريمة حتى هداها تفكيرها لتستعين بعبده سرفيس ليتخلص من الجثة . وبالفعل في خلال عدة ساعات تنفذ هذه الشيطانة ما أرادته بمعرفة عبده السوء «عبده سرفيس» ؛ ليتم إزالة آثار الدماء وفارغ الطلقة النارية والمقذوف الذي اخترق قلب سامح واستقر في الحائط المقابل ، وتقطيع الجثة وحملها في أكياس بلاستيك كبيرة ليتم إلقاؤها في قاع النيل . كما قام عبده سرفيس بدخول منزل طاهر الشامي عن طريق المفتاح الذي كان في حوزة سامح ليسرق كاميرا الفيديو ، وجميع الشرائط الموجودة هناك .

ترك كل من فرحانة وسعيدة العمل في فيلا معز الصالح جعل حياتهم الاقتصادية والمعيشية تتدهور بصورة كبيرة ؛ خاصة وأنهما تجنبا العمل في المنطقة التي اعتاد العمل بها كخدم في الشقق المفروشة نتيجة لانتشار خبر اتهام فرحانة في قضية دعارة ، واتجاه الكثير من العاملين في هذا المجال بالاتصال بهما وعرض خدماتهن عليهما نظير العمل معهن . وبجانب الحالة الاقتصادية الصعبة ، التي

جعلت كل من سعيدة وفرحانة يتجهان لبيع ما تم إدخاره في صورة مصاغ ذهب حتى يواجها متطلبات الحياة ويوفرا لأولادهما وزوجاهما مصاريف العلاج وكلفة السجن ، تدهورت حالة فرحانة النفسية بصورة تصاعدية في ظل الضغوط العصبية التي تواجهها ؛ فخوفها من وصول خبر اتهامها في قضية الدعارة إلى زوجها جعلتها تغض طرفها وتحبس مشاعر أنوثتها بشأن علاقة عبد الرحمن مع شادية ، وظلت توهم عبد الرحمن أنها ما زالت تتحصل على نفس دخلها السابق حتى تستطيع الخروج من مسكنها الذي لم تعد تطيق البقاء به لمدة تتجاوز فترة نومها ، ولم تجد غير مديحة تنفس لها عما بداخلها من هموم وأحزان ، وتخدمها وتجهز لها طلباتها في مقابل مبالغ زهيدة تستطيع بها مواجهة متطلبات الحياة اليومية .. وفي اليوم التالي على مقتل سامح كانت فرحانة متواجدة في منزل مديحة ترتب وتنظف حجرتها سقطت حقيبة قديمة كانت موضوعة على سطح الدولاب ليتبعثر ما بداخلها من أوراق وملفات . وعندما همت لتلملم تلك الأوراق وجدت بضعة صور لسامح مع ليلى في فراش الخيانة وهما شبه عرايا – مديحة لا تعلم شيء عنها – فتتأمل الصور لبضع دقائق واحدة تلو الأخرى ، وهي في حالة توتر وقلق حتى يجول بخاطرها فكرة الاحتفاظ بهذه الصور ومساومة مخدومتها السابقة عليها في نظير مبلغ كبير من المال يجعلها تؤمن حياتها ويرحمها من الخدمة في البيوت . وبالفعل ، شيطان الحرمان والحاجة يسيطر على حواسها وجوارحها ، ويدفعها إلى إخفاء الصور في ملابسها حتى تنتهي من تنظيف البيت وترتيبه. فوجود هذه الصور في حوزة مديحة – وفقاً لتفكير فرحانة – لن تجدي من ورائها شيء؛ فتذهب مسرعة إلى منزل سعيدة بعدما قسمت الصور إلى نصفين ووضعت كل نصف في ظرف أحكمت غلقه لتستقبلها شقيقتها وأمل بشوق ولهفة .. وبعد جلوسها على الكنبة الأسيوطي ، التي اعتادت الجلوس عليها مع شقيقتها ليتحكا عن أفراحهما وأحزانهما ، ظلت فرحانة على غير عادتها تستمع إلى سعيدة وأمل بدون تركيز واهتمام ، ولم تسرف في الحديث كعادتها حتى سألتها شقيقتها بأسلوب فضولي: ماذا بكِ؟ هل حدث شيء؟ .. فتنظر فرحانة

إلى أمل وتقول : أرجوكي يا أمل ممكن تصنعي لنا شاي ؟ .. فتنظر إليها سعيدة نظرة خاطفة استشفت منها رغبتها بالانفراد بها ؛ فتقول بصوت غلفه الكياسة والفطنة : اتركي أمل تذهب إلى مسكن الست أنجيل فميعاد استرجاع دروسها مع الأستاذ نسيم قد حان . أنا سأصنع الشاي .. فتقول فرحانة بصوت تعلقت بنبرته نغمة تعجب بعدما ذهبت أمل إلى حجرتها وحملت كتبها وذهبت إلى منزل الأستاذ نسيم : هل ما زالت أمل تستذكر دروسها مع هذا القبطي رغم كل ما فعله زوجك معه ؟! .. فتقول سعيدة بصوت غلفه التعجب الممزوج بالحسرة وهي تنظر إلى شقيقتها نظرة رسمت على وجهها الخجل والأسف : رغم الغلظة التي كان صابر يتعامل بها مع الأستاذ نسيم والست أنجيل فقد وقفا الاثنان معي في محنتي ، ولولا وجودهما بجواري هما والست بهية وبناتها لما استطعت تحمل ما حدث لى . لقد كانا أحن علي من أهلنا ؛ فابنة عمك عبير عمة أمل ، وزوجها بركات حتى السؤال بخلا به علينا، والقبطي الذي ليس من ديننا وقف بجواري وكأنني ابنته .. فتقول فرحانة بصوت لامبالاة وتعبيرات وجهها تعبر عما بداخلها من رفض : لا عليكِ يا أختي.. ثم تأخذ نفسًا عميقًا ليرتسم على ملامحها تعبيرات رجاء وهي تقول بصوت تمني : معي أمانة تخص الست مديحة . أريدك أن تحتفظي بها عندك .. فتقول سعيدة بصوت فضولي متعجب وملامح تساؤل: أمانة ! ما هي هذه الأمانة؟ ولماذا تريد مديحة تركها عندي؟! .. فتقول فرحانة : إنها بعض الصور التي تخص سامح مع ليلى الصالح وتخشى مديحة من فقدانها . فهي كما قالت لي ستحميها من بطش ليلى الصالح .. فتقول سعيدة بصوت تساؤل متعجب وملامح فضول : صور سامح مع ليلى ! ما هي تلك الصور التي تجمع سامح مع ليلى وتجعل مديحة تخشى عليها من الفقدان لتحميها من بطش ليلى ؟! .. فتقول فرحانة : سامح متزوج بـ مديحة وعلى علاقة مشبوهة بالست ليلى .. فتقاطعها سعيدة بصوت مفاجأة وصدمة تعلقت بنبرته نغمات تساؤل وفضول حادة : ماذا ! سامح متزوج بـ مديحة ويعاشر ليلى في الحرام ! وماذا تريد مديحة فعله بهذه الصور ؟ .. فتقول فرحانة بصوت

خداع وملامح استحلاف كاذبة استطاعت بها إقناع سعيدة : كل ما فهمته من مديحة أن هذه الصور هي التي ستمنع ليلى من مطاردة سامح وستبعده عنها . أرجوكي يا أختي لا تخبري أحدًا بما دار بيننا من حديث ؛ فلولا أن الحجرة عندي مكان غير آمن لحفظ تلك الأمانة لما أخبرتك بهذا السر .. فتقول سعيدة بصوت قبول وتعبيرات ملامحها ما زالت مصدومة من شدة المفأجاة : لولا معزة الست مديحة ، ومعرفتي بشخصية الست ليلى لما وافقت على ذلك . لكن لماذا تقبل مديحة أن تتزوج سامح في السر ؟! وماذا فعلت عندما علمت ما فعله زوجها بـ صافي المسكينة وأهلها . أنه شخص شرير ومن الأفضل أن تُطلق منـه .. فتقول فرحانة : يا أختي هذه الأمور لا تحدثني عنها مديحة ، لكني أعتقد أنها تؤمن بأن سامح بريء رغم ارتكابه الخطيئة مع ليلى وعدم إنكاره بها ؛ حيث تطارده تلك المرأة وتهدده بأشياء لديها ضده لم تفصح لي عنها مديحة .. فتقول سعيدة بصوت حدة وقد ارتسمت على ملامحها الاشمئزاز : بريء ! الله يلعنه وينتقم منه على ما فعله مع صافي ؛ فبعد فعلته الشنعاء مع هذه البنت البريئة أصبحت مثل الوردة الذابلة ، وغابت الفرحة وانطفأت السعادة التي كانت تضيء منزل الست بهية .. فتقول فرحانة بصوت لا مبالاة : ربنا يصلح حال الجميع .. ثم تهم بالرحيل وهي تقول بصوت غلفه الرجاء والتمني : سأحضر إليكِ في الصباح لأخذ الظرف الأول قبل أن أذهب إلى الست مديحة . ثم تحتضن سعيدة وتقبلها وتنصرف حاملة بداخلها أحلام واهية بالحصول على المال من ليلى الصالح نظير هذه الصور ، وهي لا تدري أن هذه الأحلام الخبيثة ستجعلها تسقط في وكر الأفعى .. وبعدما تذهب فرحانة تظل سعيدة طوال تلك الليلة تفكر فيما قالته لها فرحانة ، وتستعيذ بالله من فجور أطراف هذه الصور ، وتستعجب لحالة شقيقتها التي رغم المآسي والمشاكل التي تواجهها تقحم نفسها في موضوع ملوث به خباثة قد يزيد من تلك المشاكل والمآسي. وتتذكر طفولتهما سوياً والبراءة والنفس الطيبة التي كانت تعيش بداخل شقيقتها ، وتتسأل عن التغير السلوكي الذي أصاب هذه البراءة ؛ فلم يصل

تفكيرها البسيط لحل هذا السؤال المركب الذي تأتي إجابته في أسطر قليلة : الفقر والجهل والحرمان ، بجانب القهر والذل والإفساد ، هو التنين الذي اغتال براءة ملايين المصريين البسطاء وجعل عقولهم وثقافتهم تنحصر في كيفية إشباع بطونهم الخاوية والتكالب على إشباع رغباتهم المادية المكبوتة من فتات حياة المتعة واللذة التي تجهر بها الطبقة الرأسمالية التي وصل معظم أفرادها لهذه المكانة على سلم الانتهازية الاجتماعية ومصعد الاستغلال الاقتصادي والنفاق السياسي .

وفي صباح اليوم التالي توجهت فرحانة إلى فيلا معز الصالح بعدما مرت على شقيقتها وأخذت منها أحد الظرفين الذي يحتوي على جزء من الصور التي عثرت عليها بالأمس . وبعد وقوفها على باب الفيلا لما يقرب من ساعة ، في انتظار موافقة ليلى الصالح على مقابلتها بعدما توجه إليها الحارس ليخبرها بحضور خادمتها السابقة في أمر مهم لا يحتمل التأخير ، دخلت فرحانة الفيلا وهي تتفحص بعيون حزينة وخطوات محسورة على ذكرياتها في كل ربوعها ومحتوياتها حتى وصلت إلى حجرة استقبال الضيوف لتظل في انتظار قدوم مخدوماتها السابقة .. وبمجرد رؤية فرحانة إلى ليلى قادمة هرعت نحوها بعيون ذليلة اعتادت على تجرع المذلة وتقبل المهانة وهي تقول بصوت امتلأت نبرته بنغمات النفاق والرياء بعدما قبلت يدها : افتقدتك يا سيدتي . وأتمنى أن أكون بجوارك حتى لو كان المقابل حياتي .. فتنظر إليها ليلى نظرة دونية وتنزع يدها وهي تقول بصوت تساؤل غلفه الغلظة : ما هو الأمر الذي لا يحتمل الانتظار وتريدي البوح به .. فتقول فرحانة بصوت هامس وعيون ترقب : لقد عثرت في منزل مديحة بالصدفة على صور تخصك أرجو أن تشاهديها وأنتِ بمفردك ، ثم تخرج الظرف من شنطة يدها وتعطيه إلى ليلى .. فتنظر إليها ليلى نظرة احتقار شرسة وهي تمسك الظرف بيدها تتفحصه ثم تخرج ما به من صور . وما أن شاهدت صورتها وهي شبة عارية في أحضان سامح حتى انتابتها حالة من الذهول والصدمة لتظل تتفحص باقي الصور لبضع دقائق حتى تقلبت ملامحها بصورة أشبة بالحرباء ، وهي تستدرج فريستها لتفتك بها لتقول بصوت

تساؤل ناعم : هل تعلم مديحة أنكِ حصلتي على هذه الصور ؟ .. فتقول فرحانة بصوت يقين : لا . فهذه الصور كانت موضوعة على سطح دولاب حجرة نومها وقد عثرت عليه بالصدفة .. فتقول ليلى بصوت تصنع المودة وقد ارتسمت على وجهها بسمة رضاء خادعة : لقد اثبتي أنكِ جديرة بالثقة . وسوف امنحكي مكأفاة على إخلاصك لي .. فتقول فرحانة بصوت سعادة وسرور وقد امتلأت عينيها بالرغبة في اقتناص المكأفاة: يا سيدتي. أنا أتمنى أن تكافئيني بالاستمرار في خدمتك.. فتبتسم ليلى ابتسامة صماء وتقول بصوت اصطنعت نبرته الرغبة في مكافأتها على صنيعها : مسألة عودتك للعمل هنا في الفيلا أمر صعب جداً ، خاصة بعد علم معز بقضية الدعارة التي تم اتهامك بها ظلم . ولكني سأجعلك بجواري . ستكوني المسئولة عن مسكن سميرة بمرتب ألف جنيه في الشهر .. ثم تصمت قليلاً لتقول بصوت تساؤل ماكر وعيون لامعة مترقبة لرد فعل فرحانة : لكن أين أخفيتي باقي الصور يا فرحانة ؟ .. فترتعش ملامح فرحانة أمام نظرة ليلى اللامعة بعدما استشعرت بفكرها المحدود أن ليلى تعلم بأمر الصور فيتعلثم لسانها وهي تقول بصوت مهزوز حاول الثبات والتظاهر بحسن النية : باقي أربعة صور لم استطع إحضارها فقد أخفيتهم في نفس اليوم الذي وجدتهم داخل مرتبة السرير الذي أنام عليه ، ولم استطع احضارها اليوم لأنها زحفت إلى داخل المرتبة ولم أتمكن من إخراج المرتبة وبعثرت ما بداخلها من أشياء حتى لا يلاحظ زوجي .. فتنظر إليها ليلى نظرة هادئة أخفت ورائها رغبتها في التخلص منها بأي ثمن ، وهي تقول بصوت ناعم : أنا أنتوي مكأفاتك بخمسين ألف جنيه مكافأة عندما تأتي بباقي الصور .. ثم تخلع عن يدها خاتم ذهب وتعطيه لها مع مبلغ خمسمائة جنيه وهي تقول : خذي هذا الخاتم والمبلغ هدية مني .. فتمسك فرحانة الخاتم والفلوس وهي تنظرهما نظرة تأملية حالمة وقد سيطر على ملامحها الطمع وهي تقول بصوت امتلأ بالنفاق والرياء: يا سيدتي أنا لا أرجو من الدنيا إلا رضائك . ربنا يخليكي ويحفظك .. فتقول ليلى : أذهبي الآن ولا تخبري أحدًا بما دار بيننا من حديث . سأنتظرك صباح يوم السبت في

شقة سميرة لتستلمي عملك .. فتقول فرحانة بصوت لهفة وعيون حالمة : سأحضر معي باقي الصور .. فتبتسم ليلى ابتسامة طمأنة وهي تقول بصوت ترغيب وتحفيز : سأجهز لكِ مبلغ المكأفاة . مع السلامة يا فرحانة .. فتقول فرحانة بصوت بهجة وتعبيرات وجهها تكاد تصرخ من شدة الفرحة: ربنا يحفظك يا سيدتي ويسترك في الدنيا والآخرة. سأظل خادمتك حتى أموت.. فتهم ليلى بالانصراف وفرحانة تتبعها بخطوات خانعة متطلعة لرضائها حتى تخرج ليلى من باب الفيلا لتركب سيارتها وتنطلق بها إلى الخارج ، وهي تحمل بداخلها بركانًا من الغضب المكبوت لتظل تفكر طوال طريقها إلى فندق سميراميس في الموقف المتأزم المتفاقم الذي تواجهه ؛ فبعدما ارتكبت جريمة قتل لتدافع عن سمعتها وتنتقم من الشخص الذي استغلها ومكر بها بعدما عشقته جنسياً وأغدقت عليه بالمال ، تأتي اليوم الخادمة الوضيعة تهددها وتبتزها .. بينما تظل فرحانة طوال نهار هذا اليوم تتجول في شوارع القاهرة بعيون حالمة مترقبة متطلعة للخروج من حياة البؤس التي تعيشها إلى حياة ليس بها جوع وحرمان لتتذوق حياة الشبع ، حتى تعود في الليل إلى حجرتها فوق سطح العقار لتظل تحسب عدد الدقائق والساعات والأيام المتبقية ليأتي يوم السبت وتفوز بمبلغ الخمسين ألف جنيه .

النفس الشريرة الفاجرة التي تعيش في جسد ليلى الصالح لم تقبل أن تخضع وتخنع إلى خادمتها لتبتز منها الأموال فيستقر في وجدانها وتعقد العزم على التخلص منها بعدما تتأكد من حصولها على الصور . وفي نفس الوقت تتخلص من مديحة التي طالما رودتها أفكارها الانتقامية الهواجسية في الانتقام منها شر انتقام ؛ فواقعة تصويرها وتهديدها بفضح أمرها كان يشعل لهيب نار غضبها بين الحين والآخر ، ولم يخمد لهيب هذه النار تلك التهمة التي لوثت بها شرف وسمعة غريمتها التي كانت تنافسها على رجولة سامح، خاصة بعدما اكتشفت وجود نسخة من الصور في منزلها . وبالفعل يلهمها تفكيرها الشيطاني الثائر بفعل مخاوف إكتشاف أمرها إلى التخلص أولاً من مديحة بحرق منزلها وتدبير الأمر ليظهر أنه قضاء وقدر ، بعدها

يتم التخلص من فرحانة بعد التأكد من عدم حيازتها لأي صور .. وبالفعل لم يمض سوى ثلاثة أيام وقد تحقق ما أراد لهذه النفس الشريرة ؛ فبمساعدة عبده سرفيس نفذت ليلى جريمة حرق منزل مديحة بعدما تسلل إلى شقتها وكمم أنفاسها وخدرها ثم وضعها على السرير في حجرة نومها ، وقام بتحميل سلك التكيف المجاور إلى السرير بأحمال زائدة ثم أشعل النار بصورة تتابعية بدأت من مفتاح الكهرباء الخاص بالتكيف ليصل إلى السرير مروراً بالستارة المجاورة للتكييف حتى يوهم رجال المعمل الجنائي بأن الحريق نشأ نتيجة ماس كهربائي . وبالفعل لم يكتشف رجال الدفاع المدني والمعمل الجنائي الذين قاموا بمعاينة مكان الحريق وجود أي شبهة جنائية في الحريق ليتم دفن مديحة ومعها سر الجريمة التي أودت بحياتها .

التخلص من مديحة وسامح لم يشبع شهوة ليلى في الانتقام ؛ حيث تبقى فرحانة الخادمة الوضيعة – من وجهة نظر ليلى – التي تطاولت وتجرأت وشاركت ابنها فراش الخطيئة وتجرأت وحاولت ابتزازها وتهديدها بكشف أسرارها ، تعيش طليقة تحلم مع أفكارها بأنها ستعيش من حصيلة ابتزازها لها .. وفي يوم السبت المحدد للقاء حضرت فرحانة إلى منزل سميرة العنزي ومعها باقي الصور ، وهي تحمل في وجدانها أحلام التحرر من الفقر وفك قيود الحرمان يساورها أفكارها الطامعة بأنها ستواري هموم الحاجة وستودع حياة المذلة والهوان . وبعد بضع ساعات من الانتظار حضرت ليلى الصالح وعلى وجهها ابتسامة لامعة خادعة .. وما أن شهدتها فرحانة حتى أسرعت نحوها بخطوات طامعة وعيون زائغة مترقبة للحصول على المال لتقبل يدها ، وهي تقول بصوت توسل ورجاء ونغمات تملق ورياق : لقد أعدتي لي الحياة يا سيدتي وسأكون عبدة لكِ طوال حياتي .. فتمسك ليلى يدها وتقول بصوت هادئ وعيون خادعة : أنتِ خادمة مطيعة وتستحقي أكثر من المكأفاة التي وعدتك بها . احملي الحقيبة التي بداخل السيارة واغلقي الباب جيداً واتبعيني .. وبعد صعودهما إلى الشقة جلست ليلى وهي تقول بصوت هادئ وقد ارتسمت على وجهها ملامح سكون خادعة : ضعي الحقيبة في حجرة النوم

وافتحيها ، وضعي ما بها من ملابس في الدولاب ، ثم افتحي الدرج الموجود في الوسط حيث يوجد ظرف به خمسين ألف جنيه احضريه ؛ فهذه مكافأتك .. فتركع فرحانة على قدميها وهي تمسك بيد ليلى تقبلها والدموع عالقة بعينيها من شدة الفرحة لتقول بصوت تحشرجت نبرته : الله يحفظك ويزيدك من النعم والجاه والسلطان . هذه هي الصور الباقية التي كانت مديحة تحتفظ بها في منزلها .. ثم تنهمر في بكاء شديد وهي تقول : الست مديحة ماتت منذ ثلاثة أيام . منزلها احترق بها وهي نائمة .. فتنظر إليها ليلى نظرة صماء وتقول بصوت تظاهر بالمواساة والرحمة : لا الله إلا الله . ماتت محروقة . الله يرحم الجميع .. ثم تصمت بضع ثوان لتقول بصوت استفهام : ماذا ستفعلي بمبلغ المكافأة ؟ .. فتمسح فرحانة دموعها وتقول بصوت حالم : سأبحث عن مسكن به حجرتين وأشتري سيارة ميكروباص أجرة تُعين زوجي على الحياة ؛ فقد كان قبل الحادث الذي أقعده يقود سيارة أجرة يمتلكها زوج سعيدة .. فتقول ليلى بصوت فضول: هل يستطيع زوجك الآن العمل ؟ .. فتقول فرحانة بصوت حالم : هو الآن يستطيع المشي على عكازين ويمكنه الجلوس بجانب السائق يباشر السيارة ويساعده في جمع الأجرة من الركاب.. فتقول ليلى بصوت ترقب هادئ : هل يعلم زوجك شيء عن هذه الأموال ؟ .. فتقول فرحانة بصوت حيرة : لا يا سيدتي . سأخبره اليوم . لكني لا أعرف ماذا أقول له .. فتقاطعها ليلى بصوت نصح بصيغة حادة آمرة وتعبيرات جامدة : لا تخبريه الآن . لا تخبريه بأنني أعطيتك هذه الأموال حتى تشتري الميكروباص وتحصلي على الشقة المناسبة . بعدها يمكنك أن تخبريه ؛ فربما يطمع في الاستحواذ على هذه الأموال لنفسه . لا تكوني ساذجة واحذري من الرجال حتى لو كان زوجك .. فتهز فرحانة رأسها وهي تقول بصوت اقتناع وعلى ملامحها تعبيرات آسى عندما تذكرت علاقة عبد الرحمن بشادية : ما أطيب كلامك يا سيدتي . معكِ حق .. فتبتسم ليلى ابتسامة ماكرة وهي تقول : هل ستحتفظي بالمال في بيتك ؟ .. فتقول فرحانة بصوت تأمل وقد ارتسمت على ملامحها تعبيرات حيرة:

أنا لا استطيع الاحتفاظ بكل هذا المال في البيت ولا أعرف أين احتفظ به حتى اشتري السيارة وأجد المسكن المناسب .. فتقول ليلى : من الأفضل أن تضعي أموالك في البنك حتى تجدي ما تبحثين عنه .. فتقول فرحانة بصوت اقتناع : كيف أضع الأموال في البنك .. فتقول ليلى : اذهبي إلى أي بنك ومعكِ المال وبطاقة تحقيق شخصيتك وأطلبي منهم فتح حساب باسمك ، وضعي به هذه الأموال .. فتنظر إليها فرحانة نظرة صماء وتعبيرات ملامحها تعبر عن جهلها وعدم معرفتها بمثل هذه الأمور وهي تقول بصوت خجل : أنا لا أستطيع فعل ذلك بمفردي .. فتنظر إليها ليلى نظرة بها غضب وهي تقول بصيغة أمر بصوت به حدة : لابد أن تفعلي ذلك بمفردك واليوم . بل الآن . الأمر في غاية البساطة . تذهبي إلى البنك وتخبري الموظف المسئول أنكِ تريدي فتح حساب جاري ووضع هذا المبلغ .. فتقول فرحانة بصوت خنوع وعيون خاضعة : هناك بنك بجوار البيت سأذهب وأفعل ما تقوليه يا سيدتي . ربنا يحفظك ويصونك ويسترك في الدنيا والأخرة .. فتقول ليلى بصوت تعلقت بنبرته نغمة مودة مصطنعة وهي تنظرها نظرة صماء : شكراً يا فرحانة . اذهبي بسرعة وأنا في انتظارك .. فتذهب فرحانة مسرعة وهي تحمل الظرف الذي يحتوي على الفلوس وتذهب إلى البنك المجاور للمنزل وتفعل ما أشارت به عليها ، وهي تجهل المكيدة التي وقعت بها .. وبعدما تتأكد ليلى من أن خادمتها المتمردة قد بلعت الطعم الذي سيؤدي إلى هلاكها تنصرف إلى حالها ونشوة الانتصار تداعبها بعدما أوقعت بفريستها في فخ الطمع وشباك الانتقام والتشفي ، ولم يتبق على اكتمال نشوتها سوى تنفيذ حكم الموت في فرحانة بيد زوجها . .

بعد مرور يومين على وضع فرحانة المال في البنك وأثناء وجود فرحانة في بيت سميرة العنزي سمعت الباب يطرق بعنف شديد فتوجهت مسرعة تفتح الباب لتجد أمامها زوجها عبد الرحمن وشقيقه صالح يقتحمان الشقة ، وهما في حالة هياج شديد ؛ حيث دفعها عبد الرحمن بعكازه على الأرض وأخذ يضربها بقوة وهو يقول بصوت توحشت به نبرة الغضب والرغبة في الانتقام : يا عاهرة . هل كنتِ تخونني

طوال هذه المدة . وتأكلي أولادي من أموال نجاستك . أنتِ طالق يا فاجرة . والله لن تري أولادك مرة أخرى .. فتحاول فرحانة تفادي ضربات عبد الرحمن الثائرة ، وتهرب إلى داخل حجرة مغلقة لكن شقيقه أمسكها ليستمر عبد الرحمن في ضربها والإجهاز عليها لتقول وهي تصرخ بصوت استغاثة والدماء تسيل من وجهها : والله العظيم أنا مظلومة هذه تهمة ظالمة. حرام عليك يا عبد الرحمن. والله أنا بريئة.. فيقول صالح موجهاً كلامه إلى شقيقه بصوت غليظ وهو ينظر إلى فرحانة بعيون حاقدة شامتة ونظرة بغض وكراهية : والله كانت أمك وزوجتي على حق فهذه الفاجرة التي كانت تشتهي شقيقك عبد الجواد لم تكن تصلح بأن تعيش عيشة الحرة وتستمر زوجة لك .. فتصرخ فرحانة بصوت يئن من الظلم : والله كل هذا الكلام ظلم وافتراء . أنا بريئة يا عبد الرحمن .. فيضربها عبد الرحمن ضربة عنيفة في رأسها بالعكاز لتسقط مغشياً عليها وتنفجر حولها بركة من الدماء .. وقبل أن يجهز عليها عبد الرحمن بضربة أخرى اعترضه شقيقه وأمسك بالعكاز وهو يقول بصوت حاد : لقد قتلتها . هيا بنا نسرع قبل أن يأتي أحد . ويمسك بيده ويسرع تجاه باب الخروج وهو يقول بصوت شماتة : هذا جزاء الخيانة .. فيتحرك معه عبد الرحمن وهو ينظر إلى زوجته نظرة تأملية باكية كستها ألوان الطيف قائلاً بصوت غضب المكلوم: منك لله يا فاجرة لوثتي شرفي وشرف أولادي .. فيجذبه صالح بقوة وهو يدفعه ليسرعا بالخروج لتظل فرحانة طريحة الأرض تسبح في دمائها . وبعد فترة قصيرة يكتشف بواب العقار مصادفة وجود باب الشقة مفتوحًا فيضرب الجرس فلم يجبه أحد ، ويرى فرحانة ملاقاة على الأرض والدماء حولها فيستغث بالجيران ويتم اكتشاف أنها ما زالت على قيد الحياة فيتم استدعاء الإسعاف لتنقلها إلى أقرب مستشفى حكومي ليتم إسعافها وحجزها تحت الملاحظة ؛ حيث كانت تعاني من ارتجاج بسيط في المخ بجانب العديد من الكدمات والرضوض والجروح القطعية في مختلف أنحاء جسمها ، وتظل فاقدة الوعي لعدة ساعات .. وفي صباح اليوم التالي بعد استفاقتها واستعادة قدرتها على الحديث أخذت فرحانة تصرخ قائلة وهي تكرر

لعدة مرات بصوت امتلأت نبرته بنغمة الإحساس الصارخ بالظلم : «والله أنا مظلومة أنا بريئة » .. ثم تتوقف لبضع ثوان بعدما أحست بأن ما حدث لها هو عقاب الله في الدنيا على خطيئة الزنا التي ارتكبتها مع شاهين لتقول بصوت يئن من الندم والتضرع إلى الله لطلب المغفرة : يا رب سامحني على الخطيئة واسترني من أجل أولادي .. وفي تلك اللحظة تأتي إليها مشرفة التمريض ، وهي تقول لها بصوت غلظة وعيون جامدة لا تعرف الشفقة والرحمة : لماذا تصرخي هكذا ؟ .. فتقول فرحانة بصوت واهن ونظرة باكية مهمومة رسمت على وجهها قسوة الأيام: أين أنا؟ وما الذي حدث؟ .. فتقول رئيسة التمريض : ستعرفي بعد قليل كل ما حدث بعد حضور الشرطة لسؤالك . ثم تنصرف ولا تلقي بالاً لبكاء فرحانة وتوسلاتها .

وخلال بضع ساعات ظلت فرحانة في حالة بكاء صامت بدموع ندم و شهيق يريد التوقف بعدما تتذكر الجرم الذي فعلته في حق نفسها وحق زوجها ، وزفير يئن من الظلم الذي أصابها وفضح سمعتها ولوث شرفها ؛ فارتكابها لجريمة الزنا وتكررها مع شخص غير زوجها قد يستحق عقاب الرجم والموت ، لكن تلويث سمعتها بجريمة ممارسة الرزيلة مع الرجال بدون تمييز وفي مقابل المال جعلها تحس بشدة ما أصابها من عقاب دنيوي .. وبينما كانت فرحانة في حالة عدم إدراك بمن حولها تصارع الذكريات وتتألم من قسوة ما أصابها من ظلم أحست بيد تهزها وصوت خشن به عنفوان وسطوة : هل تسمعيني يا فرحانة .. فتتأمل فرحانة هذا الشخص وهي تقول بصوت واهن وعيون زائغة : من أنت ؟ .. فيقول ذلك الشخص : أنا الرائد عمرو الريس رئيس مباحث قسم العجوزة . وجئت لأخذ أقوالك .. فتقاطعه فرحانة بصوت نفي : أنا لا أعرف الشخص الذي قام بالاعتداء علي .. فيقول الضابط: هناك بلاغ مقدم من مخدومتك السيدة سميرة العنزي تتهمك فيه بالاستيلاء على مبلغ خمسين ألف جنيه وخاتم ذهب من شقتها .. فتصمت فرحانة وهي تنظر إلى الضابط نظرة تأملية مندهشة حتى كرر الضابط ما قاله، فتقول بصوت استغراب وتعجب : الست سميرة تتهمني بالسرقة ؟! لماذا؟!..

فيرتسم على وجه الضابط تعبيرات جافة وهو يقول بصوت حملت نبرته نغمة اتهام : أين أخفيتي المسروقات . وما الشخص الذي اشترك معكِ في السرقة ثم اختلفتما على التوزيع فانتقم منك ؟ .. فتقول فرحانة بصوت صراخ واهن متقطع وتعبيرات صاخبة رسمت على وجهها المنتفخ المتورم ملامح ذهول الصدمة الكارثية : خمسون ألف جنية وخاتم . الست سميرة تتهمني بسرقتها . لا الله إلا الله . لماذا تتهمني الست سميرة ؟! الخمسون ألف جنيه والخاتم أعطتهما لي الست ليلى الصالح مكافأة لي .. فيقول الضابط بصوت تساؤل متعجب وعيون ترقب : من تكون السيدة ليلى الصالح؟ ولماذا تمنحك هذا المبلغ الكبير مكافأة؟ .. فتقول فرحانة بصوت استغاثة: أرجوك يا سعادة البِك اتصل بالست ليلى واسألها .. فيكرر الضابط سؤاله : من تكون السيدة ليلى الصالح .. فتقول فرحانة بصوت لهفة المجروح بنبرة تملكها الوهن ونظرة استنجاد : الست ليلى الصالح هي زوجة العميد الركن معز الصالح المستشار العسكري للسفارة الكويتية في القاهرة .. فيقول الضابط : وما علاقتك بهذه السيدة ؟ ولماذا تهبك هذه العطية الكبيرة ؟ .. فتنظر إليه فرحانة نظرة صامتة وقد توقف لسانها عن الكلام ، وهي تصرخ بداخلها تريد الاعتراف بأنها أخذت هذه المكافأة نظير الصور التي وجدتها عند مديحة .. فيكرر الضابط سؤاله بأسلوب أكثر حدة .. فتقول فرحانة بصوت انهزام : أرجوك يا حضرة الضابط تسأل الست ليلى فهي لن تنكر إنها أعطتني هذا المبلغ ونصحتني بوضعه في البنك باسمي ، وهي التي أعطتني الخاتم .. فيقول الضابط بصوت اتهام وعيون توحي بالغضب ونية استعمال القسوة : هل تعتقدي أنكِ تستطيعي خداعنا يا عاهرة . تكلمي وإلا جعلتك تندمي على اليوم الذي أتيت فيه إلى هذه الدنيا . من الشخص الذي تعدى عليكِ وأحدث بكِ تلك الإصابات ؟ هل هو شريكك في جريمة السرقة ؟ .. فتمتلئ عيني فرحانة بالدموع وترتعش ملامحها المتورمة من شدة الرهبة والخوف ، وهي تقول بصوت مغلول سُلب منه الإحساس بالكرامة الإنسانية : أنا لست عاهرة . وهذه التهمة لم أرتكبها وهذا كل ما استطيع قوله . وحسبي الله هو نعم

الوكيل .. فيقول الضابط بصوت كظم الغضب : على كل حال سنعرف مدى صدق كلامك . في أي بنك أودعتي المال ؟ وأين الخاتم ؟ .. فتمسح فرحانة الدموع من على عينيها المتورمة وتعبيرات الإجهاد تسيطر على ملامحها لتقول بصوت مبحوح منهك: الأموال في بنك القاهرة في نفس الشارع الذي يوجد به منزل سميرة العنزي، والخاتم احتفظ به في مرتبة السرير في حجرة نومي .. فيقاطعها الضابط بصوته الخشن : أين سكنك ؟ .. فتخبره فرحانة برقم العقار ورقم الحجرة التي تسكن بها فوق السطوح ، وقد بدت على ملامحها بداية الدخول في حالة غثيان وإغماء .. فيقول الطبيب الذي كان يرافق الضابط : اعتقد يا باشا أن هذا القدر يكفي اليوم . المريضة تحتاج إلى الراحة .. فيقول الضابط موجهاً كلامه إلى الطبيب : متى يمكننا الحضور لاستكمال استجوابها .. فيقول الطبيب : اعتقد أنها في الغد ستكون حالتها مستقرة تماماً ؛ فالارتجاج عندها بسيط ويمكنك إعادة استجوابها .. فيهز الضابط رأسه ، وهو يقول بصوت اختفت منه النبرة الهجومية : أشكرك يا دكتور وينصرف بخطوات سريعة ليستقل سيارة الشرطة ويتوجه إلى منزل فرحانة ومعه قوة من أفراد الشرطة ليتم اقتحام الحجرة بعدما اتصل بوكيل النيابة المختص وحصل منه على إذن بالتفتيش. وبالفعل عثرت قوة الشرطة التي قامت بالتفتيش على الخاتم التي تم الإبلاغ عن سرقته، ولم يجدوا عبد الرحمن والأولاد في الحجرة حيث قام صالح باصطحابهم مع شادية إلى قرية دماص .

وفي نفس اليوم توجه الرائد عمرو الريس إلى السفارة الكويتية وطلب مقابلة معز الصالح ليستأذنه في الاستعلام من زوجته ليلى الصالح عن صحة ما تدعيه فرحانة . وقد استقبله معز الصالح استقبالاً طيبًا ، وأخبره بأن فرحانة تركت العمل لديه بعد اتهامها في قضية دعارة ، ثم اتصل بزوجته واستعلم منها عن ما تدعيه خادمتها السابقة ليخبره بعدها بعدم صحة هذا الإدعاء ؛ فقد أخبرت ليلى زوجها أنها «أحسنت إلى فرحانة بعدما جاءتها تتوسل بالعودة إلى العمل لديها . ونتيجة لشعورها بأنها مظلومة وأنه لن يوافق على عودتها مرة أخرى إلى العمل في الفيلا .

لذلك ، فقد جعلتها تعمل عند سميرة العنزي ، حيث سافرت خادمتها للعمل مع إحدى الأسر القطرية في سنغافورة » .. وهكذا بعد أقوال ليلى الصالح أصبحت فرحانة متهمة في جريمة سرقة مخدوماتها بعدما تم ضبط الخاتم والأموال المبلغ بسرقتهما ليتم عرض محضر الشرطة «جمع الاستدلالات» على النيابة ، ويتم استجوابها في اليوم التالي بمعرفة وكيل نيابة العجوزة ومواجهتها بأدلة الاتهام ، وإنكار ليلى الصالح بما تدعيه ؛ فيصدر أمر قضائي بحبسها احتياطياً أربعة أيام على ذمة التحقيق . فتصاب فرحانة بحالة من الهياج العصبي وتلقي بنفسها من شرفة العنبر المحجوزة به لتلقي حتفها بعدما قالت بصوت وهن متهالك إلى جمع من الأشخاص تصادف وجودهم بجوار سور المستشفى : «أنا بريئة . أنا لم أسرق سميرة العنزي . صور سامح مع ليلى الصالح التي أخذتها من عند مديحة هي التي دمرت حياتي وجعلت الفاجرة تنتقم مني . لقد دفعت ثمن الخيانة يا عبد الرحمن».. سقوط فرحانة من شرفة العنبر ، بعد حالة الهياج العصبي التي أصابتها نتيجة إحساسها الصارخ بالظلم، جاء وسط ذهول الحاضرين من رجال الشرطة والنيابة الذين لم يستطع أحد منهما اللحاق بها ومنعها ليهرع الرائد عمرو الريس والقوة المرافقة له نحو مكان سقوطها ليجدوها جثة هامدة وسط بركة من الدماء يحيط بها مجموعة من الأشخاص .. وبعد نقل جثمان فرحانة إلى ثلاجة المستشفى استمع عمرو الريس ، وهو يدون أقوال شهود العيان بمحضر الشرطة ليبدأ الشك يدب في قلبه تجاه اتهام فرحانة ، وأخذ يتساءل مع نفسه : من يكون سامح؟ ومن تكون مديحة؟ وما هي الصور التي جمعت بين الشخص الذي يُدعى سامح وليلى الصالح؟ ومن تكون مديحة التي أخذت من عندها فرحانة هذه الصور التي دمرت حياتها؟ ومن تكون هذه الفاجرة التي انتقمت منها ؟ .. الكلمات التي أطلقتها فرحانة قبل وفاتها لم ترق إلى دليل مادي على تبرأتها أو إدانة أحد ، لكن الحس الأمني لدى

الرائد عمرو الريس[1] جعله يستشعر بأن هناك جاني حر طليق ومجني عليه حُكم عليه بالموت بعدما وقع في فخ الجاني ، وتلطخت يداه بجريمة لم يرتكبها . هذا الشعور جعل عمرو الريس يبحث بصفة شخصية عن تفاصيل علاقة الأشخاص التي ذكرتها فرحانة قبل وفاتها ببعضهم البعض ربما يجد الدليل المادي الذي يمكنه الارتكاز عليه في كشف هذا الغموض .

خبر وفاة فرحانة وقع على سعيدة كالصاعقة التي انتزعت منها ما تبقى لها من رحم الأم وصلب الأب لتظل في حالة عدم اتزان نفسي وعصبي أثناء إجراءات استلام الجثة ، بعد تشريحها والتصريح بدفنها ، غير مصدقة لما يحدث ؛ خاصة بعد علمها بأن عبد الرحمن رفض استلام جثة زوجته وفضحها ولوث سمعتها في قرية دماص التي لم يحضر منها أحد، حتى عبير شقيقة صابر وابنة عمها لم تحضر لمواساتها رغم استغاثت سعيدة بها وبزوجها بركات ليقفوا بجوارها في هذه الكارثة .. في تلك المحنة الكارثية التي حلت بسعيدة لم تجد أحد يقف بجوارها ويساعدها في إجراءات استلام الجثة واستخراج تصريح بالدفن سوى جارها الأستاذ نسيم الذي أنهى جميع الإجراءات واستأجر سيارة نقل الموتى لتنقل جثمان شقيقتها إلى مثواها الأخير في قرية دماص . كما لم تتركها أنجيل وبهية في تلك المحنة ؛ فرغم الظروف

---

(١) رئيس مباحث قسم العجوزة . في بداية العقد الرابع من العمر . ذو ملامح صعيدية سمراء لها بريق رجولي تكسبه الهيبة وتبث الرهبة في قلوب معتادي الإجرام عند تعامله معهم . يتمتع بكاريزما التعامل مع الجريمة وكشف ملابساتها رغم خشونة تعامله مع المتهمين ، والتي قد تصل إلى حد استعمال أشد أنواع القسوة في سبيل الكشف عن مرتكبي الجريمة وتقديمهم إلى النيابة . ورغم هذه الغلظة والقسوة في التعامل مع الجريمة والمجرمين إلا أنه يتمتع بقلب عادل لا يعرف الظلم ويقف بجانب المظلوم بقوة إذا ما ثبت أنه مظلوم مهما كلفه الأمر من مشقة نفسية ومادية . شخص نادر الوجود في ظل مجتمع انتشر فيه تغليب المصالح الشخصية على حساب المصالح العامة ، وأصبح رجال السلطة العامة فيه يتعاملون مع وظائفهم على أنها إقطاعية تم إقطاعها لهم مكأفاة على ولائهم للنظام الحاكم ؛ فخربت الذمم وفسدت مشاعر حب الوطن وتبدلت القيم والمبادئ القويمة ، وحلت محلها قيم ومبادئ براجماتية لا تعرف ضوابط روحية أو مُثل ومبادئ أخلاقية .

المأسوية التي واجهت بهية بعد المأساة التي تعرضت لها صافي فلم تفارقها وظلوا مع أنجيل بجوارها طوال الوقت يواسوها ويخففوا من ألمها وأحزانها .. وفاة فرحانة بهذه الطريقة الدراماتيكية المأساوية حفر في وجدان أمل الطفلة البريئة التي لم يتجاوز عمرها إحدى عشر عامًا ذكرى أليمة وتساؤلات عديدة جعلت عقلها الباطن يحتفظ بهذه الواقعة كتعبير عن الظلم والقهر التي واجهته خالتها وأمها ؛ فالنحيب والبكاء التي كانت سعيدة تطلقه على شقيقتها ورفيقة صباها وطفولتها كان أشبه بالقصة الدرامية الباكية التي سردت ما تعرضت له فرحانة من ظلم وافتراء وهي مقيدة بأغلال الفقر والحاجة .. وفي صباح اليوم التالي لاستخراج تصريح الدفن تحركت سيارة نقل الموتى التي ستنقل فرحانة إلى مثواها الأخير بقرية دماص ترافقها سيارة أجرة استأجرتها بهية لترافق سعيدة وأمل وقد حضر معهم صافي ونسيم . وفي أقل من ساعتين بعد تحركهم من مستشفى العجوزة العام وصل الجثمان إلى مقابر عائلة أبو عساكر بقرية دماص حيث انتظرت سعيدة وأمل ومعهما بهية وأنجيل وصافي أمام المقبرة لحين الانتهاء من صلاة الجنازة على الجثمان في جامع العناني المجاور للمقابر .. وبينما كانت سعيدة وأمل منهمكتين في بكاء شديد وكل منهما تحتضن الأخرى جاءت سكينة الراعي ومعها خضرة أبو تميم زوجة الشيخ علي الراعي ونبوية عبد الرازق زوجة عطوة العراقي خال سعيدة وهن يبكين بحرقة وألم ، فلما رأتهم سعيدة ارتمت في حضن سكينة الراعي تبكي بكاءً شديدًا وهي تقول بصوت حسرة وندم : فرحانة ماتت يا خالة . ماتت وهي تئن من الظلم والقهر والحرمان . لو كان أبي موجود ما حدث لنا ذلك .. فتظل سكينة بنظرتها المسنة تتأمل تعبيرات الحزن والأسى والإحساس بالظلم والقهر التي تسيطر على ملامح سعيدة لتقول بعدها بصوت واهن ضعيف : إن شاء الله ربنا سيظهر الحق .. ثم تحتضنها نبوية زوجة خالها عطوة وهي تقول بصوت غلفه الحزن الممزوج بالأسى وتعبيرات وجهها تحمل فضول وتساؤلات مغلولة تجاه موت فرحانة : اللهم صبرك على حالك يا سعيدة . وارحم موتانا جميعاً واستر علينا يا رب .. ثم

تحضنها خضرة أبو تميم والدموع عالقة بعينيها وهي تقول بصوت مواساة حملت نبرته نغمات حسرة : أنا حتى الآن لم أصدق ما يقوله عبد الرحمن الطوبجي . ربنا يستر على الجميع ويرحمنا في الدنيا والأخرة .. فتنظر إليهن سعيدة نظرة تأملية تتابعية فاحصة والدموع تتساقط على وجنتيها كالسيل الجارف ، ثم تقول بصوت باكٍ مكلوم وملامح مستضعفة قهرتها الأيام : فرحانة ماتت والظلم لا زال حي لم يمت .. فتمسك أنجيل بيد سعيدة وهي تقول بصوتها الهادئ والدموع تزحف على وجنتيها : ربنا موجود يا سعيدة ويرى عمل كل البشر ، ولن يرضى بالظلم . اتركِ أمرك له هو أرحم عليكِ من أي إنسان .. وفي تلك اللحظة يحضر الصندوق الذي يحمل كفن فرحانة محمولاً على أعناق الرجال يتقدمهم الشيخ على الراوي والأستاذ بكر الغريب ، وعدد غفير من رجال القرية يتتابعون على حمل النعش ، حتى يصل الجثمان إلى المقبرة ليتم دفنه وسط بكاء سعيدة الصارخ ودموع أمل المملوءة بالخوف الحزين ودموع سكينة المترحمة ودموع نبوية المتألمة ودموع خضرة الشاردة ، لتواري فرحانة الثرى وتُدفن معها أوجاعها وآلامها وخطاياها .. وبعد دفن الجثمان تأتي النساء ليقدمن واجب العزاء إلى سعيدة بجوار المقبرة وعلى وجه كل منهن تعبيرات صماء متلونة تدرجت حدتها ما بين التشفي والبغض إلى الاستنكار والرفض ، والحزن على ما وصلت إليه حال فرحانة .. وبينما كانت أنجيل وبهية تقف بجوار سعيدة تمسك يدها وتعينها على الوقوف لتقبل العزاء جاءت كل من هنية زوجة صالح وسالمة زوجة عبد الجواد شقيقا عبد الرحمن ، وقد امتلأ وجههما بتعبيرات تشفي وغل وهما يرددان بصوت حاد تنغمت نبرته بالكراهية : منها لله ربنا يحرقها في جهنم الفاجرة التي لوثت شرفنا . دفنها في مقابرنا ستجعل السخط والفقر يحلان على قريتنا . كان من الأفضل حرقها وإلقاء ترابها مع النفايات العفنة حتى تبعد عنا النجاسة والشر .. فتتجه كل من سكينة وخضرة ونبوية نحوهما في محاولة لمنعهما من الكلام ، وتشتبك نبوية معهما بالأيدي ويتدخل الحضور ليتم إبعادهما من المكان .. ومع إلحاح خضرة بتناول طعام الغداء في دارها

تصطحب سعيدة وضيوفها من النساء إلى هناك ، ويصطحب علي الراوي الأستاذ نسيم ، بعد علمه أنه زوج جارة سعيدة التي تستضيفها زوجته وهو الذي ساعدها في جميع إجراءات استخراج شهادة الوفاة وتصريح دفن فرحانة ، ليتوجها سوياً بصحبة عطوة العراقي «خال سعيدة» ويجلسوا في مضيفة داره .

وخلال الطريق من المقابر حتى دار الشيخ على الراوي كانت عيون سعيدة المكلومة بوفاة شقيقتها الوحيدة تتحسس عيون وملامح المارة عسى أن تجد فيها ذكرى تخفف بها أوجاعها لكنها صُدمت عندما استشعرت أن وجوه الفلاحين البسطاء القانعين بحياتهم البسيطة تبدلت بوجوه كستها البلادة وخيبة الأمل ، وأخرى كستها النقمة والحقد واللامبالاة بأوجاع وأحزان الآخر .. وبعد وصولهم بفترة قصيرة كانت خضرة قد جهزت الغداء بمساعدة نبوية وسكينة ؛ حيث جلست النساء على الطاولة الفلاحي ، بينما جلس الرجال على طاولة المضيفة يتناولون الطعام .. وأثناء تناول الطعام كانت دموع سعيدة الصامتة الفياضة تسيل على وجنتيها وتعبيرات الأسى والحزن تتملك من ملامحها ، والخجل والشعور بالعار يسيطر على أحاسيسها ؛ خاصة وهي تتحسس مشاعر خضرة ونبوية وسكينة التي لوثتها التهمة الباطلة والفرية الكاذبة التي لصقت بفرحانة ، رغم التظاهر بعدم تأثرهم بما يحاك حول سمعتها وشرفها .. وبعد بضع دقائق من الترحيب بضيوف سعيدة وتبادل كلمات المجاملة ظل الصمت يخيم على المكان لبضع دقائق ، كانت خلالها همسات سعيدة الحزينة وأنينها البائس تملئ جنبات بهو الدار ، حتى قالت سكينة بصوت فجائي حمل نبرة الشفقة : يا سعيدة . لم يعد لكِ عيش في القاهرة تعالي لتقيمي معي فأنا وحيدة وجمال منذ عودته من بلاد الغربة لم يأتِ لزيارتي إلا نادراً .. فتنظر إليها سعيدة نظرة صامتة وتمسح دموعها ، وهي تقول بصوت واهن حمل نبرة ضعيفة بائسة حزينة : شكراً يا خالة أنا لا استطيع العيش هنا ؛ فلابد أن أكون بجوار صابر ، كما أن مدرسة أمل هناك .. فتقول نبوية بصوت خجل وعيون أسف ، وهي تنظر إلى سعيدة نظرة حسرة : أنتِ تعلمي أن الدار عندنا مزدحمة بالأولاد والأحفاد . والله خالك عطوة منذ علمه بما حدث وهو حزين مهموم

لا يعرف ماذا يفعل ، وقرر بعد موسم حصاد زرعة الشتاء أن يبني حجرة فوق سطح الدار لتسكني بها أنتِ وأمل ابنتك حتى يُفك أسر زوجك إن شاء الله .. فتقول أمل بصوت صراخ رافض وعلى ملامحها تعبيرات هلع وخوف من تركها البيت الذي يوجد به كل الأشخاص الذين يحنون عليها وتحبونها : لا . أنا وأمي لن نترك بيتنا.. ثم تنظر إلى أنجيل نظرة استغاثة مستضعفة وتقول بصوت تمني ورجاء: أرجوكي يا طنط أنجيل لا تجعليهم يأخذونا . لا تجعليني أتركك . ثم تمسك بيد بهية وتقول : أرجوكي يا طنط بهية لا تتركيني هنا .. فتحضنها بهية والدموع تملأ عينيها لتقول بصوت طمأنة : لا تخافي يا أمل . سوف نعود إلى بيتنا اليوم .. ثم تمسك أنجيل بيدها وتجلسها على فخديها وهي تطبطب على كتفيها لتخفف من روعتها قائلة بصوت هادئ يبعث على التفاؤل : كلنا نحبك يا أمل ولا نستطيع فراقك ، وأهل والدتك يحبونك أيضاً لذلك فهم يريدوا أن تكوني معهم .. فتقول خضرة بصوت به حدة وهي تنظر إلى أنجيل نظرة رافضة: مسألة وجود سعيدة وأمل بدون رجل يصونهما ويحميهما أصبح شيء مرفوض بعد ما فعلته فرحانة .. فتنهمر سعيدة في بكاء شديد وهي تقول بصوت مدافع موجهة كلامها إلى خضرة بنبرة مهمومة وعيونها مملوءة بتعبيرات حسرة بائسة : يا خالة . فرحانة مظلومة وإن شاء الله ربنا سيظهر براءتها ولو بعد حين . وأنا وأمل لن نترك بيتنا في القاهرة ، فلو كان لنا دار هنا لكان الأمر سهل .. فتنهض سكينة من محلها وتتجه نحو سعيدة تحتضنها وهي تبكي قائلة بصوتها العجوز الواهن وملامح الشيخوخة تكسو وجهها : إن شاء الله ربنا سيظهر براءتها، والله أنا لم أصدق كل كلمة قالها عبد الرحمن الطوبجي ولا زوجته الجديدة.. فترجع سعيدة إلى الخلف وهي تتأمل ما قالته سكينة لتقول بصوت استفهام وعيون تعجب : هل تزوج عبد الرحمن ؟! .. فتقول خضرة بصوت احتشدت به نبرة دفاع عن عبد الرحمن وإدانة إلى فرحانة : ماذا تظني الرجل يفعل عندما تهجره زوجته ولا تجعله يحصل على حقوقه الشرعية ؟ فقد كانت المرحومة ، التي لا يجوز عليها الآن إلا الرحمة ، تتمنع عليه فتزوج عليها الإنسانة التي وضعتها في طريقه وهي لا تعلم أنه سيقع في حبها ويتزوجها .. فتقول سعيدة

بصوتها المبحوح التي تاهت ملامح نبرته من شدة الحزن والصدمة : هل كان عبد الرحمن متزوج بأخرى! من تكون هذه الزوجة؟. فتقول خضرة: سيدة تُدعى شادية.. فتضحك سعيدة من شدة الصدمة ضحكة باكية وهي تقول بصوتها المخنوق: شادية التي كانت فرحانة تعطف عليها وتحسن إليها. سبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ؛ عبد الرحمن التي ضحت فرحانة من أجله واضطرت للعمل في خدمة البيوت من أجل أن توفر له ثمن الدواء يفعل ذلك .. ثم تتنفس نفسًا عميقًا متقطع لتقول بصوت امتلئ بالحسرة : ربما يكون عبد الرحمن على حق فهو لن يصدق إلا ما تقوله الشرطة حتى لو كان على غير الحقيقة الذي يعلمها هو جيداً ؛ وهي أن فرحانة بريئة ولم ترتكب تلك الأفعال.. وفي تلك اللحظة يدخل الشيخ على الراوي وهو يقول بصوت به ضيق موجهاً كلامه إلى سعيدة ، وعلى وجهه تعبيرات جامدة : لقد اتفقت أنا وخالك عطوة على عدم سفرك إلى القاهرة حتى يخرج زوجك من السجن .. فتقول سعيدة بصوت استهجان وعيون حزينة رافضة، وملامح الحسرة والألم تكسو وجهها: أنا لن أترك منزلي في القاهرة حتى أستأذن زوجي ، فهو الوحيد الذي له علي فرض الطاعة .. ثم تنهض وهي تمسك بيد أمل لتقول بصوت رجاء موجهة كلامها إلى بهية وأنجيل وملامح وجهها تكاد تنفطر من شدة الكبت العصبي: أرجوكم ارجعوني إلى بيتي فأنا أشعر بالتعب.. فيقول الشيخ علي بصوت به حدة : هل نسيتي تقاليدنا وعاداتنا؟ هل تريدي أن يكون مصيرك مثل أختك. لماذا تريدي العيش في القاهرة . وكيف ستأخذي رأي زوجك والسجن يمنع زيارته منذ فترة ، ومن غير المتوقع أن يُسمح لكِ برؤيته كما قال لي عبد الرحمن لفترة قد تصل إلى السنين التي سيقضيها بالسجن .. فتنفجر سعيدة في بكاء وملامح وجهها تتملكها صدمة بائسة وتقول بأسلوب انفعالي حاد بصوتها المخنوق المبحوح: على كل حال . شكراً لاستضافتك لنا وربنا يجازي كل شخص على أفعاله. هيا بنا يا ست أنجيل. هيا بنا يا ست بهية .. فتحاول نبوية وسكينة تهدأتها وتطيب خاطرها لكنها أصرت على رغبتها في الرحيل والعودة إلى منزلها، لتغادر دار الشيخ علي الراوي بصحبة ضيوفها ويستقلوا السيارة لتنطلق بهم نحو

القاهرة وسط نظرات خضرة الساخطة وتعبيرات نبوية المنكسرة وعيون سكينة المشفقة وتعبيرات علي الغاضبة وملامح عطوة المقهورة.. وخلال الطريق من قرية دماص حتى القاهرة ظلت سعيدة تبكي في صمت وهي تحتضن ابنتها غير مصدقة ما حدث في قرية دماص ، فالتغير الذي غير ملامح القرية لم يكن في الشكل فقط بل أصاب طباع ومشاعر أهلها ؛ فلم يعد الناس بسطاء في مشاعرهم، رحماء متسامحين مع المحتاج والضعيف من أهل قريتهم، وتسللت العشوائية والنفعية إلى شخصيتهم مثل العشوائية التي تسللت على مبانيهم.. ورغم الظروف المأسوية الكارثية التي حلت على سعيدة فلم تفقد الأمل في رحمة الله، وظلت متماسكة رغم براكين الأسى وزلازل الحزن التي ضربت عقلها ومشاعرها، ولم يمض يومين على تلك الحادث حتى استعادة سعيدة عافيتها النفسية والبدنية وبدأت في البحث عن عمل لتواجه متطلبات الحياة.

وفي صباح اليوم الثالث بعد دفن فرحانة بينما كانت سعيدة تستعد إلى الذهاب إلى محل الصايغ لتبيع أخر ما تبقى لديها من مصاغ ، حتى تستطيع مواجهة أعباء الحياة اليومية ، طرق باب المنزل فإذا بها تجد سيد الطباخ ومعه حسانين السفرجي يقفان عند الباب ، وتعبيرات وجههما تنبضان بالحزن والأسى والخجل ، فلما رأتهما سعيدة امتلأت عيونها المهمومة بتعبيرات عتاب وهي تقول بصوت غلفه الترحاب: أهلاً وسهلاً يا عم حسانين . شرفت بيتي المتواضع يا عم سيد . تفضلا بالدخول .. فيقول سيد الطباخ بصوت اعتذار وأسف بعدما جلس بجوار حسانين السفرجي على الكنبة الأسيوطي المجاورة للباب : البقاء لله يا سعيدة . والله لقد حزنا حزناً شديداً على ما حدث لفرحانة ، ولم نصدق أي كلمة بخصوص إتهامها بممارسة الرذيلة أو السرقة .. فتدمع عين حسانين وهو يقول بصوت مزجت نبرته بين الحسرة والغضب واليقين : البقاء لله يا ابنتي لقد حزنت كثيراً لما حدث لكما . وأنا على يقين أن فرحانة بريئة من هذه التهم .. فتقول سعيدة بصوت ترحيب وهي تبتسم لهما ابتسامة رسمت على وجهها القناعة بقضاء الله وحكمه : افتقدتكما كثيراً والحمد لله على قضائه . والله يرحمها ويرحمنا جميعاً .. فيقول حسانين : أنا أشك أن

ليلى الصالح وراء هذه التهم فقد سمعتها مصادفة بعد الحادث تتحدث في التليفون مع شخص وتقول له «بعدما تخلصت من فرحانة فقد ارتاح قلبي فقد تجرأت وحاولت ابتزازي» .. فتصمت سعيدة بضع ثوان تذكرت خلالها صور سامح مع ليلى ، والتي كانت فرحانة قد أودعتها عندها أمانة وأدعت أن مديحة تريد الاحتفاظ بها لتحميها من بطش ليلى وتمنعها من مطاردة سامح ، ثم تقول بصوت تساؤل والفضول يملأ عينيها : هل عرفت من يكون هذا الشخص ؟ .. فيقول حسانين بصوت آسف : لا يا ابنتي للأسف لم أسمع غير تلك الجملة ، ولم استوعب معناها إلا بعد علمي بوفاة فرحانة .. فيمتلئ وجه سعيدة بالغضب وهي تقول بصوت وَعِيدُ غلفه رغبة الانتقام المغلولة بضعف الحيلة : والله لن تفلت هذه الأفعى من العقاب مهما طال الزمن . تحطم حياة إنسانة ضعيفة لا حول لها ولا قوة وتلوث سمعتها . هل يُعقل أن تبتزها فرحانة ؟! .. فينظر إليها سيد الطباخ نظرة تعاطف وشفقة ويقول بصوت غلفه المودة : والله يا ابنتي لقد سئمنا العمل في هذه الفيلا بسبب هذه السيدة ذات القلب الغليظ القاتم. ثم يصمت للحظات حتى يخرج ظرف من طيات ملابسه وهو يقول بصوت تمني وعلى وجهه ابتسامة حانية : أرجوكي يا ابنتي. تقبلي هذا المبلغ البسيط، واعتبريه قرض حسن يمكن رده في الوقت الذي تشاء ظروفك .. فتنظر إليه سعيدة نظرة تأملية رسمت على وجهها تعبير الإحساس بالفرج بعد ضيق ، وهي تمد يدها تأخذ الظرف لتقول بصوت عرفان وشكر : جزاكما الله كل خير يا عم سيد فأنتما الأهل الذين افتقدتهم .. ثم تترغرغ عينيها بالدموع وهي تقول بصوت توسل : ارجوك يا عم سيد . أرجوك يا عم حسانين أبحثا لي عن عمل ؛ فبعد واقعة فرحانة لن أستطيع العمل في منطقة المهندسين التي اعتدت العمل بها.. فيقول سيد: بالمناسبة يا ابنتي السيدة نهال ترسل إليكِ تعازيها وتبلغك أنها ستحضر إليك في المساء لتقديم العزاء .. فترتسم على ملامح سعيدة تعبيرات تعجب وتقول: السيدة نهال! مرحباً بها في أي وقت.. فيقول سيد بصوت تمني: أرجوكي يا سعيدة لا تأخذي على خاطرك من السيدة نهال فهي تحبك ، وتعرف أن فرحانة بريئة .. فتقول سعيدة بصوت يقين : بإذن الله سيظهر

الحق قريباً .. ثم تصمت للحظات لتقول : لا تؤاخذاني لقد أخذنا الكلام ، ولم أقدم لكما الشاي .. فيقاطعها سيد وهو يهم بالانصراف ليقول بصوت اعتذار: اسمحي لنا يا سعيدة فقد تأخرنا ولابد لنا أن نذهب الآن إلى الفيلا. نراكي قريباً على خير ولو احتجتي لأي شيء كلميني في التليفون يا ابنتي.. فتقول سعيدة وهي تنظر إليهما بالتتابع : كنت أتمنى أن تجلسا معي وقتًا أكبر.. فيقول حسانين : إن شاء الله سنلتقي قريباً يا ابنتي. في رعاية الله وحفظه.. وبعدما ينصرف حسانين وسيد تظل سعيدة تمعن التفكير في الكلام الذي سمعه حسانين من ليلى مصادفة ، حتى يهديها تفكيرها في الاتصال بسامح لتعرف منه سر الصور التي كانت السبب في وفاة فرحانة .

وفي عصر ذلك اليوم كانت سعيدة قد حصلت على رقم تليفون منزل سامح واتصلت به لترد عليها فوزية والدته التي انتابتها حالة من البكاء الشديد بعدما علمت أنها جارة صافي وقد أخبرتها أن سامح لم يعد إلى البيت منذ تسعة أيام ولا أحد يعرف عنه شيء ، وأنها تخشى أن يكون قد تعرض لأذى ، وتستحلفها أن تبلغ صافي بأن ابنها بريء ولو كانت تعرف مكانه تخبرها به .. هذه المكالمة جعلت سعيدة بإحساس الأم تنوي مساعدة فوزية لتعرف مكان سامح . لذلك ، فعقب هذا الاتصال توجهت إلى بيت بهية وتقابلت مع صافي وأخبرتها بكل تفاصيل ما تعرفه عن علاقة سامح بـ ليلى الصالح ومديحة ، وعن الصور التي كانت مديحة تحتفظ بها عند فرحانة ؛ فتنقل لها ما تحمله من شك نحو تورط ليلى الصالح في القضايا التي تم تلفيقها إلى شقيقتها.. هذه الشكوك جعلت صافي تتصل تليفونياً بالرائد عمرو الريس، التي كانت تحرياته قد توصلت إليها واتصل بها بصورة غير رسمية ليستعلم منها عن علاقة سامح بـ ليلى الصالح ومديحة ، كما أخبرها باختفائه . وخلال هذه المكالمة التليفونية أخبرته صافي بكل ما سردته لها سعيدة عن علاقة سامح بكل من مديحة وليلى .. جميع التحريات التي أجرها الرائد عمرو الريس بصورة غير رسمية كانت تشير بأصابع الاتهام إلى وجود شبهة جنائية في وفاة مديحة بجانب تورط ليلى الصالح في تلفيق أدلة اتهام فرحانة بالسرقة ، بجانب تهمة ممارسة الدعارة لكل من مديحة وفرحانة. ولكون ليلى الصالح هي زوجة المستشار العسكري لسفارة الكويت

وتتمتع بالتبعية بالحصانة الدبلوماسية[1] فلن تستطيع سلطات الضبط القضائي توجيه الاتهام وملاحقتها قضائياً حتى لو وضعت يدها على أدلة إتهام حقيقية تدينها . وأمام هذه الإشكالية المركبة لم يجد عمرو الريس سوى البحث عن الأشخاص الذين تتصل بهم ليلى الصالح ، والتحري عنهم عسى أن يجد ما يستطيع به فك هذا اللغز . وبالفعل فمع تتبع ليلى والكشف عن الأشخاص الذين تقابلت معهم وضع عمرو الريس يده على أول الخيط الذي سيكشف هذا اللغز ، بعدما تعرف على شخصية عبده سرفيس وعلى كشف سوابقه الإجرامية .. الحث الأمني وقدرة عمرو الريس على استنباط الحقائق سيكون لها الفضل في كشف الحقائق خلال بضعة أيام ؛ فعن طريق ربط معطيات الأحداث والكشف عن مكان سامح الذي كان اختفاؤه يمثل مسألة صعبة سيتم فك شفرة هذه الجريمة المركبة . فكان أول الخطوات التي اتبعها عمرو الريس هو اتصاله بـ طاهر الشامي ليطلع بصفة ودية على متعلقات ابنه الشخصية الموجودة في غرفته وتدوين كل ما بها من أشياء . وأمام عدم وجود أي دليل مادي أو قرينة اتجه إلى تتبع الجثث التي لم يتم التعرف

---

(١) «المبعوث الدبلوماسي - Agent Diplomatique » عرّفت الفقرة هـ من المادة الأولى من اتفاقية فيينا العام ١٩٦١م المبعوث الدبلوماسي بأنه رئيس البعثة أو أحد موظفيها الدبلوماسيين . ونصّت المادة ٢٩ من الاتفاقية ذاتها على أن حرمة شخص المبعوث الدبلوماسي مصونة ، ولا يجوز إخضاعه لأية صورة من صور القبض أو الاعتقال ، ويجب على الدولة المعتمد لديها معاملته بالاحترام اللائق واتخاذ جميع التدابير المناسبة لمنع أي اعتداء على شخصه أو حريته أو كرامته . وأضافت المادة ٣١ من هذه الاتفاقية أن المبعوث الدبلوماسي يتمتع بالحصانة القضائية فيما يتعلق بالقضاء الجنائي للدولة المعتمد لديها . وبناء على ذلك ، لا تجوز ملاحقة المبعوث الدبلوماسي أمام القضاء الجزائي التابع للدولة المعتمد لديها ، حتى وإن كانت الجريمة متعلقة بفعل شخصي منه لا علاقة لوظيفته الدبلوماسية فيه . فالحصانة الدبلوماسية تشمل أية جريمة يرتكبها المبعوث الدبلوماسي ، سواء تعلقت بعمله الدبلوماسي أم بحياته الخاصة ، وسواء ضبط فيها بحالة الجرم المشهود «حالة التلبس» أم غير المشهود . وتقضي هذه الحصانة بمراعاة حرمة شخص المبعوث ومنزله ومقر البعثة ، فلا يجوز أن يتعرض المبعوث الدبلوماسي لأي صورة من صور القبض أو الاعتقال أو المحاكمة أو حتى الشهادة أمام قضاء الدولة المعتمد لديها (م ٢٢ و ٣٠ و ٣١ من اتفاقية فيينا١٩٦١). لكن الحصانة الدبلوماسية لا تعني إعفاء المبعوث الدبلوماسي من العقاب كلياً ، بل يعود الحق في محاكمته إلى دولته وليس إلى الدولة الموفد إليها.

عليها خلال الأيام الماضية ، وقد استوقفه عثور بعض الصيادين على قدم ويد أدمية في منطقة إمبابة منذ أسبوع ، وعندما استعرض مع فريق البحث الذي أُسندت إليه مهمة البحث عن صاحب هذه الأشلاء ، الذي لم يكن لصاحبها سجل جنائي من خلاله يمكن التعرف على شخصيته ، كانت المفاجأة هي تطابق بصمة أصابع اليد مع بصمة أصابع يد سامح الموجودة في السجل المدني . ومن الأشياء التي سهلت على عمرو الريس مهمته في الكشف عن الجريمة هي وجود مسكن عبده سرفيس ضمن دائرة اختصاص عمله ؛ حيث كان يسكن بشارع السودان التابع لقسم شرطة العجوزة فاستطاعت مباحث العجوزة من ملاحقته بناءً على محضر تحريات بإتجاره في المخدرات ليتم استصدار إذن بتفتيش مسكنه ويتم العثور داخل المسكن على مبالغ ثلاثمائة ألف جنيه وأسلحة نارية بدون ترخيص . وبتضيق الخناق عليه بعد اتباع أشرس وسائل انتزاع الحقيقة اعترف عبده سرفيس بجميع الجرائم التي ارتكابها بالاشتراك مع ليلى الصالح ؛ ليتم بعدها عرضه على النيابة التي قررت حبسه أربعة أيام على ذمة التحقيق وتقدمت بمذكرة إلى النائب العام لاتخاذ ما يراه مناسباً نحو استتباب العدالة والتحقيق فيما يتعلق بالاتهامات المنسوبة إلى ليلى الصالح التي تتمتع بالحصانة الدبلوماسية .

الكشف عن ملابسات مسلسل الجرائم التي ارتكبتها ليلى الصالح ، واستظهار براءة كل من مديحة وفرحانة في تهمة ممارسة الدعارة التي لصقت بهما ولوثت شرفهما ، بجانب براءة فرحانة من تهمة السرقة ، وبشاعة أسلوب القتل الذي تم استخدامه في التخلص من مديحة وطريقة التخلص من جثة سامح بعد قتله ، كان حديث وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة . وأصبحت تلك القضية المأساوية مسار اهتمام الرأي العام المصري الذي أصبح شغله الشغال هو تنفيذ العدالة الناجزة في مرتكب تلك الجرائم ؛ خاصة وإن القضية كانت تضم شخصية نسائية عربية – لم يتم الإفصاح عنها نظراً لعدم مواجهتها بأدلة الاتهام في انتظار رد السفارة الكويتية – أظهر الإعلام عن مدى احتقارها للمصريين واعتقادها أنهم بلا ثمن .. ولكن الرياح في ظل زوابع المصالح العليا للدولة – تلك المصالح التي

لم تكن سوى نموذجًا للمهانة وإهدار كرامة المواطن المصري في الداخل والخارج - والضباب الذي تحدثه أنفاس المنتفعين بتلك المصالح ، أتت النتائج بما لا يشتهيه منتظري العدالة من جموع الشعب المصري المقهور الذي أصبح يستشعر بأن العبودية والذل أصبحت محفورة على جبهاتهم لن يتخلصوا منها إلا بعدما يوارون الثرى. فقد تم التخلص من عبده سرفيس على طريقة الأفلام السينمائية ؛ حيث وجدوه مشنوقًا في زنزانته ليتم إثبات قيامه بالانتحار وتُدفن معه كل الحقائق في قبر الظلم والظلمات .. الشيء الذي فاق الحد وتخطى المنطق هو قيام الخارجية المصرية بتقديم اعتذار رسمي إلى السفارة الكويتية بالقاهرة ، ونشر هذا الاعتذار في الجرائد الرسمية التي تعرضت لهذه القضية نتيجة خطأ في طرح اسم زوجة المستشار العسكري في جرائم جنائية دون تقديم الأدلة التي تدينها ، خاصة بعد قيام عبده سرفيس بتغيير أقواله أمام النيابة ونفي كل الاتهامات عن ليلى الصالح في آخر عرض له على النيابة قبل وفاته .. كما صدر قرار برفع الرائد عمرو الريس من العمل في مجال البحث الجنائي ونقله للعمل بمصلحة السجون ؛ كنوع من القرار التأديبي الذي لم يكن يدل على شيء سوى مدى ما وصل إليه جهاز الشرطة من سوء تخطيط وإدارة في ظل فساد إداري وترهل لفكر الصالح العام تحت قيادة سياسية كانت تختار معاونيها السياسيين والإداريين وفقاً لمبدأ الولاء والطاعة ، مما أتى بقيادات أمنية لم يكن لها شاغل سوى إثبات ولائهم وانتمائهم حتى ولو على حساب العبث بأمن الموطن وإهدار كرامته وحقوقه كإنسان .

* * * * *

الفصل الثالث

أمل و أيام السراب

المأساة التي تعرضت لها سعيدة ، بعد اتهام شقيقتها بممارسة الدعارة وسرقة مخدومتها وما نتج عن هذا الاتهام من أضرار مادية ومعنوية عرضت حياة أسرتيهما للفقر والمذلة والضياع ، ربما كانت طوق النجاة الذي ألق به القدر إلى سعيدة لتنجو من وسط دوامة الفقر وأمواج المذلة والحاجة ؛ فعن طريق عدد من فاعلي الخير تم حصول سعيدة على بعض المال ، بجانب ما أرسلته إليها نهال المقدسي كنوع من التعويض عن الضرر الذي لحق بها ، استطاعت به حيازة محل صغير في العقار المقابل للعقار الذي تسكن به افتتحته لبيع البقالة . وخلال بضعة أشهر تستقر الحالة الاقتصادية لسعيدة وتستطيع تحقيق الاكتفاء الذاتي بجميع مصروفاتها هي وابنتها أمل ، كما عاودت إرسال التحويلات النقدية لزوجها في السجن الذي شاءت الأقدار أن تحرم حتى من رؤيته ؛ حيث استمر صدور قرارات متعاقبة بمنع الزيارة عن سجن شديد الحراسة .. وفي قرية دماص ، ومع التشوهات التي أصابت الشخصية العامة للمجتمع الريفي ، والتي خلفتها التغيرات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية وجعلت الفلاحين أو ساكني القرى يَئِدُونَ عاداتهم القويمة التي تعوق تكالبهم على لقمة العيش أو تمنعهم من التشفي وإخراج نقمتهم على المجتمع الذي

حولهم من أقنان الأرض إلى أقنان لفظتهم الأرض[١] ، أصبح من الصعب على الشرف الذي تدنس والسمعة التي تلوثت حتى بعد تطهيرها ببراءة المحكمة أن يبرء صاحبه في ظل الإيمان المطلق بالمثل القائل «لا يوجد دخان من غير نار» . فعلى الرغم من حكم البراءة ، فقد ظلت سمعة فرحانة وشرفها مُدَنَّسٌ بالأكاذيب والافتراءات التي نسجتها حماتها وزوجتي شقيقا زوجها والتي جعلتها أشبه بالمرأة المصابة بمرض السودة[٢] ؛ خاصة بعدما أكدت شادية تلك الأكاذيب والافتراءات حتى تكسب ودهم ليرضخ عبد الرحمن لهذه الافتراءات وتنقطع الصلة بين سعيدة وأولاد شقيقتها رغم محاولتها المضنية بالحفاظ على علاقة الرحم مع أولادها .. أما فيما يتعلق بصافي ، التي كانت أكثر الأشخاص براءة من المجني عليهم الذين

---

(١) أقنان الأرض وتعني عبيد الأرض و يُطلق عليهم مصطلح القنانة ؛ وهو وضع اجتماعي اقتصادي لطبقة الفلاحين في ظل الإقطاع تعبر عن حالة من الرق أو العبودية المعدلة ، ظهرت أولاً في أوروبا خلال العصور الوسطى واستمرت في مصر بصورة غير رسمية منذ عهد محمد علي حتى حركة يوليو ١٩٥٢م وما تلاها من تغيرات اجتماعية واقتصادية تخلصت من لفظ الإقطاع لكنها لم تتخلص من عبودية الفلاح . وفي ظل الإقطاع كان القن يُجبر على العمل في حقول ملاك الأراضي ، في مقابل الحماية والحق في العمل في الحقول المستأجرة . ومن المؤسف أن القن تُرك بدون رعاية حقيقية تنتشله من مستنقعات التخلف والفقر والجهل بعدما أوهموه أنه تخلص من قيود الإقطاع ، أعقاب ما يُطلق عليه ثورة يوليو ، فلما أراد تحسس حلاوة الحرية وجد قيود أشد فتكًا من قيود الإقطاع ؛ ألا وهي قيود الإهمال وسوء الرعاية وانتهازية السلطة وفساد ذمم القائمين على أمورهم الحياتية .

(١) "النيمفومانيا – NYMPHOMANIA " هي المرادف الأجنبي لكلمة السودة وتعني النهم الجنسي، أي المرأة التي لا تشبع من ممارسة الجنس ، في أي زمان ومكان . وتختلف النيمفومانيا كمرض ، عن الرغبة الجنسية ، فهناك أكيد نساء لهن طاقات ورغبات جنسية عالية ، لكننا هنا نتكلم عن نوع آخر من النساء اللواتي يرغبن بممارسة الجنس بصورة كبيرة ، وقد ترتبك لديهن ممارسة الجنس ، بسد قلق نفسي وليس إشباعا جنسيا ولهذا ربط العديد من الأطباء والباحثين النيمفومانيا بالأمراض العقلية ، فحسب الأطباء نساء النيمفومانيا لا يبحثن عن الجنس من أجل تلبية رغبات جنسية ، ولكن من أجل إيذاء وتدمير النفس ، كون المرأة في هذه الحالة لا تمارس الجنس بحب أو حميمية ، بل تمارسه كوسواس جنسي قهري ، وهذا الإدمان المرضي ليس له علاقة بالدافع أو الرغبة الجنسية ، تماماً كالإدمان المرضي على الأكل كونه لا يتعلق بالجوع أو بالشبع ، بل هو مرض نفسي يحث الإنسان على الأكل بكثرة ، حتى و إن لم يشعر بالجوع .

طالتهم يد الانتقام الأسود ، فعلى الرغم من المأساة التي عاشتها خلال تجربتها السيئة مع سامح فقد كان لقائها بـ عمرو الريس نقطة تحول في حياتها ؛ حيث أعجب بشخصيتها من خلال لقائه بها أثناء التحقيقات واستطاع بشخصيته القوية أن يعيد إليها ثقتها بنفسها ، وبعد أسابيع قليلة من الكشف عن ملابسات الجريمة البشعة يتقدم لخطبتها ليتم الزفاف بعد بضعة أشهر من تعارفهما .

وتمر الأيام بحلوها ومرها حتى يأتي يوم الجمعة ٢٠ مارس ١٩٩٨م . وكعادتها كل صباح جمعة بينما كانت سعيدة تجهز لترتيب وتنظيف البيت هي وأمل جاءتها بهية وعلى وجهها تعبيرات سرور ، وبعدما تبادلا التحية جلست وهي تقول بصوت غلفه البهجة وعيون ترقب فرحة : عمرو أخبرني أن الوزير سينفذ أمر المحكمة وسيسمح لأهالي المساجين بسجن شديد الحراسة بزيارة ذويهم هناك ، وقد تحدد ميعاد الزيارة بعد باكر الأحد .. فتمسك سعيدة يدها بصورة تلقائية وتقبلها ثم تصرخ قائلة بصوت امتلأت نبرته بنغمة صدمة الفرحة وعينيها مترغرغة بالدموع : صحيح الكلام ده يا ست بهية . معقول سنرى صابر . ربنا يحفظك ويبارك لكِ في صحتك وعافيتك ويطمئن قلبك على شهندة في غربتها ويرجعها لنا سالمة ومعها الشهادة الكبيرة «تقصد سعيدة درجة الدكتوراة في الحقوق حيث حصلت شهندة على منحة دراسية من جامعة السربون بفرنسا».. فتأتي أمل من داخل حجرتها وهي تقول بصوت تساؤل وملامح وجهها تكسوها الترقب والفضول : ماذا حدث يا أمي ؟ .. فتنهض سعيدة وتحتضنها وهي تقول بصوت كادت نبرته أن ترقص من الفرحة : سنرى أبوكِ يوم الأحد القادم يا أمل . لقد صرحوا لنا بالزيارة .. فتصمت أمل صمت ذهول الفرحة ويرتسم على ملامح وجهها ، الذي يشبه زهرة البنفسج المتفتحة وقت الربيع ، تعبيرات فرحة امتزجت بالرهبة والخوف من ضياع حلم رؤية أبيها التي لم تراه منذ ما يقرب من أربع سنوات ونصف ، لتقول بصوت صـراخ : صحيح يـا طنط . سنرى بابـا . صحيح يا طنط.. ثم تنهمر في البكاء وهي تقول بصوت تضرع وشكر لله: الحمد لله يا رب.. ثم تمسح دموعها وتحتضن أمها

وتقبل وجنتيها وتعبيرات الفرحة والسعادة تملأ ملامحها ثم تتجه نحو بهية وتقبلها وتحضنها وهي تقول : ربنا يحفظك يا طنط . أنتِ أخبرتينا بأحلى خبر .. فتبتسم بهية ابتسامة أمومة حانية وهي تقول بصوت محبة صادقة : ربنا يسعدك يا سعيدة أنتِ وأمل . لقد رزقني الله بأربع بنات ؛ اثنان جاءوا من رحم بطني وأنتما من رحم بطن غيري .. ثم تصمت لحظات لتقول بصوت تحفيز : سأترككما الآن . فلم يتبق أمامك يا سعيدة سوى يومين لتجهزي الطعام الذي يحبه زوجك . فأعتقد أنكِ ستجهزي له زواده تكفيه لمدة شهر .. ثم تهم بالانصراف وهي تقول : لو احتاجتي إلى شيء أرسلي لي أمل .. فتقول سعيدة بصوت شكر : سأحضر في المساء حتى أشكر عمرو بِك وأسلم على الست صافي وأطمأن على مولدها الجديد . وعقبال ما نفرح بالأستاذة شهندة .. فتقول بهية والبسمة الحانية ما زالت مرسومة على وجهها : وعقبال ما نفرح بأمل إن شاء الله .. وبعدما تغادر بهية مسكن سعيدة تظل أمل ووالدتها في حالة فرحة يريدان أن يدفعا عقارب الساعة إلى الأمام ليأتي يوم الأحد حتى يلتقيا بصابر بعد غياب قارب الأربع سنوات ونصف ذاقا خلالها مرارة العيش وظلمة الوحدة بدون الزوج والأب والعائل . ويظلا يتسابقان من أجل تجهيز أطيب المأكولات التي يحبها صابر.

ومع شقشقة صباح يوم الأحد كانت سعيدة قد جهزت الزوادة وتوجهت مع أمل إلى منطقة سجون طرة حيث التقت أمام البوابة الحديدية العالية ، التي يقبع خلفها عددًا من السجون من ضمنهم سجن شديد الحراسة أو كما يُطلق عليه سجن العقرب، بعدد من أهالي المساجين الذين جاءوا لزيارة أقاربهم هناك ليتم اصطحابهم بعد التأكد من شخصيتهم إلى داخل البوابة التي تشبه بوابة القلاع الحربية ليستقلوا أتوبيس مكشوف «يُطلق عليه طفطف» ينقلهم إلى سجن العقرب الذي يبعد حوالي ٢ كم من البوابة الرئيسية .. وخلال المسافة من بوابة المنطقة حتى بوابة السجن انتابت أمل ، التي تجاوزت عامها الرابع عشر ببضعة شهور ، شعور رهبة وخوف شديد واستشعرت أنها في كابوس مزعج ؛ فنظرات الحراس كانت أشبه بالأرواح الشريرة والأشباح التي كانت تتملك منها في أحلامها المزعجة وهي

طفلة صغيرة ، فبعضهم كانت نظراته لها هي وسعيدة تريد انتزاع جسدهما من ملابسهما وافتراسهما بدون شفقة أو رحمة ، البعض الآخر كانت نظراته أشبه بالسياط والعصا الغليظة التي يستخدمها قطاع الطرق في الأفلام من أجل ابتزاز الناس وسرقتهم بالإكراه .. وبعد وصول الزائرين إلى سجن العقرب توجهوا عقب نزولهم من الطفطف إلى خلف أسوار السجن حيث تم اتباع نفس إجراءات التفتيش الوقائية التي واجهوها عند البوابة الأولى ليتم بعدها اصطحابهم إلى عنبر الزيارة. وبعد هذه المعاناة البدنية ظلت سعيدة تمسك يد أمل وهي تنظر إلى باب العنبر بعيون قلقة مترقبة متلهفة لرؤية زوجها ، وقلب ينبض بالدعاء بأن لا يكون هذا اللقاء حلم من أحلامها التي لم تكتمل . بينما ظلت أمل ترتجف من شعور الخوف اللاإرادي الذي تملكها منذ دخولها من البوابة الأولى وهي تنظر إلى الباب بعيون شاردة زائغة تبحث عن الأمان وترغب تحسسه في أحضان والدها الذي لن يعوضها عن حنانه أحد .. وبعد بضع دقائق من الانتظار الرهيب ، الذي تلاعب بمشاعر الزوار وأرهق احاسيسهم المثقلة والمنهكة بالمذلة والمهانة ، وصمت الترقب الذي خيم على عنبر الزيارة ، دخل من باب العنبر طابور من الأشخاص الذين يرتدون ملابس زرقاء يقتادهم حراس يرتدون الملابس الميري الكاكي ويتقدمهم مأمور السجن برتبة عميد وشخص آخر يرتدي الملابس المدنية ، وبمجرد فك وثاق المسجونين انطلق نحوهم أطفالهم وزوجاتهم وأمهاتهم وأبائهم في مشهد درامي يبكي الحجر الصوان . وفي وسط زحام المتكالبين على رؤية ذويهم ألتقت عيون سعيدة التائهة التي حُرمت من كنف زوجها بعيون صابر التي أضناها القهر والمذلة فتصرخ سعيدة وتهرع نحوه ترتمي بين ذراعيه ، وهي تبكي بكاء الحرمان من الأمان تتشمم رائحته تستشعر نبض قلبه وتتحسس أنفاسه ، وهي تتأوه قائلة بصوت اختنق من ألم عذاب الفراق وفرحة اللقاء بعد مدة غياب قرابة أربع سنوات ونصف: آه يا صابر . آه يا ابن عمي . افتقدك كثيراً . نحن يتامى وأنت بعيد عنا .. فيضع صابر يده على رأسها وهو يضمها نحوه بقوة ويقول بصوت واهن: افتقدتك

كثيراً يا سعيدة . أن فرج الله قريب . ثم يردد ما تيسر له من سورة آل عمران (الآية ١٨٦) ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ .. وفي تلك اللحظة يقع بصره على أمل فينزع يده من على رأس سعيدة ويضمها إليه وهو يتحسس ملامحها التي نضجت وأصبحت مثل الزهرة اليانعة في بستان الربيع ، ويقول بصوته الواهن المنهك وتعبيرات الأبوة التي حُرمت من حنان ابنته الوحيدة تسيطر على ملامحه : أمل . سبحان الله في خلقه .. فترتمي أمل في أحضان أبيها تتحسس مع أمها الأمان الذي افتقدته وهي تبكي بكاءً صامتًا .. وبعد ما يقرب من دقيقة من العناق الصامت يتوجه الثلاثة ليجلسوا على أحد المقاعد المخصصة لجلوس الزوار ، يتبادلوا النظرات الشواقة لبضع لحظات حتى قالت أمل وهي تمسك بيد أبيها تقبلها : افتقدتك يا أبي كثيراً . الحمد لله أنك بخير .. فينظر إليها صابر نظرة تأملية فاحصة وهو يقول بصوت تعجب : ما هذا الملابس المتبرجة الذي ترتديها ؟! وتتبدل ملامح وجهه التي أكلتها قسوة السجن وقهرتها أحزان الوحدة وغلظة السجان بملامح قاتمة غليظة ليقول بصوت احتدت نبرته الواهنة: ألم تعلما ما قاله الله سبحانه وتعالى في هذا الشأن ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ «سورة النور الآية ٣١ » . سترتدي النقاب من اليوم . ثم يصمت بضع ثوان وهو ينظر نظرة غاضبة صامتة لهما ليقول بعدها بصوت آمر : ستتزوجين ابن الشيخ أبو حمزة المنياوي أحد المجاهدين . هـذا خير زوج يحفظك ويعاملك بما لا يخالف شرع الله .. فتظل سعيدة وأمل ينظران إليه نظرة تأملية صامتة وتعبيرات الذهول والصدمة مطبوعة على ملامحهما لبضع ثوان حتى قال صابر وهو ينظر بجواره تجاه شخص يجلس بصحبة امرأة منتقبة وشاب ملتحي : يا شيخ أبو حمزة .

تعالى انضم إلينا .. فينهض الشيخ أبو حمزة[١] وتنهض خلفه المرأة المنتقبة (إمراة بدينة لم يظهر من ملامحها شيء سوى عينيها الشاردتين التي كانت مليئة بخطوط القهر والمهانة وقلة الحيلة) والشاب الملتحي (أسمر ملتحي . في أواخر العقد الثاني من العمر . يبدو على ملامحه الغلظة مثل أبيه) .. الصمت والصدمة اللذين سيطرا على ملامح سعيدة وأمل زادت وتيرته عندما قال صابر موجهاً كلامه إلى أبو حمزة : أريد تزويج ابنتي بابنك .. فينظر أبو حمزة إلى أمل نظرة فاحصة ويقول بصوت قبول وملامح استنكار : يا شيخ صابر . هذا شرف لي أن يتزوج قصي ابني من ابنتك . لكنها غير منتقبة ولابد من ارتدائها للنقاب .. فيقول صابر : بإذن الله سترتدي النقاب من اليوم .. فيقول أبو حمزة موجهاً كلامه إلى ولده: ما رأيك يا قصي. هل تقبل الزواج منها؟.. فينظر قصي إلى أمل نظرة تأملية فاحصة ثم يقول : لا بأس يا أبي .. فتقول سعيدة بصوت احتدت نبرته بعد بضع دقائق من الصمت المكبوت وتعبيرات وجهها تكسوها ملامح الاستنكار والرفض : أمل ما زالت صغيرة وعمرها ١٤ عام .. فيمسك صابر يدها ويضغط عليها بشدة وهو يقول بصوت حدة : نحن لا نزوج أبناءنا على الشرائع الوضعية التي وضعها أشخاص يتجاهلوا شرع الله . الإسلام أحل الزواج من البنت إذا جاءها الحيض وللأب أن يزوج ابنته الصغيرة ولا يشاورها .. ثم يقول موجهاً كلامه إلى قصي : في الزيارة القادمة ، إذا جهزت مهرها ألف جنيه سنعقد القرآن هنا لتذهب بعدها معك إلى بيتك .. فيقول قصي بصوت إمتلأت نبرته بالإيجاب ، بعدما تحسس بنظراته المستكشفة جمال ملامح أمل وأنوثتها المبكرة التي استحوذت على مشاعر رجولته : سأجهز المهر

---

(١) أسمر بدين ملتحي . في أوائل العقد الخامس من العمر تبدو على ملامحه الغلظة رغم الوهن والضعف اللذين يتملكا من ملامحه . مثل كثير من العامة التي دفعتهم ظروف القهر والجهل والتخلف الثقافي التراكمي والإهمال المجتمعي فقد انزلق في دوامة التطرف والتشدد واعتنق الفكر الجهادي الوهابي وكان من ضمن الأشخاص الذين حُكم عليهم بالسجن سبع سنوات في القضية التي حُكم فيها على صابر بالسجن خمسة سنوات .

ويشرفني مصاهرتك يا شيخنا . ما اسم عروستنا المباركة بإذن الله .. فيقول صابر وعلى وجهه تعبيرات سرور : عروستك اسمها أمل وأنا الشيخ صابر المرافق في الزنزانة لوالدك .. وأمام الضغوط النفسية والعصبية التي واجهتها أمل ظلت صامتة ترتجف من شدة الرهبة والخوف والدموع الحارقة تنهمر بداخلها ؛ فكيف تتحول مشاعر وأحاسيس صابر الفياضة بالحب والرحمة إلى مشاعر يسيطر عليها الغلظة والحدة .. وفي تلك الأثناء يأتي إلى عنبر الزيارة شخص يرتدي الملابس المدنية وتبدو على هيئته الوقار والهيبة وبمجرد رؤية المساجين له ارتعدت فرائصهم وانتابتهم حالة من الفزع ؛ وقد انتاب صابر حالة من الرعشة وهو يردد دعاء الفزع: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامات مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وشَرِّ عِبَادِهِ ومِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ» .. فلما اقترب هذا الشخص أكثر من صابر نظر إليه نظرة باسمة وهو يقول بصوت ناعم : كيف حالك يا شيخ صابر ؟ أتمنى أن تكون في أحس صحة وحال .. فيقف صابر وهو ينظره نظرة مكبلة بالرهبة ويقول بصوت واهن مرتعش : الحمد لله الذي لا يحمد على مكروهٍ سواه .. فيقترب هذا الشخص من أمل وسعيدة وينظرهما نظرة فاحصة وهو يقول بصوت ترحيب هادئ : أهلاً بكما . بالتأكيد أنتِ زوجته وأنتِ ابنته . ما شاء الله . أتمنى أن تنصحا الشيخ صابر بالابتعاد عن أفكاره السيئة التي أتت به إلى هنا وحرمته من رؤيتكما .. فتقول سعيدة بصوت غلفه الرهبة وعيون امتلأت بالدعاء : والله يا سعادة البِك صابر إنسان طيب يعرف ربنا وبإذن الله ربنا سيهديه لما هو خير .. فيبتسم هذا الشخص ويقول بنفس نبرة صوته السابق وهو ينظر إلى أبو حمزة : هل تشارك الشيخ صابر حتى في خلوته مع زوجته وابنته ؟ أرجو أن تجتمعا دائماً على الخير .. فيقول أبو حمزة بصوت غلظة وملامح باغضة: نحن دائماً نجتمع على خير يا سامر بِك .. فيهز الشخص الذي يُدعى سامر رأسه وهو ينظرهما نظرة ثاقبة قائلاً : عسى أن تصدق نواياكما يا أبو حمزة .. وبعد بضع ثوان من انصراف هذا الشخص يأتي الحرس ويصطفوا حول العنبر في شكل قلعة مفتوحة تجاه باب العنبر ويعطي مأمور السجن تعليماته إلى القوة المرافقة له بانتهاء

الزيارة ليُسمع بعدها صوت ضابط عنبر الزيارة قائلاً بصوت عالي النبرة : انتهت الزيارة . اجمع المساجين خارج عنبر الزيارة .. وفي ثوان معدودة يعاد المشهد الدرامي الحزين الذي كان أبطاله المساجين وأهلهم عندما التقوا بعد انقطاع الزيارة لفترة قاربت الأربع سنوات ونصف ؛ حيث التقت دموع الأطفال المملؤة بإحساس الحرمان من حنان الأب مع دموع الأمهات والأباء التي انتُزع منها فلذات أكبادهم، ودموع الزوجات التي فقدت عائلهم المادي والمعنوي بعرق الرهبة والخوف الذي امتلأت به أناملهم وجباههم ، خشية عدم اللقاء مرة أخرى .. وخلال وداع صابر لكل من أمل وسعيدة استشعرت كلاهما بالتغيير النفسي الذي أصاب صابر وتمكن من مشاعره وأحاسيسه ، التي كانت كلاهما تستشعر بأنها أشبه في براءتها لأحاسيس الأطفال ، فتحولت إلى أحاسيس شخص تاهت منه عواطفه وشعوره بأقرب الناس إليه وذهب يبحث عن الخلاص والنجاة في سراب التعصب والتطرف الديني .. الضغط النفسي والعصبي الذي واجهته سعيدة خلال هذا اليوم جعل عقلها الباطن يمتلئ بكراهية التطرف الديني ويصمم بعزيمة صلبة رفض الانصياع والخنوع إلى القهر الذي يطلقه هذا التنين الأعمى ؛ فخلال أيام معدودة استطاعت ببراءتها المستضعفة من حشد مشاعر جيرانها ليقفوا بجوارها ويقرروا الدفاع عن قضيتها ، التي تمثل صراع حقيقي بين التطرف الديني ومبادئ الرحمة والعدالة والسماحة والإنسانية التي يريد هذا التطرف اغتيالها بحجة إحياء شرع الله من وجهة نظر معتنقيه الشخصية رغم تعارضها مع مبادئ العدالة والمساواة والحفاظ على الكرامة الإنسانية التي تنادي بها الشريعة الإسلامية .. حشد مشاعر الجيران جعل سعيدة تستطيع التغلب على مشاعر الرعب والخوف الذي أصابها من فكرة زواج ابنتها من أحد الشباب الذي ينتمي إلى أعضاء الجماعات المتطرفة ؛ فمن خلال حديثها مع بهية وصافي وأنجيل اطمأنت وهدأت سريرتها بعدما علمت منهم أن زواج أمل مخالف للقانون لأنها لم تبلغ سن السادسة عشر ، ومخالف للشرع لأنها لابد أن توافق على هذا الزواج ولا يمكن إجبارها على الزواج رغماً عنها .

وبعد أيام من الزيارة التي سمحت بها إدارة مصلحة السجون لنزلاء سجن شديد الحراسة فوجئ نزلاء السجن من المعتقلين والمساجين عند فتح الزنازين بأصوات كلاب وصيحات تشبه نفير الحرب يطلقها عساكر يرتدون الملابس السوداء ، وفي أيدهم الهروات والعصيان . وبمجرد فتح كل زنزانة هرعت العساكر إلى الداخل وهي تصيح صيحات القتال ليتم إخراج نزلائها إلى الخارج ليصطفوا صف واحد ووجهم إلى الحائط. وبكل قسوة وعدم إنسانية يتم نزع سترة المساجين وتعرى ظهورهم لتقوم مجموعة من هؤلاء العساكر ، التي نُزعت من صدورهم قلوب الأناسي ووضعت محلها قلوب وحوش مفترسة تريد افتراس الأجساد الضعيفة التي أنهكها ظلمة السجن ، بالضرب بإيديهم الغليظة على أجسادهم العارية حتى تتجمع الدماء تحت جلودهم في منظر تقشعر منه أبدان الأشخاص الأسوياء[1] ، بينما تقوم مجموعة من الأشخاص الملثمين من ضباط وأفراد جهاز مباحث أمن الدولة ومعهم ضباط وأفراد البحث الجنائي التابعين لمصلحة

---

(١) التعذيب داخل السجون كانت تتم في أغلب الأحوال على أيادي الأشخاص الذين يتم تجنديهم من الطبقة الفقيرة المعدومة المهمشة التي تقبع خلف اهتمام الدولة ؛ حيث يتم اختيار هؤلاء المجندين من المواطنين الذين فرضت عليهم أداء الخدمة العسكرية ليقضوا فترة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر هؤلاء المجندين الذي يتم استخدامهم كعصي وكرابيح لسحق من ترغب السلطة في سحقه يجعلنا نقف نتساءل : ما الذي يجعل شخص ذاق الظلم والحرمان والقهر يكون شخص سادي يحب تعذيب الآخر " السادية مرض يتميز بنمط شديد من السلوك الوحشي ، ومن أهم أعراضه : العدوانية والاستمتاع بمعاناة الآخرين النفسية والجسدية بها في ذلك معاناة الحيوانات " ؟! ربما نجد الإجابة عندما نبحث عن نشأة هؤلاء الأشخاص حيث نجدها قاسية لدرجة تجعلنا نترك هذا الجرم الإنساني الذي أقترفوه وهم في حالة عدم إدراك ووعي نتيجة الأمراض الاجتماعية المتراكمة التي خلفها الفقر والجهل و الحرمان والتي حجبت إدراكهم السليم ، ونبحث عن إيجاد حل للقضاء على هذا المرض اللعين الذي تمكن من ملايين الشباب المهمش القابع في النجوع والقرى والعشوائيات .

السجون[1] بإخراج جميع متعلقات هؤلاء المعذبين وبعثرتها ومصادرتها بحجة أنها من الممنوعات التي يحظر دخولها بموجب لوائح السجون ، على الرغم من أن هذه

(١) رغم اختلافنا مع الفكر المتطرف الذي يدعو إلى الخروج على النظام الحاكم بالقوة ، واتفاقنا مع الرأي الذي يرى أن هذا الفكر المتطرف يحتاج إلى إجراءات استثنائية لفترة زمنية مؤقتة في الحالات التي تهدد كيان وأمن الدولة والمواطن ، إلا أننا لا نتفق مع الحل الأمني المطلق الذي وإن استطاع القضاء على ثمار هذا التطرف لكنه لن يقتلعه من جذوره ، وأدى في العهد السابق " نظام الرئيس السابق حسني مبارك " مع تفاقم الأخطاء التي ارتكبها البعض من رجال الشرطة إلى فشل المنظومة الشرطية في مواجهة فيضان الغضب الثائر للمواطنين ، الذين لم يروا في الشرطة سوى العصا التي يستخدمها النظام لبطشهم . ولكن السؤال الذي يجعلنا نقف نتساءل لماذا كانت الشرطة تتعامل بهذه القسوة المفرطة مع أعضاء الجماعات ذات الفكر المتطرف ؟ هل كانت تفعل ذلك بدافع الحفاظ على الدولة ومؤسساتها ؟ أم كانت تدافع وتحمي النظام القائم الذي ارتكب من الأخطاء والمفاسد التي جعلته أشبه بالمحتل المغتصب الذي لا يريد سوى مصلحته الشخصية حتى لو كانت على حساب مصالح المواطنين ؟ .. الإجابة على هذه التساؤلات قد يصعب فهمها بصورة مجردة عن الواقع الاجتماعي ؛ فضباط الصف والأمناء (يطلق عليهم جميعاً مصطلح الأفراد العسكريين) لم يختلف حالهم في كثير من الأحيان عن حال المجندين فمعظمهم قبع على هامش الحياة ، وتحت وطأة الفقر والحاجة اتجه الكثير منهم إلى التحايل والرشوة وفرض الإتاوات والتزاحم والتكالب على توفير ضرورات الحياة حتى لو كانت على حساب كرامتهم الشخصية أو المصلحة العامة التي تتطلب منهم حماية أمن المواطن ، والبعض منهم وجد ذلك وسيلة سهلة لتحقيق ثروة لا بأس بها . لذلك فإن هذه الفئة المهمشة التي كانت الأكثر تعامل واحتكاكًا مع المواطن في الشارع وداخل الأقسام والسجون كانت معظمها لا تبالي بأوجاع من يتعاملون معهم بل ووصل الأمر في بعض الأحيان إلى المتاجرة بتلك الأوجاع .. أما الضباط الذين وضعتهم وزارة الداخلية في برواز صورة ممثل السلطة والمدافع عن أمنها وحامي الأعراض والمسؤول عن صيانة الأموال العامة والخاصة فقد انقسموا إلى فئتين : فئة صغار الضباط الذين قهرتهم بريق السلطة وسيطرت على معتقداتهم وأمانيهم وأحلامهم فكرة أن ضابط الشرطة يفهم أي شيء ويستطيع فعل أي شيء ؛ فهو ذراع السلطة والحكم ، ووجه الدولة الذي يقهر ولا يُقهر ، مما أدى إلى تزايد أعداد الضباط ضعفاء القدرة الذهنية في ظل أعباء وأحمال بدنية تفوق قدرة الإنسان العادي ولم يكن الغرض منها سوى الديكور الأمني للحفاظ على النظام العام الذي كان أهم أركانه – بل لم أبالغ لو قلنا هدفه الوحيد – هو حماية الأشخاص القائمين على السلطة . الفئة الثانية من الضباط والتي كانت تضم كبار الرتب التي تقلدت المناصب القيادية والحساسة بالوزارة في مختلف قطاعاتها النوعية والجغرافية هؤلاء تحولوا إلى مماليك السلطة في ظل حمى الصراع على كسب ثقة الحاكم ؛ فحبس الكثير منهم ضمائرهم المهنية وسبحوا في فلك حماية كل ما يمت بصلة للحاكم وأعوانه حتى لو كان على حساب أمن المواطن الذي هو في النهاية يعني استقرار الأمن واستتباب النظام . لكن الخطأ الفادح،=

المضبوطات لم تكن سوى بطاطين ووسادات ومراتب اسفنجية وبعض المأكولات والملابس الضرورية لمواجهة ضرورات الحياة الصعبة داخل الزنزانة .. وعندما اقتحمت قوات أمن السجن المدعومة بقوات فض الشغب الزنزانة التي ينزل بها صابر ، تعاملوا معه ومع أبو حمزة بطريقة أكثر وحشية من التي تعملوا بها مع باقي المعتقلين والمسجونين؛ حيث كانت هناك توصية من ضابط اتصال أمن الدولة بزيادة جرعة التعذيب بعدما تحدثا إليه بأسلوب نزعت منه نبرة الخوف والمهابة ؛ فبعد اصطفاف المسجونين وهم رافعين أيديهم وقد نُزعت عنهم ملابسهم الخارجية تم اصطحاب صابر وأبو حمزة بعيداً عن زملائهم في إحدى طرقات السجن التي تشبه ممر غرف العمليات الجراحية بعدما وضعوا الغمامة السوداء على عينيهما وربطوا أيديهم خلف ظهورهما . وبعد لحظات من ركوعهما على الأرض سمعا شخصًا يقول بصوت عال خشن امتلأت نبرته بنغمة الكراهية والبغض : اجعلوهما سمكة .. فتصيح عساكر التعذيب صيحة الموت بصوت ترتعد له الفرائص ، وهم ينقضون عليهما انقضاض الأسود الجائعة على فريستها ليفكوا إيديهم ويتم حمل كل واحد منهما بواسطة أربعة جنود من يديه وقدميه حيث يصبح وجهه جهة الأرض وجسده مشدود على شكل رقم ٧ ملتصق مع رقم ٨ ، وتقوم مجموعة من المجندين الحاملين الهروات والعصا بضربهما بكل قوة على ظهرهما المعرى في مشهد يجعل من يشاهده يتصور أن الزمن عاد إلى الوراء أكثر من خمسمائة عام في أحد قبور محاكم التفتيش بأوروبا التي كان يعذب بها أصحاب الأفكار

= الذي جعل العلاقة بين الشرطة والشعب أشبه بعلاقة سلطات الإحتلال بمواطنين هذا البلد المحتل، تمثل في استخدام جهاز مباحث أمن الدولة بصورة غاشمة لتثبيت حكم أشخاص بعينهم مهما كانت الوسائل المتبعة والتضحيات بأشخاص أبرياء لم يقترفوا ذنب سوى أن قدرهم ساقهم للوقوف أمام هذه السلطة الغاشمة .. الكلمات السابقة لا تدفعنا للتشكيك في أهمية جهاز الأمن الوطني "مباحث أمن الدولة السابق" في الحفاظ على الجبهة الداخلية من الاختراقات الخارجية ، ولكننا نتحفظ على الممارسات الخاطئة لهذا الجهاز التي أدت في النهاية إلى تحطيم ثقة المواطن بجهاز الشرطة.

المتعارضة مع الكنيسة الكاثوليكية [١] .. وخلال ما يقرب من أربع ساعات من التعذيب السادي تهاوت القدرة البدنية لصابر لتحمل هذا التعذيب الوحشي فيسقط صريعاً بعدما اغتالته هروات ، وكفوف المجندين المتعطشين للتعذيب .. وبعد فشل الأطباء في إسعافه يتم نقله إلى ثلاجة حفظ الموتى بمستشفى ليمان طرة ويدون محضر بمعرفة مأمور قسم شديد الحراسة يُثبت به أن المسجون صابر عطية أبو عساكر انتابته حالة من الهياج العصبي ، بعدما تم وضعه في الحبس الانفرادي كنوع من العقوبة التأديبية نتيجة لارتكابه مخالفة للوائح السجون ، فقام بإحداث

---

(١) " محاكم التفتيش – Inquisition " استُخدِمَت بشكل عام لمحاكمة المهرطقين بواسطة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية خلال العصور الوسطى . وكان ذلك من خلال محاكمات إكليريكية أو المحاكم التي كانت تقيمها الكنيسة الرومانية الكاثوليكية لقمع أو مكافحة الهرطقة ؛ حيث أصبحت تلك المحاكم منذ إنشائها مثلاً يُضرب على ذروة التعصب وعدم التسامح . وقد أنشأت بقرار من البابا جرينوار التاسع عام ١٢٣٣م ، وكان هدفها محاربة الهرطقة في كل أنحاء العالم المسيحي . والمقصود بالهرطقة هنا أي انحراف ولو بسيط ، عن العقائد المسيحية الرسمية . وقد كلف بها رجال الدين في مختلف المحافظات والأمصار . فكل واحد منهم كان مسؤولاً عن ملاحقة المشبوهين في أبرشيته . وكان الناس تساق سوقًا إلى محكمة التفتيش عن طريق الشبهة فقط ، أو عن طريق وشاية أحد الجيران . كانوا يعرضون المشبوه به للاستجواب حتى يعترف بذنبه ، فإذا لم يعترف انتقلوا إلى مرحلة أعلى فهددوه بالتعذيب ، وعندئذ كان الكثيرون ينهارون ويعترفون بذنوبهم ويطلبون التوبة، وأحيانًا كانت تعطى لهم ويبرأون . ولكن إذا شّكوا بأن توبتهم ليست صادقة عرضوهم للتعذيب الجسدي حتى ينهاروا كليًا ، وإذا أصرّ المذنب على أفكاره ورفض التراجع عنها فإنهم يشعلون الخشب والنار ويرمونه في المحرقة . وقد قُتل خلق كثير بهذه الطريقة التي أصبحت علامة على العصور الوسطى ، ويقال أن عدد الضحايا الذين ماتوا بهذه الطريقة يتجاوز عشرات الألوف . هذا بجانب الملايين الذين تعرضوا للتعذيب بأبشع الطرق والوسائل التي كانت تصل في أحيان كثيرة إلى اقتلاع الأعضاء البشرية عندما ترى المحكمة أن المهرطق لم يرد إليه صوابه ويعترف بذنبه بوسائل التعذيب البسيطة التي كانت تتمثل في الضرب المبرح بآلالات تعذيب وحشية . وقد كانت نهاية تلك المحاكم تدريجياً في أوربا منذ منتصف القرن الثامن عشر حتى سقطت آخر قلاعها في أسبانيا في ١٥ يوليو عام ١٨٣٤م بعد صراع طويل مع التعصب الدموي الذي سيطر على الكنيسة الكاثوليكية طوال ما يقرب من ستة قرون .

إصابات بنفسه وأخذ يصدم رأسه بحائط الزنزانة مما أدى إلى إصابته بنزيف داخلي تسبب في وفاته وفقاً للتقرير الطبي المحرر بمعرفة طبيب السجن ، ويتم قيد المحضر في قسم الشرطة المختص ويُعرض المحضر على وكيل النيابة العامة المختصة ويتم انتداب الطبيب الشرعي لمعاينة الجثة وتشريحها إذا ما تطلب الأمر ذلك وكتابة تقرير عن أسباب الوفاة . وقد اكتفى الطبيب الشرعي بمعاينة الجثة ظاهرياً ولم يدقق في الفحص بناءً على تعليمات رؤسائه ليأتي تقريره مطابقًا لما جاء في تقرير طبيب السجن لتنتهي هذه المسرحية السافرة الباكية بقيام وكيل النيابة بحفظ التحقيق والأمر بتسليم جثة المسجون المتوفي إلى ذويه والتصريح بدفن الجثة .. صابر الفلاح المصري الذي كان قلبه ينبض بالبراءة والحب في طفولته وشبابه قبل أن يتحول إلى قلب حاقد ناقم انتهى به الحال ليموت قتيلاً ويرقد في ثلاجة مستشفى ليمان طره جثة بلا روح بعدما ذاق من القهر والحرمان ما يشفع له تطرفه في أفكاره الدينية ، التي لم تكن في حقيقة الأمر سوى نتاج الحرمان والمذلة والقهر الذي تعانيه الطبقة المهمشة والمطحونة من المصريين التي أهملت الأنظمة الحاكمة رعايتهم على مدار عقود وأثقلتهم بالمذلة والحرمان والقسوة؛ فأصبحوا جوعا أشباه عرايا بعيون حاقدة ناقمة أكل الفقر ملامحهم الإنسانية وهم يتلصصون على حياة البزخ والترف التي تعيشه الطبقة المقربة من النظام الحاكم أو التي تخدم وجوده بصورة أو بأخرى .

وفي صباح يوم الأحد ٢٠ أبريل ١٩٩٨م ، الذي كان يوافق عيد القيامة ، وكعادة سعيدة في كل صباح الأعياد المسيحية توجهت مع أمل من أجل تقديم التهاني إلى أنجيل ونسيم . وبينما كانت سعيدة تجلس مع أنجيل يتحدثان عن طهي المأكولات جاءت بهية وصافي وعلى وجههما تعبيرات حزينة صادمة جعلت كل من أنجيل وسعيدة تسألهما بفضول وفي صوت واحد : ماذا حدث ؟ .. فتجلس بهية وهي تنظر إلى سعيدة نظرة توتر وقلق وتعبيرات الحزن تسيطر على ملامحها ، بينما جلست صافي بجوار أمل وضمتها إليها في الوقت التي تقول فيه بهية بصوت

خافت حزين موجهة كلامها إلى سعيدة : البقاء لله يا سعيدة . لقد توفى صابر أول أمس بمستشفى السجن .. فتتسمر عيني سعيدة وترتسم على وجهها تعبيرات صدمة صامتة وهي تقول بصوت ذهول استنكرت نبرته سماع هذا الخبر المفجع : البقاء لله في من ؟! ماذا تقولي يا ست بهية .. بينما تصرخ أمل صرخة ألم وهي تقول بصوت دهشة مذهلة : بابا . مات ؟! .. فتقول بهية بنفس نبرة صوتها السابق: البقاء لله يا ابنتي لقد مات صابر في مستشفى السجن أول أمس وقد صرحت النيابة بدفن الجثة وتسليمها إلى أهله . ربنا يصبرك ويرحمه برحمته .. فتظل سعيدة صامتة صمت الذهول ، وهي تنظر إلى ابنتها أمل نظرة تأملية صماء وهي تبكي بحرقة قائلة : «آه يا حبيبي يا بابا ؟ لماذا يا رب تأخذ منا الأشخاص الذين نحبهم ؟ يا رب أنا أحبه رغم كل شيء صدر منه » .. وبعد بضع دقائق من هذا الصمت تنفجر سعيدة في البكاء قائلة بصوت مكلوم : يا رب . لم يعد لي أحد . لقد أخذت مني كل أحبابي ، ولم يعد لي أحد اتعكز عليه في هذه الدنيا .. فتتجه أنجيل وبهية نحوهما يتعاقبا على احتضان سعيدة وأمل يحاولان التخفيف عليهما بمشاعر صادقة وأحاسيس عطوفة حانية .. وخلال ساعات نهار وليل هذا اليوم ظلت سعيدة وأمل منذ سماعهما خبر وفاة صابر في حالة ذهول وصدمة يبكيان بكاء حرقة وألم عندما يستوعبان أن الزوج والأب قد فارقهما إلى الأبد .. وفي صباح اليوم التالي توجهت سعيدة وأمل بصحبة نسيم وأنجيل وبهية إلى مستشفى ليمان طرة حيث استقبلهم عمرو الريس وقام بإنهاء جميع إجراءات استلام الجثمان وقد تم غُسله وتكفينه لتتحرك بعدها سيارة نقل الموتى بصحبة سيارة أجرة استقلتها سعيدة وأمل ومعهما بهية وأنجيل ونسيم إلى قرية دماص ليواري جثمان صابر الثرى هناك في مدافن الأسرة .. قرية دماص التي ودعها صابر ، بعدما ضاق به الحال واغتالت العنصرية والديه وأخوته وعمه وزوجته وأولاد عمه ، جاءها صريع تعنت السلطة وقسوة السجان وجهل القائمين على مصالح العباد الذين لم يروا في الصالح العام سوى مصالحهم الشخصية ، ولم يشغلوا بالهم بمواجهة تضخم التخلف الفكري والاقتصادي والانحطاط الثقافي

للطبقة المهمشة التي جعلت الكثير من أفرادها يتجهون إلى الانخراط في الجماعات التي تعتنق الفكر المتطرف الذي هدد السلام الاجتماعي للوطن وجعل السلطة الحاكمة تطغو على الحقوق والحريات بصورة مطلقة ودون تمييز بعدما أفزعت المواطنين من هـذا الفكر المتطـرف دون أن تضع حلـول جذريـة للقضـاء عليه حتى تثبت أذنابها في أركان السلطة بصورة مؤبدة ، لكن سبحان الله في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ .. ومع وصول جثمان صابر إلى جامع العناني كان في استقباله الشيخ علي الراوي والأستاذ بكر الغريب والدكتور طارق صيام ؛ حيث كانت بهية قد اتصلت بهما وأخبرتهما بالخبر حتى يقوما بتجهيز المقبرة . وخلال صلاة الجنازة على الجثمان تجمع عدد غفير من سكان القرية بعدما علموا عن طريق ميكروفون جامع العناني بوفاة صابر أبو عساكر ليقيموا عليه صلاة الجنازة بعد صلاة العصر .. الجمع الغفير الذي تجمع للصلاة على المتوفي كانوا يرددون بصوت دعاء وتضرع خاشع «لا الله إلا الله . ما دائم إلا وجه الله . سبحانه وتعالى يحيي ويميت» حتى تم وضع النعش على القبلة لينادي الشيخ علي على جمع المصلين ليقيم صلاة الجنازة بصوت عظة ورحمة وملامح وجهه عليها تعبيرات أسى وحزن . وخلال الصلاة كان الشيخ علي الراوي يدعو إلى المتوفي بالرحمة و دموعه تتذكر الطفل البريء المحب الساعي لتعلم القرآن ، والشاب الورع التقي صاحب المروءة والشجاعة المحب إلى الخير والساعي إلى فعل المعروف ، وتزداد حرقة دموعه عندما تذكر لقائه الأخير به والتغيرات الفكرية والنفسية التي أصابته واغتالت براءة وسماحة روحه وبدلته بشخص لا يعرف سوى الغلظة في التعامل والانتقام من المجتمع الذي جنى عليه وسلب منه السكينة والإحساس بالأمان.. وعند المقبرة التي دفن بها عائلتي حسن وعطية أبو عساكر وقفت سعيدة تقرأ الفاتحة وتترحم على أهلها والدموع تنساب من عينيها وهي تحتضن أمل ، التي سيطر عليها الصمت وتملك الذهول من كل حواسها؛ فرغم غياب أبيها عنها منذ ما يقرب من أربع سنوات ونصف ، والموقف الصعب الذي زلزل مشاعرها تجاهه ، فذكريات

طفولتها مع صابر كانت تسيطر على ذاكرتها والدموع تنساب من عينيها وهي تدعو له بالرحمة والمغفرة .. ومع وصول النعش وسط الدعوات الباكية لحامليه بالترحم والمغفرة للميت كانت سعيدة قد أضنتها أحزان الوداع وأشجان رحيل ما تبقى لها من أحلام . وما أن أُخرج الجثمان ودخل المقبرة حتى انفجرت في بكاء شديد وهي تصرخ صرخة الفراق الدنيوي الأبدي الذي حملت نبرتها مأساة زوجة فقدت زوجها وحبيبة فقدت محبوبها ، ومعشوقة فقدت عشيقها الذي كان الشيء الوحيد الذي جعلها تقف حالمة تصارع أمواج قدرها الحزين البائس .. وبعدما ورى جثمان صابر الثرى وأُغلقت المقبرة ، ومعها قصة من ملايين قصص البؤس والقهر والحرمان التي دفنتها رمال وأتربة الريف المصري على مدار السنين ، كانت سعيدة تتقبل تعازي ومواساة الأهل والأقارب والمعارف من أهل القرية وهي لا ترى منهم سوى سواد ملابسهم .. وبينما كان الحضور يهموا بالانصراف بعد تلقي العزاء جاءت عبير شقيقة صابر تولول وتصرخ وتلطم على وجهها وهي تقول موجهة كلامها إلى سعيدة بصوت عويل وبأسلوب اتهام يحمل بين نبرته شعور بغض : لماذا لم تخبريني بوفاة أخي؟ الله يجازي الذي كان السبب في بعدك عنا وحرمانا منك يا أخي . أنتِ السبب في وفاة صابر فقد مات من حسرته بعد لقائه بِك .. فتمسك خضرة بيدها وتجذبها بعيداً عن الحضور حتى اعترض بركات صيام طريقهما وهو يقول بصوت به حدة موجهاً كلامه إلى سعيدة : هل يصح أن نعرف بوفاة صابر من دماص ولا نعرفه منكِ يا سعيدة ونحن نقيم في القاهرة ؛ فلولا الصدفة التي جعلتني اتصل بأخي الدكتور طارق ما علمت بهذا الخبر السيء .. فيأتي الشيخ علي الراوي ليقول معاتباً إلى عبير : هذا الكلام عيب يا ابنتي.. فتقول عبير بصوت صراخ به غل : لقد انتابت صابر حالة من الجنون بعد زيارتها له جعلته يقتل نفسه وهو غير واعٍ بما فعل . بكل تأكيد هناك شيء علمه أخي جعله يفقد عقله وصوابه.. فيقول الشيخ علي الراوي بصوت به حدة وقد ارتسمت على وجهه تعبيرات استنكار موجهاً كلامه إلى بركات : اصطحب زوجتك وأذهب حتى لا تزيد من

كلامها الجارح الذي لا يقبله الغريب قبل القريب .. وأثناء حديث عبير في حق سعيدة ظلت الأخيرة تنظر إليها نظرة صامتة باكية مذهولة حتى قالت بصوت مكلوم بعدما انتهت عبير من افترائها : الله يسامحك يا ابنة عمي . ويرحم صابر ويرحم أبيكِ وأبي ويرحم القلب الطيب الذي مات في صدرك ، ويرحم الأيام والدار التي جمعتنا وتربينا تحت سقفها . حسبي الله هو نعم الوكيل .. بعد هذه الكلمات الصادمة التي حطمت أواصر المودة الباقية مع ابنة عمها عزمت سعيدة على الرحيل والعودة إلى القاهرة، ولم تلتفت إلى رجاء و توسل «نبوية ، سكينة وخضرة» وكلمات الاعتذار والمواساة التي قدمها طارق صيام والشيخ علي الراوي من أجل تطيب خاطرها .. ومع إصرار سعيدة على الرحيل عادت مع أمل بصحبة جيرانها إلى بيتها في القاهرة مودعة ما تبقى لها من روابط بالقرية التي وُلدت بها ونشأت فيها ؛ فعلى الرغم مما أظهره المقربين لها من شعور مودة وحب فلم تستطع نسيان ما حدث يوم وفاة شقيقتها فرحانة ، وشعور الظلم والبهتان والاتهام الذي تحسسته وأحدث بداخلها شرخًا نفسيًا يصعب نسيانه . أما أمل الفتاة التي حرمها القدر من حنان الأب ومودة الأهل فقد ظلت في حالة عدم مبالاة بما حدث ؛ حيث كانت فجيعتها في أبيها تسيطر عليها ، ولم يفرق معها ما صدر من عمتها التي لم تتحسس تجاها بأي شعور محبة وود منذ طفولتها .. وتمضي الأيام والشهور والسنين وتظل سعيدة التي فقدت ماضيها بوفاة زوجها متمسكة بأملها الذي تبقى لها في الدنيا ؛ ابنتها أمل التي وهبها الله جمال الروح والشكل ومنحها كاريزما التفوق والذكاء الاجتماعي والعلمي فحصدت في بداية مشوار حياتها على أعلى درجة في الثانوية العامة على مستوى الجمهورية لتلتحق بكلية الطب ، وتظل خلال سنوات دراستها الست بالكلية الطب جامعة عين شمس تتربع على عرش التفوق لتحصل على بكالوريوس الطب بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف ولم يتبق لها لممارسة مهنة الطب سوى تمضيتها لسنة الامتياز .

وفي صباح يوم الجمعة الموافق ١٦ مارس ٢٠٠٧ م ، بينما كانت سعيدة كعادتها كل صباح يوم الجمعة تقوم بأعمال ترتيب المنزل ، جاءت ياسمين[١] صديقة أمل تطرق الباب بأسلوبها المرح وهي تغني جملتها التي اعتادت ترديدها عند حضورها إلى بيت أمل «أمل حياتي يا حب غالي ما ينتهيش» فتتجه سعيدة وعلى ملامحها تعبيرات فرحة وسرور لتفتح الباب فتدخل ياسمين وتقبلها وتحتضنها قائلة بصوتها الذي يحمل نبرته نغمات طفولة بريئة : أهلاً بالقمر الذي يضيء بالليل والنهار . افتقدك يا طنط . أين الطبيبة المختفية منذ يومين فعندي لها أخبار تستحق أكلة حمام من يدك الجميلة .. فتضحك سعيدة وترتسم البهجة على ملامح وجهها الذي

---

(١) زميلة أمل منذ المرحلة الثانوية وتسكن بشارع جزيرة بدران بشبرا . ارتبطت مع أمل بعلاقة صداقة حميمة ولم يفترقا منذ ذلك الحين ، وأصبحت علاقة المودة بينهما أكثر من مودة الشقيقات لبعضهن . ذو ملامح جميلة تشبه ملامح الفراعنة «بشرة قمحي وشعر مثل ملمس الحرير أسود لون الليل ، وعيون سمراء جذابة» تخرجت من كلية الإعلام ، وتعمل صحفية في إحدى صحف المعارضة التي تخصصت في نشر وقائع فساد رجال الحكم والحياة العامة .

* والدها سعد الدين محمد المنشاوي . يبلغ من العمر ٥٧ عامًا ، ويعمل رئيس القلم الجنائي بمجمع نيابات الجلاء . شخصية طيبة لا زالت تحتفظ بأخلاق وقيم ومبادئ فترة ما قبل الانفتاح الثقافي العشوائي على الغرب . يعشق جمال عبد الناصر ويحتفظ بكل خطبه . كان ضمن الشباب الثوري الاشتراكي المعارض لسياسة أنور السادات ، والذي من وجهة نظره أنها كانت السبب الرئيسي في تدهور وانحطاط السمات العامة للشخصية العامة المصرية . بعد وفاة والدة ياسمين منذ أكثر من عشرة أعوام لم يتزوج بامرأة أخرى.

* شقيقها الأكبر مصري . البالغ من العمر ٢٦ عامًا . شاب وسيم ذو ملامح تنضح بالرجولة . يعمل طبيب جراح – نائب جراحة – في مستشفى الساحل التعليمي منذ أكثر من ثلاثة أعوام ويتردد على بعض العيادات الشعبية التي تقدم الرعاية الصحية لمحدودي الدخل في مقابل مبالغ بسيطة . بجانب عمله كطبيب فهو بطل رياضي تفوق في لعبة التايكوندو وحصل على عدد من البطولات المحلية والإقليمية . يعتنق مثل والدهُ الإيدلوجية الاشتراكية الوسطية التي تنادي بالعدالة الاجتماعية للطبقات الفقيرة والمهمشة منَ الشعب المصري . انضم إلى حركة كفاية التي ظهرت على الساحة السياسية في عام ٢٠٠٤م وشارك في الوقفات الاحتجاجية التي نظمتها تلك الحركة من أجل تسجيل اعتراضها على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتردية التي وصل إليها الحال في مصر والدعوة إلى تغيير تلك الأوضاع .

ما زال يحتفظ بنضرة الشباب رغم تجاوز عمرها الثانية والأربعين ، وهي تقول بصوت غلفه المودة : أهلاً يا ياسمين . افتقدتك كثيراً . إن شاء الله سأعمل لك أكلة حمام فأنا اشتريت الحمام مخصوص من أجلك واحتفظت به في الثلاجة . سأطهو ثلاثة أزواج نأكل ثلاثة والباقي خذيهم إلى الأستاذ سعد والدكتور مصري .. فتقول ياسمين بأسلوبها المرح : أنا أرى يا جميل أننا نتجمع في بيت واحد وعلى رأي المثل القائل «زيتنا يبقى في دقيقنا» .. فتضحك سعيدة ضحكة من القلب وهي تقول : الله يجازيك خيراً يا ياسمين . لا أحد يجعلني أضحك مثلك .. فتقبلها ياسمين وهي تقول : ربنا يحفظك يا طنط . هل أمل ما زالت نائمة ؟ .. وما أن أكملت ياسمين جملتها حتى جاءت أمل وعلى وجهها تعبيرات فرحة وسعادة لرؤية صديقتها الحميمة فتحضنها وتقبلها وهي تقول بصوت به لهفة وشوق : افتقدتك يا ياسمين . لو لم تأتِ كنت سأتي إليكِ . كيف حالك وحال مقالاتك وتحقيقاتك الساخنة التي ستدخلك المعتقل عن قريب ؟ .. فتقول ياسمين : لو جاءت على المعتقل يبقى الأمر سهل .. ثم تضحك ضحكتها الساخرة قائلة : التحقيق الصحفي عن موضوع «العشوائيات وغباء النظام» الذي نشرته في العدد السابق من الجريدة وضع اسمي ضمن الأسماء المطلوبة في جهاز مباحث أمن الدولة .. فتقول سعيدة بصوت حركته مشاعر الرهبة والخوف وتعبيرات ملامحها قد انطبعت عليها ذكرياتها الأليمة : أمن الدولة ! لا يا ياسمين . أرجوكي خذي حذرك .. هؤلاء الناس لا يعرفون الرحمة ولا يهمهم كبير أو صغير .. فتقول ياسمين بصوتها ذات النغمة الطفولية وعيونها قد امتلأت بالإصرار : يا طنط . بلدنا لابد أن تتخلص من قيود الظلم ، ولابد لنا من قتل الخوف الذي زُرع في قلوبنا وعقولنا حتى نستطيع استعادة حقوق الفقراء والضعفاء التي سلبها متسلقي السلطة من الانتهازيين السياسين والاقتصاديين الذين لا يريدون للفقراء أن يتخلصوا من غبار الفقر وجهل الحرمان .. فتضحك أمل وهي تقول بصوت يريد إخراج ياسمين من الحالة الثورية التي أفقدتها روحها المرحة : إهدئي يا أنسة غاندي . هل تعتقدي أنكِ في وقفة احتجاجية أمام نقابة

الصحفيين ؟ أنتِ تتحدثي مع خالتك سعيدة .. وبعد نظرة صامتة ، وعيون تائهة كانت تبحث عن مفهوم مصطلحات ومفردات ما قالته ياسمين ، قالت سعيدة بصوت غلفه الإيجاب والإعجاب بعدما استشعرت صدق إحساس هذه المفردات: والله كلامها جميل ونابع من قلبها .. ثم تصمد للحظات يأتي في مخيلتها قوة السلطة وقدرتها فتقول بصوت استشعر الخوف والقلق : رغم إحساسي بصدق كلامك. أرجوكي يا ياسمين خذي حذرك وابتعدي عن المشاكل .. فتبتسم ياسمين وهي تقول بصوتها الطفولي الذي عاد إليه نبرة المرح : لا تخاف يا جميل . أنا احتمي برجال لهم ثقلهم في المجتمع ، والنظام الحاكم لن يستطيع تكميم أفواهنا .. ثم تشتعل عيونها بريقاً وهي تقول بصوت علت نبرته بالفرحة : لقد انسيتني ما جئت من أجله . مبروك يا حضرة الطبيبة . مصري حصل على موافقة الدكتور شهاب النوري مدير مستشفى الساحل التعليمي لتقضي فترة الامتياز هناك .. فتقول سعيدة بصوت امتلأ بالفرحة : الحمد لله . المستشفى التي كانت تذهب إليها بعيدة . ربنا يحفظك يا دكتور مصري .. فتقول أمل بصوت فرحة وهي تحتضن صديقتها : الحمد لله اترحمت من الذهاب كل يوم إلى مستشفى المطرية العام .. فتقول ياسمين بصوت هامس وعيون استفهام كاشفة : هل أنتِ مسرورة بسبب قرب المسافة أم قرب الحبيب ؟ .. فتضحك سعيدة وهي تقول : ربنا يحفظك يا ياسمين ويرزقك بـ رجل صالح مثل أخوكِ الدكتور مصري ، ويسعدهما ويرزقهما بالذرية الصالحة إن شاء الله .. ثم تصمت لحظة وتقول بصوت استفهام : لماذا لم يحضر معكِ مصري ؟.. فتقول ياسمين بأسلوبها الساخر خفيف الظل : عندما تطهي الحمام . سيأتي الفتى الهمام . صاحب الأحلام . الذي يريد خطبة ابنتك التي لا تنام .. فتضحك كل من سعيدة وأمل ضحكة من القلب حتى تقول ياسمين : الطبيب المحترم يرسلني إلى فتاة أحلامه مثل الحمام الزاجل . وهو يخبرك يا سيدتي أنه سيأتي بعد العصر فقد اتصل به الأستاذ جورج إسحاق وطلب مقابلته في مجلس نقابة الصحفيين فجأة ، وتليفون منزلكم كان مرفوع مؤقتًا من الخدمة وموبايل حضرتك مغلق ؛ فهناك

ترتيبات لوقفة احتجاجية على بنود التعديلات الدستورية التي يريد حسني مبارك وأعوانه تمريرها للشعب حتى يتم توريث الحكم إلى ابنه جمال .. فتقول سعيدة بصوت تعلق بنبرته نغمة خوف وهي تنظر إلى ياسمين : يا ابنتي أنا صحيح أمية أجهل القراءة والكتابة لكن لدي إحساس وقناعة بأن حسني مبارك أفضل من أي شخص آخر وابنه يفعل خير كثير ، ولو جاء محل أبيه سيكون خير مثل والده .. فتنظر إليها ياسمين نظرة تأملية فاحصة وتقول بصوت تساؤل وعيون تعجب : يا طنط هذا كلام غير صحيح وحسني مبارك ليس أفضل شخص يستطيع أن يحكم مصر . وابنه الفتى المدلل ، الذي لا توجد به أي مميزات تؤهله ليكون رئيس مصر ، ليس خير ، لا هو ، ولا والده . هل يمكن أن يبقى حال الفقراء في مصر بهذا الشكل المحزن ؟ لا صحة ولا تعليم ولا رعاية اجتماعية ! يا طنط لن ينصلح الحال بتكميم الأفواه وتعصيب العيون والتلاعب بمشاعر وعقول المصريين البسطاء الذين يخدعهم الإعلام الموجه الفاسد .. فتقاطعها أمل قائلة بصوت يقين : يا أستاذة أمي تحب حسني مبارك ، وترى أنه رجل صالح وطيب . ولن تستطيعي إقناعها بغير ذلك .. فتقول ياسمين بصوت غلفه الهزل وهي تنظر إلى سعيدة نظرة ساخرة : أنتِ تريدي إضاعة الوقت من أجل الهروب من طهي الحمام .. فتضحك سعيدة وهي تقول : أهرب من طهي الحمام ! ربنا يجازيك خير . سأطهو لكم الحمام حالاً .. فتقول ياسمين : يا أحلى أم في الدنيا . ربنا يحفظك ويسعدك .. ثم تصمت لحظة لتقول : آه على فكرة أنا تقابلت مع الدكتورة شهندة على باب العقار وقلت لها «أني سأحضر أمل وأتي إليكِ» فأخبرتني أنها ستمكث ساعتين .. فتقول أمل بصوت فرحة : لقد افتقدتها وافتقدت كلامها كثيراً. سأرتدي ملابسي ونصعد سوياً .. فتقول سعيدة موجهة كلامها إلى أمل : أبلغيها أن سعيدة تطهو حمام وستجهز لها اثنين تأخذها معها .. فتقول أمل : طالما ستجهزي اثنين إلى شهندة جهزي اثنين إلى طنط بهية .. فتقول سعيدة : سأطهو الاثنى عشر حمامة الموجودة في الثلاجة حتى أرسل إلى الست أنجيل والأستاذ نسيم .. فتقول أمل وهي تنهض حتى تبدل

ملابسها : سنذهب إلى شهندة وسنعود بعد ساعتين وهي معنا ؛ فبكل تأكيد هي لن تقاوم أكل الحمام من يديك .. فتنهض سعيدة وتتجه إلى المطبخ وتصعد أمل بصحبة ياسمين إلى مسكن بهية ؛ ليجلسا مع شهندة ويدور بين الثلاثة حديث مطول عن التعديلات الدستورية[1] التي سيطرحها رئيس الجمهورية للاستفتاء الشعبي بعد عشرة أيام عقب موافقة مجلسي الشعب والشورى عليها .. وبعد ما يقرب من ساعتين كانت سعيدة قد انتهت من طهي الحمام وجهزت أنصبة كل بيت ، فجاءت شهندة بصحبة أمل وياسمين لتسلم عليها وتشكرها ويدور بينهما حديث ودي من القلب لبضع دقائق ، فإذا بمصري يتصل تليفونياً بأمل عن طريق التليفون المحمول ويعتذر لها عن عدم تمكنه من الرد عليها كما يخبرها أن الشرطة اعتقلت عددًا من نشطاء الحركة أثناء وقفتهم الاحتجاجية أمام مجلس الشعب من بينهم الأستاذ خالد ياسين والدكتورة سميرة مرقص وآخرون ، ويعتذر لها عن الحضور حيث سيتوجه بصحبة عددًا من النشطاء إلى مبنى وزارة الداخلية في مسيرة اعتراضاً على اعتقال البعض من حركة كفاية من أمام مبنى البرلمان .. وبمجرد نهاية المحادثة ومعرفة مضمونها من أمل توجهت كل من شهندة وياسمين لتنضما إلى المسيرة التي ستتحرك

---

(١) وافق مجلس الشورى المصري يوم ١٣ مارس على التعديلات التي اقترح الرئيس مبارك في ديسمبر إدخالها على ٣٤ مادة في الدستور . وأحال مجلس الشورى التعديلات إلى لجنة الشؤون الدستورية والتشريعية في مجلس الشعب التي أقرتها في نفس اليوم ليتم عرضها على رئيس الجمهورية الذي طرحها للاستفتاء الشعبي يوم ٢٦ مارس من نفس الشهر . وعلى الرغم من إعلان الحكومة المصرية أن التعديلات الدستورية التي تضمنت ٣٤ مادة من مواد الدستور ، التي اقترحها الرئيس وأقرها البرلمان، تستهدف منح الأحزاب السياسية المعارضة الـ ٢٢ فرصة حقيقية للمشاركة التنافسية في الانتخابات الرئاسية ، وإعادة التوازن بين السلطتين التنفيذية والتشريعية وتعزيز دور البرلمان في الرقابة والتشريع وإعطاء مزيداً من الصلاحيات لرئيس الوزراء من خلال تقليص سلطات رئيس الجمهورية فإن المعارضة بشتى ألوانها الفكرية كانت ترى أن هذه التعديلات شكلية لتجميل النظام وتقنين الاستبداد والتمهيد لتوريث الحكم لنجل الرئيس بصورة قانونية في المادة ٧٦ ، دون أدنى منافسة من أحزاب «كرتونية» لا تملك القاعدة الشعبية التنافسية التي تمنحها تواجد مؤثر في البرلمان .

من أمام نقابة الصحفيين ويتقدمها الدكتور عبد الحليم قنديل والدكتور عبد الوهاب المسيري والأستاذ جورج إسحاق ، وعدد كبير من مؤسسي وأعضاء حركة كفاية[1] .

---

(١) حركة كفاية (الحركة المصرية من أجل التغيير) حصلت على اسمها «كفاية» استعارة من تصريح للرئيس الماليزى السابق «مهاتير محمد» فى لقاء فكرى معه بمكتبة الاسكندرية في صيف ٢٠٠٣م بأنه «كفاية» عليه فى الحكم ٢٤ عاماً (كانت إنجازاته فى هذه الفترة من خفض نسبة الفقر من ٧٠٪ إلى ٣٪ ، وزيادة الدخل القومى الحقيقى إلى ١٢٪ وغيرها من الإنجازات) . ومن هذا المنطلق تجمع عدد من المثقفين والكتاب وأساتذة الجامعات في بداية عام ٢٠٠٤م وبدأوا فى تكوين الحركة التى اعتمدت على إصدار عدة بيانات فى الصحف (المستقلة) تدعو فيها الرئيس مبارك لعدم الترشح لفترة رئاسة جديدة . وبدأت الحركة تكتسب أرضية جديدة فى الحياة السياسية كل يوم مع انضمام العديد من رموز النخبة والفكر المصرى فيها مثل المستشار طارق البشرى والدكتور عبد الوهاب المسيري والدكتور عبد الحليم قنديل ، وبدأت الحركة فى توسيع نطاق أعمالها من خلال تأسيس موقع على الانترنت دعت فيه كل المصريين إلى تسجيل أنفسهم فيه كأعضاء . وقد حصلت الحركة على شهرة واسعة داخل مصر وخارجها على الرغم من حداثة عهدها بالعمل السياسى وأثارت جدلاً وحركت المياة الراكدة فى الحياة السياسية المصرية متفوقة بذلك على الأحزاب التقليدية المعارضة والموجودة على الساحة منذ سنوات طويلة . ثم بدأت فى الدعوة إلى التظاهر السلمى الصامت فى أماكن تجمع خاصة بالمحافظات تعبيراً عن تحفظها لعدد من النقاط التى تثار من وقت لآخر . وقد أعلنت الحركة عن أهدافها التي تتلخص في الآتي (* الإلغاء الفوري لحالة الطوارئ ، التي تشل القوة الفاعلة في الوطن ، والتخلص من مجموعة القوانين التي تنتهك الحريات * إطلاق حق كل القوى المدنية السلمية في التنظيم ، وفي تشكيل الأحزاب السياسية ، والنقابات ، والهيئات ، والجمعيات ، بغير قيود * الاعتراف بحق التظاهر والإضراب والاعتصام السلمي * إطلاق حريات التعبير ، وإصدار الصحف ، وتحرير أجهزة الإعلام المرئي والمسموع من القيود * تشكيل جمعية تأسيسية وطنية ، تشرف على إعداد دستور جديد للبلاد ، يحتفي بالحرية ، ويضع الضمانات الفعلية لتأكيدها * تأسيس جمهورية برلمانية، تضمن حقوق الوطن والمواطن وتفصل بحسم بين السلطات ، وتحد من إنفراد الحاكم بالسلطات الدستورية المطلقة ، وتضع حداً لمدد حكمه وصلاحياته ، تطالب الحركة بفترة انتقالية مناسبة قبل إجراء أية انتخابات ، يتم فيها خلق مناخ موات لإجرائها بنزاهة وعدالة ، وحتى لا تصبح الانتخابات وسيلة لخداع الناس) . وقد وجهت للحركة انتقاداً قوياً جاء على لسان الرئيس مبارك فى حديث له مع صحيفة "الفيجارو الفرنسية " اتهم فيه الحركة باستغلال الظروف الدولية للضغط على النظام والاستقواء بالخارج كما شكك فى مصادر تمويلها . وقد تعرض البعض من أعضاء الحركة إلى التشوية والمواجهة الخفية مع النظام ؛ كان أشهرها تعرض الصحفى عبد الحليم قنديل وهو المتحدث الإعلامى للحركة باعتداء شهير فى شتاء ٢٠٠٤ ، حيث اختطفه مجموعة وقاموا بتجريده من ملابسة وتركوه عارياً فى طريق مصر السويس . كما تعرض الفنان عبد العزيز مخيون إلى محاولة قتل فاشلة ، وقيل في الصحف أن عشيق زوجته هو الذي قام بهذه المحاولة.

وخلال ما يقرب من نصف ساعة كانت شهندة وأمل قد انضمتا إلى الوقفة الاحتجاجية التي أطلقها بعض نشطاء الحركة أمام البوابة الرئيسية لوزارة الداخلية وتقابلا مع مصري وسعد المنشاوي وشادي البارودي[1] ضمن حشد قارب تعداده المائة شخص وهم رافعين أيديهم مكبلة بالسلاسل وأفواههم مكممة بقطع من القماش منقوش عليها رمز الحزب الوطني الديمقراطي الحاكم ، يقفون تحت يافطة كبيرة مكتوب عليها «اعتقلوا أجسادنا . كمموا أفواهنا . لكن أرواحنا ستحلق في السماء تتطالب بالحرية وترفض تمديد الظلم والطغيان»، ومحاطين بعساكر وضباط مدججين بالسلاح ووسائل قمع الشغب .. وعندما حاولت الاثنتان اختراق الحاجز الأمني والدخول إليهم تعرضا للضرب بالعصا ، وتطور الأمر بقيام أحد الضباط بسحب شهندة من شعر رأسها بعدما تعدت بالقول على الشرطة ، ولما حاولت مجموعة من المتظاهرين منع الضابط تطور الأمر إلى حدوث مواجهة بينهم وبين قوات فض الشغب تعرض خلالها المتظاهرين إلى الضرب المبرح ، وتم اعتقال الأشخاص الذين قاوموا القوات خلال فض المظاهرة بالقوة . وقد كان من ضمن الذين تم اعتقالهم مصري وسعد المنشاوي ، وشهندة وزوجها .. الأشخاص الذين اعتقلوا أمام وزارة الداخلية تم اصطحابهم إلى قسم قصر النيل حيث تحرر ضدهم محضرًا بالتعدي على قوة الشرطة المكلفة بتأمين وزارة الداخلية وإثارة الشغب وتعريض النظام العام للخطر ، ليتم عرضهم على النيابة العامة المسائية لدائرة قصر النيل التي أمرت بحبسهم أربعة أيام على ذمة التحقيق بعد توجيه لهم التهم التي جاءت في محضر الشرطة ؛ فيتم إيداع الرجال في سجن القاهرة للمحبوسين

---

(١) زوج الدكتورة شهندة . رجل وسيم المظهر ذو شخصية براقة . في نهاية العقد الرابع من العمر . ينتمي إلى عائلة تمتد بجذورها إلى الطبقة الأرستقراطية في عهد الملكية . أستاذ مساعد بقسم اللغة الفرنسية بكلية الأداب جامعة القاهرة " حاصل على دكتوراة في تاريخ الأدب الفرنسي من جامعة السربون " . وكان أحد المؤسسين لحركة كفاية منذ نشأتها في بداية عام ٢٠٠٤م ، ويتمتع بشخصية كارزمية في التأثير والإقناع ، وله العديد من المقالات الأدبية والاجتماعية والسياسية التي تم نشرها في صحف المعارضة .

احتياطياً ، وإيداع السيدات في سجن النساء بالقناطر .. وقبل حلول أذان العشاء ، كانت سيارة « ترحيلات المساجين» التابعة إلى مديرية أمن القاهرة قد وصلت إلى سجن القاهرة للمحبوسين احتياطياً «يُطلق عليه سجن المحكوم » لتسليم المتهمين الذين أمرت النيابة العامة بحبسهم أربعة أيام على ذمة التحقيق ، وإيداعهم أحد السجون العمومية بعد توجيه نفس التهم التي ثُبتت في محضر الشرطة حيث تسلمت إدارة سجن المحكوم هؤلاء المتهمين ، كما وصلت سيارة ترحيلات المسجونات إلى سجن النساء بالقناطر وتم تسليم المتهمات لإدارة سجن النساء .. وخلال أيام الحبس الاحتياطي واجه أعضاء حركة كفاية داخل السجن صدمة نفسية ومعنوية ، حيث تعمدت إدارة السجن بتوجيه من وزارة الداخلية بوضعهم مع عتاة الإجرام ليمر عليهم الدقائق وكأنها دهر . ورغم التوصية التي تقدم بها العقيد عمرو الريس – بصفته زوج شقيقة الدكتورة شهندة – لم تلتفت إدارة السجن لهذه التوصية ولا إلى النداءات والتوصيات التي تقدم بها عددًا من الشخصيات العامة في المجتمع المصري ؛ ففي سجن القاهرة تم وضع شادي ومصري وسعد المنشاوي في زنزانة لم يتجاوز مساحتها أربعة أمتار في عشرة أمتار مع عدد تجاوز ثلاثين متهم جنائي ما بين السرقة بالإكراه وسرقة عادية والاشتراك في اتفاق جنائي « تشكيل عصابي» ، بينما تم وضع الدكتورة شهندة في زنزانة بنفس المساحة مع ما يقرب من ثلاثين متهمة في قضايا ممارسة وتسهيل ممارسة دعارة .. وخلال الأربعة أيام الحبس الاحتياطي واجه هؤلاء المعارضين منذ غلق الزنازين عليهم من الساعة الخامسة مساءً حتى فتحها الساعة السابعة صباحاً أشد أنواع القهر النفسي والمعنوي ؛ فكيف لمن تعود أن يعيش إنسان أن يتعايش مع فئة من البشر نُزعت منهم قيم ومبادئ الإنسانية وارتدوا بأخلاقهم إلى عصر ما قبل التاريخ حيث يسود قانون الغابة بينهم ، وفرض السيطرة والحكم يكون إلى الأقوى ؛ فيتصرف أقوى النزلاء قوة بدنية وشراسة إجرامية داخل الزنزانة وكأنه الديكتاتور الذي لا ترد له كلمة . فمع غلق سجن النساء بالقناطر في اليوم التالي لواقعة الاعتقال واجهت شهندة أشد أنواع المعاناة النفسية والعصبية ؛ فبعد دخول شهندة

إلى الزنزانة وغلق السجن فوجئت بقيام سنية كودية[1] بجذبها نحو سريرها وهي تقول بصوتها الخشن وعيونها الشرسة : أنتِ اليوم ستنامي بجواري . لقد أعطيت سريرك إلى تهاني .. فترتعد شهندة من الخوف وترتسم على ملامح وجهها تعبيرات صدمة وذهول وهي تحاول الفرار من قبضة يدها قائلة بصوت مرتجف ذات نبرة واهنة : أنا أريد النوم على سريري .. فتلطمها كودية لطمة قوية وتمسكها من تلابيب ملابسها وتُقرب وجهها من وجه شهندة وهي تنظرها نظرة الكلاب المتوحشة عندما تنبح لتقول بصوت خشن حاد وجاف : هل تعتقدي أنكِ في بيت أمك؟ أنتِ هنا في سجن النساء وأنا إمبراطورة الزنزانة ولا يستطيع أحد معارضتي.. فتقول شهندة بصوت ازدادت به حدة الارتجاف وكل أعضاء جسدها تكاد تفقد الروح من شدة الصدمة : أنا ممكن أعطيكي مالاً في مقابل ذلك .. فتترك كودية ملابسها وتهدأ نظرة عيونها الشرسة النابحة وتقول بصوت استفهام : ما هي تهمتك ؟ .. فتقول شهندة بصوت إنكسار : أنا تهمتي مصرية بحب بلدي وأريد حياة كريمة لكل المصريين بدون قهر وظلم . تهمتي أني أطالب بحق الفقير في التعليم والصحة . تهمتي أني أطالب ألا يهان المصري في قسم شرطة ويعامل معاملة إنسانية حتى لو كان قد ارتكب جريمة يعاقب عليها القانون .. فتقول كودية بصوتها الخشن الذي هدأت نبرته بعد نظرة صامتة وآذان ساغية تأثرت خلالها بكلام شهندة : أنا لم أفهم معنى كلامك . لكنني أتحسس فيه الصدق .. ثم تمسك يدها وتقول بصوت طمأنة : أنا استجدعتك .. فتهدأ تعبيرات شهندة المرتجفة وتبدأ ملامحها في استعادة طبيعتها وهي تنظر إليها نظرة تأملية تعجبية وتقول بصوت ما زالت نبرته ترتجف من تأثير ما حدث : من الواضح أنكِ شخصية قوية وتتمتعي بشهامة ومروءة . أنا دكتورة في الجامعة وأقوم بتدريس مادة القانون الجنائي لطلبة كلية الحقوق . وكنا نعترض على التعديلات الدستورية التي سيتم استفتاء الشعب عليها يوم ٢٦ مارس القادم

---

(١) سيدة في منتصف العقد الرابع من العمر . ضخمة البنيان ذات ملامح غليظة وبشرة سمراء داكنة . لديها سجل جنائي حافل بالسوابق الجنائية " تسهيل دعارة وإحداث عاهة مستديمة " ، ومحبوسة احتياطياً على ذمة قضية تسهيل دعارة .

واعتقلت الشرطة عددًا منا .. فتزداد نظرة كودية سكونًا وتقول بصوت غلفه التبجيل والاحترام : أنتِ أستاذة قانون جنائي . يعني تسطتيعي الدفاع عني .. فتقول شهندة بصوت استفهام وعيون ترقب : أنا غير مقيدة في نقابة المحامين لكن ممكن أساعدك . ما هي تهمتك ؟ .. فتتبدل ملامح الغلظة المطبوعة على وجه كودية بملامح ساكنة أخفت ورائها شعور قهر وظلم لتقول بصوت هادئ : يا أستاذة . أنا قصتي مثل قصص كثير من الناس . إنسانة لا تعرف لها أهل والشارع ملجأها الوحيد ، ولم أجد مهنة أستطيع منها العيش سوى تجارة البغاء . الحكومة ضبطت البنات اللاتي يترددن على الكُشك الذي أمتلكه على ناصية شارع المقياس بالمنيل ، وحررت لهن محضر ممارسة دعارة وحررت لي محضر تسهيل ، والنيابة أمرت بحبسي أربعة أيام وتجدد الحبس مرة أخرى ١٥ يومًا .. فتقول شهندة بصوت نُزعت منه نبرة الرعب : بكل تأكيد هناك خطأ في محضر الضبط ومن السهل الدفع به أمام المحكمة .. فتقول كودية بصوت استفهام متعجب ونبرة منخفضة وهي تنظر حولها نظرة إستكشافية : ما الذي بينك وبين الحكومة ؟! الباشا المأمور والباشا رئيس المباحث قاما بالتوصية عليكِ توصية عكسية .. فتنظر إليها شهندة نظرة تملكها الحسرة وهي تقول بصوت يقين : من الواضح أن الداخلية تريد تأديب الأشخاص الذين تجرأوا وعبروا عن رفضهم لسياسة الظلم والاستعباد الذي يحاول النظام الحاكم فرضها على الشعب .. فتتحسس كودية نظرات المسجونات بنظرة استكشافية لتهمس بعدها قائلة : هناك بصاصين لإدارة السجن في العنبر . والحل الوحيد هو إيهام الجميع بما يريده المأمور ورئيس المباحث حتى لا يتم نقلك إلى زنزانة أخرى وتكليف أحد غيري بمضايقتك .. فتهمس شهندة بكلمة نعم وتعبيرات وجهها تخشى المفاجئة .. فتصرخ كودية في وجهها قائلة بصوتها الغليظ الخشن وقد عادت ملامحها الشريرة للنباح : سوف أجامعك رغماً عن أنفك وأنف الجميع ولكني سأترك حتى ينتهي حيضك .. فتنظر إليها شهندة نظرة ذهول وتعبيرات وجهها تكاد تنفجر من شدة الصدمة وتقول بصوت مخنوق : أنا لن أفعل ذلك مهما كان تهديدك.. فتمسك كودية يدها وتجذبها بقوة نحوها لتهمس لها قائلة :

صدقيني أنا لن أفعل معكِ شيء .. ثم تصرخ وهي تقول : لو لم تفعلي ذلك سأجعلك لا تصلحي أن تكوني أنثى . ثم تدفعها نحو السرير المقابل إلى سريرها بقوة وهي تقول : حيضك رحمك من يدي .. فتنهار شهندة وتبكي بشدة وتظل طوال الليل مستيقظة تخشى من حدوث أي شيء غير متوقع حتى تم فتح السجن في الساعة السابعة صباحاً . وفي فترة تريض المسجونات تقابلت كودية مع شهندة وتحدثت معها بأسلوب ودي هادئ ، بعدما تأكدت عدم وجود من يراقبهما ، وطمأنتها أنها لن تؤذيها وأبلغتها بضرورة طلب مقابلة المأمور وتقديم شكوى تنقل خلالها أن كودية تحاول الاعتداء عليك جنسياً حتى يفهم أن مكيدته نجحت . وبالفعل نجحت كودية وشهندة في إيهام المأمور أنها تتعرض لمحاولة هتك عرضها وطلبت منه المساعدة لتوهم إدارة السجن أنها استوعبت الخطأ الذي ارتكبته بالتظاهر أمام وزارة الداخلية والجهر بالمعارضة الصارخة للنظام الحاكم .

وعلى الجانب الآخر في سجن القاهرة بمنطقة سجون طرة ففي الزنازين المخصصة لاستقبال المحبوسين احتياطياً على ذمة قضايا السرقة بالإكراه تم تسكين شادي ومصري وسعد المنشاوي في زنزانة مساحتها لم تتجاوز ٤٠ متر مربع وبها عدد ٣٠ نزيل معظمهم محبوس احتياطياً على ذمة قضايا سرقة وبلطجة . وفي اليوم الأول من وصولهم إلى السجن تعرض الثلاثة لمواجهة صعبة مع رضا بوند[١] ؛ فمع غلق الزنزانة في اليوم التالي لإيداعهم بالسجن فوجئ سعد المنشاوي باعتراض رضا بوند له أثناء توجهه نحو فرشته[٢] وهو يقول له بصوت حدة : ستنام اليوم بجوار جرد البول .. فينظر إليه سعد نظرة تأملية صادمة وهو يقول بصوت مكسور

---

(١) أحد أشهر بلطجية شبرا . في أواخر العقد الرابع من العمر . يتمتع بمظهر حسن وملامح أوربية ويبدو عليه الدهاء . مسجل خطر فئة (أ) سرقة بالإكراه ، وله سجل به العديد من السوابق الجنائية كان آخرها قضائه عقوبة السجن ٧ سنوات بتهمة السرقة بالإكراه .

(٢) داخل السجون لا يوجد أسِرَّة مخصصة لنوم المحبوسين من الرجال ؛ حيث يفترشوا الأرض ، ويسمى مكان كل محبوس بالفرشة (أي الفراش) وغالباً ما تكون بطانية ، أو مرتبة اسفنجية في بعض الحالات التي تخص أما مسجون صاحب قوة ونفوذ أو مسجون صاحب قدرة مادية .

اهتزت نبرته من الخوف : لقد كان هذا المكان فراشي بالأمس .. فيمسكه رضا من رقبته وهو يقول بصوت امتلئ بالغضب المفرط وملامح وجهه في ظل نور الزنزانة الخافت بدت كملامح الذئاب الجائعة : أنا الذي أقرر أين تنام ؟ هل تجهل من أنا يا « ... » .. فيتقدم مصري نحوه يدفعه بعيداً عن والده وهو يقول : ابتعد عنه وإلا قطعت يدك .. فيتصارع الاثنان بالأيدي في صراع استمر لبضع دقائق كانت الغلبة فيه إلى مصري الذي أسخنه بالركلات واللكمات حتى طرحه أرضاً وسط دهشة المساجين الذين هللوا بفتوتهم الجديد في مشهد يشبه المشاهد التي جسدها محمود ياسين في فيلم الحرافيش ؛ حيث الغلبة هنا إلى القوة والطاعة واجبة لمن يملكها .. وفي اليوم التالي وأثناء تريض المساجين حدثت مشاجرة بين رضا بوند وضياء فاندام[1] كادت تنتهي بقتل رضا لولا تدخل مصري ؛ فبعد صراع دموي ما بين الاثنين لم تكن الغلبة لأحد خلاله قام فاندام بكسر عتبة باب دورة المياه وتقدم نحو بوند ليضربه بها لولا تعرض مصري له ليسيطر عليه ويطرحه أرضاً بعد مصارعة حرة كانت الغلبة فيها لمصري الذي استطاع تفادي ضربات العتبة والإجهاز عليه ومنعه من إيذاء رضا .. هذه المشاجرة اكسبت مصري شهرة وسيط واسع بين المساجين ، فقد تغلب على أقوى اثنين في السجن . كما اكسبه هذا الموقف احترام رضا بوند وإعجابه ، وتناسى ما كان يدبره له من مكائد بهدف الانتقام منه لتتوطد العلاقة بينهما خلال الثلاثة الأيام التي قضاها في سجن المحكوم .. انتهاك حقوق الإنسان وممارسات القمع التي تعرض لها البعض من حركة كفاية أثناء وبعد اعتقالهم كان لها صدى واسع في الكثير من محافل حقوق الإنسان والمنظمات الأقليمية والدولية المعنية بالدفاع عن حقوق الإنسان ؛ مما دفع بالنظام إلى التراجع عن مخططه ليصدر تعليماته بإفساد التهم الموجهة إليهم ، ويتم الإفراج عنهم عند

---

(١) أحد أشهر بلطجية منطقة الشرابية . في بداية العقد الرابع من العمر . تم إطلاق لقب فاندام عليه لقوة بنيانه وجرأته وشراسته في المشاجرات التي يخوضها لفرض سيطرته . محبوس على ذمة قضية فرض سيطرة وإتاوات وترويع المواطنين .

عرضهم على النيابة .. هذا الموقف الصعب لم يهدم أحلام وتطلعات مصري وزملاء دربه بل على العكس فقد زاد من حميتهم وحماسهم نحو مواجهة السلطة الحاكمة بكافة الوسائل وشتى الطرق الممكنة حتى تتراجع عن سياستها التسلطية الفاسدة .

وتمضي بضعة شهور من حياة أمل وسعيدة وهما يتحسسان طريق السعادة الذي بدأ يحلق في الأفق ؛ فبعد كفاح طويل ومعاناة نفسية ومادية استطاعت سعيدة تعليم ابنتها حتى حصلت على بكالوريوس الطب ، وستصبح معيدة بالكلية بعد نهاية فترة الامتياز فترتيبها الأول على دفعتها طوال سنوات الدراسة، وستتزوج بطبيب تتمناه كل الفتيات. ورغم حرصها على البعد عن كل الأشياء التي تباعد بينها وبين حلم السعادة التي تنتظره فقد أدت الظروف الإنسانية الصعبة التي عاشتها أمل خلال عملها في مستشفى شبرا العام إلى اختراق هذه الأحلام حتى استشعرت خلال هذه الشهور مدى المعاناة التي تعانيها الطبقة الفقيرة من المصريين البسطاء ، ومدى التدهور والانحطاط النفسي والأخلاقي الذي ترسب في ذهن ومشاعر الكثير من الممرضات والممرضين ؛ وبدأت في الاقتناع الكامل بالأفكار التي ينادي بها مصري وياسمين . ورغم اقتناعها بأن الوضع السياسي السيء ، الذي خلف وراءه أوضاع اجتماعية وثقافية كارثية أصابت الشخصية العامة المصرية بالتشوهات النفسية والثقافية ، فقد كان الحاجز النفسي المترسب في أعماقها تجاه ممارسة السياسة في أي صورة يمنعها من المشاركة الإيجابية ويجعلها تقف موقف سلبي تجاه المشاركة في الوقفات الاحتجاجية التي داوم المعارضون عليها خلال تلك الفترة ؛ فصورة والدها وهو يرتدي بدلة السجن الزرقاء والمأساة التي عانتها هي ووالدتها بسبب ممارسته للسياسة ومعارضته النظام كانت محفورة في وجدنها ولم تستطع التخلص من القيود والأغلال النفسية التي قيدت مشاعر رفضها وغضبها ونقمتها على تلك الأوضاع . العمل كطبيبة امتياز داخل مستشفى الساحل التعليمي ، وعملها في أقسام التخدير والباطنة الخاصة والجراحة الخاصة « شهر في كل قسم» وقسم الجراحة العامة التي قضت به شهر ، أكسبها خبرة عملية لا بأس

بها في التعامل مع المرضى خاصة وأنها كانت تبذل جهد كبير في مساعدتهم والتخفيف عنهم .. وفي عصر اليوم الرابع من أكتوبر عام ٢٠٠٧م ، والذي كان يوافق الخميس ٢٢ رمضان عام ١٤٢٨هـ ، توجهت أمل إلى المستشفى كعادتها قبل موعدها بوقت كاف في الأيام التي تكون مكلفة خلالها كطبيبة امتياز نوبتجي . وبعد استلام نوبتجيتها بقسم الاستقبال وقبل انطلاق مدفع الإفطار ببضع دقائق استقبلت المستشفى صبي عمره لم يتجاوز العاشرة يعاني من جرح قطعي غائر في رأسه وساقه الأيمن واشتباه كسر في نفس الساق ، حضر مع بعض المارة الذين تصادف مرورهم عندما صدمته سيارة تخطت الرصيف وألقت به على الواجهة الزجاجية لأحد المحلات بجوار كلية الهندسة بشبرا وانطلقت مسرعة ولم يتمكن أحد من اللحاق بها .. لم تنتظر أمل حضور طبيب الجراحة المقيم ، وقامت بتخيط الجروح وتضميدها واصطحبت الطفل على إلى قسم الأشعة وأجرت له أشعة X على قدمه اليمنى حيث تبين وجود شرخ بالساق ليتم وضعها في الجبس بعد حضور الطبيب المقيم بقسم العظام .. العمل الإنساني التي قامت به أمل كان يملئ قلبها بالسعادة والفرحة رغم المشقة التي واجهتها في الاستعانة بطاقم تمريض استقبال الجراحة العامة وفني قسم الأشعة في ميعاد الإفطار ... الطفل الذي يُدعى تامر (ذو بشرة سمراء وجسد نحيف ويرتدي ملابس مهلهلة ويبدو على ملامحه الحرمان والمذلة) ظل يبكي يتشبث بأن يتركوه يعود إلى بيته بعدما علم أن الشرطة ستأتي ؛ حيث أبلغت إدارة المستشفى قسم الساحل بالحادث . وأمام البكاء الحاد سألته أمل قائلة : أخبرني كيف أستطيع الاتصال بأهلك ؟ فبكل تأكيد هم قلقين عليك .. فيقول تامر بصوته الطفولي الذي تملك الخوف من نبرته ، وتملكت الرهبة من ملامحه البريئة : أرجوكي يا دكتورة أجعليني أغادر المستشفى . أنا لا أريد العودة إلى أهلي . الشرطة سترجعني إليهم .. فتنظر إليه أمل نظرة عطف وتقول بصوت غلفه الرحمة : لماذا لا تريد العودة إلى أهلك ؟ هل أنت يتيم الأبوين .. فيقول تامر بصوت لا مبالاة: لا. أبي وأمي لا زالا على قيد الحياة ونقيم في حارة العطار بشارع شبرا..

فتكرر أمل سؤالها بصوت غلفه الفضول : لماذا لا تريد العودة إلى بيتك ؟ .. فتدمع عيون تامر وهو يقول بصوت يقطر آسى ومرارة : لدى سبعة أشقاء . أنا أصغرهم سناً ، ونعيش جميعاً مع أبي وأمي في مسكن يتكون من حجرة واحدة وصالة . أخي الأكبر برجو يضربني بقسوة ويأخذ مني كل الأموال التي أتحصل عليها من عملي ليصرفها على المخدرات التي يتعاطها ، وعندما رفضت أن أعطيه المال كان يريد قتلي فهربت .. فتقول أمل بصوت حملت نبرته نغمة شفقة وهي تنظره نظرة تعاطف ممزوجة بألم : أنا لا استطيع أن أخرجك من هنا ، واعتقد أن الشرطة ستصل في أي وقت . واعتقد أن والديك قلقان عليك ويجب أن تطمئنهما .. فينظر إليها تامر نظرة استعطاف ويقول : هل يمكن أن أجلس هنا لبضعة أيام ؟ .. فتقول أمل بصوت طمأنة : اطمئن يا تامر الدكتور عادل طبيب منوب الجراحة والدكتور كريم طبيب منوب العظام كتبا لك حجز بالمستشفى لمدة ثلاثة أيام ، وسوف يتم نقلك إلى عنبر العظام بعدما تأخذ الشرطة أقوالك .. فيرتسم على ملامح تامر الطفولية البائسة تعبيرات اطمئنان ويقول بصوت تقدير : أشكرك يا دكتورة ربنا يحفظك ويعطيكي الخير .. وبمجرد ما أكمل تامر كلمته حضر إلى حجرة الاستقبال ضابط برتبة ملازم أول ومعه أمين شرطة بصحبة مسؤول الأمن بالمستشفى ؛ حيث جلسا الضابط وأمين الشرطة بجوار تامر ، وانصرف مسؤول الأمن بعدما أحضر لهما كوبين من الشاي .. وبعد اطمئنان الضابط على صحة المجني عليه وإطلاعه على التقارير الطبية من ياسمين بصفتها الطبيب المتابعة للحالة ، قام بعدما أمر الأمين بكتابة المحضر بسؤال تامر عما يتذكره من أحداث ويخبره أنهم تمكنوا من القبض على السيارة والشخص الذي ارتكب الحادث ؛ حيث تمكن بعض المارة من ملاحقته وضبطه .. وبعدما استشعر الضابط عدم وجود أحد من أهله قال بصوت تساؤل : هل علم أهلك بالحادث .. فيقول تامر بصوت خوف وهو ينظر إلى الضابط نظرة مليئة بالرهبة : لا يا سعادة الباشا.. فيقول الضابط : ما هو عنوانك ؟ فلابد من وجود ولي أمرك ؛ فأهل الجاني يريدوا التصالح ودفع أية مبالغ تعويض في مقابل

التنازل عن المحضر .. فيقول تامر بصوت مرتجف : أنا ساكن في ٥ درب عزوز المتفرع من شارع العطار بمنطقة الترعة البولاقية .. فيقول الضابط بعدما همس له أمين الشرطة في أذنه : الأمين عادل سيذهب ليحضر ولي أمرك . هل والدك موجود هناك ؟ .. فيقول تامر : نعم والدي موجود هناك.. فيقول الضابط وهو ينظر إلى تامر نظرة صامتة : ما هي مهنة والدك ؟ .. فيقول تامر بصوت بكاء مكتوم قد ازدادت حدة تعبيرات الخوف على ملامحه : أبي يعمل عامل نظافة بحي شبرا .. فيقول الأمين بصوت تحفيز وهو ينظر إلى تامر نظرة ود مصطنعة : مبروك يا تامر هذا الحادث سيفتح لك باب رزق واسع ؛ فوالد الجاني ، « راضي رشدان» أمين عام الحزب الوطني بشبرا وعضو مجلس الشعب سيمنحك مبلغًا كبيرًا بعد التنازل عن المحضر .. فتقاطعه أمل قائلة بصوت استنكار وقد ارتسمت على ملامحها تعبيرات غاضبة : هل تنتهي المسألة بدفع الجاني مبلغ من المال ؟ .. فينظر إليها الضابط نظرة تأملية استكشافية ويقول بصوت غلفه نبرة استفهام قوية : لماذا تتدخلي في شيء لا يخصك ؟ هل أنتِ ولي أمره ؟ من الواضح يا آنسة أن وجودك هنا ليس له داع وسوف يعوق الشرطة عن أداء وظيفتها .. فيحتد صوت أمل وهي تقول : يا حضرة الضابط أنا هنا مع المريض المجني عليه من أجل إسعافه . وهذا من صميم عملي .. فيقول الضابط بأسلوب تعالي : لو تكلمتي في شيء لا يخصك سأعتبر هذا بمثابة منع الشرطة من تأدية واجبها .. فتقول أمل بصوت أكثر حدة بعدما استشعرت نبرة تهديد في صوت الضابط : من الواضح أن حضرتك لا تفرق بين وجودك في قسم الشرطة عندما تتعامل مع الخارجين على القانون ، وبين وجودك في مستشفى مع طبيبة تقف بجوار حالة مرضية .. فيبتسم الضابط ابتسامة صفراء وهو يقول بصوت سخرية موجهاً كلامه إلى أمين الشرطة : اذهب واحضر معك والد تامر حتى ننتهي من هذا الموضوع ، وأنا سأجلس مع الدكتورة استفهم منها عن كيفية معاملة الناس الطيبين .. فيضحك أمين الشرطة ضحكة ساخرة وهو ينصرف إلى الخارج قائلاً : تمام يا حسن بِك .. بعدها ينظر الضابط إلى أمل نظرة

لامبالاة وهو يقول بصوت اصطنع الهدوء : يا دكتورة أنتِ لا زالت خبرتك في الحياة قليلة . هل لو لم يتنازل والد تامر عن المحضر سيعاقب ابن راضي رشدان ، الذي كان يقود السيارة بدون رخصة وبرعونة وكل ما يمكن اعتباره مخالف لقانون المرور بل ولقانون العقوبات ؟ .. فتقول أمل بصوت يقين وملامحها تكاد تنطق بكلمة الحق : نعم يجب محاسبة هذا المتهور على جرمه حتى لا يكرره ؛ فبكل تأكيد سيشعر هذا الفتى أنه فوق القانون ولن يكون هناك ما يردعه طالما أن والده عضو مجلس الشعب والعضو البارز في الحزب الحاكم يشعره أنه فوق القانون .. فيقول الضابط بصوت يقين: يا دكتورة الخاسر في جميع الاحوال هذا الصبي . وخسارته ستكون مادية ومعنوية لو لم يتنازل ولي أمره عن المحضر فطريق القضاء ليس سهل كما تتخيلي . وفي النهاية سيحكم ببراءة المتهم ، وهنا سيخسر تامر مبلغ التعويض .. فتهز أمل رأسها وقد تملك خيبة الأمل من ملامحها لتقول بصوت دعاء وتضرع إلى الله وهي تنظر إلى ملامح البؤس والشقاء والقهر المطبوعة على وجه تامر: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ (سورة إبراهيم . الآية ٤٢). الله موجود وهو أقوى من أي ظالم .. فيقول الضابط بصوت نُزعت منه نبرة التحفز والتعالي بعدما استشعر نبل مشاعر أمل وقلبها الطيب : يا دكتورة ربنا يُصلح حال الجميع . سأذهب وسأعود بعد ساعة حتي يأتي والد تامر لنرى ماذا سيفعل . أنا سعيد بلقائك يا دكتورة . أراكي على خير . وأرجو أن تأخذي الأمور بشيء من المرونة والعقل .. فترد أمل السلام والتحية وتذهب إلى حجرة طبيب استقبال الجراحة العامة لتباشر مهام نوبتجيتها .

وقبل وقت انصرافها عن العمل بدقائق كان خطيبها قد جاء إليها ليصطحبها إلى منزلها ؛ حيث سيتفقا مع سعيدة على ميعاد عقد القرآن والزفاف بعدما انتهى مصري من تجهيز شقته السكنية التي كان قد اشتراها من حصيلة المكافآت التي تحصل عليها خلال ممارسته للعبة التايكوندو .. وبعد دقائق من لقاء مصري بخطيبته وأثناء خروجهما من المستشفى تحسس ما بداخلها من حزن فكف حديثه

عن شئون العمل بالمستشفى ، وتوقف عن السير وهو يمسك يدها برفق وإحساس العاشق ليسألها بصوت فضول وقلق : هل حدث شيء يحزنك ؟ أرى في عينيك الحزن .. فتنظر إليه أمل نظرة تأملية وهي تقول بصوت أنوثتها البريء الذي امتلأت نبرته بنغمة العشق الرومانسي : أنت تقرأ ما بداخلي حتى لو لم أتحدث عنه . لقد رزقني الله بأرق وأحن رجل في الدنيا . لقد عوضتني عن حنان الأب والأخ .. فيقول مصري وعلى وجهه ابتسامة : شوقتيني لسماع ما بداخلك .. فتبتسم أمل وهي تشبك يدها في يد مصري وهما يسيران نحو باب المستشفى : لقد حدث اليوم شيء أغضبني وجعلني أقرر أن أكون مثلك في كل شيء . ثم تسرد له ملخص ما حدث مع تامر والضابط ، وتنقل له شعورها تجاه ما استنتجته من موقف الضابط والأمين ؛ فالشرطة ، التي من المفروض أن تحمي أرواح وأعراض وأموال المصريين بدون تمييز ، أصبحت تقف بجوار القوي في ظلمه للضعيف .. فيستوقفها مصري وهو ينظر إليها نظرة تأملية حانية لبضع ثوان ثم يقول بصيغة إيجاب : لقد كان رد فعلك معبر عما بداخلك من رفض لطغيان الرأسمالية في صورتها المتوحشة في ظل نظام لا ينظر إلى المعدمين البؤساء ؛ تامر مثال بسيط لضحايا الطواحين المتسلقة على أكتاف الحاكم ، الذين جمعوا بين عصا السلطة وجزرة الرأسمالية[1] ، وساسوا الخلق بسيف المعز واحتفظوا لأنفسهم بذهبه ولم يلقوا على الشعب إلا بترابه[2] . فتات

---

(١) العصا والجزرة هو تعبير مجازي عمّا يمكن تسميته بالثواب والعقاب ومصدر هذا التعبير هي أوروبا عندما كان أهلها يروضون البغال والحمير باستخدام العصا والجزرة ؛ بحيث يتم مسك الجزرة بيد ووضعها أمام الحمار والعصا بيدٍ أخرى ، فسيسير الحمار إن طاوع الجزرة وإن عصى فله العصا . وذكرت مصادر أخرى أن لهذا المصطلح أصل آخر وذلك بربط الجزرة على عصا وترك هذه الجزرة تتدلى أمام الحمار ليستمر الحمار في السير ظاناً أنه سيصل للجزرة .

(٢) يروي ابن خلكان المؤرخ الذي عاصر العصر الفاطمي (١٢١١م – ١٢٨٢م) إنه عندما جاء المعزُّ إلى الديار المصرية بعد أن فتحها جوهر الصقلي باسمه وجد من كان يطعن في نَسَبِه ، فلما قرب من البلد وخرج الناس للقائه ، اجتمع به جماعة من الأشراف فقال له من بينهم ابن طباطبا : إلى من ينتسب مولانا ؟ فقال له المعزُّ : سنعقد مجلساً ونجمعكم ونسرد عليكم نسَبنا . فلما استقر المعزُّ بالقصر جمع الناس في مجلس عام وجلس لهم وقال : هل بقي من رؤسائكم أحد ؟ فقالوا : لم يبق مُعْتَبر . فسلَّ عند ذلك نصفَ سيفه وقال : هذا نَسَبي ، ونثرَ عليهم ذهباً كثيراً وقال : هذا حَسَبي ، فقالوا جميعاً : سَمِعنا وأطَعنا " .

المال الذي سيلقيه راضي رشدان سيلهث ورائها والد المجني عليه وأهله ، وسيفه سيكمم أفواههم .. فتبتسم أمل ابتسامتها البرئية المعتادة وهي تقول بصوت يقين ونظرة امتلأت بالسكينة رغم شعور الغضب الذي تملك منها : حبيبي . أنا كل يوم أتأكد أنك أشرف وأطهر وأفضل رجل في الدنيا .. فيشد مصري على يدها وهو يفتح لها باب السيارة قائلاً بصوت عاشق : الحمد لله يا حبيبتي أن الله آلَّفَ بين قلبينا وجعلنا عاشقين . استقلي السيارة التي عندما تستقليها معي أحس أنها تحولت من فيات ١٢٨ موديل ١٩٩٨ إلى مرسيدس شبح موديل ٢٠٠٨م .. فتضحك أمل ضحكة من قلبها وهي تقول : إن شاء الله نمتلك في المستقبل مرسيدس شبح .. بعدها يستقل مصري السيارة وينطلق بها ليصل إلى بيت أمل في أقل من عشر دقائق اتفق العاشقان خلالها على يوم السبت ١٣ أكتوبر على عقد القرآن بعد موافقة سعيدة . وبالفعل بعد وصولهما إلى المنزل اتفق مصري مع سعيدة على عقد القرآن هذا اليوم في جامع السيدة نفيسة بعد صلاة العصر في حضور الأهل والأقارب والأصحاب . كما حددوا يوم الخميس ٢٠ ديسمبر ٢٠٠٧م ثاني أيام عيد الأضحى ليكون يوم الزفاف .

وفي صباح اليوم التالي توجهت أمل بصحبة مصري إلى المستشفى حيث كان الاثنان ضمن الأطباء المكلفين بالعمل في صباح يوم الجمعة . وبمجرد وصولهما إلى المستشفى اصطحبت أمل خطيبها ليلقي نظرة على تامر ويتابع حالته المرضية . ومع دخولهما إلى عنبر العظام وسؤالهما عن تامر أبلغتهما المشرفة على التمريض أن الدكتور محمد جابر قرر نقله إلى العناية المركزة بعدما اشتبه أنه يعاني من نزيف داخلي ليذهبا سوياً إلى غرفة العناية المركزة ، ويتقابلا مع الطبيب النوبتجي الذي أخبرهما بأن «تامر من الأرجح يعاني من نزيف داخلي في المخ وقد تم تجهيزه لعمل إشاعة مقطعية للتأكد من ذلك ؛ فكل الفحوصات الخارجية والأعراض الظاهرة عليه تشير إلى إصابته بنزيف في المخ " .. الفضول الذي سيطر على مشاعر أمل جعلها تتصل بـ حسنية رئيسة التمريض التي كانت مشرفة على عنبر العظام بالأمس لتسألها

عما حدث مع أهل تامر ، حيث علمت أنها كانت موجودة مع أهل المصاب .. الحديث الذي تم مع حسنية أصاب أمل بالحزن والغضب ؛ فقد علمت منها أن والد تامر جاء بالأمس مع الشرطة وتقابل مع والد المجني عليه ، وتم أخذ أقوال تامر في محضر الشرطة وأقر أن الشخص المتهم ليس الشخص الذي أصابه وأن السيارة التي صدمته لونها وماركتها مختلفة عن لون وماركة السيارة المضبوطة ، والشيء الذي أثار التعجب أن وكيل النيابة جاء بعد ما يقرب من ساعة من انصراف الضابط وأخذ أقوال تامر مرة ثانية ، ولم يمض دقائق بعد إنصراف وكيل النيابة شعر تامر بغثيان واستمر في التقيء فتم نقله إلى غرفة العناية المركزة .. وحتى نهاية عملها اليومي ظلت أمل تتابع حالة تامر الصحية ، وقد أصابها الحزن الشديد عندما علمت أنه يعاني من نزيف داخلي في تجويف الجمجمة ويتطلب عملية جراحية عاجلة لإزالة تجمع دموي حول المخ حتى لا يصاب بالشلل .. وفي اليوم التالي أصرت على التقابل مع والده لتشرح له خطورة الحالة الصحية لابنه ، وتطلب منه الذهاب معها إلى راضي راشد حتى يتكفل بكافة مصاريف العملية الجراحية وعلاج تامر في أحد المستشفيات الخاصة المجهزة بالإمكانيات العالية التي ستقلل من مخاطر المضاعفات المحتملة . وبالفعل وأثناء ميعاد الزيارة وبينما كان طه شحاتة[1] وصابحة[2] يجلسان حول تامر يتحسساه بعيونهما المكلومة ويدعوان له بالشفاء جاءت أمل وهي ترتدي زي الأطباء تقول بصوت ترحاب وأسلوب ودود وعلى وجهها تعبيرات عطوفة بعدما ألقت التحية على تامر : أهلاً يا عم طه . إن شاء

---

(١) يبدو من ملامحه أنه رجل كهل تجاوز السبعين عامًا مع أن عمره لم يتجاوز الخامسة والأربعين . ذو ملامح سمراء توحي بالبؤس والشقاء؛ حيث حُفرت على جبينه تجاعيد المذلة واستقرت في عينيه نظرة الحرمان . يرتدي ملابس رثة ممزقة . كلمات الشكر والحمد لا يتوقف لسانه عن النطق بها رغم مصيبته في ولده .

(٢) والدة تامر، لا يختلف حالها عن حال زوجها فرغم أن عمرها تجاوز الأربعين ببضع سنوات إلا أنها تبدو عجوز تتجاوز منتصف العقد السابع . أكل البؤس والشقاء ملامحها . ترتدي ملابس سوداء رثة ممزقة وتنظر إلى ولدها نظرة مكلومة عاجزة ودموع العجز وقلة الحيلة تخطان وجنتيها .

الله ربنا يشفي تامر . أرجوكما تأتيان معي خارج الغرفة فأنا أريد التحدث معكما . أنا الدكتورة أمل طبيبة امتياز بالمستشفى واستقبلت تامر وقت دخوله للمستشفى وأجريت لها لإسعافات الأولية.. فيقول الاثنان في نفس الوقت: مرحبا يا دكتورة.. وبعد تكرر أمل لطلبها توجهوا إلى خارج الغرفة . وبعد لحظات من الصمت تقول أمل موجهة كلامها إلى صابحة : أنتِ والدة تامر .. فتقول صابحة بصورة تلقائية وأسلوب مستضعف اعتادت عليه : خدمتك صابحة يا دكتورة . ربنا يحفظك . طمئنينا على تامر . لقد تدهورت حالته ، ولم يعد يستطيع الحركة، وكلامه قليل وغير مفهوم .. فتقول أمل بصوت طمأنة وهي تنظر إليهما نظرة تأملية مشفقة : تامر إن شاء الله سيطيب ويتعافى في القريب العاجل لو تم علاجه في مستشفى بها إمكانيات أكبر .. فيقول طه بصوت تعجب حزين : بالأمس طمأنا الطبيب الذي كان متواجد وقال أن تامر حالته طيبة ، ولا يوجد به سوى كسر في القدم وبعض الجروح في الرأس والقدم وسيخرج بعد ثلاثة أيام .. فتدمع عين صابحة وهي تسأل أمل بصوت أم مكلومة : ما الذي حدث يا دكتورة . ما الذي أصاب ولدي ؟ .. فتقول أمل بصوت هادئ وملامح وجهها ارتسمت عليها تعبيرات تفاؤل حزين : يا عم طه بالأمس كانت حالة تامر مطمئنة ولم يكن هناك أي أعراض تفيد إصابته بنزيف داخلي في المخ . هذه الأعراض ظهرت في الساعات الأولى من الصباح حيث تم نقل تامر إلى هنا ليكون تحت الملاحظة . المهم في الأمر أن تامر يحتاج إلى جراحة عاجلة ومن الأفضل أن تتم في مستشفى بها تجهيزات أفضل . وأنا أعلم أن راضي راشد تعهد بكافة مصاريف علاجه .. فتدمع عين طه وتتضخم التجاعيد التي تغطي ملامح وجهه وهو يقول بصوت حسرة : لقد أعطاني الباشا ثلاثة آلاف جنيه بعدما طمأنني الضابط على صحة ولدي وقال لي أن حالته طيبة وطلب مني أقنع تامر بأن يقول أن الباشا ابنه ليس الشخص الذي صدمه بالسيارة ، وأن السيارة التي صدمته لونها أبيض . وبالفعل تامر قال الكلام ده أمام الباشا التاني ، وفي المرتين قاما بتبصيمي أنا وتامر على أوراق كثيرة لم أكن أعلم ما بها وقد طمأنني الباشا الضابط..

فتقول صابحة بصوت توسل وهي تحاول تقبيل يد أمل : أرجوكي يا ست الدكتورة ساعدينا فنحن مساكين ليس لنا وسطة ولا محسوبية . ولدي تامر أطيب وأحن أبنائي .. ثم تنهمر في بكاء شديد . وتحاول أمل تهدئتها والتخفيف من صدمتها . وبعد بضع دقائق ، ظل خلالها كل من طه وصابحة يتوسلان في طلب المساعدة قالت أمل بصوت عطوف وعيون رحيمة : إن شاء الله سأذهب معكما إلى راضي رشدان فابنه المسؤول عنما حدث إلى تامر، ولابد من تحمله لكافة مصاريف علاجه. سأنتظركما بعد الزيارة أمام المستشفى . أنا أعرف مكان بيته في أغاخان .. تقبيل يد أمل كانت الوسيلة الوحيدة التي عبرت بها صابحة عن شكرها لما تريد صنعه مع ولدها. لكن أمل كانت تمسكها وتجذبها لها وتمنعها من ذلك وسط دموع طه ودعائهما لها بصوت تضرع جعلت دموع أمل تلتقي مع دموعها في مشهد درامي باكي .

وبعد دقائق من مغادرة أمل المستشفى ألتقت بـ طه وصابحة ليتوجه الثلاثة إلى منزل راضي رشدان بمنطقة أغاخان . وخلال الطريق من مستشفى الساحل إلى فيلا راشدان ، الواقعة على كورنيش النيل بأجمل وأرقى منطقة بشبرا ، كان قلب أمل البريء يمتلئ بمشاعر الغضب والحزن وعقلها الذي لا يعرف أساليب الخداع والمراوغة يصمم على مساندة عم طه في الحصول على التعويض المناسب الذي يضمن علاج ولده على أكمل وجه .. ومع وصولهم إلى بوابة الڤيلا ، والتي تجاور مبنى مجموعة شركات رشدان التي تشبه ناطحات السحاب ، تقدمت أمل نحو الحرس وطلبت منهم إبلاغ السيد النائب «نائب مجلس الشعب» بطلبها للمقابلة بعدما عرفته بشخصيتها من واقع بطاقة الرقم القومي الخاصة بها ، وبشخصية طه وصابحة بصفتهما والدي تامر . وبعدما اتصل رئيسهم بالإنتركم وأبلغ بطلب المقابلة اصطحبهم إلى الصومعة (حجرة كبيرة ملاصقة لمباني الڤيلا يُطلق عليها كلمة صومعة حيث اعتاد صاحبها على الإقامة بها ليختلي بنفسه). ومع دخولهم إلى

هناك كان راضي راشد[1] يجلس على كرسي هزاز وهو ينظر إليهم نظرة تأملية صامتة حتى توجه نحوه عم طه وقبل يده وهو يقول بصوت توسل ورجاء : أرجوك يا سعادة الباشا ابني محتاج يتعالج في مستشفى أخرى .. فينزع راضي يده وهو يقول بصوت استفهام وينظره بنظرة مقززة : لقد أخذت ثلاثة آلاف جنيه . وعلاج ابنك في المستشفى بدون مصاريف . ماذا تريد ؟ .. فتقول أمل بصوت تعلقت بنبرته شيء من الرهبة : يا سعادة النائب . تامر أصيب بنزيف داخلي في المخ أثر الحادث ، وقد ظهرت أعراض النزيف بعدما أخذت النيابة أقواله . وهو يحتاج إلى عملية جراحية ورعاية طبية خاصة طوال فترة علاجه لن تكون متوفرة في مستشفى الساحل .. فيقول راضي بصوت هادئ وهو ينظر إليها نظرة تأملية : هل أنتِ الطبيبة التي تتابع حالة تامر؟ .. فتقول أمل وهي تحاول تجنب النظر في عينيه اللتين كانت تمتلئ بالجرأة: لا . أنا طبيبة امتياز بالمستشفى، وكنت نبوتجية استقبال الطوارئ يوم حضور تامر ، وأتطوع بمباشرة حالته .. فيقول راضي بصوت تساؤل ونظرة إعجاب: وبماذا تقترحي يا دكتوره ؟ .. فتقول أمل وهي ما زالت متحفظة في نظرها نحوه : اعتقد أن مستشفى معهد ناصر مركز جراحة المخ والأعصاب هو أنسب مكان لحالة تامر ، وتكلفته ليست كبيرة ويتردد عليه أمهر جراحي المخ في مصر .. فيقول راضي وإيحاءات ملامحه ما زالت تعبر عن إعجابه بإنوثة وجمال أمل : أنا موافق على كل ما تقترحيه ، وسأرسل غداً سيارة إسعاف لتنقل تامر من مستشفى الساحل إلى معهد ناصر .. ثم ينظر إلى عم طه ويقول بصوت تعاطف بعدما وضع يده على كتفه ليواسيه : اطمئن يا عم طه كل تكاليف تامر سأتكفل بها حتى لو تتطلب الأمر سفره للعلاج بالخارج .. فتنحني صابحة على يد راضي وتقبلها وهي تصرخ

---

(١) تبدو على ملامحه الرجولة والإنسانية ويتمتع بمظهر براق وحضور قوي . في منتصف العقد الخامس من العمر ويبدو مثل شاب في الثلاثين . يُعتبر من رجال الصف الثاني في الحزب الوطني الحاكم ، ويرتبط بعلاقة عمل وصداقة مع أحمد عز وجمال مبارك . درس الاقتصاد والعلوم السياسية وتخرج من الجامعة الأمريكية بالقاهرة عام ١٩٨٤م . يمتلك مجموعة شركات راشدان التي تتنوع تجارتها ما بين صناعة وتصدير الأدوات الصحية والسراميك ، وتجميع السيارات وعدد من القنوات الفضائية المتنوعة .

بالدعاء له لينزع راضي يده ويمسك بها حتى ترفع رأسها ويقول بصوت مواساة: أرجوكي يا سيدتي . أنا لم أفعل شيء ، وهذا أقل من الواجب فالمتسبب في الحادث هو ابني .. فيمسح طه دموعه العالقة بعينيه وهو يقول بصوت مبحوح : جزاك الله كل خير يا سعادة الباشا ربنا يحفظك ويزيدك من نعمه .. فتبتسم أمل ابتسامة فرحة ويرتسم على ملامحها الجميلة تعبيرات سعادة زادت من إشراقة وجهها وهي تقول بصوت تقدير واحترام : جزاك الله كل خير يا سعادة النائب ، واسمح لنا بالانصراف فقد أثقلنا على سيادتكم .. فيقول راضي بصوت ود وترحاب ونظرة إعجابه بجمال وإنوثة أمل مرسومة على عينيه : لقد شرفتموني بهذه الزيارة . وأتمنى رؤيتك مرة أخرى يا دكتورة .. فتقول أمل بصوت شكر وهي تحاول تجنب التقاء نظرته مع نظرتها : الشرف لنا يا سعادة النائب.. ويحاول كل من صابحة وطه تقبيل يد راضي وهما يدعوان له بالصحة والعافية وزيادة الجاه والمال .. وقبل انصرافهم من الصومعة يدق راضي الجرس ليأتي الشخص المكلف بخدمته فيأمره بتجهيز سيارة لتوصيل الضيوف إلى المكان الذي يريدوه . وفي خلال نصف ساعة كانت أمل قد وصلت إلى منزلها حيث اتصلت بخطيبها وقصت عليه كل ما حدث خلال لقائها بـ راضي الراشد ، ورغم تحفظه على شخصية راضي كونه من البرجوازيين الانتهازيين الذين يساهموا بشكل أساسي في إفساد الحياة السياسية والاقتصادية فقد رحب باستجابته لتحمل مصاريف العلاج . وعلى أمل اللقاء في صباح اليوم التالي تنتهي المكالمة بين العاشقين لتتوجه أمل إلى سعيدة وتجلس معها تقص عليها تفاصيل ما حدث مع راضي رشدان والذي كان مسار تقدير سعيدة حتى يتناولا سوياً طعام السحور ، ويصليا الفجر ثم يخلدا إلى النوم .

ومع اقتراب عقارب الساعة من العاشرة صباح اليوم التالي كانت أمل قد وصلت إلى المستشفى بصحبة مصري ليكونا ضمن النوبتجية الصباحية ليوم السادس من أكتوبر العطلة الرسمية لذكرى انتصار الجيش المصري عام ١٩٧٣م ؛ حيث أراد الاثنان الاستعاضة عن أيام العطلات في الأسبوع القادم الذي سيتم فيه

عقد قرانهما . وعندما توجهت أمل لمتابعة حالة تامر في العناية المركزة علمت أنه فارق الحياة في فجر هذا اليوم ، وهم في انتظار أهله ليستلموا الجثة .. وفاة تامر متأثراً بالحادث الذي ارتكبه ابن رجل الأعمال والسياسة الشهير جعل الحادث مسار حديث جميع العاملين في المستشفى ، الذين رغم الغلظة التي خيمت على قلوب الكثير منهم ، فقد دمعت عيونهم أمام المشهد الدرامي الحزين الذي شاهدوه عندما حضر طه الشحات وصابحة وأشقاء وشقيقات تامر ليستلموا جثته .. وفي ظهر يوم الثلاثاء ٩ أكتوبر ، وبينما كانت أمل تجهز نفسها لتغادر المستشفى في أجازة لمدة أسبوع حضر إليها شخص من طرف راضي راشد وأعطها تليفونه المحمول بعدما أبلغها بأن سيادة النائب يريد التحدث معها . وخلال مكالمة لم تتجاوز الدقيقة طلب منها أن تبلغ طه شحاته والد تامر بأنه جهز مبلغ مائة وخمسون ألف جنيه دية القتل الخطأ ، وطلب منها الحضور معه قبل صلاة العشاء بقلته ليستلم مبلغ الدية ، وأبلغها أنه سيرسل لها سيارة في الميعاد المتفق عليه .. ورغم شعور أمل الغاضب والرافض لسياسة شراء الدم بالمال فقد قررت الذهاب إلى منزل طه شحاته لتلبغه بهذه الرسالة بعدما تشاورت مع مصري في هذا الأمر .. الزيارة السريعة التي قامت بها أمل إلى منزل طه الشحات كانت صادمة لها ؛ فمع سماع أشقاء تامر بأن هناك مبلغ مائة وخمسون ألف جنيه دية تبدلت تعبيرات اللامبالاة التي كانت مرسومة على وجههم بملامح فرحة وسرور ، وبدأوا في حساب نصيب كل فرد منهم – ظناً منهم أنهم لهم حق في ميراث أخيهم – بدون حياء ولا اعتبار لمشاعر أخوة أو لخاطر أبوين مكلومين ، وكاد الأمر يصل بينهم إلى الصراع بالإيدي عندما تناقشوا فيما بينهم عن الشخص الذي سيذهب لاستلام المال حتى اتفقوا على الذهاب جميعاً مع أبيهم والدكتورة أمل لينتظروا خارج القيلا ويعودوا بالمال ليقتسموه .. ومع عودة أمل إلى منزلها ظلت تفكر وتحلل مشاهد الفرحة التي انطبعت على ملامح أشقاء تامر لمجرد سماعهم بمبلغ الدية ، ومشاهد مناقشتهم الصاخبة التي تطورت إلى التراشق بأبشع الألفاظ وكادت تصل إلى اقتتال البعض منهم عند تسابقهم على من يذهب لاستلام المال . ومع عدم قدرة أمل على

استيعاب هذه المشاهد اللاإنسانية توجهت بعيون طفولية بريئة وملامح انسانية مصدومة لأمها تشكو لها ما أصابها من ألم نفسي ، وبصوت آسى نقلت إلى سعيدة تفاصيل مشاهد ما حدث .. وخلال حديث أمل ظلت سعيدة تستنط بتأثر شديد حتى ما انتهت ابنتها من حديثها قالت بصوت حكمة ، وقد ارتسمت على ملامحها تعبيرات حزن مكبوت بعدما تذكرت ما حدث لها ولشقيقتها من ظلم وافتراء نتيجة الفقر : يا ابنتي . الفقر مذلة والجوع علة يأكل إنسانية صاحبه . لا تلوميهم على ما فعلوه ، والله يصبر الأب والأم في مصيبتهم .. فيستوقف انتباه أمل الحكمة التي قالتها سعيدة لتظل تتأمل في معناه لبضع ثوان حتى قالت بصوت استفهام : لقد عانيتي أنتِ وخالتي رحمها الله من مذلة الفقر وعلة الجوع ، ولم أعهدك إلا إنسانة متمسكة بالقيم والمبادئ الإنسانية .. فتقول سعيدة بصوت حملت نبرته الألم وهي تنظر إلى أمل نظرة رسمت على ملامحها خيوط حزينة : أنا وخالتك رغم قسوة ما عانيناه من ظروف لكننا لم نعاني من الجوع ووجدنا من يقف معنا. فكيف يستطيع رجل يعمل عامل نظافة من سد رمق كل هذه الأفواه ؟ كان الله في عونهم واللهم احفظ أولادنا وأحفادنا من علة الجوع ومذلة الفقر وشيطان الحرمان والحاجة .. فتمسك أمل بيد سعيدة وتقبلها ثم تحتضنها وتقول : الحمد لله أن رزقني الله بأم مثلك فكل ما تعلمته في المدرسة والجامعة يقف مبهورًا أمام حكمتك وذكائك الذي أنعم بهما عليكي الله سبحانه وتعالى .. فتمسح سعيدة الدمعة التي علقت بعينها وهي تقول بصوت تضرع وخشوع : الحمد لله على نعمته . وربنا يحفظك ويحميك يا ابنتي .. ثم تقول بصوت تساؤل : ما رأي مصري فيما حدث؟.. فتقول أمل بصوت به شيء من الحزن : مصري مدعو لاجتماع في نقابة الصحفيين مع أعضاء حركة كفاية بعد الإفطار وتليفونه المحمول مغلق . فكعادته ينسى شحن البطارية .. ثم تتنهد نفسًا عميقًا وهي تقول بصوت ضيق : على كل حال سأذهب إليه بعد صلاة العشاء في نقابة الصحفيين في الميعاد الذي اتفقنا عليه .. فتقول سعيدة بصوت غلفة السكينة والراحة النفسية : الحمد لله أن رزقنا بمصري فهو نعم الزوج لكِ. هيا نجهز طعام الإفطار فلم يتبق سوى دقائق معدودة على آذان المغرب.

وعقب صلاة المغرب توجهت أمل حسب الميعاد المتفق عليه لتصطحب طه في السيارة التي أرسلها راضي رشدان وقد تبعهم أشقاء تامر السبعة في سيارة ميكروباص.. ومع وصول السيارة إلى الڤيلا كان راضي رشدان في استقبالهما في الصومعة ، ومعه المبلغ الذي وعد به . وبملامح حزينة ناعمة وعيون كادت أن تذرف الدموع بدأ راضي كلامه قائلاً بصوت اصطنعت نبرته الأسى والألم بعدما أجلس ضيفيه بجواره : أنا أعلم أن أموال الدنيا لا تكفي لتعويض ابننا الذي فقدناه. أنا أعلم أن ولدي بدون قصد متعمد هو الذي تسبب في الحادث الذي راح ضحيته الشهيد تامر . الحادث كان نتيجة عطل مفاجئ في فرامل السيارة ولم يكن في الإمكان تفاديه . وهذه مشيئة الله سبحانه وتعالى لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه، ولا غالب لأمره .. ثم ينهض من مقعده ويتقدم نحو طه - الذي وقف بمجرد نهوض راضي - يحتضنه ويقبل رأسه ويمسح دمعته ثم يمسك بحقيبة موضوعة أمامه ويفتحها وهو يقدمها إليه قائلاً : هذا مبلغ مائة وخمسون ألف جنيه دية الشهيد تامر . اقبلها مني . قال الله ﷻ في سورة البقرة الآية «١٧٨ »: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى ۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ ﴾ فسبحانه عز وجل جعل المؤمنين يقبلوا دية القتل العمد ، ومن الأَوْلَى أن نقبلها في القتل الخطأ .. فيمسك طه بيد راضي ويقبلها ثم ينهمر في بكاء شديد لبضع ثوان وهو يقول بصوت مكلوم اختنقت نبرته من شدة البكاء : لو الأمر بيدي ما قبلت هذا المال . لكني لن أسلم من طمع أولادي لو رفضته . أنا مسامح في حق ولدي بدون ديه لكني سأقبل المال مضطر .. فيمسك راضي بيد طه ويحتضنه وهو يقول : هذا المال ملك الورثة الشرعيين للشهيد ولك فيه الثلثان وأم الشهيد الثلث ، وليس لأشقاء المرحوم حق في هذا المال .. ثم ينظر إلى أمل نظرة إعجاب مفضوحة وهو يقول بصوت عبر عن نظرته: لا تؤاخذيني يا دكتورة لم أرحب بكِ. أتمنى أن تكوني بخير. وأشكرك على مساعدتك لي .. ثم ينظر إلى طه ويقول له : أجلس يا عم طه .. فتقول

أمل بصوت مرتبك بعدما غيرت اتجاه نظرها من على وجه راضي الذي كان حديثه قد جذب انتباهها وجعلها تنصت إليه بإعجاب : أشكرك يا سيادة النائب . جزاك الله كل خير .. ثم تلتفت بنظرها إلى طه وهي تقول : ربنا يرحم تامر يا عم طه ويحسن مثواه. لقد مات في أيام مباركة.. فيجفف طه دموعه بيده وهو يقول بصوت غُلت نبرته بالحزن والأسى وهو ينظر إلى المال نظرة خيفة وتوجس : الله يرحم الجميع. ويعطي كل إنسان بقدر مقصده وغايته، ويسامحنا جميعاً على أفعالنا السيئة.. فتنظر أمل في ساعة يدها ثم تنهض من مقعدها وتقول موجهة كلامها إلى راضي وهي تتجنب النظر في عينيه : أشكرك يا سيادة النائب على استضافتك لنا واستأذنك بالانصراف .. فيقول راضي وهو يتحسس بنظره تعبيرات وملامح أمل الخجولة التي زادت من جمالها وأنوثتها: الشكر لكِ يا دكتورة ؛ فأنتِ التي وقفتي بجانب هذا الرجل الطيب في محنته وساهمتي بشخصيتك الطيبة في فعل الخير للجميع . لو تسمحي لي اصطحبك إلى المكان التي تريديه ، فمن الواضح أن لديكِ ميعاد مهم .. فتعود البسمة الحالمة على جبين أمل وهي تقول : بالفعل يا سيادة النائب فخطيبي ينتظرني في نقابة الصحفيين بعد صلاة العشاء . شكراً جزيلاً . لا داعي لأن أثقل على سيادتكم . سأستقل تاكسي .. فيبتسم راضي ابتسامة مقتضبة ثم يقول بصوت غلفه الإصرار : بالعكس يا دكتوراة هذا أقل ما يمكن أن أقدمه لكم . ثم يتوجه نحو المكتب الذي أمامه ويضغط على زر الإنتركم فيحضر الخادم فيكلفه بتجهيز سيارته الخاصة بسرعة بجوار الصومعة .. بعدها يتوجه بالسؤال بصوت فضول وعيون ترقب: هل يعمل خطيبك في الصحافة ؟.. فتقول أمل: لا. خطيبي طبيب ويعمل نائب جراحة بمستشفى الساحل التعليمي. شقيقة خطيبي، التي هي صديقتي الحميمة في نفس الوقت، تعمل في صحيفة «الغد المشرق».. فيبتسم راضي ابتسامة مقتضبة وهو يهم بالخروج بعدما أبلغه الخادم بأن السيارة جاهزة قائلاً بصوته الوقور : تفضلوا .. وخلال ما يقرب من عشرين دقيقة، وحتى هبوط طه شحاتة من السيارة على ناصية حارة العطار بشارع الترعة البولاقية، ظل

الصمت يخيم داخل السيارة ، التي صمم راضي رشدان على قيادتها بنفسه، كانت خلالها نظرات راضي تجاه أمل تزداد حدة تعبيرتها إعجابًا .. وبعد ثوان من نزول طه قال راضي وهو ينظر في مرأة السيارة نحو أمل بصوت رجاء وتمني وعلى وجهه ابتسامة ناعمة: هل تسمحي بالجلوس بجواري حتى لا يعتقد الناس أنني سائق السيارة.. فتقول أمل بصوت متوتر وملامح مرتبكة : أنا أسفة لأزعاج سيادتكم وأرجو أن تجعلني أنزل هنا .. فيقول راضي بصوت إصرار : لو كان وجودك بجواري سيغضبك أرجوكي ابقي في مكانك حتى نصل إلى نادي نقابة الصحفيين.. فتقول أمل بصوت خجل وملامح مُحْرِجة : أنا أسفة يا سعادة النائب .. فيقول راضي بصوت ناعم اصطنع القبول : لا داعي للأسف .. ثم يقول بصوت تساؤل: متي سيتم زواجك ؟ .. فتقول أمل بصوت فرحة وعيون حالمة : يوم الأحد القادم سنعقد القران والزفاف يوم ٢٠ ديسمبر .. فيقول راضي بصوت مجاملة : ألف مبروك .. وبعد دقائق من الصمت وصلت السيارة إلى شارع عبد الخالق ثروت لتنزل أمل بعدما ألقت التحية وقدمت الشكر إلى راضي رشدان على توصيلها لتتلقى التحية والشكر على ما قدمته من مساعدة إلى طه شحاتة ، كما يتمنى عليها راضي راشدان أن يكون أحد المدعوين في حفل الزفاف .

ومع وصول أمل إلى نقابة الصحفيين كان مصري في انتظارها على بوابة النقابة بلهفة، وما أن شهدها قادمة توجه نحوها وهو يقول بصوت اعتذار وعيون عاشقة وهو يمسك بيدها : قبل أي عتاب . أنا آسف لم استطع الاتصال بِك . بطارية تليفوني المحمول فقدت شحنتها .. فتقول أمل بصوت عاتب وعيون حزينة : لو كنت افتقدتك كما تدعي كان يمكنك الاتصال من أي تليفون .. فيبتسم مصري ابتسامة رسمت على ملامحه تعبير اعتذار وهو يقول بصوت آسف : لقد ظلت الوقفة الاحتجاجية مستمرة أمام بوابة النقابة حتى قبل أذان المغرب بربع ساعة . بعدها بحثت عن صديقتك المجنونة حتى اتصل بِك من تليفونها المحمول لكني لم أجدها .. فتقول أمل وقد اذدادت نبرة صوتها عتابًا : لماذا لم تتصل بعد المغرب ..

فيشد مصري على يدها بحنان العاشق ويقول: أنا أسف يا حبيبتي نمرة تليفونك المحمول الجديدة لم أحفظها .. فتقول أمل بصوت هامس وهي تنظر إليه نظرة رسمت على ملامحها الرضا والتسامح : افتقدتك . اتمنى أن تحفظ نمرة التليفون الجديدة ... فيقول مصري بصوت سرور وقد امتلأت عينيه بالفرحة: كنت أتمنى أن تكوني معي اليوم . أخبريني ماذا فعلتِ مع راضي رشدان ؟ .. فتقول أمل بصوت حملت نبرته نغمة تعجب وحيرة : هذا الرجل شخصية جدلية تثير التعجب والدهشة . لقد أبرهني بكلماته وأسلوبه في الحديث ، ولولا ما يقال عن حياته الشخصية والعامة كنت سأقتنع أنه من الشخصيات الطيبة الفاعلة للخير . لقد دفع مبلغ مائة وخمسون ألف جنيه دية إلى عم طه .. ثم تتنهد نفسًا عميقًا لتحكي له بصوت حزين ما حدث في منزل طه شحاتة ، وردود فعل أبنائه ، وما قاله طه عند استلامه للمال .. فيقول مصري بصوت ثوري بعدما انتهت أمل من حديثها ، وقد ارتسمت على وجهه تعبيرات حسرة : قصة عم طه وأولاده ، وما يعانوه من فقر وجهل وحرمان ، هي قصة درامية بائسة تتكرر ملايين المرات بصورة قد تختلف في تفاصيلها لكنها تتفق في مضمونها؛ فكل أشخاص هذه القصص يعانون من الحرمان والجهل والفقر والتهميش وجميع ردود أفعالهم على هذه المعاناة تأتي بأثرها السلبي على المجتمع ككل ، وحتماً سيأتي يوم ستنفجر ثورتهم الغوغائية ولن تستطيع كرابيج النظام منعهم . صحيح أن راضي رشدان قدم الديه وقبلها أهل القتيل وفقاً للشرع . لكن الأمر أعقد من ذلك بكثير ؛ فابنه الذي لم يتجاوز عمره السادسة عشر قتل مواطن مصري نتيجة تهوره وعدم احترامه للقانون ، ولم يعاقب على فعلته نتيجة للقهر المعنوي الذي استخدمه راضي رشدان صاحب السلطة والجاه والنفوذ . ماذا نتوقع من هذا الشاب الصغير هل سيقبل أن يخضع لقانون يقيد من رغباته وطموحاته ويساويه بباقي المواطنين ؟! وماذا عن شعور المواطن العادي الذي لا يملك سلطة أو نفوذ ؟ بكل تأكيد سيصاب بمرض كراهية المجتمع ويرفض قوانينه ويتخلص من تقاليده وقيمه ، ويتحصن بقيم وعادات الغابة

ليستطيع مواجهة ظروفه الحياتية .. فتقول أمل بصوت هادئ وتعبيرات عاشقة في محاولة لتهدئة مصري بعدما استشعرت مدى تأثره الشديد بما قصته عليه : يا حبيبي لا تنفعل هكذا فأنت تجهد نفسك أكثر من اللازم .. هل نسيت أن عقد القران يوم الأحد ، ولم يتبق سوى ساعات حتى نصير زوجين .. فتتبدل ملامح الغضب الثوري التي ارتسمت على ملامح مصري بتعبيرات حالمة وهو يقول بصوت امتلأت نبرته بنغمات دفء الحب والمودة : الحمد الله أن رزقني بأجمل وأرق إنسانة في الدنيا . أنا أحسب الدقائق والثوان حتى يأتي اليوم الذي نتجمع فيه زوجين .. ثم يصمت لحظات ليقول بصوت استفهام ساخر : هل تريدي أن نجلس في الشارع ولا نذهب عند حماتي . أنا لن أتنازل عن وجبة السحور التي وعدتني بها سعيدة . هيا بنا نستقل أسعد سيارة في جمهورية مصر العربية .. فتضحك أمل وهي تتعلق بيد مصري قائلة بصوت علقت به نغمات الضحك وهما يتوجهان نحو السيارة : بالتأكيد أنت تفهم هذه الأمور جيداً . خالتك سعيدة تعلم أنك ستحضر معي وجهزت الفول والبيض والزبادي البلدي ، وكل ما تشتهيه يا حبيبي .. وخلال ما يقرب من نصف ساعة – الوقت الذي قطعته السيارة إلى منزل أمل – ظل العاشقان يتحدثان عن أحلامهما الوردية بهمسات من الحب الصادق رغم ضبابية طريق الحياة في مجتمع تلوثت طرقاته ومناخه بالفردية والنفعية والتخبط والعشوائية الشاملة.

وخلال تناول طعام السحور جلست سعيدة مع مصري وأمل صامتة تفضحها تعبيرات ملامحها الحزينة ؛ مما لفت انتباه ابنتها فسألتها بلهفة وقلق : هل حدث شيء أحزنك يا أمي ؟ .. فتقول سعيدة بصوت حزين وقد ارتسمت على ملامحها تعبيرات تمني : لقد غفلت عيني بعد المغرب ورأيت والدك في المنام ينادني معاتباً بصوت حاد « لماذا لم تأتِ لزيارتي .. هل نسيتي صابر ؟ » .. فتقول أمل بصوت استفهام وهي تنظر إلى أمها نظرة تأملية صامتة : هل تريدي الذهاب إلى دماص ؟ .. فتقول سعيدة بصوت رجاء وهي تنظر إلى مصري : أتمنى زيارة قبر صابر وقبور أبي وأمي وأخوتي لأقرأ لهم الفاتحة وأدعو لهم بالرحمة .. فيبتسم مصري لها ابتسامة

قبول ويقول : هل يمكن أن نسافر غداً في الصباح الباكر ونعود إلى القاهرة عصراً حتى تستطيعي طهي الحمام قبل مدفع الإفطار الذي قد يكون آخر يوم في شهر رمضان لهذا العام .. فتضحك أمل قائلة وهي تجمع الصحون من على المائدة : وكأني أسمع ياسمين تتحدث .. فتقاطعها سعيدة وهي تقول بصوت حاد : ربنا يحفظه هو وياسمين ؛ فالاثنان لديهما خفة دم كبيرة ، ومعهما أضحك من القلب .. ثم تنظر إلى مصري نظرة حانية وهي تقول : لا تأخذ على كلام هذه الفتاة الكئيبة .. فيضحك مصري ضحكة طويلة وهو ينظر إلى أمل قائلاً : ربنا يحفظك لي يا أحن حماة في الدنيا .. فتقول أمل وهي متجهة إلى المطبخ لتوصيل الصحون : يا حظك السعيد يا دكتور مصري . ربنا رزقك بحماة تحابي لك في كل شيء .. فيضحك مصري ضحكته المعتادة التي ملأت المكان بنغمات الحيوية والشباب وهو يقول : الله يسعد مصري ابن سعد بخالته سعيدة .. فتضحك سعيدة ضحكة من القلب أعادت الجمال والحيوية لملامحها الجميلة . وبعد هذه الضحكة التي استمرت لبضع ثوان قالت بصوت متحشرج وعيون مرغرغة بدموع الضحك : الله يجازيك الخير يا دكتور لم يضحكني أحد مثل ما تضحكني أنت وياسمين.. فيقول مصري: أشكرك يا حماتي .. ثم ينظر في ساعة يده ويقول : الساعة قاربت على الثانية صباحاً سأذهب الآن وسأحضر الساعة الثامنة حتى نذهب إلى قرية دماص.. فتنادي سعيدة على أمل لتأتي حتى تودع خطيبها بعدما دعت له بالخير.. وبكلمات هامسة وقلب عاشق كان وداع الخطيبين حتى يلتقيا في الصباح. وحتى استغراقها في النوم بعد صلاة الفجر ظلت أمل تسترجع ذكريات طفولتها الجميلة مع والدها وأخر لقاء معه في السجن، والشاب الذي كان يريد أبوها تزويجها له فتتضرع لله بالحمد والشكر على نهاية هذه المأساة قبل أن تبدأ ؛ فبعد بضعة أيام من وفاة صابر نشرت الصحف على صفحاتها الأولى صورة قصي أبو حمزة وهو مقتول ، بعدما قامت قوات الشرطة في مدينة بني مزار بمطاردة عناصر من الجماعة الجهادية وقتلت عددًا من أعضاء تنظيم الجهاد الذين ارتكبوا العديد من الجرائم الإرهابية التي راح ضحيتها العديد من رجال الشرطة والمواطنين ، وكان على رأس القتلى قصي أبو حمزة.

وفي صباح اليوم التالي اتجه مصري بسيارته بصحبة أمل وسعيدة إلى قرية دماص حيث وصلوا إلى القرية مع اقتراب الساعة من الحادية عشر . وخلال الطريق الذي قطعته السيارة في حوالي ساعتين ذهبت أمل في نوم عميق ، بينما ظلت سعيدة تسترجع ذكرياتها في القرية بكل أفراحها ومآسيها .. وبمجرد وصول السيارة عند كوبري القرية الذي يربطها بالطريق الزراعي بدأ قلب سعيدة يخفق من شدة الحنين إلى وطنها الذي سُلب منها رغماً عنها ، وبدأت تنظر إلى الأشجار التي تحيط بالطريق بعيون تكاد تعانق كل شجرة منها عندما يراودها خيالها بأن الأشجار تحييها وتتذكر معها ذكريات طفولتها وصباها . وخلال بضع دقائق ، مرت خلالها السيارة داخل القرية حتى وصلت إلى مقابر القرية ، أصيبت سعيدة بحالة من التعجب المفزع والاستفهام الصامت عندما شهدت التغيير الكلي الذي أصاب القرية ؛ فلم يعد هناك بيوت من دور واحد ، وحل محل الدار الريفي عمارات مرتفعة غير متناسقة توحي للناظر أنك في إحدى المناطق العشوائية بمدينة القاهرة الكبرى ، وانتشر في الكثير من تلك العمارات محال للإنترنت والحاسب الآلي ووسائل الترفيه الألكترونية . ونُزعت من ملامح الفلاحين البساطة والقناعة التي كانت تزين وجههم وتُطيب مشاعرهم وحلت محلها ملامح عدم قناعة بالرزق وتحفز للآخر وتمرد على قيم التسامح .. وبينما كانت سعيدة تسبح في دوامة هذا التغير ، وهي تتحسس البيوت والمارة ، وقع بصرها على شخص يقوم بتنظيف توك توك بجوار جامع العناني فلما دققت النظر في ملامحه قالت بصوت حدة وملامح وجهها تعلوها القتامة والحزن : عبد الرحمن .. وعندما سمعت هذا الشخص ينادي على شاب بجواره باسم عبد السميع قالت بصوت رجاء أيقظ أمل من شدة حدته : أرجوك يا دكتور مصري توقف هنا .. فيقف مصري وهو يقول بصوت تساؤل : هل سلكنا طريق خطأ ؟ .. وتقول أمل بعدما استشعرت ملامح أمها : ماذا حدث يا أمي ؟ .. فتقول سعيدة بصوت اشتياق وعيون ملهوفة : عبد السميع ابن خالتك فرحانة يقف بجوار والده أمام التوك توك الأحمر . أريد التحدث معه وأخشى من

رد فعله.. فتقول أمل بصوت به جرأة: انتظري سأذهب إليه وأخبره أنكِ بالسيارة.. فيقول مصري بصوت استفهام وعلى ملامحه تعبيرات فضول : من يكون عبد السميع ؟ .. فتقول أمل : هو ابن خالتي فرحانة التي أخبرتك بقصتها . والرجل العجوز الذي يقف بجواره هو عبد الرحمن والده .. فيقول مصري وهو ينظر إلى سعيدة نظرة عطوفة مشفقة : انتظري أنا سأذهب إليه وسأُخبره بأنكما في السيارة .. وعندما توجه مصري نحو عبد الرحمن وعبد السميع ألقى عليهما السلام بوجه بشوش، ثم قال موجهاً كلامه إلى عبد السميع وهو يشير إلى السيارة: عبد السميع . خالتك سعيدة تريد رؤيتك .. فيقول عبد الرحمن بصوت تساؤل وقد ارتسمت على ملامح وجهه تعبيرات تعجب : من تكون حضرتك ؟ .. فيقول مصري : أنا الدكتور مصري خطيب الدكتورة أمل وعقد قراننا بعد غد إن شاء الله .. فيقول عبد الرحمن بصوت فرحة وهو ينظره نظرة تأملية فاحصة : أهلاً ومرحبا .. ثم ينظر إلى عبد السميع ويقول : هيا يا ولدي نذهب إلى خالتك لنسلم عليها فقد ظلمتها هي وأمك كثيراً . ربنا يسامحني على ما فعلته .. ثم يمسك بيد ولده ويتوجه مع مصري نحو السيارة. وما أن شهدت سعيدة عبد السميع يتوجه نحوها حتى هبطت من السيارة، وتوجهت نحوه تعانقة بشدة والدموع تناسب من عينيها وهي تقول : افتقدتك يا عبد السميع . الله يرحمك يا فرحانة .. فيقول عبد الرحمن بصوت ندم وملامح حسرة : الله يرحمها . لقد ظلمتها ظلماً شديداً وقد أظهر الله لي براءتها . سامحيني يا سعيدة واغفري لي ما فعلته معكِ .. فتقول سعيدة بصوت تسامح وعيون غَفُورة : ربنا يغفر لنا جميعاً يا عبد الرحمن . كيف حال باسمة لقد افتقدتها كثيراً .. فيقول عبد السميع بصوت ضيق : أختي الحمد لله تزوجت من أحمد ابن عمي صالح الذي لم يلتفت إلى السمعة السيئة التي لحقت بأهل أمها .. فتقول أمل بصوت عتاب حاد : هل يصح هذا الكلام يا عم عبد الرحمن؟ أهل أمك يا عبد السميع ليسوا بسيء السمعة، وربنا يرحمهم ويرحم أمك التي قتلها الظلم والافترى، ولم يدافع عنها حتى أقرب الناس إليها .. ثم تنظر إلى أمها وتقول: هيا يا

أمي نقرأ الفاتحة على أمواتنا ثم نعود إلى القاهرة .. فيقول عبد الرحمن بصوت أسف وملامح حسرة وألم : أرجوكي يا دكتورة لا تأخذي على خاطرك فعبد السميع لم يقصد الإساءة.. ثم يقول بصوت غلظة موجهاً كلامه إلى عبد السميع: هل فقدت عقلك.. فتقول سعيدة بصوت غلفه العتاب وهي تنظر إلى عبد السميع نظرة أمومة حانية ممسكة بيده والدموع عالقة في عينيها : ربنا يرحم أمك يا ولدي لقد ضحت بصحتها وكرامتها حتى تستطيع إيجاد لقمة العيش لك ولأختك في الوقت الذي كان أبوك فيه قعيد المرض ، وقد تعرضت إلى ظلم من البشر سيُكتب في ميزان حسناتها بإذن الله . لا تكن غليظ القلب يا ولدي .. فتهدأ حدة نظرات عبد السميع ويقول بصوت نُزعت منه نبرة الغلظة: ربنا يرحم الجميع يا خالتي .. فتضمه سعيدة إليها وتنهمر في بكاء شديد وهي تقول : أبوك منعني من رؤيتكما ، ولم يكن بيدي شيء أستطيع فعله .. فيقول عبد الرحمن بصوت ندم ممزوج بأسف : ربنا يسامحني ويغفر لي ما فعلته مع فرحانة .. فتقول أمل بصوت تساؤل وهي تمسح الدموع العالقة في عينيها : هل يمكن أن نرى باسمة ؟ .. فيقول عبد الرحمن بصوت هادئ وتعبيرات وجهه يعلوها الأسف : باسمة سافرت مع زوجها إلى أبو ظبي منذ عام حيث يعمل هناك .. فتقول سعيدة بصوت به حسرة والدموع لم تجف من عينيها : كنت أتمنى رؤيتها . أرجوك إبلغها أن خالتها تريد رؤيتها ، ولو تسمح تحدثني في التليفون .. ثم تقول موجهة كلامها إلى أمل : أرجوكي يا أمل اكتبي لهما رقم تليفوني المحمول ورقم تليفون المنزل .. فتخرج أمل قلم من حقيبتها وتكتب أرقام التليفونات وتعطيها إلى عبد السميع وتقول بصوت تمني : هذه أرقام التليفونات أتمنى أن تتصل بنا يا عبد السميع وتأتي إلينا في القاهرة .. فيقول عبد الرحمن : لو تسمحي يا دكتورة نحضر عقد قرانك بعد غد .. فتقول أمل بصوت استغراب موجهة كلامها إلى عبد الرحمن بعدما نظرت إلى مصري نظرة تعجب : كيف عرفت هذا الخبر يا عم عبد الرحمن؟.. فيقول مصري موجهاً كلامه إلى أمل : أنا أخبرتهما.. ثم يقول بصوت ترحيب موجهاً كلامه إلى كل من عبد السميع وعبد الرحمن: شرف

لنا حضوركما عقد القران بإذن الله بمسجد السيدة نفيسة بعد صلاة العصر يوم الأحد .. فيقول عبد الرحمن: يوم الأحد سنصلي صلاة الظهر في جامع السيدة نفسية وننتظركما هناك .. فتقول سعيدة : أتمنى أن تحضر إلى بيتنا في الصباح ومعك عبد السميع. لابد أن يعرف البيت حتى يأتي في المستقبل.. ثم تقول بصوت فضول: هل انتهيت من دراستك الثانوية.. فيقول عبد السميع بصوت ساخر وعيون ناقمة: ماذا سأفعل بالتعليم ؟ ما أكثر المتعلمين في قريتنا . يا خالتي معظم المتعلمين في قريتنا يعيشون عالة على أهلهم . أما أنا فقد تعلمت مهنة ميكانيكا السيارات وأصبحت أسطى «كلمة عامية مصرية تعني محترف في مهنة معينة ».. فيبتسم مصري وهو يقول بصوت مجاملة : عظيم . يعني أصبح لنا سند في عالم صيانة وإصلاح السيارات .. فيقول عبد الرحمن بصوت افتخار وهو ينظر إلى ولده : على الرغم من أن عمره لم يتجاوز الثامنة عشر إلا أنه أصبح أشهر ميكانيكي في القرية .. فتبتسم سعيدة ويرتسم على وجهها ملامح سرور وسعادة وتقول بصوت دعاء صادق من القلب: يا رب يحفظك يا ابن فرحانة وتصبح أفضل أسطى ميكانيكي في بر مصر كلها .. ثم تنظر إلى عبد الرحمن وتقول : هل تأتي معنا إلى المقابر سنقرأ الفاتحة على قبر صابر وعائلة أبو عساكر ثم نسافر إلى القاهرة .. فيقول عبد الرحمن بصوت انكسار وعينان مليئتان بالخجل : كنت أتمنى أن استضيفكما في الدار لكن أنتِ تعلمي يا سعيدة أننا نسكن في دار صالح .. فتقول سعيدة بصوت غلفه الرفق واللطف : بالطبع يا عبد الرحمن كان الله في عونك .. ثم تقول بصوت فضول : كيف حال شادية مع سِلْفَتَايها ؟ .. فيقول عبد الرحمن بصوت حزين : شادية توفاها الله منذ أكثر من عام وتركت لي ثلاثة أولاد أصغرهم عنده خمسة أعوام .. فتقول سعيدة بصوت ترحم وعيون تعجب : لا الله إلا الله. الله يرحمها ويرحمنا جميعاً .. فيأخذ عبد الرحمن نفسًا عميقًا وزفير حاد ويقول : لقد أصيبت شادية بسرطان القولون منذ ما يقرب من عام وثلاثة أشهر ، وقد أجهز المرض على حياتها في أقل من ثلاثة أشهر . وقبل وفاتها قالت شهادة حق في فرحانة وبرأتها من كل التهم التي

افترت بها عليها حتى تستطيع التعايش مع سِلْفَتَايها . الله يسامحها ويرحمها.. فتقول سعيدة بصوت مزجت نبرته بين نغمة فرحة البراءة من تهم ظالمة أزهقت حياة شقيقتها ، ونغمة قناعة بأنها لن تغير من الأمر شيء : الحمد لله الذي أظهر الحق. الله يرحم الجميع .. ثم تأخذ نفس عميق وهي تقول بصوت تساؤل : هل ستأتي معنا إلى المقابر ؟ .. فيقول عبد الرحمن بصوت يقين : نعم هيا بنا .. فيقول عبد السميع موجهاً كلامه إلى سعيدة : سأكون في المقابر بعد قليل فقد تركت الورشة مفتوحة .. فيقول مصري : سنكون في انتظارك .. وأمام المقابر ظلت سعيدة تقرأ ما تيسر حفظه من آيات القرآن ، ثم تدعو بالرحمة والمغفرة لكل أهلها ودموعها الساكنة تناسب على وجنتيها . بينما ظل مصري وأمل وعبد الرحمن واقفين بجوار سعيدة وهم يدعون بالرحمة والمغفرة للجميع ، ودموع أمل تتساقط من عينيها عندما تسترجع ذكريات طفولتها مع أبيها .. وبعد عدة دقائق من الدعاء والمغفرة للميت حضر عبد السميع ومعه الشيخ علي الراوي الذي كانت نظراته الشغوفة تتسابق لكي ترى أمل وسعيدة . وبمجرد أن التقت نظرة سعيدة بهذه النظرات الشغوفة زادت دموعها حرقه حتى قال علي الراوي : ربنا يرحم الجميع يا سعيدة ويسامحنا جميعاً . كيف حالك يا ابنتي؟ .. فتزداد تعبيرات حزن ملامح سعيدة حدة وهي تقول بصوت باك : الحمد لله. كيف حالك يابا الشيخ . وكيف حال الخالة خضرة وكل العائلة؟.. فيقول الشيخ علي : الحمد لله كلهم بخير . لم تأتِ إلى هنا منذ زمن بعيد . الله يرحمك يا عطوة ويرحم جميع موتى المسلمين فمنذ وفاته منذ أكثر من سبعة أعوام جئتِ إلى دماص وتجنبتي الحديث معنا. ربنا يسامحنا يا ابنتي ويغفر لنا جميعاً على ظنونا السيئة.. ثم ينظر إلى أمل بعيون حانية ودودة ويقول بصوت محبة : ما شاء الله. أمل . لقد أصبحتي زينة البنات يا دكتورة. ثم ينظر إلى مصري ويقول مرحباً : أهلاً بالدكتور خطيب الدكتورة . ربنا يرزقكما بالذرية الصالحة إن شاء الله.. اسمحوا لي أن أدعو دعاء رحمة ومغفرة على أرواح موتانا من المسلمين، ثم نذهب إلى داري. سنتناول طعام الإفطار هناك.. فيقول مصري بصوت اعتذار متأدب وملامح شاكرة:

أنا اتمنى أن أكل طعام أهل دماص فبكل تأكيد سيكون مثل طعام حماتي لكننا لدينا ارتباطات في القاهرة ، ولابد لنا من العودة قبل العصر .. فيقول الشيخ علي بصوت تصميم وإصرار : لن أدعكم تذهبون قبل أن تعد لكم خضرة زوادة بها الفطير البلدي والقشطة والعسل.. ثم يقول بصوت عتاب شديد موجهاً كلامه إلى سعيدة: هل يصح ذلك يا ابنتي ؟ كلها ساعتين زمن ستجلسوها عندنا حتى يتم تجهيز الزوادة .. فتقول سعيدة بصوت قناعة وهي تنظر إلى مصري نظرة رجاء وتمني : لو سمح الدكتور مصري نجلس ساعتين ثم نتحرك ، وبإذن الله سنصل في الوقت الذي تريده .. فيقول مصري بصوت ترحيب وهو يبتسم ابتسامة قناعة : كما تريدي يا حماتي .. فتقول أمل موجهة كلامها إلى الشيخ على بعدما نظرت إلى مصري نظرة عاشقة راضية : يسعدنا ويشرفنا يا مولانا أن تحضر عقد القران بعد غد في جامع السيدة نفيسة .. فيقول الشيخ علي بصوت فرحة وسرور : بكل تأكيد يا ابنتي سأحضر وسأكون وليّكي في عقد الزواج ؛ فصابر رحمه الله كان في مقام ولدي .. فتقول سعيدة بصوت سرور ودموع الفرحة عالقة بعينيها : ربنا يسعدك ويحفظك يا أبا الشيخ .. فيقول الشيخ علي : الله يحفظك يا سعيدة .. ثم يبدأ في الدعاء بصوت خاشع ورع عذب جميل أدمع الحاضرين حتى ما أن انتهى قال بصوت ترحيب وإصرار : هيا سنذهب جميعاً إلى الدار ، ثم اصطحب الدكتور ليصلي معنا صلاة الجمعة في المسجد .. فيهم الجميع بالتحرك ويغادروا القبور بنظرات صامتة متابينة ، وتظل نظرة سعيدة تناجي ربها بالمغفرة والصبر بعدما سبحت في مخيلة الزمن متمنية أن تعود عقارب الزمن إلى الوراء لتظل مع صابر رفيق صباها ومعشوق روحها .

وخلال دقائق بعد مغادرتهم المقابر ظل الشيخ علي يترحم على عائلة أبو عساكر ويتذكر محاسنهم ويُذكر سعيدة بأفعال الخير التي كان يفعلها أبوها وعمها وزوجها حتى يصلوا إلى داره ، بينما يستأذن عبد الرحمن وعبد السميع من سعيدة وأمل ومصري على وعد باللقاء يوم الأحد الظهر في منزل سعيدة بالقاهرة .. وفي مشهد إنساني مؤثر تلتقي سعيدة مع خضرة بعد فراق دام أكثر من عشرة أعوام

بدموع شوق وحنين مسحت كل ما تعلق بقلوبهما من غضب وفُرْقَةٌ .. وبعد ترحاب خضرة الحار لـ سعيدة ألقت بنظرها على أمل ، وقد ارتسمت على ملامحها الفرحة والسعادة لتقول بصوت امتلأت نبرته بالمودة الصادقة : ما شاء الله . سبحان من صور . أمل ؟! .. فتقول أمل بصوت هادئ غلفه المحبة وهي تنظرها نظرة ودودة خجولة : الخالة خضرة .. فتعانقها خضرة عناق حار وهي تقول : أهلا وسهلا بِك يا ابنتي . أشرقتِ بنور وجهك كل ربوع وديار قرية دماص .. فيقول علي الراوي بصوت افتخار وعزة : لقد أصبحت أمل طبيبة وستتزوج بعد غد ، ثم يشير بيده تجاه مصري ويقول بصوت ترحيب : دكتور مصري خطيب أمل الذي سيعقد قرانها بعد غد وسأكون بإذن الله وليّها في العقد . بارك الله فيهما .. فتبتهج تعبيرات خضرة من الفرحة والسرور وهي تقول : ما شاء الله . اللهم باركهما وأرزقهما بالذرية الصالحة . ثم تنظر إلى مصري نظرة تبجيل وهي تقول : لقد رزقك الله بأجمل البنات وأفضلهن خلقاً وديناً .. فيبتسم مصري ابتسامة حانية وهو ينظر إلى أمل قائلاً بصوت تنغمت نبرته بالرومانسية : الحمد لله أن عوضني الله خير عن أمي بخالتي سعيدة ورزقني بزوجة صالحة مثل أمل .. فيضحك الشيخ علي من القلب قائلاً : أنت طيب اللسان وحلو المشاعر . هيا نترك النساء يثرثرن بالكلام حتى نصلي ثم نعود لننضم إليهن نستمع لما تبقى من ثرثرة .. فيبتسم مصري وهو يقول : هيا يا فضيلة الشيخ .. فيمسك الشيخ علي بيد مصري ويقول بصوت إصرار موجهاً كلامه إلى خضرة : جهزي الفطير المشلتت والعسل والقشطة والجبنة القريش في زوادة تليق بمقام الدكتور مصري والدكتورة أمل فأمامهم ساعتين من الزمن وسيعودوا إلى القاهرة .. فتقول خضرة : لماذا لا تمكثوا معنا الليلة .. فيقول الشيخ علي : لا تثقلي عليهم بالحديث يا خضرة ؛ فالدكتور عنده مواعيد وارتباطات في القاهرة ونحن سنذهب إليهم صباح يوم الأحد .. فتقول خضرة بصوت قناعة : والله لولا ذلك ما تركتكم تسافروا اليوم .. فيقول الشيخ علي وهو ممسك بيد مصري ليتوجها إلى جامع العناني حتى يأم المصلين: اسرعي يا خضرة حتى لا يتأخر

الدكتور عن ميعاده ، وإذا احتجتي مساعدة اتصلي بزوجة محروس ابنك تأتي لمساعدتك.. فتقول خضرة بصوت تحدي: سأجهز ما لذ وطاب في زوادة الدكتورة.. وبعدما ينصرف علي ومصري تتجه خضرة بصحبة أمل وسعيدة ليجلسن داخل الدار لتبدأ خضرة التي تجاوز عمرها الخامسة والستون ، وما زالت تحتفظ بعافيتها ، في تجهيز الخبيز لعمل الفطير المشلتت بمساعدة سعيدة ، بينما كانت أمل تشاهد أمها وترقبها بعيون فاحصة .. وخلال خبز الفطائر دار حديث طويل بين سعيدة وخضرة عن حال وأحوال أهل القرية بأحزانهم وأفراحهم ، تأثرت سعيدة بالحالة الصحية التي وصلت إليها سكينة الراعي ونبوية عبد الرازق زوجة خالها عطوة قبل وفاتها ؛ فقد أصيبت سكينة بفشل كبدي ، وفي أيامها الأخيرة ولم تكن تستطيع النهوض من فراشها وظلت خضرة بجوارها ترعاها حتى نفذ قضاء الله ولم يأتِ ابنها لزيارتها طوال فترة مرضها حتى يوم الوفاة ، وجاء عند دفن الجثمان وفي تقبل العزاء عرض الدار وبضعة القراريط التي كانت تمتلكها للبيع . بينما أصاب نبوية فشل كلوي ولم تستطع تحمل مصاريف تكلفة الغسيل الكلوي ثلاث مرات أسبوعياً ، وماتت بعد بضعة أشهر من مرضها بعدما أكل المرض عافيتها .. وبعد الخبيز وتجهيز الزوادة التي احتوت على ما لذ وطاب من العسل والقشطة والجبنة الفلاحي والزبدة الفلاحي توجهت خضرة لتجلس مع ضيفتيها في المضيفة . وبينما كانت دموع سعيدة تناسب على وجنتيها من شدة تأثرها بقصة سكينة ونبوية سألتها خضرة قائلة بصوت فضول : هل دعوتِ عبير ابنة عمك على فرح أمل؟.. فتفاجأ سعيدة بالسؤال وتنظر إليها نظرة صامتة . ثم تقول بصوت تملكه الإحراج : لا . فمنذ يوم دفن صابر وبعد ما حدث منها لم نتحدث .. فتقول أمل بصوت ألم وحسرة عندما تذكرت ذلك اليوم : لم أكن أتخيل أن تكون عمتي بهذه القسوة .. فتقول خضرة بصوت حكمة : يا ابنتي الدنيا زائلة ، ولا يبقى لنا منها إلا العمل الطيب . صحيح أن عمتك لم تفعل الصواب وتصل الرحم الذي بينكما ، لكن جزاء صلة الرحم عند الله كبير؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت عن

رسول الله ﷺ «الرحم معلقة بالعرش تقول : من وصلني وصله الله ، ومن قطعني قطعه الله » فابدأي أنتِ بصلة الرحم ، ومناسبة عقد قرانك ستكون طيبة في هذه الحالة .. ثم تنظر في عيون سعيدة وأمل فتجد بهما القبول فتقول : سأتصل بالدكتور طارق صيام وأحصل منه على رقم هاتف بركات أو عبير لتقوما بدعوتهما على عقد القران .. فتقول سعيدة وهي تنظر إلى أمل نظرة اقتناع : كما ترى خالتك خضرة . يجب أن ندعو عمتك وزوجها ليحضرا عقد القران .. فتقول خضرة بصوت حسرة وألم : الدكتور طارق ربنا يبارك له ويحفظه ويعوضه خير عن زوجته يفعل الخير مع كل أهل القرية ، وكل شخص من القرية يذهب له يساعده بالجهد والمال لو كان يحتاج للمال .. فتقول سعيدة بصوت فضول : هل ماتت زوجته ؟ .. فتقول خضرة : لقد تزوج الدكتور طارق مرتين ؛ الأولى مصرية من القاهرة منذ أكثر من عشرين عامًا وطلقها بعد ثلاثة سنوات ، والثانية أمريكية تزوجها من عشر سنوات عندما كان يعمل في مدينة شرم الشيخ ، وقد سافرت إلى بلادها بعد طلاقها منه منذ بضعة أشهر .. فتقول سعيدة بصوت فضول وعيون حزينة : وأين يقيم أولاده ؟ .. فتقول خضرة : الدكتور طارق لم ينجب أولاد من زواجه في المرتين . اللهم اعطيه الزوجة والذرية الصالحة . ثم تمسك بالتليفون المحمول وتخرج رقم التليفون المحمول الخاص بـ طارق صيام لتقول موجهة كلامها إلى أمل : هذا رقم التليفون المحمول الخاص بالدكتور طارق . اتصلي به وادعيه لحضور عقد قرانك وخذي منه رقم عبير أو بركات أو ابنها ، واتصلي بهم على الطريق فشبكة التليفون المحمول لا تصل إلى هنا إلا في الأماكن المرتفعة.. فتقول أمل بصوت فضول وهي تأخذ منها أرقام التليفونات : كيف حال شادي ابن عمتي ؟ .. فتقول خضرة : شادي ابن عمتك تخرج في كلية الشرطة منذ سنتين ويعمل في الأمن المركزي ، وشريهان تلميذة في السنة الخامسة من المرحلة الابتدائية ، وعمك بركات أصبح ضابط برتبة مقدم .. فتقول سعيدة بصوت حسرة وملامح صامتة: لم أكن أتخيل أن تتجنب عبير السؤال عني وأتجنب السؤال عنها طوال هذه السنين. الله يرحمك يا عمي ويرحمك يا صابر

ويرحمك يا خالتي صفية .. فتقول أمل بصوت مواساة وهي تنظر إلى أمها نظرة حانية : ربنا يرحم الجميع ويغفر للجميع يا أمي. نحن سندعوهم لحضور عقد القران وربنا يصلح الأحوال ويؤلف القلوب .. فتقول سعيدة وخضرة في نفس الوقت بصوت دعاء خالص : اللهم آمين .. وبعد هذا الدعاء تقول سعيدة بصوت يائس موجهة كلامها إلى خضرة : هل تعلمي شيء عن محمد وسعدية ؟ .. فتقول خضرة بصوت لامبالاة : لا منذ تركها للقرية لم أعلم عنها أو عن أمها وأختها .. فتقول سعيدة : الله يرحمك يا العوضي ويسامحك يا سعدية .. فتقول أمل بصوت قلوق وشعور لامبالاة تجاه ما قالته أمها عن زوجة خالها وابنه : لقد تأخر مصري وعم الشيخ علي .. فتبتسم خضرة وتقول بصوت طمأنة : لا تقلقي يا ابنتي .. وما أن أكملت خضرة جملتها حتى سُمع صوت الشيخ علي وهو يدخل إلى الدار ومعه مصري ليجلس الجميع في المضيفة يتحدثوا في أمور عديدة حتى تقترب الساعة من الثالثة عصراً فينصرف الضيوف ليستقلوا السيارة ويعودوا إلى القاهرة على وعد باللقاء مع الشيخ علي وخضرة يوم الأحد في منزل سعيدة بالقاهرة ظهراً .. اللقاء بعبد السميع وعبد الرحمن ثم بالشيخ علي وزوجته خضرة ترك أثرًا طيبًا في نفس سعيدة وأمل ومصري ؛ فبعد قطيعة قاربت الخمسة عشر عامًا عادت علاقة سعيدة مع زوج شقيقتها فرحانة وابنها عبد السميع بعدما ظهرت براءتهما من كل التهم الباطلة التي لصقت بهما . كما اتصلت سعيدة وأمل بـ عبير وبركات ، ودار بينهم حديث ودي طويل أزاح الغمة التي خيمت بينهما ؛ حيث أظهرت عبير الأسف والندم على ما فعلته في حق سعيدة ، خاصة وأن عبد الرحمن اتصل بهم منذ بضعة أيام وأخبرهما بالظلم التي تعرضت له فرحانة وما أفصحت عنه شادية قبل وفاتها .

وفي قاعة الاحتفالات بمسجد السيدة نفيسة بعد صلاة عصر يوم الأحد الموافق ١٤ أكتوبر التقت عبير مع سعيدة وأمل في مشاهد درامية جمعت بين الحزن والفرحة ؛ الحزن على القطيعة التي باعدت بينهم طوال هذه السنين ، والفرحة بلقاء أمل وزواجها من شخص طيب ذو مركز اجتماعي وعائلة طيبة ، وفرحة لقاء أمل

بكل من شادي وشريهان أولاد عمتها التي فرقت الظروف بينهما طوال هذه السنين.. وخلال عقد القران وسط دعاء الحضور من الأهل والأصدقاء والأقارب للعروسين باليُمْنُ والبركات ، كانت دموع الفرحة التي تنساب من عيني سعيدة تكاد تغرد بكل قصائد السعادة والفرحة بعدما أزالت كل شوائب الأحزان التي علقت بملامحها لتبدو للحاضرين وكأنها شقيقة أمل وليست أمها . هذه الملامح الملائكية ذات الأنوثة الناضجة جذبت مشاعر طارق صيام الذي ظل طوال فترة تواجده منجذب إلى سعيدة ليفصح بعدها إلى عبير عن رغبته في الزواج من ابنة عمها .. وبعد أيام معدودة تبدأ عبير في ملاحقة ابنة عمها لتقنعها بقبول فكرة الزواج من شقيق زوجها . وبالفعل نجحت بمساعدة أمل ومصري وجارتيها المقربتان «بهية وأنجيل» في إقناعها بالزواج .. ويمر بضعة شهور وتتزوج أمل بمصري وتتزوج سعيدة بطارق صيام وتنتقل للعيش معه بمسكنه بمنطقة جاردن سيتي بوسط مدينة القاهرة ، ويتم تحويل مسكن سعيدة إلى عيادة خاصة مشتركة بين طارق صيام المتخصص في أمراض الجهاز الهضمي ، ومصري المتخصص في الجراحة العامة . وتجتاز أمل سنة الامتياز بنفس تفوقها في السنوات السابقة ، لكنها لم تعين في سلك التدريس بالجامعة رغم حصولها على المركز الأولى على دفعتها ؛ حيث رُفض طلبها في التعيين لدواعي أمنية نظراً لسجل أبوها السياسي المتطرف الذي جاء في تقرير مباحث أمن الدولة . وبعد رفض تعينها بالجامعة تم تكليفها نائبة في قسم النساء والتوليد بمستشفى أحمد ماهر التعليمي . وتمضي الحياة بحلوها ومرها ويعيش كل من أمل ومصري سوياً بكفاح حتى يحصلوا على أمانيهم التي كان يشاركهما فيها ملايين الشباب في مصر في الحصول على عيشة كريمة بدون مهانة أو إهدار للكرامة الإنسانية ؛ حياة يحصل كل مواطن فيها على حقوقه المشروعة من طعام وتعليم وصحة وعدل وأمن ويحصد كل مجتهد على نتاج جهده بدون محسوبية أو وساطة .

* * * * *

obeikandl.com

الفصل الرابع
أمـــل & مصـــري
حلم لم يتحقق

وتمر ثلاث سنوات ، بعد زواج أمل من مصري وزواج سعيدة من طارق صيام[1] ، رُزقت خلالها أمل في يوم ١١ فبراير ٢٠٠٩م بطفلة جملية أُطلق عليها اسم حياة .. ظروف سعيدة المعيشية ارتفعت بصورة ملحوظة لتنتقل من مستوى معيشي اقتصادي كان بالكاد يفي بسد احتياجاتها إلى مستوى معيشي متوسط احتوى على رفاهية نسبية لا يتمتع بها عشرات الملايين من المصريين الذين يعيشون تحت خط الفقر؛ فزواج سعيدة من الدكتور طارق صيام كان فاتحة خير لها وعوضها عن كثير من المعاناة النفسية والمادية التي عانتها ، ورغم اختلال ميزان المستوى التعليمي بينهما فقد استطاعت سعيدة بثقافتها وذكائها الفطري وتجاربها الصعبة في الحياة التي أثقلت ثقافتها العامة من التعايش بصورة ممتازة مع حياتها الجديدة ، وخلال أقل من عام تعلمت القراءة والكتابة وكانت ترافق زوجها في عيادته بشبرا وأصبحا الاثنان لا يفترقان . ونظراً لانشغال أمل بالبحث والدراسة في رسالة الماجستير كانت تترك حياة عند سعيدة حتى أصبحت هذه الطفلة أهم شيء في حياة جدتها وزوج جدتها ؛ حيث تملكت حياة قلب ومشاعر سعيدة وطارق واعتبرها ابنتهما التي لم يشأ الله أن يهبهما إياها .. مصري المنشاوي ، الذي نشأ في بيئة وطنية زرعت في مشاعره ووجدانه

---

(١) الذي ما زال يحتفظ بالحيوية والشباب وهو في سن الثانية والخمسين . ورغم طول المدة التي عاشها في المدن متنقلاً بين مدن القاهرة وشرم الشيخ ونيويورك فقد ظل محتفظاً ببساطة أهل الريف . قلبه الطاهر وشخصيته الطيبة جعلته يستحوذ على قلب سعيدة بعدما أعاد لها مشاعر أنوثتها التي فقدتها مع فقدانها لصابر .

حب الوطن والفداء والتضحية من أجل نمائه وتقدمه، فضل أن يهب وقته في محاربة فساد النظام الحاكم وكشف إفساده إلى عامة المصريين الذين ألهاهم التكالب على لقمة العيش من التعرف على ما يدار من انتهاكات صارخة في حقوقهم وحرياتهم العامة ، وضحى بتفوقه المهني الذي كان يتطلب منه أن يداوم على الدراسة والبحث ؛ حيث شارك في كل الوقفات الاحتجاجية التي نظمتها حركة كفاية وكان أحد النشطاء الذين نظموا ودعوا إلى إضراب يوم ٦ أبريل ٢٠٠٨م تضامناً مع عمال غزل المحلة[١]، وتم اعتقاله ضمن حملة اعتقالات واسعة ضمت ١٢٠ شخص كان أبرزهم الكاتب الصحفي محمد عبد القدوس ، وأفرج عنه بعد بضعة أيام بعدما حفظت النيابة التهم التي وجهت لكثير من المتهمين[٢].. ياسمين المنشاوي ، التي لم تقل عن شقيقها وطنية، أصبحت رغم صغر سنها بفضل مقالاتها وتحقيقتها الصحفية البارزة من نشطاء جبهة المعارضة التي ضمت الكثير من الشباب الوطني من مختلف الاتجاهات الإيدلوجية

---

(١) إضراب ٦ أبريل عام ٢٠٠٨م : كان محاولة لإحداث إضراب عام في مصر ضد الغلاء والفساد وتضامناً مع إضراب عمال شركة المحلة في ذلك اليوم وأتى بعد العديد من الإضرابات والاعتصامات في مصر بشكل متتال . تحول الإضراب من دعوة إضراب عمالى لعمال شركة المحلة إلى إضراب عام في مصر بعد تبنى بعض المدونين والشباب المصري الفكرة ونشروها على مدوناتهم الخاصة على الإنترنت لتنتشر فكرة الإضراب بشكل سريع للغاية ؛ وكان أكثر من نشر فكرة الإضراب موقع " التواصل الاجتماعى -Face book " ، وعن طريق الموبايلات ورسائل sms ، والمنشورات وتعليق الشعارات في الشارع . تحول إضراب مدينة المحلة الكبرى إلى أحداث شغب كبيرة عُرفت بأحداث ٦ أبريل أو أحداث المحلة شملت هجوم على أقسام ومراكز الشرطة، وتدمير أجزء من المدينة وإحراق مبانى وعمليات سلب ونهب بشكل عشوائى . تمت إدانة ورفض أعمال الشغب من قبل الحكومة المصرية والمثقفين ومنفذوا الاضراب أنفسهم . ومن أشهر ما يميز إضراب ٦ أبريل هو عدم تنظيم جهة واحدة معلنة مشهورة للفكرة بل نظمها بعض الشباب المصري وليس أحزاب أو حركات ، وإنتشرت فكرته بصورة سريعة للغاية في جميع أنحاء مصر وكان بمثابة سيناريو مصغر في مكان محدد " مدينة المحلة " للأحداث التي جرت يوم ٢٨ يناير ٢٠١١م في مجمل الأراضي المصرية بصورة شمولية .

(٢) التهم التى وجهت إلى المتهمين كانت تتمثل في : اشتراك وتزعم تجمهر مكون من أكثر من خمسة أشخاص الغرض منه الاعتداء على الحرية الشخصية ، ومنع مؤسسات الدولة من ممارسة أعمالها ، وتعطيل حركة المرور ، وإذاعة وبث عمداً أخبار وبيانات من شأنها تكدير الأمن العام وإلحاق الضرر بالمصلحة العامة .

والطبقات الاجتماعية التي رفضت تردي الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاقتصادية داخل المجتمع المصري؛ فالمقالات والتحقيقات الصحفية التي كشفت عن كثير من الانتهاكات والجرائم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي ارتكبها رجال السلطة وأعوانهم كانت شرارة من ضمن شرارات غضب أطلقها البعض من الصحفيين والإعلاميين والمثقفين الذين تجمعوا في مجموعات ضغط كانت تمثل حجر عثرة في نهر الطغيان والاستبداد .

لم تسلم ياسمين من المسألة القضائية من قبل رجال النظام حيث تم محاكمتها ، بعد إضراب ٦ أبريل التي ساهمت به كونها أحد نشطاء المدونات المناهضة لنظام الحكم القائم ، بتهمة القذف لنشرها أخبار فساد داخل اللجنة الاقتصادية بمجلس الشعب التي سربت بعض القرارات الاقتصادية قبل صدورها لمصلحة شركات ترتبط بـ راضي راشدان الذي كان يترأس هذه اللجنة الاقتصادية بعلاقة تجارية ترتب عليها إهدار مئات ملايين الجنيهات من خزانة الدولة ، وحكم عليها بالسجن ثلاثة أشهر بعدما فشلت في الحصول على المستندات التي تؤيد صحة إدعائها وتم حفظ الدعوى أمام محكمة الجنح المستأنفة بعدما تدخلت بعض قيادات العمل الصحفي المرتبطة بصداقة شخصية مع راضي راشدان قبل تأييد الحكم . تنازل راضي راشدان عن القضية لم يمنع ياسمين من مواصلة تحقيقاتها الصحفية الجريئة التي كان أخرها تحقيقها الصحفي عن تزوير الانتخابات النيابية في ديسمبر ٢٠١٠م، والتي دفعت جهاز مباحث أمن الدولة إلى اعتقالها لعدة أيام .. شهندة عادل وزوجها شادي البارودي تعرضا للاعتقال لبضعة أيام قبل بدء الجولة الثانية من انتخابات مجلس الشعب في ٥ ديسمبر بعدما تزايدت أنشطتهما الرافضة لفكرة توريث الحكم إلى جمال مبارك ، وللنظام الرأسمالي المسعور الذي سعى لتمكين مجموعة من الأشخاص لمقدرات البلاد وتجاهل أوجاع وآلام فقراء المصريين الذين تزايدت أعدادهم بصورة سرطانية ما زالت حتى كتابة هذه السطور تنذر بحدوث ثورة الجياع . ورغم التهديدات الصريحة لهما من جهاز مباحث أمن الدولة بالابتعاد

عن إثارة الفتنة فقد استمرا في موقفهما الرافض سوى بالقول في القنوات الفضائية المرئية (الجزيرة – العربية – بي بي سي) ، التي كانت تركز كثيرًا من برامجها على المشهد العام في مصر ، أو بالكتابة في الصحف المعارضة التي انتشرت بدرجة كبيرة وأُتيحت لها حرية التعبير بصورة لم تكن مسبوقة في تاريخ الصحافة المصرية ، أو من خلال المدونات الشخصية لهما على الإنترنت .. عمرو الريس الذي ترقى إلى رتبة العميد في أغسطس ٢٠١٠م وتقلد منصب مأمور سجن وادي النطرون ، كان مثل الغالبية العظمى من ضباط وزارة الداخلية في حالة عدم رضا بما يحاك من مكائد على الساحة السياسية في مصر ، ولديه عدم قناعه بأسلوب إدارة وتشغيل هيئة الشرطة التي أُقحمت بصورة غير مهنية في العديد من المشاكل والأزمات الحياتية التي لا يستقيم معها الحل الأمني بجانب تركيز كل طاقاتها الأمنية لصالح أشخاص النظام الحاكم مما جاء بالسلب على أمن المواطن والنظام العام في الشارع المصري . موقعه الوظيفي كان يقف حائلاً للتعبير عن شعور الاستياء من الحالة المتردية التي وصلت إليها حال البلاد على المستوى الأمني والسياسي والاجتماعي؛ فخلال هذه الآونة تفاقم الوضع السياسي والاقتصادي للمجتمع المصري ، وأصبح الشعور العام لدى جموع الشعب المصري أشبه بالحمم والغازات تحت باطن الأرض التي تغلي قبل اندلعها في براكين . فمن الناحية الاقتصادية تسببت السياسة الفاشلة التي سلكتها الدولة خلال العقدين السابقين من خلال تطبيق نظام الرأسمالية الجديدة المنبثق عن فكرة «الليبرالية الجديدة = العولمة»[1] بصورتها العشوائية إلى إحداث

---

(١) تعد " الليبرالية الجديدة – New-Liberalism " الاتجاه الفكري والأيديولوجي السائد في الغرب منذ منتصف السبعينات وحتى الآن ، على المستويين السياسي والاقتصادي . وهو اتجاه يدعو إلى اتخاذ مجموعة من السياسات ، أهمها الإقلال من دور الدولة في الاقتصاد إلى الحد الأدنى ، وتفعيل حرية السوق . وهذا ما أدى عند التطبيق إلى انسحاب الدولة من كثير من مسؤولياتها الاجتماعية السابقة التي كانت تتولاها منذ بداية القرن العشرين . وفي ظل سياسات التحرير الاقتصادي والخصخصة أصبح مفهوم العدالة الاجتماعية مهملاً ، إذ تم السكوت عنه وتناسيه لدى بعض مفكري الليبرالية الجديدة ، وتمت مواجهته بالإنكار والهجوم والنقد اللاذع من قبل آخرين من ممثلي الاتجاه .

فجوة معيشية كبيرة بين طبقة الرأسمالية وأتباعها الذين تبنوا سياسة العولمة الاقتصادية وطبقة البلوريتاريا ونظرائها الذين سلبتهم العولمة الاقتصادية ما تبقى من فتات العدالة الاجتماعية التي كانت بمثابة الجزرة التي تدفعهم لتقبل عصا السلطة . هذه السياسة العشوائية المتخبطة ، التي كان تصب في مصلحة أصحاب رؤوس الأموال وأهملت عشرات الملايين من المصريين ، أدت إلى تحلل دور الدولة الاجتماعي فزادت معدلات الفقر والجهل والمرض وازدادت معدلات البطالة بين الشباب وانتشرت العشوائيات بشكل سرطاني حول مدن القاهرة والإسكندرية والمدن الحضرية . وأمام هذا الفشل الاقتصادي والاجتماعي انكشفت الوعود السرابية التي كانت تطلقها الدولة خلال العقود السابقة فلم يعد جموع الشعب يصدق أو يبالي بالوعود الوهمية التي تعود على سماعها بأن هناك حل في مشاكل التعليم والصحة والتنمية، ووصل الغضب إلى حلقوم جموع الشعب من الانتهاكات الأمنية التي كانت تهدر كرامة المواطن وحقوقه الإنسانية ولم يكن الغاية منها سوى تحقيق مصالح أشخاص السلطة وأتباعهم من الرأسماليين الذين استهوتهم لعبة السياسة فمزجوا بين سطوة المال وسيف السلطة وأصبحوا يتحكمون في مصائر جموع المصريين غير مبالين إلا بمصالحهم حتى ولو جاءت على حطام أماني وأمال البسطاء.. نسيم مرقص الذي تجاوز عامه السبعين ببضع سنوات تفرغ بعد سن المعاش إلى خدمة الكنيسة وأصبح رئيس شمامسة كنيسة العذراء مريم بشارع مسرة. تلك الكنيسة، التي خدم بها نسيم كشماس منذ انتقاله من المنيا إلى القاهرة، تردد عليها خلال العشر سنوات الماضية بعض شباب المصليين أصحاب الأفكار المروجة لفكرة اضطهاد الأقباط، ولم يستطع صوت الحكمة المتمثل في نسيم والكثير من الكهنة والقساوسة من السيطرة على غضبهم في ظل تزايد الإحساس بالاضطهاد الممزوج بالرغبة في الاستقواء بالمنظمات الدولية لحقوق الأقليات التي تساندها الدول الغربية المسيحية وفي مقدمتهم الولايات المتحدة الأمريكية .

الأحداث المتلاحقة في عام ٢٠١٠م والتي تضمنت (أحداث نجع حمادي[١] – إسلام وفاء قسطنطين وكامليا شحاتة ، وتحول مسألة إسلامهما إلى قضية جهاد حشدت الكثير من أصحاب الأفكار المتطرفة إلى المنادة بإسقاط دولة الكنيسة وفقاً لرؤيتهم الشخصية – أحداث كنيسة العمرانية في ٢٤ نوفمبر ٢٠١٠م والتي أسفرت عن تجمهر الأقباط واعتدائهم على قسم شرطة العمرانية ومحافظة الجيزة بعد البدء في تنفيذ أمر إزالة المباني غير المرخص بها في الكنيسة) كانت كفيلة بوضع روح التعايش السلمي بين المسلمين والأقباط على المحك ، ولكن العلاقة الحميمة بين أنجيل وزوجها بـ كل من بهية وسعيدة كانت أقوى من رياح الشر التي ضربت روح التعايش بين المسلمين والأقباط ، وظل نسيم وزوجته كعادتهما يترددا إلى سعيدة وحفيدتها حياة التي استحوذت على حبهما مثلما فعلت أمها في السابق .

وفي مساء يوم الاثنين ٢٤ يناير عام ٢٠١١م كان مصري وأمل مدعوين لتناول العشاء مع ياسمين والدكتورة شهندة وزوجها شادي البارودي في نادي الإعلاميين وتقابلوا مع الأستاذ أحمد عنبة[٢] الذي منذ لقائه بهم أطلق حديث امتلئ بعبارات ثورية عن ضرورة حشد كل طوائف المجتمع المصري يوم الثلاثاء ٢٥ يناير في

---

(١) في عشية عيد الميلاد ٦ يناير ٢٠١٠م وقع حادث إطلاق نار على مسيحيين قرب الكنيسة بنجع حمادي وأسفر عن سقوط ٧ قتلى و١٠ مصابين بعد أن قام الجناة بإطلاق النار بشكل عشوائي في شارع بورسعيد وسط المدينة وبجوار دير الأنبا باضابا بقرية زليتين بعد قيامهم بالهجوم الأول على كنيسة نجع حمادي بهدف قتل الأقباط بصورة عشوائية . وقد كانت دوافع الهجمات الإجرامية مرتبطة بالانتقام لحادث اغتصاب تعرضت له فتاة مسلمة قاصر (١٢ سنة) على يد شاب مسيحي (٢١ سنة).

(٢) صحفي يعمل في جريدة صوت الحرية. حاصل على بكالوريوس في الاقتصاد والعلوم السياسية. في نهاية العقد الثالث من العمر . ذو ملامح طيبة تحمل رسوماتها دائماً تعبيرات براءة وطهارة . من أسرة مصرية عريقة تنتمي إلى طبقة المثقفين الأحرار ؛ حيث كان جده لوالده أحد رموز حزب الوفد قبل أحداث يوليو ١٩٥٢م ، ووالده محمود عنبة أحد شيوخ القضاة الذين وقفوا في وجه النظام أثناء تزوير الانتخابات عام ٢٠٠٥م . يُعد أحمد عنبة من أهم نشطاء المعارضة الشبابية لنظام الحكم القائم ، وله مدونة تحمل اسم " استيقظ يا مصري . الحرية تستحق النضال " على موقع التواصل الاجتماعي خصصها لكشف وقائع فساد رجال السلطة وطغيان نفوذ أصحاب رؤوس الأموال الذين اعتلوا سلم السياسة والحكم العقد الأخير من القرن الواحد والعشرين . من خلال ذلك ارتبط مع ياسمين المنشاوي بعلاقة عاطفية وتقدم لخطبتها وتحدد ميعاد الخطبة رسمياً في الأسبوع الأول من شهر فبراير .

ميدان التحرير للتعبير عن رفض الظَلامة الاجتماعية والطغيان السياسي ، وتقييد الحريات رافعين شعار «عيش .. حرية .. عدالة اجتماعية » حتى يستوعب النظام الحاكم وأتباعه من المنتفعين أن جموع المصريين سئموا الشعارات الكاذبة والسياسة الفاسدة .. وبعدما أنهى أحمد عنبة خطبته الحماسية ، حول فعاليات المظاهرة السلمية بميدان التحرير التي دعى إليها عددًا من المثقفين عبر شبكة التواصل الاجتماعي عصر اليوم التالي ، سألته أمل بصوت شغوف وعيون ترقب وخوف : هل تعتقد أن هذه المظاهرات ستمر دون مصادمات مع الشرطة؟ وما الذي يضمن عدم تحول هذه المظاهرات إلى أحداث شغب وعنف من الغوغاء لتتكرر أحداث ١٧ و١٨ يناير ١٩٧٧م؟ .. فتقول شهندة بصوت تأكيد وعيون قلقة موجهة كلامها إلى أحمد: اعتقد أن كلام أمل جدير أن نقف عنده ونحطاط له ؛ فبجانب الصعوبات التي قد نواجهها من الشرطة نتيجة لتنظيم هذه المظاهرة التي ستنادي بشعارات ستسبب قلق وإحراج للحكومة ، فالشيء الذي يدعوني للقلق هو السلوك الغوغائي الذي يمكن أن يخرج من العامة والسوقة وسيؤدي حتماً إلى صدام وعنف مع الشرطة ، وستتحول مظاهرتنا السلمية إلى شغب واضطرابات .. فيقول شادي بصوت حِكْمَةُ بعدما اصطنت بتأمل لكل من أمل وشهندة : بكل تأكيد يجب الوضع في الاعتبار أن استفزاز الشرطة سيخرج التظاهر من السلمية إلى العدوانية ولن يكون ذلك مفيدًا، وقد يؤدي في النهاية إلى تكرار أحداث ١٧ و١٨ يناير .. فيقول مصري بصوت به تحدي وهو ينظر إلى الحضور بصورة تتابعية : سنقف لكل محاولة لتحويل تظاهراتنا السلمية إلى اضطرابات ومشاحنات . مصر ليست أقل من تونس التي استطاع ثوارها الإطاحة بنظام بن علي المستبد . يجب أن نحشد كل طاقتنا حتى نجبر الحكومة والبرلمان على السقوط ، ونأتي بسلطة تنفيذية وتشريعية تسعى لتحقيق العدالة الاجتماعية وتُصلح ما أفسدته الحكومات السابقة .. فيقول شادي بصوت رافض موجهاً كلامه إلى مصري : أنا اتفق معك في الإصلاح ولكني اختلف معك في مقارنة الوضع المصري بنظيره التونسي ؛ فمصر ليست تونس والوضع مختلف ، ونظام مبارك لا يمكن أن يسقط بهذه السهولة التي تتخيلها يا مصري . هل تعتقد

أن تسقط هذه الدولة البوليسية الحديدية المدعومة من القوى الأقليمية والدولية بهذه السهولة التي سقط بها النظام في تونس ؟ .. فتجذب شهندة الحديث قائلة بصوت به حرقة وملامح بها غضب : بكل تأكيد نحن لن نطالب بإسقاط رئيس الجمهورية ، ولا بإحداث فراغ في السلطة . لكننا نطالب بإصلاح سياسي واجتماعي واقتصادي ، وأول هذه الإصلاحات هو إسقاط البرلمان الذي جاء نتيجة التزوير، وإسقاط الحكومة التي خصخصت الشركات والمؤسسات الاقتصادية والتجارية بدون دراسة أو تخطيط وأدت إلى تشريد مئات الآلاف من العمال والموظفين لينضموا إلى مئات الألوف من العاطلين . نحن نريد إصلاح منظومة التعليم التي خُصخصت بصورة غير مباشرة ، وأصبح التعليم الحكومي مهمل والمدارس الحكومية أصبحت تشبه مدارس المواطنين السود بجنوب أفريقيا في ستينيات القرن الماضي .. فيقول أحمد عنبة بعدما استنط جيداً لكلام مصري وشهندة وشادي : يا حضرات التغيير قادم قادم وبركان غضب المصريين سينفجر في وجه الظلم والفساد. كل الدعوات التي أطلقها النشطاء على مواقع التواصل الاجتماعي تدعو إلى سلمية التظاهر ، وسنفعل كل ما في وسعنا لنحافظ على هذه السلمية ونظهر للعالم أن الشعب المصري قادر على تغيير أوضاعه بصورة حضارية .. فتقول أمل بصوت به شيء من الخوف وهي تنظر إلى زوجها بعيون قلقة : أنا أعلم أنك ستذهب إلى هذه المظاهرة . أتمنى أن يمر هذا اليوم على خير .. فتضحك ياسمين ضحكتها المرحة المعتادة وهي تقول بصوت ساخر موجهة كلامها إلى أمل : يا دكتورة كما يقول المثل الشعبي "عمر الشقي بقي[1]" ، وزوجك شقي جداً .. ثم تنظر إلى أحمد عنبة وتقول بنفس أسلوبها الساخر : بكل تأكيد أنت تريد أن أقول لك نفس الكلام التي قالته أمل إلى مصري .. فيضحك أحمد وهو ينظر إليها نظرة مليئة بالدعابة والمرح قائلاً بصوت متقطع من شدة الضحك : نعم .. فتقول أمل : يا أستاذ يا مبجل أنا يدي ستكون في يدك ولن أتركك . هل تتخيل أني سأتركك

(١) والمقصود هو أن عمر الشقي طويل . والشقي في لغة العرب هو التعيس ؛ ولكن المثل السابق لا يعني ذلك ، بل يعني بكلمة (الشقي) معناها الدارج في لهجاتنا العامية ، وهو كثير الحركة والتفكير والنشاط

تفلت من يدي؟.. فتتعالى ضحكات الحاضرين وتنكسر حدة الحديث عن التظاهر، ويبدأ الحضور في إطلاق النكات الساخرة وهم يتناولون الطعام و يدور بينهم بعدها أحاديث عامة تعرض معظمها إلى السيناريوهات المتوقع حدوثها في الغد حتى ينصرف بعدها كل اثنين إلى حال سبيلهما على وعد بالتقابل أمام نقابة الصحفيين الساعة الثالثة من مساء اليوم التالي ؛ لتظل أمل طوال تلك الليلة في حالة توجس وخيفة من خروج زوجها في مظاهرة اليوم التالي ، وتعيش في صراع نفسي بين حواجز الخوف من تكرار مأساة فقدان أبيها وبين رغبتها في التخلص من قيود العبودية والخنوع لتجرع الظلم .

وفي ظهيرة اليوم التالي كان مصري قد ارتدى ملابس رياضية وجهز يافطة صغيرة كتب عليها بخط يده «عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية.. الوطن كلمة لا يفهم معناها المفسدون» . وخلال تجهيزه لليافطة كانت نظرات أمل الساكنة تخفي ورائها شعور القلق والخوف ، وتعبيراتها الصامتة تلاحق تحركات زوجها وهو يجهز للخروج . وعندما استشعر مصري ما بداخل زوجته من صراع تقدم نحوها بعيون حانية ووضع على وجنتيها قبلة رومانسية دافئة ، ثم قال بصوت كله تفاؤل : أنا أشعر أن اليوم سيكون يوم تاريخي في حياة المصريين وستتحقق أمانينا في غد أفضل.. فتقول أمل بصوت هادئ وهي تنظر إليه نظرة تفاؤل أخفت ورائها شعور القلق والخوف: اللهم احفظك لنا . وإن شاء الله ستتحقق أمانيك .. فتزداد تعبيرات مصري تفاؤلاً ويقول بصوت يقين : سأعود منصور بإذن الله وسنحقق حلمنا في التخلص من القهر والفساد حتى يعيش كل المصريين عيشة كريمة، ولو كتب الله لي العمر سأتذكر مع حياة ما حدث في ذلك اليوم.. ثم يقول بصوت حملت نبرته نغمة شوق : أرجوكي اطلبي من حماتي أن نستعيد حياة الليلة فهي عندهم منذ يومين وافتقدتها كثيراً .. فتعانقه أمل وهي تقول : سأتصل بـ أمي وأذهب إليها بعد العشاء عقب لقائي مع الدكتور إبراهيم حسان بالمستشفى. سأنتظرك هناك لنأخذ حياة ونعود إلى البيت سوياً. أرجوك تتأكد أن بطارية تليفونك المحمول ليست فارغة .. فيدفعها مصري

برفق عندما استشعر أنها تبكي ليجفف دموعها بيده وهو ينظر إليها نظرة عاشقة ليقول بصوت طمأنة : لا تخافي يا حبيبتي . فأنا ذاهب في مظاهرة سلمية يترقبها العالم كله، وسنحقق من خلالها بإذن الله ما نحلم به من إصلاح.. وما أن أكمل مصري جملته حتى طرق باب المنزل فإذا بـ ياسمين وأحمد عنبة يدخلان مرتدين الملابس الرياضية وكل واحد منهما ممسكًا بحقيبة رياضية .. وعندما نظرت ياسمين إلى أمل وجدت عينيها مرغرغتين بالدموع ، وملامحها تتملكها الخوف والقلق ؛ فضحكت ضحكتها الطفولية الجميلة واتجهت نحوها تحضنها قائلة بصوتها المرح : ما الذي حدث يا حاجة أمل ؟ هل تعتقدي أن زوجك ذاهب إلى الجهادية .. فتنظر إليها أمل نظرة تحولت خيوطها من الحزن إلى الضحك ثم تقول : أنتِ دائماً هكذا يا ياسمين . الله يعين خطيبك لن يأخذ منك سوى السخرية .. فتنظر ياسمين إلى أحمد نظرة استكشافية ساخرة بعدما شهدته يضحك بصوت عالٍ ثم تقول : أعجبتك هذه الجملة . على كل حال أنت الخاسر .. فيستمر أحمد في الضحك وهو يقول بصوت استعطاف مرح: يا حبيبتي أنا أعشق كل شيء تفعليه .. فتقول ياسمين : لقد أحسنت الكلام يا حضرة الصحفي المبجل . ثم تنظر إلى شقيقها قائلة : هل ستتركونا نقف ولا يتعطف علينا أحد منكما ليدعونا بالدخول ؟ .. فتقول أمل : هل تحتاجي إلى دعوة ؟ تفضل يا أستاذ أحمد سأجهز لكما الغداء .. فتمسك ياسمين يدها وتقول بصوت فضول : ماذا طهيت اليوم يا دكتورة ؟ .. فتقول أمل : مكرونة وفراخ بانية .. فتقول ياسمين بأسلوب مرح : يالا الحظ السيء . لقد نفذ مخزون حمام الخالة سعيدة . على كل حال جهزي الطعام قبل أن ألتهم ذراع أخي .. فتضحك أمل ضحكة من القلب وهي تنظر إلى زوجها قائلة: ما أسعدني بهذه الفتاة . سأجعل خالتك سعيدة تطهو لنا الحمام الجمعة القادمة إن شاء الله.. فتقول ياسمين : ربنا يحفظ لنا سعيدة ويزيد من حمامها .. فيضحك مصري وهو يقول موجهاً كلامه إلى شقيقته : جهزي مع أمل الأكل حتى نكمل اليافطات التي سنوزعها على أعضاء الحركة قبل التحرك إلى ميدان التحرير ، فلم يتبق أمامنا وقتًا .. فتقول أمل : سأترك ياسمين تساعدكم وسأجهز لكم

الطعام في دقائق .. وعقب تناولهم الطعام وتجهيز أعداد لا بأس بها من اليافطات انطلق الثلاثة لمقابلة باقي أعضاء الحركة أمام نقابة الصحفيين بعد وداع أمل لهم ببسمات التفاؤل والدعاء بالعودة سالمين .

وأمام نقابة الصحفيين تقابل الثلاثة مع حشد كبير من حركة كفاية كان في مقدمتهم رموز الحركة ، وعدد من الفنانين والرياضيين والسياسين المعارضين وأساتذة الجامعات المعارضين لنظام مبارك . ومع وصول عقارب الساعة إلى الثالثة عصر يوم ٢٥ يناير ٢٠١١م تحرك جموع المتظاهرين نحو ميدان التحرير مروراً بشارع طلعت حرب في مسيرة سلمية ، وهم يرددون «عيش .. حرية .. عدالة اجتماعية » – «سلمية .. سلمية» وقد وصل أعداد المتظاهرين إلى نحو عشرين ألفًا من مختلف الأعمار والطبقات الاجتماعية التي لا تنتمي إلى فصيل سياسي ، بجانب بضع آلاف من الشباب غير المنتمي إلى القوى الحزبية والذين ينتمون إلى الحركات والمنظمات المناهضة لسياسة النظام الحاكم لينضموا إلى باقي المتظاهرين في ميدان التحرير ليقترب أعداد المتظاهرين هناك إلى نحو خمسين ألفًا ، كونوا تبلوهات إنسانية اجتماعية رائعة كانت مسار إعجاب المجتمع الأقليمي والدولي الذي ركز إعلامه على هذا الحدث بكل تفاصليه .. ومع غروب شمس يوم ٢٥ يناير تزايدت أعداد المتظاهرين في ميدان التحرير ونشبت بعض المشاغبات والاستفزازات من بعض المتظاهرين لقوات الأمن المركزي التي احتشدت أمام الجامعة الأمريكية ، حيث كانت تلك القوات تغلق المداخل المؤدية إلى وزارة الداخلية والسفارة الأمريكية .. الأخبار التي كانت تتنقلها قناة الجزيرة وقناة العربية وقناة لـ BBC الناطقة باللغة العربية كانت تتعمد إظهار الأحداث بصورة تكعيبية تحفيزية ضد نظام الحكم المصري ، وأظهرت ما يحدث في ميادين القاهرة والاسكندرية والسويس والمحلة وكثير من المحافظات على أنه صراع بين قوى الشر الظالمة المتمثلة في (الرئيس حسني مبارك ووزارة الداخلية ممثلة في وزير الداخلية «حبيب العادلي» والحكومة التي يترأسها د أحمد نظيف ، وأعضاء الحزب الوطني الحاكم) وقوى الخير المقهورة من الشعب المصري التي خرج الملايين منها في تظاهرت بمئات

الألوف في معظم الميادين العامة بالمحافظات مطالبة بوضع حد لاستبداد الحكومة مرددة شعار «عيش . حرية . كرامة إنسانية . عدالة اجتماعية» .. الغرور السياسي وعنفوان الاستبداد وطغيان القوة جعل القائمين على السلطة ينظرون إلى تلك التظاهرات الشعبية بعين التعالي والدونية ، وتعاملوا مع التظاهرات على أنها زوبعة في فنجان سرعان ما ستنتهي ، ونظروا إلى بركان الغضب الذي يكمن في قلوب المصريين تجاه القهر والذل والفساد والحرمان على أنه سحابة دخان سرعان ما ستنجلي ؛ فكانت إدارتهم للأزمة إدارة عمياء صماء ذات فكر معاق لم ترى وتفهم أبعاد هذه التظاهرات ، وخطورة من يقف ورائها ويساندها .. وقد كانت إحدى الوسائل الرجعية التي اتبعتها الحكومة في هذا اليوم المشهود هو تعطيل شبكات التليفونات المحمولة وشبكة الإنترنت حتى تقطع عن المتظاهرين الاتصال وتعزلهم عن العالم الخارجي . ومع اقتراب الساعة من الثانية عشر مساء هذا اليوم المشهود ، وأمام انقطاع وسائل الاتصالات التليفونية كان القلق والتوتر قد تملك من مشاعر أمل بعدما وصلتها أخبار بسقوط جرحى من المتظاهرين في الميدان ، وبدأ تفكيرها يُخيل لها أن زوجها من ضمن هؤلاء المصابين ، ودفعها هذا التفكير المضطرب إلى الذهاب إلى ميدان التحرير ولم تستمع إلى توسلات سعيدة لها بعدم الذهاب إلى التحرير في ظل الاضطرابات والمشاحنات التي تُعرضها القنوات الفضائية العربية.. وفي خلال دقائق من مغادرتها منزل أمها في شارع معمل السكر بمنطقة جاردن سيتي كانت أمل قد وصلت ميدان التحرير ، وقد أكل الخوف والقلق مشاعرها بعدما سمعت بعض المتظاهرين على طول الطريق من شارع القصر العيني حتى الميدان يتحدثون عن قتلى وجرحى بالمئات . وفي خلال ساعتين من وصولها إلى الميدان كانت أمل قد بحثت في كل ركن في الميدان عسى أن تجد أو تسمع شيء يطمأنها عن زوجها . ومع تملك شعور اليأس منها بدأت في شق طريقها نحو العودة إلى منزل أمها وقلبها يدمع وملامحها الصامتة المتوترة تكاد تصرخ من شدة الخوف والقلق على زوجها . وخلال طريق عودتها إلى منزل أمها وأمام تمثال عمر مكرم سمعت ضجيج وطلقات نيران وشاهدت جموع من المتظاهرين يهلعون نحو جامع

عامر أبو المكارم وسط دخان من الغازات المسيلة للدموع، وخلال ثوان من تلك الأحداث الدراماتيكية سقطت مغشياً عليها من شدة الاختناق لينقلها بعض الشباب المتطوع إلى جامع عامر أبو المكارم ، وعندما استفاقت من الإغماء وجدت نفسها داخل الجامع وحولها فتاة في بداية العقد الثالث من العمر ترتدي زي الأطباء وتقدم لها الإسعافات الأولية .. وبصوت واهن ضعيف وعيون مكسورة من الحزن قالت أمل : أين أنا ؟ وما الذي حدث لي ؟ .. فتقول الفتاة بصوت طمأنة وملامح بشوشة : أنتِ في مسجد عامر أبو المكارم . وأنا الدكتورة إيناس الغيطاني طبيبة امتياز في القصر العيني . تطوعت مع كثير من شباب الأطباء لإسعاف المتظاهرين .. فتقول أمل بصوت استنجاد ولهفة : أنا الدكتورة أمل نائبة أمراض النساء بمستشفى أحمد ماهر التعليمي . هل هناك عدد كبير من المصابين ؟ هل هناك حالات وفاة ؟ هل يمكن أن استعلم عن زوجي ؟ .. فتقول إيناس بصوت تهدئة بعدما قدمت إليها شاب يرتدي زي الأطباء : الدكتور خالد عبد السميع زميلي في القصر العيني . لا توجد أية حالات وفاة ، والإصابات كلها عبارة عن حالات إغماء نتيجة الاختناق من الغازات المسيلة للدموع .. ثم تشير إلى أمل وهي توجه كلامها إلى زميلها : الدكتورة أمل نائبة نساء في مستشفى أحمد ماهر وتسأل عن زوجها .. فينظر الدكتور خالد إليها نظرة تأملية ودودة ، وهو يقول بصوت ترحيب ثم تساؤل : أهلاً يا دكتورة . حمداً لله على سلامتك . هل كان زوجك معكِ في الميدان وقت قيام الشرطة بتفريق المتظاهرين .. فتقول أمل بصوت ما زال الوهن يسيطر على نبرته: الدكتور مصري المنشاوي زوجي كان في المظاهرة منذ بدايتها ولم يرجع إلى البيت، وعندما تأخر قررت البحث عنه فجئت إلى الميدان ولم استطع العثور عليه .. فيقول خالد : حضرتك زوجة الدكتور مصري نائب الجراحة بمستشفى الساحل . تشرفنا يا دكتورة . أنا تقابلت مع الدكتور مصري منذ حوالي ثلاث ساعات ، وقد كان معنا حالة تتطلب الذهاب إلى المستشفى فاصطحبها إلى هناك .. فتقول أمل بصوت استعاد الروح وتعبيرات ملامحها تكاد تصرخ من الفرحة: رأيت مصري . الحمد لله. اللهم لك الحمد والشكر .. ثم تقول بصوت تساؤل : هل تعرف زوجي ؟ .. فيقول

خالد بصوت اعتزاز : نعم الدكتور مصري طبيب فاضل وهو الذي كان يشرف على تدريبي أثناء مرحلة الامتياز ، وأعرف تاريخه الوطني ونضاله المشرف . اطمئني يا دكتورة هو بخير . عندما تذهبِي إلى بيتك سيكون هناك إن شاء الله .. فتقول أمل بصوت واهن غلفه الشكر والحمد بعدما هدأت أسارير ملامحها المتوترة : شكراً على المساعدة واتمنى لكما التوفيق .. فتقول إيناس بصوت اعتزاز وقد ارتسمت على وجهها بسمة إصرار وعزيمة : يا دكتورة لا شكر على واجب وطني ؛ فهذا اليوم بالنسبة لنا هو بداية الأمل نحو التخلص من جبال الفساد التي تحجب عنا طريق التنمية والرخاء . وسنكون يوم الجمعة القادم هنا بإذن الله ومعنا ملايين المصريين لنكمل مسيرة الحرية التي بدأناها اليوم .. فتقول أمل بصوت إعجاب وتعبيرات استحسان : ربنا سيصلح الحال ويتحقق الأمل في إصلاح حال البلاد والعباد . ثم تنظر في ساعة يدها فتجدها قد اقتربت من الثانية صباحاً فيرتسم على وجهها ملامح تعجب مصدوم وتقول بصوت منفعل : لقد تأخرت كثيراً ويجب أن أعود إلى البيت .. فيقول خالد بصوت اعتراض متأدب : هل تسمعي أصوات طلقات الغاز . قوات الشرطة تمطر الميدان بالغاز المسيل للدموع وتستخدم خراطيم المياة لتفريق المتظاهرين الذين أعلنوا اعتصامهم في الميدان حتى تستجيب الحكومة لمطالبهم . وخروجك الآن مخاطرة غير محسوبة خاصة بعد حالة الإغماء التي تعرضتي لها . أرجوكي يا دكتورة انتظري حتى تهدأ الأمور .. فتقول أمل بصوت فزع : يجب أن اتصل بأمي وأُطمأنها .. فيقول خالد : لقد قطعوا الاتصالات عن شبكات التليفونات المحمولة ، ولن تستطيعي الاتصال .. فتقول إيناس : اعتقد أن قاعة المناسبات بها تليفون أرضي ويمكننا استئذان الشيخ مدكور فاطين من أجل استخدام التليفون ؛ فهو لم يبخل بتقديم أي مساعدة لمن لجأ إلى الجامع بعدما قامت الشرطة بتفريق المتظاهرين والمعتصمين .. فتقول أمل بصوت توسل : أرجوكما . فبكل تأكيد فقد أكل القلق والخوف مشاعر أمي، وأخشى أن تأتي إلى الميدان لتبحث

عني مثلما فعلت مع زوجي .. فيتوجه خالد ليتقابل مع الشيخ مدكور فاطين[١] وبعد أقل من دقيقة يعود ويصطحب أمل لتجري مكالمة تليفونية بـ سعيدة التي كاد القلق أن يفتك بها فتطمأنها أمل ، وتطمأن على مصري الذي وصل إلى منزل حماته قبل اتصال زوجته ببضع دقائق وكان يجهز نفسه للذهاب إلى التحرير . وبعدما تقص لهما أمل ما حدث لها يتحدث خالد مع مصري ويطمأنه على صحة زوجته ويبلغه أنه سيقوم بتوصيلها عقب هدوء الوضع بالخارج .. ولم يمر ساعة على هذه المكالمة التليفونية حتى استطاعت الشرطة تفريق المتظاهرين ، وفض الاعتصام داخل حديقة الميدان الذي قام به عددًا من الشباب الذين شاركوا في المظاهرات لتهدأ الأمور تماماً داخل الميدان مع آذان فجر يوم ٢٦ يناير ، وتعود أمل إلى بيت أمها لتجد مصري وسعيدة وطارق صيام في انتظارها بمشاعر فرحة وملامح استعادة دمائها التي جفت من التوتر والقلق .. وبعدما هدأت المشاعر المحتقنة المضطربة بالأحضان والقبلات قصت أمل ما حدث لها منذ لحظة نزولها إلى الميدان وسط مشاعر فرحة مصري بعودة زوجته ، ودموع فرحة سعيدة الممزوجة بدعاء شكرها لله على سلامة ابنتها ، ونظرات طارق صيام المسرورة . ثم يقص مصري بكل فخر واعتزاز ما حدث خلال مظاهرات الأمس منذ تجمع أعضاء حركة كفاية أمام مبنى نقابة الصحفيين حتى مغادرته الميدان إلى مستشفى القصر العيني الجامعي بصحبة عدد من المصابين قبل حلول منتصف الليل .. وبنظرات ترقب وآذان صاغية كان طارق صيام يتابع كل كلام أمل وزوجها حتى ما انتهى مصري من كلامه قال بصوت تساؤل متخوف : يا دكتور مصري . هل تعتقد أن التظاهرات لن

---

(١) إمام جامع عامر أبو المكارم . تبدو على ملامحه النعومة والدهاء . لم يتجاوز عمره الأربعين عام . يقدم عدد من البرامج الدينية ببعض القنوات الدينية التي تبث برامجها على القمر الصناعي " النيل سات " من مدينة الإنتاج الإعلامي . لم يُعهد عليه ممارسة السياسة ، ومثل كثير من نظرائه كان يتجنب الحديث عن النظام الحاكم بل ويداهنه . في يوم ٢٥ يناير ساهم بدور إيجابي في تقديم المساعدات الإنسانية للمصابين أثناء قيام الشرطة بفض التظاهر . في الأيام التالية ليوم ٢٨ يناير خلع قناع الخنوع وارتدى مثل كثير من المتربصين بالنظام الحاكم والمرتزقة السياسية قناع البطولة الثورية وساهم بحسن نية أو سوء نية في تنفيذ مخطط الفوضى الذي كان يهدف إلى سقوط الدولة وفشل منظماتها .

تكون مأوى لكثير من المغرضين وأصحاب المصالح الخاصة ؟ هل تعتقد أن هؤلاء سيتركوا مسرح الأحداث بدون أن يؤثروا في المشهد لتكون النتيجة في صالحهم دون النظر إلى الغاية النبيلة التي خرج من أجلها الآلاف من المصريين . أنا أخشى أن تُستغل هذه التظاهرات في تحقيق أغراض خاصة .. فتقول أمل بصوت رافض متأثر بما شهدته من حماس حقيقي ومشاعر نبيلة صادقة داخل الميدان أثناء جولتها بحثاً عن زوجها : يا عمي لقد رأيت بنفسي وتحسست مدى صدق مشاعر وغاية المتظاهرين في الميدان . كيف لنا أن نرفض التغيير الذي سيؤدي إلى إصلاح حال البلاد بعد فترة طويلة من الظلام السياسي والاجتماعي والثقافي .. فيبتسم مصري ابتسامة صافية وهو ينظر باستحسان لكلام زوجته قائلاً بصوت يقين موجهاً كلامه إلى طارق صيام : يا دكتور . صحيح أن المظاهرات ستكون مسرحًا لتجمع كل الأطياف والألوان السياسية والاجتماعية ، ومن المتوقع أن يحاول البعض أن يدفع بدفة التظاهرات نحو مصالحه الخاصة بغض النظر عن المصلحة العامة التي يتفق عليها الجميع . لكننا سنقف ضد كل المحاولات العبثية التي تريد استخدام حماس المصريين لتحقيق مآرب شخصية أو أجندات خاصة .. فتلاحق سعيدة كلام مصري ، وتقول بصوت ضاق من الحديث في الأمور السياسية التي تجهلها وتمل منها، موجهة كلامها إلى أمل: ستمكثا معنا الليلة. سأطهو لكما الحمام.. فيقول مصري بصوت فرحة وعلى وجهه ابتسامة عريضة : حمام خالتي سعيدة لا يقاوم . سنذهب الآن وسنعود على الغداء .. فتقول أمل وهي تنظر إلى زوجها نظرة تساؤل: لماذا لا نمكث هنا حتى الغداء؟ .. فيقول مصري : ستحضر ياسمين وأحمد إلى منزلنا فقد تركت الكاميرا التي صورنا بها الأحداث في البيت ؛ فقد مررت هناك قبل حضوري إلى هنا ، وقد تركت ياسمين رسالة صوتية تخبرني بأنها ستحضر الساعة ٣ عصراً لتحصل على الكاميرا .. فتقول سعيدة : عظيم . سأتصل بها لتحضر على الغداء ؛ فهي تعشق الحمام .. فيضحك طارق صيام قائلاً بصوتٍ ساخر وهو ينظر إلى زوجته : لقد أوقعتي بكل من أكل الحمام الذي تطهيه. فتضحك سعيدة وهي تقول: الحمد لله أنه رزقني بشيء يجعل لي قيمة بينكم .. فتنهض أمل وتتجه نحو أمها

وتقبل يدها وتحتضنها قائلة بصوت بنوة امتلأت نبرته بنغمات الحب والتقدير: يا أمي أنتِ أقدر وأكفئ أم رأيتها في حياتي، ولولا شخصيتك القوية وإرادتك الفولاذية ما استطعت أن أحقق ما حققته في حياتي .. فيقول مصري بصوت يقين: يا حماتي. أنا لا أجاملك لو قلت لكِ أنكِ أعظم أم، وتستحقي جائزة الأم المثالية .. فيقول طارق صيام بصوت إمتلأت نبرته بالحب : أنها تستحق لقب الزوجة المثالية بجانب لقب الأم المثالية.. فتبتسم سعيدة إبتسامة خجل وتقول: ربنا يحفظكم جميعاً. سأجهز طعام الإفطار.. فيقول مصري: أرجوكي يا حماتي اسمحي لنا أن نذهب الآن.. فتقول أمل : بالفعل يجب علينا الذهاب الآن حتى أستحضر بعض الأوراق الخاصة برسالة الماجستير وسنحضر على الغداء.. فيقول طارق صيام بصوت تأكيد: سننتظركما على الغداء لا تتأخرا.. فينهض مصري وزوجته ويلقيا السلام وينصرفا إلى منزلهما بعد ساعات طويلة من الأحداث المتلاحقة التي رغم صعوباتها فقد بعثت فيهما شعور الأمل، وكانت الدافع الرئيسي في اتجاه أمل نحو المشاركة الإيجابية في التظاهرات الشعبية التي تهدف إلى إصلاح المجتمع المصري ؛ حيث قررت المشاركة في تلك التظاهرات التي دعا إليها نشطاء الشباب الثائر على شبكة التواصل الاجتماعي يوم الجمعة القادمة وأُطلق عليها اسم «جمعة الغضب».

وفي ظهيرة اليوم التالي حضرت ياسمين بصحبة خطيبها أحمد في الميعاد المحدد ليتقابلا مع أمل ومصري .. وبعد كلمات ترحيب ومودة تبادلها الحضور جلسوا في صالة الاستقبال قص مصري على شقيقته وخطيبها بأسلوبه الشيق ما حدث له بعدما رحل الاثنان عن الميدان بالأمس ، وما حدث لزوجته عندما توجهت إلى الميدان وسط تعبيرات ثناء ياسمين وأحمد واستحسانهما الممزوج باصرار وعزيمة الثائر .. وبصوت غضب وملامح ثائرة قالت ياسمين بعدما أنهى مصري كلامه : لقد سقط بالأمس في حوالي الساعة التاسعة مساءً أول شهيد للثورة في ميدان الأربعين بمحافظة السويس اسمه مصطفى رضا محمود عبد الفتاح. عمره ٢٠ عامًا قتلته رصاصة غدر من قوات الشرطة أمام قسم الأربعين ؛ حيث اشتبكت قوات الأمن مع المتظاهرين هناك ، واستخدمت الشرطة القنابل المسيلة للدموع

والرصاص المطاطي وأصابت ١٠٠ مواطن من حوالي ٨٠٠٠ تظاهروا أمام القسم.. فتقول أمل بصوت غضب وملامح استنكار قاتمة : حسبنا الله هو نعم الوكيل . لقد أخبروني بالأمس بعدم وجود قتلى في صفوف المتظاهرين .. فيقول مصري بصوت غاضب وملامح حزينة ثائرة : بإذن الله دماء هذا الشهيد ستُسقط حكم الظلم والطغيان ، وإن شاء الله سيكون هذا الشاب الثائر هو محمد بوعزيزي الثورة المصرية[1] .. فيقول أحمد بصوت هادئ وعيون حالمة : بإذن الله سيكون هذا الشهيد الشرارة التي ستفجر هذا النظام . هناك خبر أسعد كل الثوار في الميدان . لقد قرر الدكتور محمد البرادعي[2] العودة إلى مصر ليقود مظاهرات يوم الجمعة القادمة ..

---

(١) مع نهاية يوم ٢٥ يناير ٢٠١١م تعمدت وسائل الإعلام عن قصد أو جهل أو طمعاً في تحقيق مكاسب مادية بإذاعة وبث فكرة قيام الشرطة بقتل المتظاهرين وإرهابهم والتنكيل بهم فأصبح الشخص الذي يهاجم أقسام الشرطة ويحاصرها وطني ثائر يهاجم المستعبد وكأن قوات الشرطة المصرية هي قوات احتلال أجنبية . وقد ساهم في نزع فتيل الأزمة وتأكيد ما تبثه تلك القنوات هو غباء القائمين على إدارة الأزمة وضعف القدرات التدريبية والذهنية للغالبية العظمى من قوات الشرطة واستكبار وتعالي قياداتها مما أعطى لمن قاموا على تنفيذ مخطط الفوضى سهولة تنفيذ ذلك المخطط بسهولة ويسر ومباركة جموع الشعب المصري الذي كان قد ضاق بهم الحال من الممارسات الخاطئة للشرطة .

(٢) " محمد مصطفي البرادعي" سياسي مصري ولد ١٧ يونيو ١٩٤٢م في حي الدقي بمحافظة الجيزة، ووالده مصطفى البرادعي كان نقيباً للمحامين عدة فترات في عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وعضو مجلس الأمة . يعتبر من الشخصيات الجدلية التي أثيرت حولها الكثير من التساؤلات منذ احتلال الولايات المتحدة الأمريكية للعراق وحتى تاريخ كتابة هذه السطور. تخرج من كلية الحقوق بجامعة القاهرة عام ١٩٦٢م والتحق بالعمل بوزارة الخارجية في عام ١٩٦٤م ضمن البعثة الدائمة لمصر في الأمم المتحدة في نيويورك وجينف ، وحصل على الدكتوراه في القانون الدولي من جامعة نيويورك عام ١٩٧٤م . بعد حصوله على درجة الدكتوراة عاد إلى القاهرة وعمل مساعداً لوزير الخارجية الأسبق " إسماعيل فهمي " حتى عام ١٩٨٠م عندما ترك العمل في الخارجية المصرية ليصبح مسئولاً عن برنامج القانون الدولي في معهد الأمم المتحدة للتدريب والبحوث ، كما كان أستاذا زائرا للقانون الدولي في مدرسة قانون جامعة نيويورك بين ١٩٨١ و١٩٨٧م . اكتسب خلال عمله كأستاذ وموظف كبير في الأمم المتحدة خبرة بأعمال وصيرورات المنظمات الدولية خاصة في مجال حفظ السلام والتنمية الدولية ، وحاضر في مجال القانون الدولي والمنظمات الدولي والاستخدامات السلمية للطاقة النووية . التحق بالوكالة الدولية للطاقة الذرية في سنة ١٩٨٤ حيث شغل مناصب رفيعة منها المستشار القانوني للوكالة ، ثم في سنة ١٩٩٣ صار مديرًا عامًا مساعدًا للعلاقات الخارجية، حتي عين رئيسا للوكالة الدولية للطاقة الذرية في ١ ديسمبر ١٩٩٧ وأعيد اختياره رئيسا لفترة ثانية في سبتمبر ٢٠٠١ ولمرة ثالثة في سبتمبر ٢٠٠٥م . في أكتوبر =

فيقول مصري بصوت اعتراض وملامح اِسْتِهْجانٌ : صحيح أننا نريد قائد يتجمع حوله كل التيارات الثورية حتى يكون لثورتنا قائد إلا أنني اتحفظ على قيادة البرادعي.. فتقول ياسمين بصوت حدة وقد ارتسمت على ملامحها تعبيرات صلدة: البرادعي هو الشخصية الوحيدة التي تستطيع قيادة الثورة فقد إخترناه منذ عام ليكون قائد الجمعية الوطنية للتغير[1]، ويتفق عليه معظم التيارات السياسية والفكرية التي تنادي بالتغيير .. فيقول مصري : يا حضرة الصحفية لابد أن يكون

٢٠٠٥ حصل محمد البرادعي علي جائزة نوبل للسلام مناصفة مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية ، ومنحت الجائزة للوكالة ومديرها اعترافاً بالجهود المبذولة من جانبها لاحتواء انتشار الأسلحة النووية!!! كما حصل على العديد من الجوائز الأخرى من أبرزها جائزة الطبق الذهبي من الأكاديمية الاوروأمريكية للإنجاز ، وجائزة موستار للسلام العالمي ، بالإضافة إلى وشاح النيل من الطبقة العليا وهو أعلى تكريم مدني من الرئيس السابق محمد حسني مبارك ، وتم ذلك فى احتفال بثه التليفزيون الرسمى المصرى وأحنى الدكتور محمد البرادعى رأسه ومبارك يقلده الوسام . فى نوفمبر عام ٢٠٠٩م وقبل خروجه إلى المعاش بشهر من عمله كرئيس للوكالة الدولية للطاقة الذرية أعلن عن تفكيره فى الترشح للرئاسة فى انتخابات ٢٠١١م بدعم عدد كبير من رموز حركة كفاية ، وعدد من الحركات المعارضة لنظام حسني مبارك كان في مقدمتها حركة ٦ أبريل والاشتراكيون الثوريون ، وسط اهتمام أجهزة الإعلام الغربية والمنابر الإعلامية المصرية غير الرسمية للتبشير برؤاه وأهدافه لمستقبل مصر ، بينما شن عليه إعلام نظام مبارك هجومًا تافهًا بأساليب غير أخلاقية ؛ حيث نشرت عدد من الصحف المصرية في سبتمبر ٢٠١٠م ، صورا عائلية خاصة لابنته ليلي البرادعي عن صفحتها على موقع " فيس بوك " تقول أنها متزوجة من شخص بريطاني مسيحي (وهو مخالف للشريعة الإسلامية) ، وهذا ما تم نفيه من سفير النمسا السابق والذي كان قد شهد على عقد زواج ليلي البرادعي على الشريعة الإسلامية في سفارة مصر بالنمسا بعد إعلان زوجها إسلامه والذي اعتبرها أنصار البرادعي خطوة تعكس تدني مستوي المواجهة مع الخصوم السياسيين للنظام . كما أثير مؤخراً جدلاً حول حصول زوجته السيدة "عايدة الكاشف " على الجنسية النمسارية وكان ذلك السبب الرئيسي الذي دفع البرادعي إلى التراجع عن الترشح حيث كان الإعلان الدستوري يضع شرطاً مانعاً لترشح المصريين المتزوجين بحاملي جنسية غير المصرية ، وعلل البرادعي انسحابه بعدم شفافية الأجواء التي ستقام خلالها الانتخابات الرئاسية .

(١) الجمعية الوطنية للتغيير هي تجمع فضفاض للمصريين بجميع انتماءاتهم السياسية والمذهبية رجالاً ونساءً بمن في ذلك ممثلين عن المجتمع المدني والشباب تهدف إلى التغيير في مصر ، ومن أجل هذا كان هناك اتفاق عام على ضرورة توحد جميع الأصوات الداعية للتغيير في اطار جمعية وطنية طُلب من محمد البرادعي أن يكون في مقدمتها ومن خلفها ، وبحيث تكون اطارًا عامًا ينطوي تحته جميع الأصوات المطالبة بالتغيير ، وهذا التنوع هو ما أثمر عن حوالي المليون توقيع على بيان معاً سنغيّر، في أقل من سبعة أشهر من تاريخ إصداره في الثاني من مارس لعام ٢٠١٠م .

قائد الثورة من الوطنيين الذين لهم تجربة وطنية في مصر ، وليس شخص عاش حياته بعيداً عن مشاكل المصريين . فمن وجهة نظري الشخصية المتواضعة أن اختيارنا لشخصية البرادعي لم تكن الاختيار الأمثل.. فيقول أحمد عنبة بصوت انفعالي وتعبيرات رافضة : هل تأثرت بما حاكه الإعلام الموالي لنظام حسني مبارك في حق الدكتور البرادعي ؟! حسني مبارك لم يعط مجال لأحد من الشخصيات الوطنية داخل مصر لتظهر على الساحة السياسية ، وكل شخص عارض سياسة الزعيم الملهم أو وقف ضد مخطط توريث الحكم كان مصيره الإقصاء من العمل السياسي؛ وخير مثال على ذلك كان كمال الجنزوري وعمر موسى وأسامة الغزالي حرب.. فيقول مصري بصوت هادئ وملامح صامتة: دعونا الآن نفكر في كيفية تحقيق التغيير، وعلى كل حال تحفظي على شخصية البرادعي ليس معناها أن اعترض على رأي الأغلبية إذا ما حاز البرادعي هذه الأغلبية .. فتبتسم أمل وهي تقول بصوت ملاطفة لتخفيف التوتر الذي ساد بين زوجها وكل من ياسمين وأحمد: يا جماعة. اهدءوا هل سنجلس نتحدث ونترك حمام الخالة سعيدة يبرد ؟ .. فتضحك ياسمين ضحكتها المرحة وهي تنظر إلى أمل نظرة تأملية ساخرة وتقول بصوتها الكوميدي : آه . تتركينا نتحدث طوال ما يقرب من نصف ساعة ولا تخبرينا أن الخالة سعيدة المبجلة دعتنا على وليمة حمام.. فتضحك أمل وتقول : لقد اتصلت بِك بالصباح وكان تليفونك مغلق فاتصلت بي منذ ساعة حتى أبلغكِ لتحضري أنتِ والأستاذ أحمد .. فتقول ياسمين بصوت بهجة وهي تنظر إلى خطيبها نظرة حانية امتلأت خيوطها بشقاوة الأطفال وحيوية الشباب : دائماً حظك سعيد ؛ رزقك الله بي وكُتب لك أن تأكل حمام الخالة سعيدة الذي لا يعلى عليه .. فيضحك أحمد بصوت متهكمًا قائلاً : الحمد الله يا حبيبتي فقد عوضني الله خيراً بحمام الخالة سعيدة .. فيضحك مصري عندما نظر إلى تعبيرات ياسمين الطفولية الغاضبة ويقول وهو ينظر إليها نظرة ترقب باسمة : لقد نطق بالكلام الذي يشعر به .. فينقض أحمد على يد ياسمين ويقبلها قائلاً بصوت توسل ساخر: أرجوكي أن تغفرِ لي زلة لساني . فأنتِ أجمل وأغلى شيء رزقني الله به .. فتضحك أمل وهي تنظر إلى

أحمد ثم إلى ياسمين قائلة : لقد وهبك الله ألطف وأرق وأجمل فتاة في الدنيا. ربنا يسعدكم من الواضح أن الأستاذ أحمد يحبك كثيراً يا ياسمين .. فتقول ياسمين بأسلوبها الساخر المرح وتعبيرات الرضاء مرسومة على وجهها وهي تنظر إلى خطيبها : لقد شفعت لك ابنة الخالة سعيدة التي ستغذينا بالحمام . عفونا عنك .. فيضحك الجميع ضحكات من القلب حتى تقول ياسمين : هل سنجلس نتسامر ونترك الحمام . هيا بنا فبعد أكلت الحمام الفولاذية أمامنا يوم طويل ؛ فنحن مدعون لاجتماع تنسيقي بنقابة الصحفيين مع شباب حركة ٦ إبريل، وشباب حركة الاشتراكيين الثوريين لمناقشة ترتيبات يوم جمعة الغضب.. فتقول أمل بصوت تساؤل وهي تنظر إلى زوجها نظرة تمني: هل يمكن أن أحضر معكم هذا الاجتماع؟.. فيقول مصري بصوت استحسان وهو ينظر إليها نظرة ودودة حانية : بكل تأكيد يا حبيتي . فوجودك معنا شيء يسعدنا جميعاً بوجه عام ، ويسعدني أنا بصفة شخصية.. فتقول ياسمين بصوت تساؤل حملت نبرته نغمات فرحة ممزوجة بتعجب : هل قررتي أن تشتركي معنا في التظاهرات ؟.. فتقول أمل بصوت حماسي وهي تنظر إلى زوجها نظرة تفاخر : من الصعب علي أن أكون زوجة مصري المنشاوي ولا أشاركه في أحلامه النبيلة . لو تسمح . أنا أريد أن أكون ضمن الفريق الطبي الذي سيرافق تظاهرات يوم الجمعة القادمة .. فيبتسم مصري ابتسامة رضاء ، ويمسك بيد زوجته ويقبلها ويقول : لو كانت هذه رغبتك فأنا ليس لدي أي مانع .. فتقول ياسمين بصوت ترحيب وهي تنظر إلى صديقتها نظرة فرحة : أنا في قمة سعادتي أن صديقتي الحميمة ستكون معنا .. ثم تتنهد نفسًا عميقًا وتعود لأسلوبها الكوميدي الساخر لتقول: اعتقد أن حمام الخالة سعيدة سئم انتظارنا لقد اقتربت الساعة من الثالثة وأمامنا ما لا يقل عن نصف ساعة حتى نصل إلى بيت الخالة . هلموا يا أحباب حتى لا نتأخر عن البيجوهات .. فتضحك أمل وتقول بصوت تساؤل متعجب : ماذا تعني بكلمة بيجوهات ؟! .. فتقول ياسمين وهي تنهض لتستعد إلى الرحيل : بيجوهات جمع بيجو . وبيجو تعني حمامة باللغة الفرنسية .. فتزداد ضحكة أمل حدة وهي تقول : يالا خفة دمك يا ياسمين . أنتِ تضحكيني أكثر من عادل إمام

ومحمد هنيدي .. فتمسك ياسمين بيدها ويتجها نحو باب المنزل وهما يضحكان ضحكات من القلب ، ويتبعهما مصري وأحمد إلى خارج المنزل لتستقل ياسمين سيارة خطيبها وتستقل أمل سيارة زوجها ليصلوا إلى منزل سعيدة وطارق صيام ويجلسوا هناك في جو عائلي اتسم بالود والمحبة وتدور بينهما أحاديث في مواضيع شتى كان أكثرها اهتمامًا هو حالة الثورة الشعبية التي تنادي بتغيرات اجتماعية وسياسية والسيناريوهات المتوقع حدوثها في الأيام المقبلة . بعدها يتوجه الأربعة إلى مقر نقابة الصحفيين لحضور الاجتماع التنسيقي المتفق عليه بين شباب حركة كفاية وشباب حركتي ٦ أبريل[١] والاشتراكيون الثوريون[٢].

وأمام بوابة نقابة الصحفيين وقف كل من ياسمين وأحمد عنبة يستقبلان ضيوفهم من النشطاء السياسين الذين ساهموا من خلال مدوناتهم وصفحاتهم الشخصية على مواقع التواصل الاجتماعي عبر شبكة الإنترنت في حشد الشباب من مختلف الإنتماءات الفكرية والطبقات الاجتماعية لينضموا إلى التظاهرات الرافضة للأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية ؛ حيث تقابلا مع كل من تامر حسانين [٣] ،

---

(١) حركة شباب ٦ أبريل هي حركة أنشأها بعض الشباب المصري عقب الإضراب العام الذي شهدته مصر في ٦ أبريل ٢٠٠٨م بدعوة من عمال المحلة الكبري وتضامن القوى السياسية فتبناه الشباب وبدأوا في الدعوة إليه كإضراب عام لشعب مصر . أغلب أعضاء الحركة من الشباب الذين لا ينتمون إلى تيار أو حزب سياسي معين وتحرص الحركة على عدم تبنيها لأيدلولوجية واضحة وكانت من الأوائل في الدعوة إلى ثورة ٢٥ يناير . وفي سبتمبر ٢٠١١م ترشحت الحركة لجائزة نوبل في السلام !!!! مع عدد من النشطاء الشباب الذين ساهموا بدور إيجابي في ثورة ٢٥ يناير .

(٢) الاشتراكيون الثوريون المصريون هي حركة إشتراكية مصرية أنشئت في عام ١٩٩٥م بواسطة بعض المفكرين من أصحاب الفكر الاشتراكي الثوري الذي يدعو إلى التغيير الاجتماعي من خلال ثورة من قبل الحركات الجماهيرية للطبقة العاملة للوصل إلى المجتمع الاشتراكي وتحالفت مع تيار الاشتراكية الدولية ، ولعبت دوراً مهماً في تنظيم ميدان التحرير خلال الثورة المصرية في ٢٠١١م .

(٣) شاب مصري لم يتجاوز الثلاثين من عمره . متزوج بسيدة أمريكية . ويعمل مهندس اتصالات والكترونيات ومتخصص في مجال الإنترنت . يشغل منصب رفيع في منطقة الشرق الأوسط لأهم مواقع البحث على شبكة الإنترنت الدولية والتي تُعد أكبر الشركات الإمريكية في هذا المجال . أنشئ صفحة تحت اسم " كلنا منسي حزين " التي إنضم إليها مئات الآلاف من المصريين ؛ حيث تمكن تامر حسانين من خلال هذه الصفحة التي أنشأها في ١٠ يونيو ٢٠١٠م من إثارة شعور غضب المصريين وحنقتهم من جهاز الشرطة بعد مقتل الشاب " منسي حزين " في ٦ يونيو ٢٠١٠م =

علياء محروس[١] ، أمجد ساهر[٢] وجيلان عبد الرحيم[٣] ، وبعدما تبادلوا التحية توجهوا ليجلسوا على الطاولة التي يجلس عليها أمل ومصري ليتم تعارفهما مع ضيوف ياسمين وأحمد عنبة .. وبعد دقائق من الحديث الودي للتعارف قال تامر بصوت انفعالي وملامح غاضبة : لقد تم اعتقال عددًا كبيرًا من الشباب ومن المتوقع قيام وزارة الداخلية بتوسيع دائرة الاعتقال، وأنا أتوقع أنهم سيبدأون باعتقالي مع علياء وجيلان فنحن الثلاثة مطلوبون من مباحث أمن الدولة .. فيقول مصري بصوت تساؤل وقد ارتسمت على ملامحه تعبيرات حانقة : هل يتخيل القائمون على جهاز مباحث أمن

= على يد بعض أفراد الشرطة انتقاماً منه نتيجة لقيامه أثناء مرافقته لضابط مباحث " قسم سيدي عامر " بتصوير الضابط مع بعض المخبرين السريين وهم يتلاعبون بحرز قضية مخدرات ؛ حيث كان يتردد منسي بصفة مستمرة على قسم الشرطة التابع له ليبلغ عن المعلومات الجنائية التي تهم ضباط البحث وتؤدي إلى الكشف عن جرائم ارتكبت أو سيتم ارتكابها . ونتيجة لهذه الصفحة على موقع الفيس بوك تم تسليط الضوء على هذه القضية على المستوى المحلي والأقليمي والدولي بصورة جعلت منسي حزين رمزًا لطغيان وقهر النظام الحاكم .

(١) فتاة ترتدي الحجاب و يبدو على وجهها البراءة في نهاية العقد الثالث من العمر . تنتمي أسرتها إلى الطبقة الكادحة التي استفادت من مكاسب ثورة يوليو وتضررت بعدها من مساوئه الرأسمالية الليبرالية التي سلبتهم ما تبقى من عدالة اجتماعية للحقبة الناصرية . تُعد من مؤسسي حركة ٦ أبريل واشتركت في العديد من الوقفات الاحتجاجية التي نظمتها الحركة . ومن خلال الميديا المرئية والمقروءة على شبكة التواصل الاجتماعي الفيس بوك استطاعت حشد الهمم والمشاعر الوطنية للمشاركة في التظاهرات السلمية للمطالبة بالعيش والحرية والعدالة الاجتماعية .

(٢) شاب مصري لم يتجاوز الثلاثين من عمره . ينتمي إلى أسرة من الطبقة المتوسطة مثله مثل علياء محروس . يعمل مهندسًا مدنيًا في شركة مقاولات هندسية كبرى يمتلكها الدكتور مهندس "ممدود نمرة " الذي اتهم من قبل السلطات البريطانية في عام ٢٠٠٥م بالتدبير لقتل عدد ٤ شخصيات مصرية . يعتبر أمجد ساهر العقل المدبر لحركة ٦ أبريل وساهم بشكل إيجابي في نشر فكرة الكاتب الصحفي مجدي أحمد حسين عن إضراب عمال المحلة لتطبق بشكل عام في مختلف مناحي الحياة وقام بدور إيجابي فعال في حشد تظاهرات يوم ٢٥ يناير .

(٣) فتاة لا يتعدى عمرها الثالثة والعشرين من أسرة ميسورة الحال . صحفية وناشطة اجتماعية وواحدة من جيل جديد يسمى الصحفيون المواطنون ، وهم من يقومون بتوثيق الحوادث الإخبارية عبر الإعلام الاجتماعي ، وتُعد من نشطاء المدونين على شبكة الإنترنت المناهضين لنظام حسني مبارك رغم صغر سنها . انضمت إلى حركة الاشتراكيون الثوريون بعد تخرجها من الجامعة الأمريكية بعد زواجها من أحد نشطاء الحركة .

الدولة أن أساليب القمع ستمنعنا من مواصلة مشورانا ؟ هل يستطيع مبارك وأعوانه أن يخرسوا جموع الثائرين ويغمموا أعينهم وعقولهم عن الحالة التي وصلت إليها البلاد؟ أنا أتحسس رياح التغيير وسنحصل على حقنا في العيش عيشة الإحرار فمصر ليست أقل من تونس.. فتقول ياسمين بصوت ثائر : لن ترهبنا أدوات القمع والاستعباد . مصر ليست أقل من تونس التي استطاعت أن تجبر طاغوتها على الرحيل.. فتقول جيلان بصوت حاد وملامح إصرار : حتى لو اعتقلوني فهناك الملايين من المصريين سيكملون مسيرة التحرر الذي بدأت ، وكسرنا من خلالها حاجز الخوف.. فيقول أحمد عنبة بصوت حمية وعيون ثائرة : لن يستطيع أحد منعنا من المطالبة بحقوقنا المسلوبة ؛ فحتى لو كان الثمن حياتي فأنا لن أتوقف عن ما بدأناه .. فتمسك ياسمين بيد أحمد وهي تنظر إليه نظرة حالمة وتقول بصوت ارتعشت نبرته من شدة الانفعال : كلنا مع ما قاله أحمد . لن يستطيع أحد منعنا عن حلم العيش بكرامة داخل بلادنا. ستتجمع يوم جمعة الغضب وسيستجيب مبارك لمطالبنا أو سيستمر بركان غضبنا الثائر حتى نُسقط قلاع القهر والاستبداد والطغيان.. فتقول علياء بصوت حاد وهي تنظر إلى الحاضرين نظرات حاولت إخفاء شعور الخوف الذي كان يتملك منها : اطمئنوا. فالسلطة الحاكمة لن تستطيعقهرنا ؛ فالمجتمع الدولي يترقب عن كثب الأحداث في الشارع المصري وجميع المنظمات الحقوقية الدولية تراقب الوضع في مصر.. ثم تأخذ نفسًا هادئًا وتقول بصوت تفاؤل: واعتقد أن عودة الدكتور محمد البرادعي باكرًا إلى مصر وقبوله تزعم الحركة المطالبة بالتغيير شيء يدعو للاطمئنان.. فيقول تامر بصوت فرحة وملاح رضا : اعتقد أن البرادعي هو الشخص الذي يستطيع لم شمل الثوار وقيادتهم.. وتتبعه ياسمين قائلة بصوت قبول وهي تنظر إلى خطيبها تتحسس تعبيرات وجهه: بالفعل هذا الرجل صاحب كاريزما زعيم وسيكون خير من يقود ثورتنا.. فيقول أحمد بصوت استحسان : بالفعل فنحن بحاجة ملحة أن نختار شخصية وطنية لها ثقلها على المستوى المحلي والدولي لتقود تيار التغيير . واعتقد أن البرادعي يمتلك مقومات الشخصية المطلوبة للقيادة في الوقت الراهن .. فتقول جيلان بصوت تساؤل موجهة كلامها إلى مصري وأمل ، وهي تنظرهما نظرة فاحصة

بعدما استشعرت عدم اهتمامها بخبر عودة البرادعي : اعتقد أنكما متفقان معي بأن الثورة تحتاج إلى شخص وطني عاش في مصر ويشعر بما يشعر به المصريين، وليس لشخصية عاشت معظم عمرها في الخارج ولم يحتك بهموم المصريين .. فيقول مصري بصوت حكمة وعيون عاقلة : مسألة من يقود الثورة تعتبر من ضروريات نجاحها وليس من الحكمة الآن أن نختلف فيما بيننا ؛ فإذا كانت الأغلبية ترى في البرادعي الشخصية القادرة على قيادة المرحلة الحالية فيجب رغم تحفظنا على شخصيته ألا نعترض .. فتقول أمل بصوت اقتناع وهي تنظر إلى زوجها نظرة مؤيدة : أنا اتفق مع ما قاله مصري ؛ فنحن نحتاج في الوقت الراهن إلى تكاتف جميع الجهود تحت راية واحدة حتى لا تفشل ثورتنا .. فيقول أحمد بصوت استحسان : هذا هو عين العقل .. ثم يصمت للحظات وهو يتابع تعبيرات الحاضرين ليقول : تجمعنا اليوم هنا لنبحث عن إيجاد بدائل لميديا الإنترنت من أجل توعية المواطنين بأهداف الثورة . واعتقد أنه من الأفضل أن نقوم بجولات ماكوكية في المحافظات بهدف نشر أفكارنا نحو التغيير .. فتنظر علياء إلى الحضور نظرة تتابعية كاشفة وهي تقول: مسألة حشد الهمم نحن بدأناها قبل ٢٥ يناير بفترة وكثفنا جهودنا في المحافظات، وخاصة في المدن التي لها تاريخ نضالي مثل المحلة والسويس وبورسعيد والاسكندرية ، وهذا كله يعود الفضل إليه بعد الله سبحانه وتعالى إلى جهود أمجد ساهر وزملائنا في حركة ٦ أبريل .. فتنظر إليها جيلان نظرة صامتة وتقول : نحن نشطاء حركة الاشتراكيون الثوريون نقوم بعمل مماثل لحشد الجماهير في المحافظات يوم جمعة الغضب وهناك تنسيق مع قيادات جماعة الإخوان المسلمين بشأن تنظيم المظاهرات في ميادين الجمهورية يوم الجمعة القادمة بإذن الله.. فتقول ياسمين : لو صدق الإخوان وشاركوا بإيجابية يوم الجمعة اعتقد أن ذلك سيكسب التظاهرات قوة تنظيمية كبيرة ستزيد من القوة الضاربة للثورة.. فيقول تامر: بالفعل مشاركة الإخوان المسلمون سيكون لها تأثيرًا إيجابيًا كبير في تظاهرات الجمعة . والشيء الذي يجب التأكيد عليه هو عدم إظهار إي تيار من التيارات المشاركة في التظاهرات لأية رموز أو علامات تعبر عن أفكاره ومعتقداته ؛ حيث سيأتي ذلك بنتائج سلبية على مشاركة العامة في تلك المظاهرات .. فيقول مصري

بصوت قبول : بالفعل هذا كلام صحيح .. فتقول علياء بصوت تساؤل وهي تنظر إلى الآخرين نظرة تتبعية فاحصة لكل الحاضرين : سيكون هناك تجمع من مختلف التيارات الفكرية لاستقبال الدكتور البرادعي في مطار القاهرة غداً في الساعة التاسعة مساءً . هل يرغب أحد منكم الذهاب معنا؟.. فترد ياسمين وأحمد في نفس الوقت بصوت إيجاب: سنذهب سوياً.. فيقول تامر: سأحضر في الميعاد إن شاء الله.. فتقول جيلان بعدما نظرت في ساعة يدها : لقد اقتربت الساعة من السادسة . سأنصرف حيث سنجتمع مع قيادات الحركة لطرح أفكارنا فيما يتعلق بالتنسيق وسوف أعرض عليهم ما تناولناه اليوم .. ثم تصمت للحظات وهي تنظر إلى الجميع نظرة حالمة: أتمنى أن نتقابل على خير يوم الجمعة القادم وبإذن الله ستتحقق أماني وأحلام المصريين. سعدت بلقائكم جميعاً. ثم تنهض وتنصرف ليدور بين الحاضرين حديث طويل عن السيناريوهات المتوقع حدوثها يوم الجمعة حتى تأتي الساعة الثامنة مساءً فيذهب كل شخص إلى حال سبيله بعدما تواعدوا على التقابل يوم الجمعة في ميدان التحرير عقب الصلاة .

وفي صباح اليوم التالي توجه مصري بصحبة زوجته مستقلين سيارتها البسيطة إلى عملها بمستشفى أحمد ماهر . ومع وصول السيارة إلى بوابة المستشفى ظلت أمل تنظر إلى زوجها نظرة تأملية حانية لبضع ثوان ثم قالت بصوت هادئ : هل ستأتي على الغداء؟ .. فيقول مصري وهو يبادل زوجته النظرات الحانية العاشقة : لا اعتقد يا حبيتي أنني سأحضر على الغداء فسوف أتقابل مع الدكتور شادي والدكتورة شهندة في نقابة الصحفيين ؛ فهناك وقفة احتجاجية الساعة الخامسة مساءً أمام دار القضاء العالي دعت إليها الحركة للتنديد باعتقال كثير من نشطائها ، وعلى رأسهم أمين إسكندر . بعدما تنتهي من عملك اذهبي إلى بيت حماتي وسأحضر بعد انتهاء الوقفة لنعود إلى البيت ومعنا حياة ؛ فأنا مشتاق لرؤيتها .. فتقول أمل بصوت تمني هامس وهي ممسكة بيده تنظره نظرة رجاء : هل تسمح لي بأن أكون معك ؟ فأنا أتمنى أن أكون بجوارك في كل ما تفعله .. فيشد مصري على يدها ويقول بصوت قبول غلفه السرور وهو ينظرها نظرة عاشقة : بكل تأكيد يا حبيتي فوجودك معي

يجعلني أشعر بالطمأنينة ويكسبني قوة روحية تجعلني أستطيع مواجهة كل الجبابرة والظالمين.. فتدمع عيون أمل وتقول بصوت مزجت نبرته بين نغمات الفرحة والخوف: لقد علمتني كيف يكون الفداء والتضحية وكيف يكون حب الوطن . ورغم خوفي وقلقي عليك إلا أنني أثق أن الله سيحفظك لنا، وسيستجيب لدعائي ودعاء ملايين المصريين بأن يحفظ كل الوطنيين أمثالك .. فيقبِّل مصري يدها ويقول: بإذن الله سأكون عندك الساعة الرابعة وسأحضر معي وجبة سريعة نأكلها في طريقنا إلى نقابة الصحفيين .. فتبتسم أمل وتقول بصوت سرور وهي تفتح باب السيارة لتخرج : سأنتظرك أمام البوابة . في رعاية الله يا حبيبي .. فيرد مصري إبتسامة زوجته بابتسامة أكثر حنانًا ويقول : سأكون عندك في الميعاد .. فتخرج أمل من السيارة وهي تنظر إلى زوجها نظرة وداع حالمة بالتلاقي وتلوح يدها قائلة : لا الله إلا الله.. فيبادلها مصري النظرة الحالمة باللقاء وهو يلوح لها بيده قائلاً : محمد رسول الله .. بعدها تتوجه أمل لتدخل إلى المستشفى لتباشر عملها اليومي كالمعتاد في العيادة الخارجية تساعد المرضى بوجه بشوش وقلب عطوف حتى يحين ميعاد انصرافها من العمل الساعة الثالثة والربع فتتجه إلى مكتب الأطباء لتنتظر حضور زوجها الساعة الرابعة .. ومع اقتراب الساعة من الرابعة توجهت أمل بقلب نابض بالشوق لمقابلة زوجها على بوابة المستشفى لتتصل به من تليفونها المحمول عدة مرات خلال نصف ساعة فتجده مغلق فتتصل بهاتف محمول كل من ياسمين وأحمد عنبة فإذا بهما مغلقين إيضاً ، فتعود إلى مكتبها وتجري اتصالاً تليفونيًا بمستشفى الساحل وتتحدث إلى أحد زملاء زوجها وتسأل عنه لتصدم بأن زوجها لم يأتِ للعمل اليوم وتليفونه مغلق منذ الصباح فتتوجه مسرعة إلى الخارج وقد تملك الخوف والاضطراب منها غير مدركة أين ستذهب وتتوجه بصورة عفوية إلى بيت حماها في شبرا .. وبصوت مضطرب وعيون أضناها القلق قالت أمل بمجرد دخولها المنزل : هل تعلم أين مصري يا عمي ؟ تليفونه مغلق ولم يذهب إلى عمله اليوم وأخشى أن يكون حدث له مكروه .. فينظر إليها سعد نظرة ساكنة وملامح مهمومة ويقول

بصوت حزين النبرة مثقل بالهم : أهلا يا ابنتي . تفضلي بالدخول . اطمئني مصري بخير .. فتقول أمل بصوت صياح وقد ارتسمت على وجهها تعبيرات مضطربة : هل حدث له مكروه ؟ .. فيقول سعد : لا يا ابنتي . مصري وياسمين وأحمد عنبة وعدد من شباب حركة التغيير تم اعتقالهم .. فتجلس أمل على الأريكة المجاورة لباب المنزل وتنفجر بالبكاء لبضع دقائق ثم تقول بصوت تحشرجت نبرته بأنفاس مهمومة : كيف ومتى علمت بهذا الخبر يا عمي ؟ .. فيقول سعد بصوت خافت حزين وهو ما زال ينظر إليها نظرة شاردة وقد ارتسمت على ملامحه الحسرة والألم : بعد عودتي من العمل منذ ما يقرب من ساعة اتصل شخص اسمه علي الدري وأخبرني بأنه زميل أحمد عنبة ، وقال لي أن مباحث أمن الدولة اعتقلتهم في الصباح . وهم الآن في فرع القاهرة .. فتصرخ أمل من شدة الصدمة وهي تقول بصوت مخنوق وملامح تملكها الرعب والفزع بعدما استعادة الروايات التي روتها لها أمها عنما حدث لوالدها: آه يا حبيبي . ماذا أفعل ؟ هل يمكن أن نذهب إليه يا عمي ؟.. فيقول سعد بصوت به نبرة تفاؤل : لقد اتصلت بأحد أصدقائي ، شقيق ضابط كبير في أمن الدولة، وطلبت منه الاستعلام عن سبب اعتقال أولادي وإمكانية رؤيتهم.. فتقول أمل بلهفة : وبماذا أخبرك؟ .. فيقول سعد : لقد أخبرني أنه سيتصل بي بعدما يستفسر من شقيقه عن ذلك.. فتقول أمل بصوت رجاء وملامح توسل : أرجوك يا عمي اتصل به الآن ربما يكون قد عرف شيء .. فينهض سعد ويتوجه نحو التليفون ليجري مكالمة مع صديقه . وبصوت لهفة قال سعد : ربنا يحفظك ويطمأنك . شكراً جزيلاً على هذا المعروف سأكون هناك الساعة التاسعة . في رعاية الله .. وما أن أغلق سعد التليفون حتى صاحت أمل بصوت لهفة وعيون أثقلها انتظار الفضول : هل سنذهب لرؤية مصري وياسمين ؟ .. فيقول سعد بعدما تنفس الصعداء وتسللت تعبيرات الأمل إلى ملامحه المهمومة : نعم . أنهم بخير وسنذهب اليوم الساعة التاسعة مساءً إلى مكتب اللواء عبد الحميد الطويل في فرع جهاز مباحث أمن الدولة بالقاهرة ، وسوف نراهم هناك إن شاء الله .. فتدمع عيون

أمل وهي تدعو الله بصوت تضرع وتوسل : يا رب . اللهم لا اعتراض على قضائك . ربي إني لا أسألك رد القضاء ولكني أسألك اللطف فيه . سأذهب حتى اطمئن على حياة وسأكون عندك الساعة ٨ مساءً يا عمي .. فينظر إليها سعد نظرة أبوية حانية ويقول : سنذهب أولاً إلى بيت والدتك القديم لنأخذ معنا الدكتورة شهندة فزوجها تم اعتقاله إيضاً .. فتقول أمل بصوت قبول : سأكون عندك في الميعاد يا عمي . ربنا يحفظك . هل تريد أن أصنع أو أجهز لك طعام أو أي شيء قبل مغادرتي.. فيقول سعد: اشكرك يا أمل. اذهبي حتى لا تتأخري على حياة. لا تشغلي بالك بي .. فتقبّل أمل رأسه وتلقي عليه التحية وتذهب إلى بيت سعيدة وقد سيطر القلق والخوف والهم على كل ملامحها .

خبر اعتقال مصري وياسمين أصاب سعيدة بالحزن الشديد وأعاد لها ذاكرة الأيام المشؤومة عندما تم القبض على صابر بمعرفة أمن الدولة لتصاب بحالة من الصمت الكئيب وهي تستمع إلى هموم وأحزان أمل ، بينما ظل طارق صيام يهون عليها الأمر ويخفف من وطأة الحادث الأليم ويبشرها بعودة مصري مع باقي المعتقلين في القريب العاجل .. وحتى جاءت الساعة السابعة والنصف ظلت أمل حبيسة غرفة النوم مع ابنتها تضمها في حضنها ، ومشاعرها المتوترة القلقة توسوس لها أن قصتها مع ابيها قد تتكرر مع ابنتها ، ودموعها الصامتة تناجي ربها أن يلطف بحالها . بعدها غادرت أمل منزل أمها بصحبة زوج أمها إلى بيت سعد المنشاوي ليصطحباه معهم لزيارة مصري .. ومع دقات الساعة التاسعة مساءً وصل سعد المنشاوي بصحبة أمل وطارق صيام والدكتورة شهندة إلى مقر فرع أمن الدولة بالقاهرة ليجدوا شخص يرتدي الملابس المدنية في استقبالهم بإسلوب مهذب وملامح بشوشة . وبعد خضوعهم إلى الإجراءات الأمنية المعقدة لدخول المباني التابعة لجهات الأمن القومي المصري ، بعدما سُحبت منهم التليفونات المحمولة الخاصة بهم ، تم اصطحبهم إلى مكتب السيد اللواء حاتم الغفاري مدير مباحث أمن الدولة بالقاهرة الذي استقبلهم بحفاوة بالغة وكرم طائي ليجلسوا بمكتبه ويدور بينه وبين الحاضرين حديث تعارف ودي وسط نظرات تفاؤل من الحاضرين باستثناء أمل التي كان قلقها على زوجها

مسيطرًا على كل مشاعرها ولم تستطع إخفاء مشاعرها ، وهذا ما لفت انتباه اللواء حاتم فسألها بأسلوبه الهادئ المتزن : اعتقد أنكِ قلقة على زوجك يا دكتورة أمل ؟ .. فتهز أمل رأسها وهي تقول بصوت خافت وملامح أكلها الترقب والانتظار : نعم . أريد أن أعرف لماذا اعتقلتم مصري ورفقائه .. فيقول اللواء حاتم بصوت متزن وهو ينظر إلى الحاضرين نظرة فاحصة كاشفة بصورة تتابعية : أولاً . أنا أثق أنكم جميعاً تحبوا هذا البلد . فيقول الجميع في صوت واحد : نعم .. فينظر اللواء حاتم إلى الدكتورة شهندة وهو يقول : يا دكتورة شهندة . أنتِ تعلمي جيداً أن الشرطة ليست طرفاً في أي نزعات سياسية فنحن جهة تنفيذية مهمتنا تقتصر على حفظ النظام العام . وفي ظل المؤامرات التي تُصدر إلينا من الخارج من أجل إحداث ما يسمى بالفوضى الخلاقة[1] لتحقيق استراتيجيات دول بعينها ، والتي بكل تأكيد لن تكون في مصلحة

---

(١) " الفوضى الخلاقة - Creative chaos " كمفهوم سياسي يقصد به تكون حالة سياسية مستقرة بعد مرحلة فوضى متعمدة الإحداث بعد الإطاحة بالنظام السياسي القائم . وهذا المفهوم ليس بجديد في نظريات السياسة ، ولكنه لم يظهر بصورة عملية قابلة للتطبيق إلا بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١م حيث تركز تفكير المحافظين الجدد في الإدارة الأمريكية وعلى رأسهم جورج دبليو بوش على كيفية إعادة تغيير الأوضاع السياسية القائمة في الشرق الأوسط وبعض الدول في العالم بما يضمن خدمة المصالح الإستراتيجية الأمريكية ، بعدما لم تُعد فكرة الحرب على الإرهاب في منطقة الشرق الأوسط والعالم الإسلامي تحقق الفائدة المرجوة منها ؛ فبعد أن شهد العالم اهتماماً دولياً كبيراً بكيفية محاربة الإرهاب الذي أدى إلى أحداث سبتمبر ، التي هزّت الولايات المتحدة والعالم آنذاك ، أدلت وزيرة الخارجية الأمريكية آنذاك كوندوليزا رايس في أبريل ٢٠٠٥م بتصريح مهم لصحيفة الواشنطن بوست الأمريكية وطرحت ضرورة تبني الفوضى الخلاقة للتغيير في منطقة الشرق الأوسط بما يخدم المصالح الإمريكية . ورغم اختلاف الغاية ووسيلة التنفيذ فقد تبنت الولايات المتحدة تلك النظرية في أوروبا الشرقية وأمريكا الجنوبية وحتى جمهوريات آسيا الوسطى خلال العقود السابقة في أواخر القرن العشرين ؛ حيث دعمت الإدارة الأمريكية بعض الجماعات بهدف إسقاط الأنظمة السياسية القائمة بعيداً عن أية مواجهات عسكرية بحيث يكون التغيير نابعاً من الداخل ، ومن دون تدخل خارجي مباشر . ورغم المخاطر التي تحملها الفوضى الخلاقة التي يمكن أن تمر على الدول بسبب الثورات الشعبية الداخلية ، إلا أنها مرحلة غير مستقرة ومن المفترض أن تؤدي لاحقاً إلى حالة من الاستقرار لهذه الأنظمة وللنظام الدولي نفسه . وبالفعل نجحت العديد من الثورات الشعبية ـ التي أطلق عليها الثورات الملونة ـ إلى إسقاط الأنظمة الدكتاتورية الحاكمة فيها لتبدأ مرحلة بناء الأنظمة الديمقراطية الجديدة ، وهي ما سُميت بالديمقراطيات الناشئة . ولكن نتائج التغيير السياسي فيها لا تزال غير معروفة المسارات والمستقبل . وعلى مستوى الشرق الأوسط شهدت المنطقة موجة من عدم الاستقرار والثورات الشعبية التي أسقطت أنظمة حاكمة منذ ديسمبر ٢٠١٠م بداية بثورة تونس ثم مصر ثم اليمن وليبيا وسوريا وهو ما أُطلق عليه في وسائل الإعلام بـ (الربيع العربي) . تلك الدول شهدت حالة من الفوضى الخلاقة التي يفترض أن تقود استقراراً مستقبلياً سيحقق الاستراتيجيات التي دعمته.

الوطن ، قد يُستغل بعض العناصر الوطنية المثقفة مثل الدكتور شادي والدكتور مصري وغيرهما بدون أن يشعر أحد من هؤلاء أنهم اشتركوا في مؤمراة تهدف إلى إسقاط الوطن . ونحن في أجهزة الأمن القومي نعمل بكل ما لدينا من إمكانيات لحماية أمن البلاد وعدم انجرافها في هذا المنزلق الخطير .. فتقاطع أمل حديثه بصوت انفعالي وتعبيرات توتر واضطراب : يا أفندم أرجوك لقد جئنا إلى هنا من أجل أن نطمئن على ذوينا . دعنا نراهم ثم أشرح لنا بعد ذلك أي شيء تراه يستحق الشرح .. فيقول اللواء حاتم بصوت هادئ وهو ينظر إلى أمل نظرة متزنة : بكل أسف يا دكتورة أنتم لن تستطيعوا مقابلة أحد منهم فهم قيد التحقيق ويعاملون معاملة طيبة تليق بوضعهم الاجتماعي والثقافي ، ونحن واثقين أن كل الأشخاص الذين جئتم لزيارتهم ليس لهم أية اتصالات خارجية ، واشتراكهم في الدعوة للتظاهر والعصيان المدني تبغي تحقيق المصلحة العامة من وجهة نظرهم الخاطئة .. فتقول شهندة بصوت استنكار وهي تنظر إلى اللواء حاتم نظرة منضبطة : يا سيادة اللواء طالما أنك على قناعة شخصية بأن كل ذوينا ليس لهم أي نشاط يمس أمن الدولة ، فلماذا لا تجعلنا نراهم ؟! نحن لم نطلب غير رؤيتهم وهذا حق مشروع حتى لو كانوا قد ارتكبوا جريمة .. فيقول سعد المنشاوي في اللحظة التي انتهت فيها شهندة من كلامها بصوت رجاء وملامح توسل ، وهو ينظر إلى اللواء حاتم نظرة استعطاف أب : يا سيادة اللواء لقد جئنا إليك وأنا أعلم أنك أب تعرف شعور الأبوة . كل ما نطلبه من سيادتكم هو مقابلتهم والاطمئنان عليهم .. فيقول اللواء حاتم بصوت غلفه الأسف وهو ينظر إلى سعد المنشاوي نظرة آسى : مسألة رؤية المعتقلين الآن شيء مرفوض تماماً لأسباب أمنية لكنني سأجعلكم تتحدثون إليهم عبر الهاتف، وهذا تحت مسئوليتي الشخصية، وأرجو أن تتفهم الموقف .. فتقول أمل بصوت لهفة وعينيها مرغرغتين بالدموع : هل ستتحدث إليه الآن ؟ .. فيبتسم اللواء حاتم ابتسامة طمأنة ويقول وهو يمسك بيده جهاز لاسلكي كان موضوع أمامه على المكتب : بكل تأكيد سأجعلكم تتحدثون إلى ذويكم بعد دقائق معدودة .. ثم ينادي في الجهاز ليبلغ من يتحدث معه بأسماء كل من ياسمين ومصري وشادي البارودي حتى يتحدث معهم تليفونياً من غرفة التحقيق ..

وبعد بضعة دقائق من الصمت ، الذي خيم على المكان وتبادل فيه الحاضرون النظرات الصامتة ، دق جرس تليفون المكتب ليتحدث الحاضرون إلى ذويهم حديث مطول يطمئن من خلاله سعد المنشاوي على أولاده وأمل على زوجها وشهندة على زوجها ؛ حيث شهد المعتقلون شهادة حق أنهم يعاملون أحسن معاملة في كل شيء باستثناء أنهم حرموا من رؤيتهم أو بالاتصال بهم .. وبعد هذه الاتصالات التي قاربت الساعة يعيد اللواء حاتم التذكرة بالخطر الذي يحيق بالوطن ويهدد كيانه في ظل آذان صماء من الحاضرين ، وتصميم كل من سعد وشهندة وأمل في تكملة مسيرة ذويهم التي لم تكن سوى المطالبة بالعيش عيشة كريمة وتحقيق العدالة الاجتماعية لكل المصريين ليذهب بعدها كل واحد منهم إلى حال سبيلة . وبعد ما يقرب من ساعة تعود أمل بصحبة طارق صيام إلى منزل جاردن سيتي ، حيث ظلت طوال تلك الليلة تسترجع كلمات مصري وياسمين فيما يتعلق بأحلام العيش حياة كريمة يتمتع خلالها كل المصريين بالتعليم العصري الذي يؤهلهم لمواكبة الثقافة العالمية والصحة الجيدة التي تمنحهم طعام خالي من التلوث والأوبئة ومسببات المرض وعلاج يشفيهم بإذن الله من الأمراض في حالة مرضهم . وخلال استرجاعها لهذه الذكريات حتى ذهابها إلى النوم في ساعة متأخرة من الليل كان الحماس الثوري يؤجج مشاعر غضبها على النظام الحاكم الذي حرمها من أباها في السابق – رغم ما اقترفه من أثم في حق الوطن باعتناقه أفكار متطرفة كان لها تأثير سلبي على الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بصفة عامة ، ومنح نظام الحكم مبرر سلب الحريات والحقوق العامة للدفاع عن مخاطر الأفكار المتطرفة و أدى في النهاية إلى توحش هذا النظام تحت مظلة الحرب على الإرهاب – واعتقل زوجها الذي يحمل بداخله كل الخير للجميع ولا يريد سوى الحياة الكريمة لكل أبناء وطنه .

ومع حلول وقت الضحى ليوم الجمعة ٢٨ يناير ٢٠١١ م ، والتي أُطلق عليها جمعة الغضب من قبل الجموع الغاضبة من المصريين ، كانت أمل قد عقدت العزم وبيتت النية لتخرج مع مئات الألوف من الثائرين لتعبر معهم عن غضبها وسخطها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي وصل إليها حال

البلاد وتجاهل النظام الحاكم لمعاناة المصريين لدرجة يصعب تصور أن هذا النظام يعمل على مصلحة المصريين جميعاً وليست لمصلحة فئة من ينتمي إليه أو يستفيد ويدعم بقائه في السلطة . وفي اليوم السابق كانت أمل قد اتصلت بحماها والدكتورة شهندة وأكدت عليهم التقابل أمام نادي القضاة الساعة العاشرة ، وقد أعدت الكاميرا الخاصة بزوجها والبافطة التي كان قد أعدها في اليوم السابق على اعتقاله وكتب عليها بخط يده «عيش – حرية – عدالة اجتماعية » .. وبعيون حالمة وقلب ينبض بنبضات تفاؤل بحياة أفضل ودعت أمل أمها بكلمات حانية وعيون باسمة متفائلة ومنحت ابنتها حياة قبلات دافئة وبسمات حالمة لتودعها سعيدة بعيون خائفة وقلب أم يرتجف من القلق على ابنتها الوحيدة ، بينما كانت حياة تتعلق بصدر أمل تنظر إليها نظرة طفولية بريئة وهي تنطق اسمها واسم أبيها وجدتها قائلة: أمل. مصري. بيحب حياة وسعيدة .. وبعد دقائق من مغادرتها بيت أمها في جاردن سيتي وصلت أمل إلى بوابة نادي القضاة لتتقابل مع شهندة وسعد ، وما هي إلا دقائق معدودة حتى انضم الثلاثة إلى حشد من طبقة المثقفين الذين ينتمون إلى مختلف التوجهات الإيدلوجية وهم رافعين شعارات الحرية والعدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية ليتحرك الحشد إلى ميدان التحرير وينضم إلى باقي المسيرات والحشود التي جاءت من مختلف مناطق القاهرة . ومع وصول المسيرة إلى كوبري قصر النيل كان هناك عشرات الآلاف من المتظاهرين الذين حاصرتهم قوات الشرطة عند مداخل الكوبري لتمنع وصولهم إلى ميدان التحرير ، وسط هتافات وزئير مجموعة من الشباب الذين كان حماسهم وجرأتهم في مواجهة قوات فض الشغب سبب رئيسي في اندفاع الآلاف لكسر حاجز الخوف واختراق الحاجز الأمني وتفادي القنابل المسيلة للدموع وعدم الاكتراث بالطلقات الدافعة[1] وخراطيم المياة التي كانت تُطلق عليهم ، بل قام البعض من الشباب الغاضب بتسلق سيارات الشرطة في

(١) هي طلقات تحدث صوتاً مدوياً يرهب المتظاهرين ولا يصيب أحد ، وتستخدمه قوات فض الشغب لتفريق التجمعات التي ينتج عنها شغب .

محاولة لتحطيمها والفتك بمن بها مما تسبب في إصابة القوات الموجودة داخل السيارات المدرعة بحالة من الذعر والخوف لتنجو بحياتها في مشهد أشبة بدبابة عساف ياجوري في فيلم « الرصاصة لا تزال في جيبي» عندما وقع في مصيدة الأسر ليقع الكثير من المتظاهرين ما بين قتيل وجريح نتيجة دهس تلك السيارات لهم ، ويتحول طريق كوبري قصر النيل والطرق المؤدية إلى ميدان التحرير إلى حرب شوارع بين قوات الشرطة التي فقدت السيطرة على الموقف وبدأت في التهاوي الدراماتيكي خلال بضع ساعات في مشهد يصعب تصديقه ؛ فكيف يسقط أقوى جهاز قمع في المنطقة العربية بهذه السهولة ؟! هل فشل جهاز أمن الدولة بكل جبروته وسلطانه من تحديد حجم التظاهرات وقوة غضبها ؟! ومن الذي كان يطلق الذخيرة الحية على المتظاهرين وقوات الشرطة ؟! من الذي دبر لحرق وتدمير أقسام ومراكز الشرطة في وقت واحد ؟! ومن الذي قام باقتحام السجون وقام بإطلاق سراح أشخاص بعينهم وصلوا إلى غزة وجنوب لبنان بعد بضع ساعات من اقتحام السجون ؟! من يستطيع تدبير وتنفيذ هذا المخطط المعد سلفاً ؟ هل قامت وزارة الداخلية بإحداث ذلك في منشأتها من أجل نشر الفوضى بعدما فقدت السيطرة على الأوضاع الأمنية حتى يشعر المواطنين أن ما يحدث ليست ثورة وإنما انتفاضة حرامية مثل ما حدث في يناير ١٩٧٧م؟.. تساؤلات عديدة كان من الصعب على المواطن العادي أن يفهم أبعادها المعقدة ، ولم يجد أمامه إجابة يستطيع فهمها وتقبلها سوى أن نظام حسني مبارك هو من فعل ذلك خاصة وأن جميع وسائل الإعلام بدأت في الترويج بعد ذلك اليوم تصريحاً أو تلميحاً لهذه الإجابة ليصاب المواطن البسيط بحالة من الهياج النفسي وفقدان الثقة تماماً في أي مبادرات من النظام القائم لإصلاح ما تم إفساده ، ويبدأ فيروس التمرد والرفض يتخلل كل مفاصل الحياة ويهدد بسقوط الدولة وليس النظام الذي كان يدير شئون البلاد .. وخلال السقوط غير المتوقع لقوات الشرطة سقط المئات من المتظاهرين وقوات الشرطة ما بين قتيل وجريح كان من بينهم سعد المنشاوي والدكتور شهندة ؛ فخلال فرار قوات

الشرطة من الميدان كان سعد المنشاوي أحد الضحايا التي دهستهم السيارات المدرعة قبل أن يلحق بها المتظاهرون ويشعلوا بها النيران ، بينما سقطت شهندة أمام تمثال عمر مكرم برصاصة غدر أصابت رأسها لتلقي حتفها مع عدد من المتظاهرين الذين تم قنصهم غدراً بأيدي مجهولة من أماكن غير معلومة .. سقوط سعد المنشاوي قتيلاً بين أيدي أمل ، بعدما دهسته عجلات مدرعات الشرطة ، جعلها تصاب بحالة هستيرية مذهلة غير مصدقة ما حدث وهي ترافق جثمانه إلى مستشفى الهلال ليتم إيداعه مع العشرات من القتلى في ثلاجة المستشفى التي اكتظت بالمصابين من جرحى طلقات الخرطوش والأعيرة النارية والمصابين بالكسور بمختلف أنواعها والجروح النافذة بمختلف أشكالها .. وبعد بضع ساعات من الذهول والصدمة التي أصابت أمل بعد وفاة سعد المنشاوي بدأت في استعادة عافيتها الذهنية فقررت ترك المستشفى مع غياب شمس هذا اليوم المشهود عن سماء مدينة القاهرة الحزينة لتعود إلى بيت أمها ومشاعرها الغاضبة تكاد تنفجر من شدة الحزن والألم والأسى على الضحايا الذين سقطوا غدرا وعدواناً . وخلال طريق العودة من مستشفى الهلال الأحمر بشارع الجلاء حتى منطقة جاردن سيتي كانت مركبات ومدرعات قوات الجيش قد بدأت في الانتشار في شارعي الجلاء ورمسيس، وعلى جانبي الطريق كانت النيران التي ألتهمت سيارات الشرطة ما زال دخانها يتصاعد في ظل حالة من التخبط والذعر التي أصابت المواطنين في الشارع نتيجة لقيام بعض العناصر الإجرامية أصحاب السوابق الجنائية بالانتشار في الشوارع في محاولة لاغتنام عدم وجود الشرطة ليفرضوا سيطرتهم ويقوموا بأعمال سلب ونهب وبلطجة .. حالة الفزع والهلع التي كانت تصيب المارة لم تتأثر بها أمل ؛ حيث كان شعور الغضب والكراهية والرغبة في الانتقام يسيطر على مشاعرها الغاضبة التي انفجرت مع رؤية القاهرة تحترق فأخذت تصيح بأعلى صوتها بصوت هستري حاد: «يسقط يسقط حسني مبارك. يسقط يسقط النظام الجائر . يسقط يسقط الديكتاتور الظالم» . وخلال دقائق معدودة تحولت صراخات أمل إلى مسيرة شعبية شملت

أعداد كبيرة من المصريين وهم يرددون ما تقوله . هؤلاء الذين تبعوا أمل الغالبية العظمى منهم قد نزلوا إلى الشوارع ليعبروا عن غضبهم من الفقر والجوع والإحساس بالحرمان والذل والمهانة بعدما شعروا بأن عصا القهر قد انكسرت ، وسلاسل العبودية قد انفرطت حلقاتها فخروجوا يصرخون صرخات الحرية ينهشون بأيديهم وكل ما لديهم من مشاعر رموز الظلم والطغيان الذين تعمدت وسائل الإعلام وميديا الإنترنت على تضخيم فسادهم ، غير مدركين الفرق بين الحرية والغوغائية ليحدث خلال هذا اليوم المشهود سلسلة من أعمال السلب والنهب في ظل غياب ممنهج من الشرطة بعدما تم حرق أقسام الشرطة وتدمير طاقتها الفعالة .. ومع وصول أمل إلى بيت أمها كانت سعيدة تنتظر في الشرفة المطلة على الشارع ، وشعور الخوف والرعب مما شاهدته على القنوات الفضائية قد سيطر عليها . وما أن شهدت ابنتها قادمة تجاه باب العقار حتى صرخت بكل قوتها وهي تردد : أمل . الحمد لله . الحمد لله ، وتخرج مسرعة من الشرفة تجاه باب المسكن وهي تنادي على زوجها بصوت فرحة هستيرية وتعبيرات الفرحة تدب في كل ملامحها وهي تحمل حياة وتضمها إليها بقوة حانية : أمل عادت يا طارق . عادت أمل . لقد استجاب الله إلى دعائي . أشكرك يا رب.. فينهض طارق من أمام التلفاز ويهرع مع زوجته تجاه الباب لتدخل أمل وهي تسحب أقدامها بصعوبة ، وتعبيرات الحزن تسيطر على ملامحها لترتمي في حضن أمها وتنخرط في بكاء مؤلم قائلة بصوت اختنق من شدة النحيب وهي تحضن ابنتها حياة التي كانت تتعلق بكتف جدتها : لقد مات عم سعد . قتلته مصفحات الشرطة أمام عيني.. فتصيح سعيدة وتعبيرات الصدمة قد تملكت من ملامحها : ماذا ؟ سعد المنشاوي مات ! لا الله إلا الله . كيف حدث ذلك ؟ .. فيقول-طارق صيام بصوت صدمة وهو يأخذ حياة منهما وقد ارتسمت على ملامحه تعبيرات ذهول : لا الله إلا الله . اجلسي يا أمل . اهدئي وقصي علينا ما حدث .. فتمسك سعيدة بيد أمل وتسير معها بجوار طارق وهو يحمل حياة ليجلسوا جميعاً في حجرة المعيشة . وبعد ثوان من البكاء الصامت والدموع الحارقة

بدأت أمل في سرد ما حدث لها منذ خروجها من المنزل في الصباح وما شهدته من أحداث درامية مأساوية منذ اندلاع الصدام مع قوات الشرطة .. وبعدما انتهت أمل من سرد ما حدث لها سألها طارق بصوت حسرة وألم ، وتعبيرات وجهه اشتاطت غضباً وألماً من هول ما سمع : هل اتصلتِ بأشقاء المرحوم وأبلغتيهم بما حدث ؟ .. فتهز أمل رأسها وهي تقول بصوت تهاوت نبرته من شدة الإرهاق : ليس لدي أرقام التليفونات الخاصة بأشقاء المرحوم.. فينهض طارق صيام ويقول : أنا أعرف عنوان شقيقه محمد سأذهب إليه وأخبره حتى يأتي معنا عند استلام الجثة ودفنها، وليخبر باقي أشقائه بالحادث الأليم.. فتصيح سعيدة بصوت رفض وملامح فزع وخوف : كيف تخرج في هذه الساعة؟! الشارع غير آمن والتلفاز يبث لنا ما يفعله البلطجية وأصحاب السوابق الإجرامية . أرجوك انتظر حتى الصباح .. فيقول طارق بصوت إصرار : لا تخافي يا سعيدة . محمد المنشاوي يسكن في المعادي وما هي إلا ساعة وسأعود بإذن الله .. فتقول أمل بصوت مخنوق والدموع تزحف على وجنتيها وهي تحتضن ابنتها حياة : سأذهب معك يا عمي .. فتصيح سعيدة بصوت توسل وهي تنظر إلى ابنتها نظرة رجاء واستعطاف : أرجوكي يا أمل . لا تخرجي .. ثم توجه كلامها إلى طارق : أرجوك يا طارق لا تخرج . انتظرا حتى الصباح .. فيقول طارق بصوت رجاء موجهاً كلامه إلى أمل: يا ابنتي أنتِ مرهقة بصورة مرضية . أرجوكي لا ترهقي نفسك وتحمليها أكثر مما تطيق ؛ فأنتِ تحتاجي إلى الراحة التامة فغداً سيكون يوم كبيس . ارجوكي يا ابنتي . استريحي وسأذهب وحدي .. فتقول أمل بصوت استسلام والدموع تتساقط من عينيها وهي تضم حياة إلى صدرها وتطبطب عليها لتهدأ من روعتها بعدما انخرطت في بكاء شديد حين استشعرت مشاعر الحزن والأسى في عيون أمها وجدتها : أرجوك احترس من الطريق يا عمي .. فيقول طارق بصوت توكل: الله هو الحارس يا ابنتي .. ثم يذهب تجاه حجرة نومه ويعود قائلاً: خذي هذا القرص المهدئ حتى تستطيع النوم.. فتقول أمل سأخذه بعدما ترجع إلى البيت .. فيقول طارق وهو يغادر المنزل : لا الله إلا الله

الله يرحمك يا سعد كان رجل بمعنى الكلمة .. وعقب مغادرة طارق المنزل ظلت سعيدة تواسي أمل وتطيب من خاطرها وتترحم على سعد المنشاوي ، بينما ظلت أمل تتحصر على حال زوجها الذي سُلبت حريته وفقد أبوه ولن يستطيع حضور دفنته والصلاة عليه.. ومع مرور الوقت تملك القلق والتوتر من سعيدة ؛ فطلقات الرصاص الحية كانت تُسمع بصورة مستمرة في الشوارع المحيطة ، والقنوات الفضائية والأرضية تبث أخبار انتشار أعمال السلب والنهب والسرقة بالإكراه والبلطجة في كل أنحاء المدن . وبعد بضعة ساعات من خروج طارق صيام ، ظلت سعيدة خلالها تستنفذ ما لديها من صبر حتى دق جرس تليفون المنزل لترد أمل وتصاب بحالة من الذهول لبضع ثوان ثم تصيح بعدها صيحة مدوية قائلة : مات . عمي طارق مات ! كيف حدث ذلك ؟! .. وخلال المحادثة التي استمرت ما يقرب من دقيقة كانت أمل تصرخ بصوتها المبحوح وهي تردد كلمات التعجب والذهول ، بينما ظلت سعيدة في حالة صمت الذهول حتى انتهت المكالمة فتوجهت نحو أمل التي ظلت تصيح بصوتها المبحوح المخنوق وعينيها المتورمة من شدة البكاء : عمي طارق مات يا أمي . أصابته رصاصة في الرأس أمام قسم مصر القديمة .. فتتجه سعيدة نحوها بخطوات بطيئة وهي تنظر إليها نظرة ساكنة وملامح صماء لتقول بصوت تساؤل هادئ : طارق مات . مات .. فتنهض أمل وتحتضنها وتقول : سأذهب إلى مستشفى القصر العيني فالشخص الذي أخبرني بالوفاة طبيب يعرفني ويعرف الدكتور طارق .. فتترك سعيدة حضن ابنتها وتنظر إليها نظرة ذهول وملامح تعجب لتقول بصوت تساؤل تائه: هل مات طارق؟ .. فتعاود أمل محاضنتها وهي تبكي قائلة: نعم يا أمي. وسأذهب لأتعرف عليه في مستشفى القصر العيني .. فتصرخ سعيدة وتنفجر في بكاء شديد وهي تردد كلمة "مات" ثم تنهض قائلة بصوت إصرار : سأذهب معكِ . لن أتركك تذهبين بمفردك .. فتقول أمل : سأتصل بعمتي عبير ليأتي معنا عمي بركات .. فتهز سعيدة رأسها وتقول : لا إله إلا الله. اللهم لا اعتراض.. فتمسك أمل بالتليفون وتتصل بمنزل عمتها عبير

وتتحدث معها ومع زوجها مكالمة امتلأت بالبكاء والصدمة المذهلة ليحضر الاثنان بعدها إلى منزل طارق صيام ، ويصطحبا سعيدة وأمل وحياة ويذهبوا جميعاً إلى مستشفى القصر العيني .. وفي مشهد درامي باكٍ مؤثر يتأكدوا من جثة طارق صيام الذي أصيب بطلق ناري في الرأس بجوار قسم قصر النيل وقت اقتحامه بواسطة مجموعة من المجرمين وأصحاب السوابق الجنائية لحرقه ونهبه ، وتهريب المتهمين المحبوسين على ذمة قضايا جنائية . وبعد بضع ساعات من الانتظار الصادم الحزين كانت أمل قد استطاعت استخراج تصريح بالدفن بعد الحصول على تقرير الطبيب الشرعي بسبب الوفاة ؛ حيث قامت إدارة الطب الشرعي أمام كثرة أعداد المتوفين إلى الاعتداد بالكشف الظاهري لمعرفة سبب الوفاة ؛ خاصة الحالات التي توفيت نتيجة الإصابة بالطلقات النارية ، ليتم تجهيز الجثمان حتى يتم نقله إلى مثواه الأخير في قرية دماص في صباح اليوم التالي .

ومع شروق شمس اليوم التالي توجهت سعيدة مع بركات صيام وعبير لاستلام جثمان زوجها ومرافقته إلى قرية دماص ليدفن هناك في مقابر عائلة صيام ، وقد كان بركات قد اتصل بالشيخ علي الرواي وأخبره بالخبر المشؤوم وطلب منه تجهيز المقبرة حتى يتم الدفن بعد صلاة الظهر. بينما توجهت أمل إلى مستشفى الهلال لتجهيز جثمان سعد المنشاوي وإنهاء كل الإجراءات المتعلقة بتصاريح دفنه في مقابر الأسرة بمنطقة البساتين بمدينة القاهرة .. وخلال الطريق إلى قرية دماص والذي قطعته السيارة في حوالي ساعة ونصف ظلت سعيدة تجلس بجوار نعش جثمان زوجها تترحم عليه وتصلي وتدعو له بالغفران ، وهي تتذكر معاملته الطيبة الكريمة معها والمودة والرحمة الذي كان يمنحها لها وتواضعه الشديد في التعامل مع كل الأشخاص وإحساسه بمعاناة من حوله ومساعدته لهم .. وفي هدوء تام وصلت سيارة نقل الموتى التي كانت تستقلها سعيدة ومن خلفها السيارة التي كان يستقلها بركات وعبير لمدينة دماص حيث كان في استقبالهم الشيخ على الراوي وعددًا كبيرًا من أهله وأقاربه ومحبينه من القرية والقرى المجاورة ؛ كلهم جاءوا حاملين حزنهم

الشديد على فراقه يترحمون عليه من القلب ويجهرون بأفعاله الطيبة التي كان يقدمها إلى جميع أهل القرية من المحتاجين والفقراء . وبعد أداء صلاة الظهر قام الشيخ علي بإمامة صلاة الجنازة وسط تكبيرات الحاضرين ودعواتهم بالرحمة للمتوفي بقلوب متضرعة حزينة .. وبعد مشهد مأسوي حزين وسط بكاء الحاضرين ورى الثرى جثمان شهيد الواجب لتذهب سعيدة بصحبة عبير وبركات إلى دار الشيخ علي الراوي لتطمئن على زوجته خضرة التي ترقد طريحة الفراش نتيجة لإصابتها بكسر في قدميها . وخلال الطريق من المقابر حتى دار الشيخ علي كانت سعيدة تمسح بنظراتها الفضولية الحزينة البيوت والشوارع التي بدلتها الأيام ولم يتبق منها سوى أطلال من ذكريات الماضي حملت في طياتها عبق تاريخ الريف المصري ، وتتذكر من خلال هذه الأطلال كل مواقفها مع والدها وأمها وعمها وزوجة عمها وأخواتها وصابر وسكينة ونبوية وخالها عطوة فتناسب الدموع الصامتة من عينيها وهي تردد جملة سبحان الذي يحي ويميت . سبحان الحي الذي يُغير ولا يتغير .. ومع وصولهم إلى الدار استقبلتهم خضرة بالدموع والأحضان المليئة بدفء المشاعر ولهفة لقاء الأحباب بعد غياب وهي تقدم لهم التعازي ، وتترحم على الفقيد وتدعو له بالمغفرة وتتذكر مواقفه الطيبة مع الجميع . بعدها يجلس الجميع في حجرة المضيفة حتى يقومن زوجات أبناء وبنات الشيخ علي بتجهيز وليمة غداء .. وبعد فترة من الصمت الحزين الذي خيم على المكان لبضع دقائق قامت سعيدة برواية ما حدث ليلة أمس وتعبيرات الأسى والحزن والحسرة تتملك مشاعر الحاضرين ، حتى إن انتهت قال الشيخ علي بصوت حماسي : الله يرحم الجميع يا ابنتي . الاثنان ماتا شهداء ؛ سعد المنشاوي مات شهيد كلمة الحق وطارق صيام مات شهيد الواجب . سأذهب معكم إلى القاهرة لتقديم واجب العزاء إلى أمل .. فتقول خضرة بصوت تمني : هل يمكن أن تأخذني معك ؟ كم أتمنى أن أزور مقام آل البيت في القاهرة .. فيقول الشيخ علي : المظاهرات تجوب كل شوارع القاهرة ولن نستطيع الذهاب إلى هناك .. فتقول سعيدة بصوت رجاء : أرجوك لا تحرمني من وجود الخالة خضرة

معي ستمكث عندي حتى تستقر الأمور ثم نذهب سوياً إلى كل مقامات آل البيت.. فينظر الشيخ علي إليهما نظرة تأملية صامتة ويقول : سأتصل بالأسطى حسن الغريب لنذهب سوياً بعد الغداء فقد كان في نيتي الذهاب إلى ميدان التحرير والمشاركة في تظاهرات الحق التي تنادي بالإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي؛ فيجب أن يكون للفلاحين صوتًا في هذه المطالب الشعبية وقد اتفقت مع عدد من مشايخ القرى المجاورة على الذهاب إلى ميدان التحرير وسأتصل بهم من أجل أن نتقابل هناك في الغد بمشيئة الله .. فيقول بركات بصوت غضب وقد كست تعبيرات وجهه ملامح الحزن والآسى : هل يُعقل ما يردده الناس وتتناقله العديد من القنوات الفضائية ؟ الشرطة تقتل المتظاهرين ! لقد صورت تلك القنوات الفضائية لمشاهديها أن الحكومة تقتل المتظاهرين وتصيبهم بالعمي ! .. فتقول عبير بصوت استنكار وعيون دامعة : لا . الشرطة لم تقتل أحدًا . والله لم تقتل أحد ؛ لقد حكى لي شادي كل ما حدث أمس وكيف تحولت المظاهرات السلمية إلى مظاهرات عنف بفعل جماعات اندست بين المتظاهرين السلمين وقامت بالاعتداء على الشرطة وحرقت السيارات وقتلت وأصابت المتظاهرين .. فتقول سعيدة بصوت حدة وتعبيرات غاضبة : لقد دهست سيارات الشرطة سعد المنشاوي ومعه المئات من الأبرياء . لقد قتلت الشرطة زوجي أمام قسم الشرطة . أنت تدافعي عن الشرطة لأن ابنك ضابط .. فيقول الشيخ علي الراوي بصوت غلفه الحزن وهو ينظر إلى سعيدة وعبير نظرة آسى : لا الله إلا الله . بكل تأكيد يا عبير ابنك لم يقتل أحد .. فتقول خضرة بصوتها الواهن الذي أضعفه المرض وكبر السن وهي تنظر إلى سعيدة نظرة حزينة دامعة : حق زوجك وكل الأبرياء الذين ماتوا لن يذهب هباءً وسوف يظهر الله الحق إن شاء الله .. فيقول بركات بصوت حزين والدموع تملئ عينيه : لقد كان شادي ضمن قوات الشرطة الموجودة لتأمين ميدان التحرير وكاد أن يفقد حياته بعدما اندفع المئات نحو السيارة التي كان يستقلها ولولا أنه قفز في النيل لوقع في أيديهم . لقد فتكوا بالمجند الذي كان يقود السيارة وأحرقوها .. فتقول سعيدة

بصوت قلق وملامح ألم : وكيف حاله الآن .. فتقول عبير بصوت مهموم وعيون امتلأت بالحزن : بالأمس جاء إلى البيت مع آذان المغرب ، وبعدما يقرب من ساعتين أحس بألم شديد في كتفه فذهبنا به إلى مستشفى الشرطة بمدينة نصر وتم حجزه هناك بعدما أجريت له أشعة أثبتت إصابته بكسر في عظمة الترقوة وسيتم تجهيزه لعمل عملية جراحية .. فيهز الشيخ علي رأسه من شدة حزنه على ما يسمعه ويقول بصوت تملكه الحسرة وهو يتحسس مشاعر الحزن والألم التي تسيطر على ملامح ضيوفه : لا الله إلا الله . اللهم عافيه واعفوا عنه يا رب . سنذهب لرؤيته عندما يُسمح بالزيارة .. ثم يقول بصوت تمني ورجاء : هيا يا أولاد الطعام جاهز. نأكل ثم نذهب إلى القاهرة حتى نصل قبل الظلام .. فتقول سعيدة بصوت خافت حزين: والله لن تجد اللقمة طريق في جوفي .. فيقول الشيخ علي بصوت عتاب : لا والله لن نبرح الدار حتى نأكل .. فيقول بركات بصوت رضوخ وهو ينظر إلى سعيدة وعبير نظرة إيجاب : هيا نأكل ثم نذهب بعدها .. فتمسك عبير بيد ابنة عمها وتنهض معها ليتوجها مع الحضور نحو مائدة الطعام لتظل سعيدة خلال تناولهم للطعام شاردة الذهن تفكر في حال ابنتها وحفيدتها وما يمكن أن يواجهاه من متاعب خلال جنازة سعد المنشاوي . وتظل حالة شرود الذهن تسيطر على سعيدة خلال عودتها مع الشيخ علي وزوجته رغم ذكريات وحكايات الماضي التي كانت خضرة تسترجعها معها وتذكرها بها طوال الطريق .

وفي القاهرة كانت أمل قد اصطحبت ابنتها حياة وتوجهت إلى مستشفى الهلال الأحمر لتتقابل مع أشقاء حماها خلال تشيع جثمان سعد المنشاوي في جنازة تقدمها عدد من الشخصيات العامة من رموز التيارات الفكرية والسياسية ، وبضعة آلاف من العامة الذين انفجرت مشاعر غضبهم وتدفقت براكين سخطهم على نظام الحكم الذي تهاوت قلاعه وحصونه الرادعة أمام فيضان ثورة المصريين ضد الفقر والقهر والحرمان بعدما تهدمت حواجز الخوف وكُسرت قيود الرهبة من مواجهة طغيان الانحراف بالسلطة التي أقصت غالبية الشعب من التمتع بحقوقهم الوطنية

وأهملت إشباع مطالبهم الحياتية وهي ترفع شعارات ديمقراطية كاذبة وعدالة اجتماعية سرابية على أسنة رماح القهر والطغيان.. وفي مشهد أدمى القلوب وأشعل مشاعر الغضب ، وأجج رغبة الانتقام من النظام الحاكم الذي لُصقت به تهمة قتل المتظاهرين ، تحركت الجنازة من مستشفى الهلال بشارع رمسيس لتصل إلى ميدان التحرير وسط زئير وهتاف جموع الحاضرين الذين تصدرهم أشخاص لا يعرفهم أحد من أقارب أو معارف الشهيد ؛ أشخاص كانت تصيح صيحات حماسية ويبدو على سلوكهم أنهم مدربين على إشعال الحماس وشحذ المشاعر ليحولوا الجنازة إلى مظاهرة حاشدة ضمت بضع ألوف ، وتناقلتها وسائل الإعلام المرئية وكانت شعاراتها تنادي بسقوط رئيس الجمهورية ونظامه الحاكم والانتقام لدماء الشهداء الذين قتلتهم الشرطة - كما يدعي هؤلاء - على مدار الأربعة أيام السابقة.. وفي ميدان التحرير وصل النعش الذي يحمل جثمان سعد المنشاوي ملفوفًا بعلم مصر محمول على أعناق مجموعة من الشباب المتحمس ، الذي كان منهم الملتحي الذي يبدو أنه ينتمي إلى التيار الديني ، ومنهم شباب التيار المدني بمختلف توجهاته الإيدلوجية ، كلهم توحدوا على قلب واحد وعقل واحد يصرخون صرخة تنادي برحيل حسني مبارك وسقوط النظام الحاكم . وخلف جموع المشيعين للجنازة وقفت أمل أسفل تمثال عمر مكرم تحمل ابنتها حياة وتهتف هتاف صارخ من قلبها المكلوم وعقلها الدامي بهموم ماضي مليء بالحرمان والمذلة ، وحاضر امتلئ بأحلام سرابية تحطمت أمام ظلمة الواقع البغيض : «يسقط الديكتاتور .. يسقط حسني مبارك .. ارحل .. الشعب يريد إسقاط النظام» .. بكاء حياة الصاخب وتعبيرات ملامحها الطفولية البريئة جذبت انتباه أحد الأشخاص الملتحين ، الذين تصدروا مشهد الجنازة ، فتقدم نحوها ينظرها نظرة باكية وملامح تكسوها تعبيرات متألمة حزينة ليقول بصوت تعالت نبرته وسط زئير هتافات المتظاهرين : أنا الشيخ

شوكت نيازي[١] . هل أنتِ من أقارب الشهيد ؟ .. فتتوقف أمل عن الهتاف وتنظر إليه نظرة تأملية صامتة حتى استجمعت ملامحه فقالت بصوت مبحوح : أنا زوجة ابن الشهيد سعد المنشاوي وزوجي الدكتور مصري اعتقلته الشرطة يوم الخميس الماضي هو وشقيقته الصحفية ياسمين سعد .. فيشير الشيخ شوكت نيازي إلى أحد الكاميرات التي تخص قناة الجزيرة القطرية وكانت بالقرب منه لتأتي وتصور أمل مع حياة بجانبه وهما يرددان شعارات سقوط النظام . ثم يتحدث مع الكاميرا ليقول بصوت بكاء صارخ : لقد ضحى الشهيد سعد المنشاوي بحياته ثمن المطالبة بالحرية والكرامة . لقد كان الشهيد من أشرف الرجال الذين عاهدتهم في حياتي . وهذه السيدة الكريمة - ويشير بيده نحو أمل - هي زوجة ابنه الذي اعتقلته الشرطة مع شقيقته يوم الخميس الماضي . لن نترك دم الشهيد بدون قصاص سنقتص من الذين قتلوه مع الآلاف من المصريين.. فيتقدم المذيع نحو أمل ويقول: البقاء لله . هل يمكن أن تحكي للمشاهدين كيف اغتالت الشرطة الشهيد سعد المنشاوي ؟ .. فتقول أمل بصوت انفعالي ثوري وقد انسابت الدموع من عينيها بصورة تلقائية : الشهيد سعد . هو والد زوجي الدكتور مصري ، كما أنه والد الصحفية ياسمين المنشاوي صاحبة القضية المشهورة ضد راضي راشدان ورموز الحزب الوطني الذين أفسدوا الحياة السياسية والاقتصادية .. فيجذب الشيخ شوكت الحديث

---

(١) رجل ملتحي في نهاية العقد الخامس من العمر . تبدو على ملامحه الدهاء . داعية ومفكر إسلامي لا ينتمي إلى مؤسسة الأزهر ، مثل عدد من الدعاة والشيوخ الذين درسوا الشريعة الإسلامية وفقه السنة خارج المؤسسة التي تعهدت منذ ما يقرب من ألف عام على إعداد الدعاة ؛ حيث احترف هؤلاء الدعاة تقديم البرامج الدعوية في المساجد ووسائل الإعلام المرئية والمسموعة التي تهافتت على تقديم تلك البرامج لتجني من ورائها أموال طائلة من حصيلة الإعلانات . بعد حصوله على دكتوراة في الحديث وعلومه من جامعة ديبون الفرنسية استقر في القاهرة ، وبدأ في تقديم عدد من البرامج الدينية في إحدى القنوات الدينية ليصبح من الشخصيات المشهورة في هذا المجال . ظهر فجأة على الساحة السياسية بعد الأحداث الدامية التي أسقطت الشرطة يوم ٢٨ يناير ٢٠١١م وبدأ في الظهور الإعلامي كأحد نشطاء الحركة الثورية وكان له دورًا كبيرًا في شحذ المتظاهرين وإثارة روح الثورة ضد النظام الحاكم بعدما تأكد وفاة هذا النظام إكلينيكياً .

قائلاً : لقد اعتقلت الشرطة الصحفية ياسمين وأخيها مصري مع الألوف من المصريين قبل استشهاد المناضل سعد المنشاوي . أنهم يريدوا تكميم أفواهنا وتظليم عقولنا . لقد قتلوه عمداً لأنه كان عضو نشط في حركة كفاية التي رفضت توريث الحكم .. فتقول أمل بصوت مبحوح ومشاعر مكلومة ثائرة : لقد ذهبت مع الشهيد إلى ميدان التحرير لنعبر عن رفضنا لسياسة النظام الحاكم الطاغية الذي لا يهتم بشؤون القاعدة العريضة من المصريين الذين ضاقت بهم سبل العيش في بلادهم حياة كريمة. خرجنا للمطالبة بعيش وحرية وكرامة إنسانية وعدالة اجتماعية . خرجنا نحلم بالتغيير بصورة سلمية ، ولم نكن نحمل في أيدينا سوى لافتات من القماش والورق . ففوجئنا بوابل من القنابل المسيلة للدموع وطلقات خرطوش ومواجهة شرسة من الشرطة ، وقد قامت مصفحاتهم وأليتهم المدججة بالسلاح بدهس مئات الأبرياء . لقد كنت أقف على مقربة من الشهيد عندما دهسته إحدى السيارات المدرعة ؛ كنا نردد كلمات « عيش – حرية – عدالة اجتماعية » ، وما هي إلا ثوان حتى كانت دماء الشهيد سعد قد اختلطت بدماء عدد من الأبرياء الذين لم يكن لهم مطالب سوى الخبز والكرامة . ثم تجهش في البكاء ، وهي تحتضن ابنتها التي كانت تبكي بفزع وهلع ، وتقول : لن أترك دماء الشهداء الذين إغتالتهم طلقات وآليات نظام حسني مبارك تضيع هباءً .. فيقول مراسل القناة بصوت ألم وملامح حزن وهو ينظر إلى الكاميرا: أعزائي المشاهدين . هذه قصة من ضمن مئات قصص الظلم والطغيان التي حاكها نظام جائر استعبد شعبه على مدار ثلاثة عقود . هل يعتقد هذا النظام أن الشعب المصري صاحب التاريخ العريق والسجل الحافل بالنضال سيقف صامتاً ولن يلبي نداء الحرية والثورة على الظلم والطغيان .. وبعد دقائق من هذا اللقاء الخاطف بين الشيخ شوكت وأمل مع قناة الجزيرة جاء شخص آخر بصحبة طاقم من قناة العربية وعدد من الشباب ، الذين دانت لهم الغلبة في السيطرة على تنظيم التظاهر والاعتصام في ميدان التحرير ، ليتحدث معها قائلاً بصوت ناعم هادئ وملامح بدت عليها التعاطف والمواساة : أنا الدكتور

محمد المرتجي[1] . البقاء لله . نعزي أنفسنا في شهيد الوطن . لقد سالت دماؤه الذكية الطاهرة وهو ينادي نداء الحق والحرية . نحن وكل شباب الثورة لن نترك دماء الشهداء الذين قتلتهم الشرطة دون أن نحقق الهدف الذي انتفضوا من أجله . لسنا أقل من تونس التي حصلت على حريتها من حكم الطاغية بن علي بعد ٢٣ سنة من الفساد والقهر والإذلال .. فتقول أمل بصوتها المبحوح وبأسلوب ثوري غاضب بعد نظرة تأملية استجمعت خلالها شخصية الدكتور المرتجي الذي تعرفه جيداً بحكم سكنها في الدائرة الانتخابية التي فاز من خلالها بمقعد مجلس الشعب عام ٢٠٠٥م : أنا من سكان دائرتك الانتخابية وأعرفك جيداً يا دكتور . لن نتراجع عن نضالنا الذي بدأناه حتى يرحل هذا الطاغية ونظامه عن الحكم .. فيقول مراسل قناة العربية بصوت تساؤل وهو ينظر إلى أمل نظرة تعاطف : لقد علمنا من الشيخ الدكتور شوكت نيازي أنكِ زوجة ابن الشهيد وكنتِ معه وقت استشهاده .. فتقص أمل بصوتها المبحوح وملامحها المكلومة كل ما قالته لقناة الجزيرة وهي تحتضن ابنتها وتبكي بكاء حرقة ، حتى ما انتهت من حديثها يتقدم الدكتور المرتجي وحوله عددًا من الشباب التابعين لجماعة الإخوان المسلمين ليجذب أطراف الحديث قائلاً : الشهيد سعد المنشاوي ومعه الألوف الذين قُتلوا بدم بارد بالقنص والدهس بالسيارات على يد رجال حبيب العادلي في جميع محافظات الجمهورية ، بجانب الألوف الذين أصيبوا جراء طلقات الخرطوش لن نترك دمائهم التي أزهقها النظام المستبد الظالم الذي ظل ثلاثين عامًا يخدم المشروع الصهيوني تذهب هباء . لابد من محاسبة كل من شارك في هذه المجزرة ، ولن نترك الميدان حتى يرحل حسني مبارك

---

(١) رجل غير ملتحي ذو ملامح شرقية ويبدو عليه التربية الريفية . في نهاية العقد الخامس من العمر . يعمل أستاذ مساعد في قسم الأنف والأذن بكلية الطب جامعة الأزهر . رمز من رموز جماعة الإخوان المسلمين وأحد مرشحيها الذي حصل على مقعد مجلس الشعب عن دائرة شبرا في انتخابات عام ٢٠٠٥م بعد السقوط الدراماتيكي المنهج لجهاز الشرطة تسيد المشهد في ميدان التحرير وأصبح يدير العملية التنظيمية لحشد المتظاهرين وإلقاء الخطب من خلال منصة تم إنشاؤها هناك .

ونظامه الجائر .. فيقول مراسل العربية موجهاً كلامه إلى أمل : الرئيس حسني مبارك في خطابه إلى الشعب أمس قال «أن الشرطة بادرت في حماية المتظاهرين احتراماً إلى حقهم في التظاهر السلمي قبل أن تتحول التظاهرات إلى أعمال شغب تهدد النظام العام وتعيق الحياة اليومية للمواطنين» وأنتِ كنت بصحبة الشهيد وقت استشهاده . هل حدث أعمال شغب من المتظاهرين ؟ .. فتقول أمل بصوت انفعالي وملامح غضب استنكاري وهي تنظر إلى الكاميرا نظرة حادة : هذا الكلام افتراء وكذب ؛ فقد كانت المظاهرة سلمية ، ولم يصدر أية أعمال وتصرفات من المتظاهرين تتناقض مع سلمية المظاهرة . هذا النظام الجائر يريد تبرئة ذمته من دماء الشهداء الذين قُتلوا . وأنا من هذا المكان الطاهر أقول إلى حسني مبارك «ارحل لقد فقدت مشروعيتك . الشعب المصري ، الذي قُهر في عهدك على مدار ثلاثين عامًا ، كسر حاجز الخوف ولن تستطيع أنت ونظامك الفاسد أن تمنعه من تنفس رياح الحرية . ارحل أنت وأعوانك كفاكم خداع وكذب . لن يصدقك أحد بعد اليوم» .. فيقول مراسل قناة العربية بأسلوب تساؤل : هل تعتقدي أن الرئيس حسني سيستجيب إلى مطالب المتظاهرين وسيترك السلطة. ومن في رأيك يصلح لقيادة البلاد بعد رحيله؟.. فتقول أمل وهي تلاطف ابنتها التي كانت تحاول الإمساك بالميكروفون: مسألة رحيل مبارك هي مسألة وقت ، وفي اعتقادي أنه لن يستمر في السلطة إلا أيامًا معدودة . أما فيما يتعلق بمن يصلح لقيادة البلاد فهناك العديد من الشخصيات الوطنية التي يمكن أن تقود البلاد حتى يتم عمل دستور جديد ، وانتخاب مؤسسات جديدة .. فيقول المراسل : هل يمكن أن تسمي لنا شخص ؟ .. فتقول أمل بصوت تعجل بعدما شهدت جثمان حماها يقترب من السيارة التي ستنقله إلى مثواه الأخير : هذا كلام سابق إلى آوانه واعتقد أن النخبة في ميدان التحرير ستكون أقدر مني على الاختيار . جثمان الشهيد سيتحرك .. وما أن أكملت جملتها حتى انطلقت مسرعة نحو سيارة نقل الموتى لتستقل أحد السيارات التي رافقت الجثمان بصحبة أقارب وأصدقاء سعد المنشاوي ؛ لتظل طوال الطريق وحتى دفن الجثمان

تترحم على الشهيد وتدعو له بالمغفرة والرحمة ، وقد إمتلئ قلبها بالعزم والإصرار على مواصلة طريق حماها وزوجها والمشاركة في الاعتصام الذي دعت إليه عدد من القوى الثورية من أجل إسقاط النظام الذي يحكم البلاد .

ومع غروب شمس التاسع والعشرين من يناير كانت أمل قد عادت إلى منزل أمها ، وهي تحمل في نفسها مشاعر الثوار الحق الذين لا توجد في ضمائرهم سوى تحقيق مصلحة الوطن التي تتمثل في تغيير النظام الحاكم الذي ماتت في عهده كل أماني وأمال وأحلام المصريين البسطاء . لقد كان استشهاد سعد المنشاوي بعد اعتقال مصري وياسمين بمثابة شرارة الغضب التي أيقظت المارد الذي ظل كامناً في نفس أمل طوال سنوات طويلة من الخنوع والخضوع المطلق لواقع مذل كمم شعورها الرافض لعبودية النظام واستعباد أصحاب النفوذ والسلطة لأحلام الطبقة الكادحة المهمشة .. وأثناء انتظار وصول أمها ، بعدما اتصلت بها تليفونياً على هاتفها المحمول وعرفت منها أنها على مسافة ما يقرب من نصف ساعة من البيت ومعها ضيوفها ، ظلت أمل تتابع وترقب أحداث الشارع المصري على القنوات الفضائية وعيناها تدمعان عندما تشاهد صور الشهداء الذين سقطوا بالأمس، وتزداد دموعها حرقة عندما تسمع وتشاهد بمشاعر انفعالية حانقة ما آل إليه حالة الأمن والنظام في الشارع المصري ؛ فبعدما تهاوت الأجهزة الأمنية مع غروب شمس يوم جمعة الغضب حاصر البلطجية شوارع وميادين القاهرة والمحافظات ، وبدأت أعمال سلب ونهب واسعة لعدة بنوك وشركات ومحال وتخريب فنادق وأسواق تجارية ، وبات قطّاع الطرق يفرضون اتاوات على المارة للسماح لهم بالمرور في سلام بعدما حُرقت أقسام الشرطة في توقيت واحد[1] .. وقبل حلول الساعة

---

(١) وفي اليوم التالي تم اقتحام عدد ١١ سجن (٤ سجون في منطقة سجون أبو زعبل و القطا و ٤ سجون في منطقة سجون وادي النطرون بالإضافة إلى سجن المرج و سجن قنا العمومي) وتهريب نزلائه بصورة أثارت ولا زالت تثير الجدل حول الجهات والأشخاص الذين وقفوا وراء هذا العمل الممنهج الذي نفذته ملشيات مسلحة مدربة تدريب قتالي متطور يدل على وجود خطة ممنهجة ومخطط لها مسبقاً بغرض نشر الفوضى وإثارة الرعب لدى جموع الشعب بعد انهيار مؤسسة الشرطة وسيطرة العناصر الإجرامية على مقاليد الأمور في الشارع. فخبر اقتحام السجون وهروب المساجين أجج مشاعر خوف =

السادسة مساءً عادت سعيدة ومعها ضيفيها إلى منزلها وهي محملة بمشاعر الحزن وإحساس الألم على فراق زوجها وعلى ما وصل إليه حال الوطن . وبمجرد دخول سعيدة من باب المسكن انطلقت أمل نحوها ترتمي في أحضانها تتحسس مشاعرها المكلومة وتناجي أحاسيها المصدومة وهي تقول بصوت مخنوق مجروح : الله يرحمها يا أمي . كنت أتمنى أن أكون بجوارك وأحضر دفن جثمان عمي المرحوم طارق .. فتمسح سعيدة دموع ابنتها وهي تبتسم لها ابتسامة دامعة حزينة ، وتحتضنها بدفء مشاعر الأم قائلة بصوت تملكه الهدوء والقناعة بقضاء الله : ربنا يرحم الجميع يا ابنتي ويفك أسر زوجك وأخته . اسرعي يا ابنتي فالشيخ علي الراوي والخالة خضرة قادمان . ساعدي خالتك خضرة فقدمها موضوعة في الجبس .. فتسرع أمل نحو باب المسكن وهي ترحب بالضيوف ، وتأخذ بيد خضرة مع السائق ليجلسها بالداخل في غرفة الاستقبال .. وبعد انصراف السائق تستقبل أمل ضيوف والدتها بأسلوب ودود وكلمات ترحيب من القلب ليقابلها كل من علي الرواي وخضرة بالقبلات الحانية ، وقلب امتلئ بفرحة لقاء ابنة صابر أبو عساكر وحفيدة رفقاء الماضي (فاطمة ، صفية ، عطية وحسن) .. وبعد بضع ثوان من جلوسهم قال الشيخ علي بصوت مواساة : البقاء لله يا ابنتي في وفاة والد زوجك ، وإن شاء الله سيخرج الدكتور مصري من المعتقل في القريب العاجل . فزوجك رجل بمعنى

= ورعب المواطن المصري الذي التهمت وسائل الإعلام الموجهة كل ما تبقى بداخله من ثقة بمصدقية النظام الحاكم لتسيطر مشاعر البغض والكراهية لرأس هذا النظام ورموزه لدى غالبية المواطنين البسطاء الذين كانوا حتى ساعات قليلة يقفون مؤيدين ومساندين إلى حسني مبارك بمشاعر صادقة ونفوس راضية رغم حياة الحرمان والمهانة والمعاناة التي يعيشونها تحت حكمه ؛ فالسقوط المخزي غير المتوقع لجهاز الشرطة ، بعد عقود من الممارسات الخاطئة أدت بقوات الشرطة إلى أن تكون أشبه بمماليك السلطة ، وجعلت غالبية المواطنين يتشفون بانكسارهم ودحرهم . وقد شكل المواطنين في جميع شوارع مدن ومراكز المحافظات لجانًا شعبية لحماية الممتلكات الشخصية وتسابقت القنوات الفضائية على نقل لقطات حية عبر شاشاتها للشباب والرجال وهم يباشرون حراسة ممتلكاتهم وبيوتهم ، كما أجرت تلك القنوات مع بعضهم الأحاديث التي كان معظمها يصب في اتجاه أن القيادة السياسية والتنفيذية المسؤولة عن الأمن أحدثت الإنفلات الأمني بحرق الأقسام وإخراج المساجين من السجون حتى تُخير الشعب المصري بين الفوضى والانفلات الأمني أو إيقاف التظاهرات والخنوع والخضوع للنظام مهما كانت أخطاؤه ومساوؤه فيتم إجهاض الثورة .

الكلمة . لقد انشرح له قلبي عندما شاهدته منذ ما يزيد عن عامين .. فتقول خضرة بصوتها الواهن الذي تملكه الحزن وهي تنظر إلى سعيدة وأمل بالتتابع : الله يرحمك يا صابر . كان مثل زوجك يا أمل بيشتغل في الكلمة التي يطلقون عليها سياسة . ربنا يبعده عنها ويهديه . هل يستطيع أحد الوقوف في طريق الحكومة .. فتنظر إليها أمل نظرة تأملية صامتة ، وتهز رأسها وتقول : ربنا يصلح الحال .. فيقول الشيخ علي الراوي بصوت استنكار وهو ينظر إلى زوجته نظرة عاتبة : ما هذا الذي تقوليه يا حضرة . الدكتور مصري إنسان بيحب بلده مثل والده الله يرحمه ، ويرحم كل موتانا جميعاً . وإن شاء الله سيظهر الحق عن قريب .. فتقطع سعيدة الحديث وتقول : سأصنع لكما الشاي يا خالة .. فتقول أمل : اجلسي يا أمي سأصنع أنا الشاي .. فيقول الشيخ علي الراوي بعدما انصرفت أمل موجهاً كلامه إلى زوجته بأسلوب عاتب: «الملافظ سعد»[1] يا خضرة . لقد أصبتي الدكتورة بالإحباط وخيبة الأمل.. فتقول خضرة بصوت تساؤل وعيون كساها الخجل والإحراج : ماذا فعلت حتى تقول ذلك يا شيخ ؟ .. فيقول علي الراوي : كان يجب أن تتخيري ألفاظك . لقد ذكرتي الدكتورة بما حدث لوالدها ، وربطتي هذه المأساة بما يحدث لزوجها .. فتقول سعيدة في محاولة لتخفيف حدة التوتر التي تملكت من خضرة : الخالة خضرة لم تقصد شيء مما تقوله .. فتقول خضرة بصوت خجل وملامح نادمة وهي تنظر إلى سعيدة : لا تؤاخذيني يا سعيدة .. وفي تلك اللحظة تدخل أمل لتسألها عن كمية السكر التي تضعها في الشاي فتقول لها خضرة: لا تؤاخذيني يا دكتورة. فأنا لم أقصد مضايقتك بكلامي . الله يرحمه صابر . وإن شاء الله زوجك يعود إلى بيته في القريب العاجل .. ثم تصمت للحظة وتقول بصوت لهفة : أين ابنتك ؟ .. فتنظر إليها أمل نظرة باسمة رغم ملامح الحزن المطبوعة على وجهها وتقول : لا يا جدتي . أنتِ لم تقولي شيء يغضبني . حياة نائمة فقد كانت معي في الجنازة ، وذهبت في نوم

---

(١) مثل مصرى شعبى يدل على أن حسن الألفاظ والكلام اللين هو من سعد المرء . وهذا يعنى أن من يُسعده الله يهبه حلاوة اللسان واختيار لالفاظ تحبب الناس فيه وتقربهم إليه . فهناك من الناس من يكون حسن النية ولكنه بألفاظه وطريقة كلامه يفهمه الناس بصورة خاطئة وقد ينفرون منه .

عميق ونحن في طريق العودة . سأيقظها بعد قليل .. فيقول الشيخ وهو ينظر إلى أمل نظرة إعجاب وسرور: الله يرحمك يا صابر ورثتي منه الذكاء والفطنة وحسن الكلام .. فتقول أمل: الله يرحم الجميع يا جدي.. ثم تنظر إلى خضرة وتقول : كيف حال قدمك يا جدتي. متى سيُنزع الجبس عنها.. فتقول خضرة: لقد مر خمسة أسابيع وباقي ثلاثة.. فتقول أمل: إن شاء الله تصبحي في أحسن صحة.. فتقول خضرة: اللهم احفظك يا دكتورة.. فيقول الشيخ علي : سأذهب أصلي المغرب والعشاء في الجامع المجاور. هل تريدون شيئًا احضره لكم ؟ .. فتقول سعيدة بصوت رجاء وعلى ملامحها علامات قلق وخوف : أرجوك لا تخرج فقد حل الليل والشوارع غير آمنة .. وتقول أمل : يا جدي يمكنك الصلاة بالمنزل ؛ للضرورة أحكام ، والشارع غير آمن .. فيقول الشيخ علي : الجامع ملاصق للمنزل . لا داعي للقلق . ثم ينهض ويلقي السلام وينصرف إلى خارج المنزل لتظل خضرة تواسي أمل وأمها ، وتتذكر مع سعيدة ذكريات الماضي وتترحم على الجميع . ومع حضور الشيخ علي يشاركهم الحديث حتى اقتربت الساعة من الحادية عشر فيتوجه الجميع للنوم بعدما تواعد علي الرواي مع أمل أن يذهبا سوياً إلى ميدان التحرير ؛ حيث سيتقابل هناك مع بعض معارفه من الدعاة وأئمة المساجد للمشاركة في التظاهرات التي تدعو للتغيير والإصلاح ، بينما ستشارك أمل ضمن المستشفى الميداني الموجودة هناك .

مع شروق شمس يوم الأحد ٣٠ يناير توجهت أمل بصحبة الشيخ علي الراوي إلى ميدان التحرير لتتقابل هناك مع عدد من شباب الأطباء الذين تطوعوا لتقديم الرعاية الطبية إلى المعتصمين في الميدان وإسعاف الحالات التي تتطلب المساعدة الطبية ، وقد كان من بين هؤلاء الأطباء الدكتور خالد عبد السميع والدكتورة إيناس الغيطاني اللذين أسعفاها فجر يوم الأربعاء الماضي في ميدان التحرير . بينما تقابل الشيخ علي مع عدد من شيوخ الدعاة وأئمة مساجد بعض مراكز محافظة الدقهلية ، الذين تواعدوا على اللقاء في التظاهرات التي ضمت بضعة آلاف من مختلف الطبقات الاجتماعية والتيارات الفكرية والمراحل العمرية في مشهد حضاري يدعو للتفاخر والاعتزاز بالسلوك الحضاري للمصريين وسط حماية آليات الجيش

الذي وقفت قواته في وضعية الدفاع عن المرافق العامة المحيطة بالميدان وحماية المتظاهرين السلميين وحفظ الأمن والنظام العام .. بعد إذاعة قناتي الجزيرة والعربية الحديث اللتان أجرتهما مع أمل خلال جنازة الشهيد سعد المنشاوي وتكرار إذاعته ، ووضع بعض لقطاته على تتر عدد من النشرات الإخبارية التي خصصتهما لنقل ما يحدث في مصر ، أصبحت أمل من الشخصيات محط بؤرة اهتمام القنوات الفضائية لتجري معها أحاديث ولقاءات ؛ حيث تأثر المشاهد المصري والعربي بقصة مصري وياسمين اللذين يقبعان في المعتقل مع السجناء الإحرار المطالبين بالتغيير، وقد فقدا الأب الذي سقط شهيد بطش النظام ولم يحضرا جنازته، ولم يعرفا حتى بوفاته . وفي حديث أجرته قناة الجديد اللبنانية معها خلال تفقدها للمستشفى الميداني بميدان التحرير تعهدت أمل على مواصلة طريق الكفاح الذي بدأه زوجها ورفاقه ، وأطلقت رسالة إلى حسني مبارك تداولتها جميع القنوات الفضائية وجعلت منها ومن زوجها وعائلة المنشاوي نموذجًا يحتذى به من المصريين الثوار؛ فقد قالت بصوت معبر امتزجت نبرته بنغمات آسى وحزن وإصرار وملامح مصرية تئن من الظلم وتصرخ بالمطالبة بتحقيق العدالة :«سيادة الرئيس لقد حان الوقت لكي تعترف أنك فشلت في إدارة شئون البلاد . حان الوقت لترحل عن السلطة وتترك من هم أقدر منك على هذه المسؤولية . أنت لم تشعر بآلام الفقراء واحتياجاتهم رغم أنهم ظلوا يقفون معك يؤيدونك ويناصروك على مدار أكثر من تسع وعشرون عامًا قضيتها في الحكم ، وتركت أصحاب رأس المال يقفزون على السياسة؛ فأفسدوا الحياة السياسية والاقتصادية وزادت معاناة الفقراء، وكثرت أعدادهم بعدما تلاعب هؤلاء البرجوازيون بمقدرات الوطن واغتصبوا ثماره على أكتاف مئات الآلاف من العمال والموظفين البسطاء الذين أصبحوا في زمرة طابور البطالة الذي ضم الملايين من الأيدي العاملة التي لم تجد المَعاولُ التي تبني بها مستقبل شريف يكفل لها حياة كريمة فأصبحوا بلا هوية داخل وطنهم .. سيدي الرئيس حان الوقت لكي ترحل بعدما تركت التعليم الذي هو أساس تقدم ورقي البلاد ليسير

من سيء إلى أسوأ ، وتركت العنان لأصحاب رؤوس الأموال ليسيطروا على منظومة التعليم من خلال جامعات ومدارس خاصة الغالبية العظمى منها لم تكن تبغي سوى تحقيق الربح على حساب جودة التعليم ، وأصبحت المدارس الحكومية والجامعات الأهلية تئن من الإهمال وندرة الموارد وسوء التخطيط وفساد الإدارة ، وكل هذا كان يجرف المنظومة التعليمية من أهم مقومات نجاحها .. سيدي الرئيس لقد حان الوقت أن ترحل بعدما أُفسد في عهدك جهاز الشرطة المسؤول عن حماية أمن المواطن ، وأصبح أداة قمع تبطش به وتكمم فمه وهي تطحن كرامته الإنسانية وتدنس عزته الوطنية بحجة مواجهة الإرهاب والحفاظ على النظام العام ، والحقيقة أنها كانت تحافظ على نظامك أنت وتحمي أمنك أنت واتباعك من الرأسماليين السياسيين حتى ولو على أشلاء وجثث الشعب الذي فقد كرامته الإنسانية .. سيدي الرئيس لقد حان الوقت لكي ترحل بعدما تركت مرفق الصحة عاجزًا أمام مواجهة الأمراض التي تسبب فيها سوء التغذية وانعدام الأمن الغذائي، ولم تحاسب الأشخاص الذين باعوا ضمائرهم وإنسانيتهم وقاموا باستيراد مبيدات وأسمدة مسرطنة ، وتركتم الفقراء بلا رعاية صحية ولا تأمين صحي فمات الكثير منهم بعد رحلة عذاب لم يجد خلالها أي رعاية من الدولة. سيدي الرئيس لقد انحل عن المصريين طوق العبودية والخوف الذي كمم أفواههم ولن يقدر أحد أن يُكبل عقولهم بعد اليوم . ارحل واتركنا نصلح الفساد الذي أصبح يسري في كل مفاصل الدولة حتى تستعيد بلادنا ما كانت عليه في السابق ؛ فلم يعد لك فرصة لإصلاح ما أفسدته أنت وحاشيتك».. ومع نهاية يوم الأحد كانت القوى الثورية بمختلف توجهاتها الفكرية والإيدلوجية قد حشدت الجهود وشحذت الهمم من أجل انطلاق تظاهرات تضم ملايين المصريين يوم الثلاثاء الموافق ١ فبراير لإجبار الرئيس حسني مبارك على التنحي ليستمر الحشد في اليوم التالي ، وتزداد أعداد المعارضين وتقوى شكيمتهم وتتضاعف عزيمتهم وتزداد إرادتهم صلابة في ظل أوضاع أقليمية وعالمية داعمة لسقوط نظام مبارك .

وأثناء قيام أمل بمتابعة الحالة الصحية لبعض المعتصمين في الميدان اتصلت بها سعيدة على تليفونها المحمول لتبلغها خبر استشهاد شهندة لينزل عليها هذا الخبر كالصاعقة فتهلع إلى خارج الميدان ، وهي في حالة انفعالية صادمة وتذهب إلى منزل بهية؛ حيث أخبرتها أمها بأنها أستأجرت سيارة لتنقلها هي وخضرة إلى بيت شبرا وأنها ستنقل بعض الأثاث اللازم لمبيتهما هناك خلال الأيام القادمة حتى تكون بجوار بهية.. ومع دقات الساعة السادسة مساءً وصلت أمل إلى منزلها القديم بشبرا لتتقابل مع خضرة التي لم تجد أحد يساعدها لتصعد مع سعيدة إلى الدور الثالث ، وبصوت لهفة ودموع استباقية حزينة قالت بصوت تساؤل مصدوم : هل عرفتي يا جدتي ما الذي حدث للدكتورة شهندة؟.. فتقول خضرة بصوت حزين: لقد اتصلت جارتكم النصرانية بسعيدة قبل آذان المغرب بحوالي ساعة وأبلغتها أن الدكتورة شهندة ماتت يوم الجمعة في التحرير. فتقاطعها أمل قائلة : لماذا لم يبلغونا أول أمس؟. فتقول خضرة: والله يا ابنتي أنا لم أعلم تفاصيل الموضوع ؛ وقد جئت مع أمك لنجلس هنا ، وهناك سيارة حملت بعض الأثاث لتنقله وسيأتي جدك علي معها . لقد صعدت أمك مع ابنتك لتكون بجوار جارتها في المصيبة التي حلت بها. فتقول أمل بصوت انكسار: سأصعد إلى هناك يا جدتي . هل تريدي شيء أفعله لك ؟ .. فتقول خضرة : ربنا يحفظك يا دكتورة . وربنا يرحمها ويرحم كل موتى المسلمين .. فتنصرف أمل لتصعد إلى مسكن بهية ، وهي في حالة إنفعالية حزينة تضخمت عندما شهدت بهية وصافي في حالة انهيار نفسي بجوارهما أنجيل وسعيدة يبكيان بحرقة وألم .. وفي مشهد درامي مؤثر ترتمي أمل في أحضان بهية وتنخرط في بكاء شديد قائلة : والله لن أترك دماء شهندة وحمايا وكل الشهداء الذين اغتالهم حسني مبارك ونظامه المجرم دون حساب. ثم تحتضن صافي ، وتكرر ما قالته بصورة أكثر حدة وسط بكاء الحاضرين لتقول صافي بصوت باكي حزين وهي تنظر إلى أمل : لقد ماتت معلمتك التي طالما كنت أسخر من كلامها عن العدالة الاجتماعية وحق المواطن المصري في التمتع بالحرية والكرامة .. فتزداد تعبيرات أمل حرقة وألم وتقول بصوت امتلئت نبرته بالغضب

والرغبة في الانتقام : الله يرحمها ويرحم كل الشهداء . لن نترك دمائها ستثأر من رجال الشرطة مماليك النظام المجرم الذين قتلوها وقتلوا عم سعد المنشاوي .. فتتراجع صافي عن حضنها وتزداد حرارة بكائها وهي تقول بصوت مكلوم وملامح تكاد تنفجر من الحزن والآسى : رجال الشرطة ! هل تعلمي ماذا حدث إلى زوجي ؟ .. فتقول أمل بصوت ترقب وملامح فضول : ماذا ؟ .. فتقول صافي : عمرو يعمل منذ أكثر من ستة أشهر مأمور سجن ٤٤٠ بمنطقة سجون وادي النطرون ، وكان بالأمس يبيت داخل منطقة السجون ، وأنا والأولاد نبيت هنا مع أمي . كنت اتصل به كل ساعة اطمئن عليه وأتابع معه ما توصل إليه من أخبار عن شهندة . وقبل الفجر بحوالي ساعة كنت معه على الهاتف وسمعت صوت طلقات نيران وقد أغلق معي المحادثة . ظللت اتصل به ولم يجب حتى اتصل بي أحد زملائه وأبلغني أنه أصيب بطلق ناري في كتفه أثناء اقتحام السجن وتم نقله إلى مستشفى الشرطة بمدينة نصر .. فتقول أمل وسعيدة في نفس الوقت بصوت لهفة : وكيف حاله الآن ؟ .. فتخرج بهية عن صمتها وتقول بصوت مقهور غلفه الأسى والحزن : لقد هلعت صافي بعد سماع الخبر إلى مستشفى الشرطة ومعها أولادها محمد ومعتز وتركوني وحيدة حتى جاءني خبر وفاة شهندة بعدها بساعة ؛ حيث اتصل أحد الأشخاص الذين كانوا مع المرحومة في المظاهرة وأخبرني أن «شهندة أصيبت بطلق ناري في الرأس وموجودة في ثلاجة المستشفى ، ولم يتم إدراج اسمها ضمن كشوف المتوفين لأنها لم تكن تحمل تحقيق شخصية أو أي شيء يدل على شخصيتها ، وظلت مجهولة حتى تعرفت عليها بعد إفاقتي من عملية استخراج طلق ناري من قدمي » .. فتقول أنجيل وهي تحتضن بهية بعدما عادت لبكائها الهستيري : لقد سمعت صوت صراخ بهية فاسرعت أنا ونسيم إلى هنا فوجدناها في حالة صعبة تصرخ قائلة : «شهندة ماتت» في القصر العيني فاصطحبناها وذهبنا على الفور إلى المستشفى ؛ حيث وجدنا جثمان الشهيدة موجود هناك ، ولن نستطع استلام الجثمان إلا بعد تصريح النيابة غداً . وقد ذهب نسيم إلى مستشفى الشرطة بمدينة نصر واطمئن على عمرو الريس الذي كان في غرفة

الإفاقة بعد إجراء عملية جراحية له لاستخراج الطلق الناري من كتفه ليخبر صافي بهذا الخبر المشؤوم حتى تكون بجوار أمها وتحضر جنازة شقيقتها .. فتقول سعيدة بصوت مواساة وهي تنظر إلى بهية نظرة باكية : ربنا يصبرك يا ست بهية ويرحم الشهيدة فقد كانت إنسانة بمعنى الكلمة ، وقد اختارها الله لتكون مع الشهداء في جنة الخلد .. فتقول أمل بصوتها الانفعالي : سوف تخرج جنازة الدكتورة شهندة من التحرير فهناك ثلاثة جثامين من الثوار سيتم خروجهم من التحرير غداً في رسالة واضحة للقتلة بأنهم لن يفلتوا من العقاب . فمصر كلها بإذن الله ستخرج بعد غد في مليونية المطالبة برحيل مبارك ونظامه .. فتقول بهية بصوتها المجروح وملامحها الشاحبة الباكية وهي تنظر إلى أمل نظرة أم مَثْكولة : سأكون مع الجثمان ولن أتركه حتى مثواه الأخير .. فتلاحقها صافي بصوت رفض : يا أمي إكرام الميت دفنه ولا يصح أن نجعل من جثمان شهندة فُرْجَةُ للناس .. فتقول أمل بصوت ثوري امتلئت نبرته باليقين وهي تنظر إلى صافي : نحن لا نتاجر بدماء شهدائنا ولن نجعل جثامينهم فُرْجَةُ . كل ما سنعمله هو الدعاء والصلاة للشهيد وجعله رمزًا لكل محب للوطن . لقد حضرت بالأمس جنازة حمايا في ميدان التحرير وكانت جنازة مهيبة ألهبت شعور وحماس المصريين ، ولو كانت الدكتورة شهندة على قيد الحياة لكانت أول مؤيد لخروج جنازة الشهداء من ميدان التحرير .. فتقول بهية بصوتها المبحوح والدموع الجافة عالقة بعينيها وهي تنظر إلى صافي نظرة باكية : الله يرحمك يا شهندة ويرحم كل الشهداء الذين قُتلوا غدراً . فعلاً لو لم تكن مشيئة الله لكان رأي شهندة مثل رأي أمل. سنجهز الجثمان حتى تخرج الجنازة من ميدان التحرير ، وأنا سأقنع عادل بهذا الكلام.. فتقول سعيدة : أين الحاج عادل ؟ .. فتقول أنجيل بصوتها الحزين وعلى ملامحها الحسرة والأسى : ربنا يصبره ويصبرنا جميعاً . الحاج عادل منذ معرفته بالخبر وهو في حالة سيئة وصمم على البقاء بالمستشفى حتى صباح اليوم التالي .. فتقول سعيدة وهي تتأوه من شدة الحزن والأسى : ربنا يصبره و يصبرنا جميعاً. ثم تنهمر في بكاء شديد قائلة : لقد مات الدكتور طارق والأستاذ سعد والدكتورة شهندة في يوم واحد . اللهم

لا أسألك رد القضاء ولكني اسألك اللطف فيه.. فتقول أنجيل بصوت صدمة : الدكتور طارق مات! لماذا لم تخبرينا يا سعيدة؟ يا رب رحمتك وبركتك وعفوك. فتقول بهية بصوتها المشروخ وملامحها الشاحبة وهي تنظر إلى سعيدة نظرة مواساة : لا الله إلا الله . ربنا يرحمه .. فتقول صافي بصوت تساؤل حزين : كيف حدث ذلك ؟ .. فتحكي أمل ما حدث إلى حماها و زوج أمها يوم الجمعة الماضية وسط ترحمات ودعاء الحاضرين .. وتمر بضعة ساعات قضتها سعيدة وأمل في مواساة بهية وصافي رغم المصيبة التي ألمت بهما لتنصرف بعدها سعيدة وهي تحمل حفيدتها حياة بصحبة أنجيل حتى يحصلان على قسط من الراحة قبل الصبح حيث سيرافقان الجثمان إلى مثواه الأخير بمقابر الأسرة بمدينة نصر ، وتظل أمل تجلس مع بهية وصافي تحاول التخفيف عنهما رغم ما بها من شعور بأس تعيس لوفاة حماها وزوج أمها بالإضافة إلى استمرار حبس زوجها وصديقتها .

وفي اليوم التالي ، وفي مشهد مهيب في ميدان التحرير ، تم تشييع ثلاثة جثمان من الشهداء الذين سقطوا يوم جمعة الغضب بعد الصلاة عليهم في جامع عامر أبو المكارم عقب صلاة الظهر في موكب ضم عشرات الآلاف من المتواجدين في ميدان التحرير ، وسط هتافات بسقوط النظام ورحيل حسني مبارك . وقبل تشييع الجنازة يتكرر حديث أمل مع قنوات الجزيرة والعربية والبي بي سي لتزداد شهرتها وتصبح زائعة الصيت على المستوى الشعبي ، وداخل أروقة التكتلات السياسية بمختلف توجهاتها الفكرية والإيدلوجية التي بدأت في التأهب للمزاحمة والظهور في الصفوف الأولى للتظاهرات التي تنادي بسقوط النظام ورحيله بعدما تأكدوا أن التنين الذي يحكم مصر قد كُسرت أسنانه ونُزعت أظافره وجفت منابع نيرانه وبُترت أرجله ويداه ولن يعد يستطيع الحفاظ على قلعته الشاهقة التي لم يتجرأ أحد حتى إلى النظر إليها على مدار ثلاثة عقود .. وبعد مرافقة كل أهل شهندة ، وأصدقائها وجيرانها وتلاميذها ومحبيها لجثمانها ليواري الثرى في مثواه الأخير ، ذهب كل واحد إلى حال سبيله بعد مشاهد درامية حزينة أشعلت روح الكراهية

والبغض ضد النظام الذي لُصقت به تهمة قتل الثوار عمداً . تلك المشاهد الدرامية المأساوية ، التي تعمدت القنوات الفضائية بعينها من تكرار إذاعتها على مدار اليوم، جعلت أعداد الرافضين للنظام تزداد وتتضخم في وقت قياسي لتصبح أعدادها تفوق أعداد المؤيدين له ليأتي مساء اليوم التالي ويمتلئ ميدان التحرير والميادين الأخرى في المحافظات بأعداد تجاوزت بضعة ملايين تطالب برحيل الرئيس مبارك وسقوط نظامه.. فمع شروق صباح يوم الثلاثاء الموافق ١ فبراير ٢٠١١م توجهت أمل ومعها سعيدة وحياة بصحبة الشيخ علي الرواي وخضرة ، التي ظلت تتوسل إليهم لتذهب معهم حتى اصطحبوها على كرسي متحرك ، لينضموا جميعاً إلى مئات الآلاف من المصريين البسطاء الذين دفعتهم أحلام التخلص من عبودية الفقر والقهر والعيش في مجتمع تسوده قيم العدالة الاجتماعية والمساواة إلى الاستجابة لنداءات التوحد تحت كلمة واحدة للتخلص من النظام الحاكم واستبداله بنظام يحقق لهم هذه الأحلام وتلك الأماني.. ومع وصول أمل إلى الميدان وهي تجر الكرسي المتحرك الذي تجلس عليه خضرة كانت عدد من كاميرات القنوات الفضائية ترصد تحركتها وتترقبها . وبمجرد وصولها إلى المستشفى الميداني توجهت كاميرا قناة الجزيرة لتلاحقها حيث وجه إليها مراسل القناة كلامه قائلاً بصوت حماسي تعالت نبرته : مساء الخير يا دكتورة أمل . أنه يوم مشهود في تاريخ مصر . حشود قد تتعدى المليون والساعة لم تتجاوز الواحدة ظهراً . حشود كلها تُطالب بإسقاط النظام ورحيل حسني مبارك . هل تعتقدي أن مبارك سيستجيب لهذه النداءات ويتنحى عن السلطة ؟ .. فتقول أمل بصوت حماسي : أعتقد أن رياح الحرية والتغيير إلى غداً أفضل بدأت ترفرف في كل ميادين الجمهورية ، وقد علمنا منذ بضعة دقائق أن مبارك يجهز خطاب التنحي ، ونحن في الميدان سنحاول تجميع القوى الثورية بكل تياراتها الفكرية لنرشح مجلس رئاسي يقود البلاد خلال المرحلة الانتقالية .. فيقول مراسل القناة وهو ينظر إلى حياة بعدما سمعها تقول ماما : هل حضرتي إلى الميدان ومعكي طفلتك ؟ .. فتقول أمل : حضرت ومعي حياة ابنتي ،

وأمي التي فقدت زوجها الشهيد الدكتور طارق صيام يوم جمعة الغضب ، والشيخ علي الراوي إمام جامع قريتنا وزوجته ، وهما بمثابة جدي وجدتي .. فيتوجه المراسل نحو سعيدة ويقول : تعازينا وتعازي كل الشعب المصري لوفاة زوجك الشهيد . هل يمكن أن تحكي لنا شعورك وأنتِ تشاهدي كل هؤلاء المواطنين بمختلف انتمائاتهم ينادون بسقوط النظام الذي قتل زوجك ؟ .. فتقول سعيدة بصوت حزين وملامح ثكلتها الأيام : لقد مات زوجي الأول والد أمل ، الذي هو ابن عمي في نفس الوقت ، في سجن شديد الحراسة بعدما اعتقلوه ووُجهت إليه تهمة محاولة قلب نظام الحكم . ثم قتلوا زوجي الدكتور طارق صيام برصاصة غدر أمام قسم مصر القديمة . أنا سيدة بسيطة لا أفهم في السياسية لكن كل ما أفهمه أن دم صابر والدكتور طارق في رقبة رجال الشرطة الذين يأتمرون بأمر مبارك ووزير داخليته حبيب العادلي .. فيقول المراسل موجهاً كلامه إلى الشيخ علي الرواي : وما رأي فضيلة الشيخ فيما يحدث في الشارع المصري ؟ .. فيقول الشيخ علي بصوت حسرة وملامح آسى : بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام . أما بعد يقول الله سبحانه وتعالى في محكم آياته ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ . أخشى أن تسود الفرقة بين المصريين بعد إجبار الحاكم على الرحيل ؛ خاصة ، وأنه من وجهة نظري الشخصية فالثورة الشعبية المصرية التي تنادي بشعارات كلها مشروعة تفتقد إلى شخصية وطنية تلتف حولها كل القوى السياسية .. فيقاطعه مراسل قناة الجزيرة قائلاً بصوت استنكار : هناك من الشخصيات العامة الوطنية المؤهلة لقيادة المرحلة الراهنة ؛ فهناك الدكتور البرادعي والدكتور أيمن نور وكثير من الشخصيات الأخرى التي تمتلك كاريزما القيادة .. فيقول الشيخ علي بصوت تعلقت بنبرته نغمة رفض : يا سيدي أنا أتحدث عن شخصية وطنية مثل جمال عبد الناصر ، سعد زغلول ، مصطفى كامل ، أحمد عرابي . شخصية تحظى بحب الغالبية العظمى من المصريين . شخصية يتوافق عليها

الغني والفقير المتعلم والأمي . شخصية تمتلك قلب ذو وجهين ؛ الأول العدالة والرحمة، والثاني قوة سيف الحق وبطشه.. فيقول المراسل وهو يوجه كلامه إلى أمل: هل هناك تنسيق مع باقي التيارات الثورية حول المرحلة المقبلة في حالة عدم استجابة الرئيس حسني مبارك لمطالب الثوار بالتنحي ؟.. فتقول أمل : نحن نأمل أن يستجيب مبارك لمطالب الثوار ، وفي حالة عدم الاستجابة سيكون هناك اجتماع للقوى الثورية بمختلف أطيافها السياسية لنتشاور على خطوات التصعيد .. وفي تلك اللحظة يتحرك جثمان الشهداء وتتعالى الصرخات والهتافات وتتوجه أمل وسعيدة معهما أنجيل ليرافقن بهية وصافي إلى المقابر حيث يواري جسد شهندة الثرى في مشهد حزين مؤلم أبكى كل من كان بالمقبرة ليذهب بعدها كل واحد إلى حال سبيله ، وتعود سعيدة وأنجيل بصحبة بهية وصافي إلى شبرا ، بينما عادت أمل إلى ميدان التحرير حيث انضمت إلى باقي الثوار الذين كانوا يعدون العدة لسماع خطاب حسني مبارك الذي أعلنت عنه وسائل الإعلام المصري والذي توقع الثوار خلاله بإعلان تنحيه عن الرئاسة .

ومع حلول آذان العشاء كان ميدان التحرير قد امتلئ عن آخره بالمتظاهرين الذين جاءوا من مختلف أحياء القاهرة ، وكثير من المحافظات الأخرى أغلبهم لا ينتمي إلى أي فصيل سياسي. كانت شعارات «ارحل .. الشعب يريد إسقاط النظام» تهز الميدان من شدة حماس الهتافات حتى ظهر على الشاشة الكبيرة التي تم نصبها في الميدان صورة حسني مبارك وهو يلقي خطابه إلى الشعب ليخيم الصمت على الميدان قرابة ستة دقائق حتى قال مبارك «وأقول بكل الصدق ، وبصرف النظر عن الظرف الراهن ، أنني لم أكن أنتوي الترشح لفترة رئاسية جديدة . فقد قضيت ما يكفي من العمرْ في خدمة مصر وشعبها لكنني الآن حريص كل الحرص علي أن أختتم عملي من أجل الوطن بما يضمن تسليم أمانته ورايته ومصر عزيزة آمنة مستقرة» حتى بدأ المتظاهرون في الهتافات ما بين معارض ومؤيد حتى جاءت الكلمات الأخيرة من الخطاب بعد ما يقرب من تسع دقائق: «ستخرج مصر من

الظروف الراهنة أقوي مما كانت عليه قبلها ، وأكثر ثقة وتماسكاً واستقراراً . سيخرج منها شعبنا وهو أكثر وعياً بما يحقق مصالحه وأكثر حرصاً على عدم التفريط في مصيره ومستقبله . إن حسني مبارك الذي يتحدث إليكم اليوم يعتز بما قضاه من سنين طويلة في خدمة مصر وشعبها . إن هذا الوطن العزيز هو وطني مثلما هو وطن كل مصري ومصرية فيه عشت وحاربت من أجله ودافعت عن أرضه وسيادته ومصالحه وعلى أرضه أموت ، وسيحكم التاريخ على وعلى غيري بما لنا أو علينا . إن الوطن باق والأشخاص زائلون ومصر العريقة هي الخالدة تنتقل رايتها وأمانتها بين سواعد أبنائها وعلينا أن نضمن تحقيق ذلك بعزة ورفعة وكرامة جيلاً بعد جيل. حفظ الله هذا الوطن وشعبه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» حتى انتفض غالبية المتظاهرين إلى التهليل والفرحة بعدما شعروا أن هدفهم قد تحقق ؛ فقد أجبروا حسني مبارك على عدم الترشح لفترة رئاسية ثانية ، وقد تم إجبار النظام عن الرجوع عن التعديلات الدستورية التي تمت في عام ٢٠٠٧ م ، بجانب النظر في الطعون القضائية في انتخابات مجلس الشعب التي تمت في عام ديسمبر ٢٠١٠م .

خطاب مبارك كان بمثابة إنذار الخطر الذي أطلق نفيره في آذان أعضاء جماعة الأخوان المسلمين وبعض القوى الثورية التي دارت حولها شبهات تلقي تمويلات من الولايات المتحدة وعدد من الدول الغربية من أجل إحداث الفوضى . وهذا ما دفع برموز هذا التيار إلى إلقاء الخطب الحماسية التخويفية من أن الطعم ، الذي ألقاه النظام في شكل عدم ترشح في الانتخابات التشريعية ، سيقضي على الثورة وسيلقي بكل الثوار في المعتقلات والسجون تباعاً في المستقبل القريب ؛ فبعد دقائق من نهاية الخطاب صعد على منصة الميدان التي سيطر عليها أشخاص بعينهم كل من الشيخ شوكت نيازي والدكتور محمد المرتجي ليلقي كل منهما كلمات ثورية نارية تندد بالخطاب، وتحظر من الانجراف نحو الفخ الذي حاكه النظام ليقضي على الثورة والثوار .. أمل وكثير من المتظاهرين الذين خرجوا بقلوب صافية بريئة لا تحمل أية مأرب أو أجندات سياسية تأثرت بالخطاب وقرروا الرحيل عن الميدان في انتظار تنفيذ

الإصلاحات السياسية والاقتصادية والتعديلات الدستورية التي جاءت في هذا الخطاب .. وبينما كانت أمل تقف تتحدث مع زملائها من الأطباء المتطوعين في المستشفى الميداني عن كيفية المشاركة مع باقي القوى السياسية في الحوار الوطني الذي دعا إليه مبارك ، والذي سيتم بمقر رئاسة الجمهورية مع نائب الرئيس اللواء عمر سليمان ، انضم إليهم أحد الأطباء المنتمين إلى جماعة الأخوان المسلمين وأخبرهم أن مجلس أمناء الثورة قرر عدم ترك الميدان حتى ولو قامت القوى الثورية بالحوار مع النظام ، وأبلغ أمل أنه تم ترشيحها مع آخرين للذهاب إلى القصر الجمهوري ضمن ائتلاف شباب الثورة للمشاركة في جلسات الحوار الوطني هناك. ومع مغادرة أمل الميدان وعودتها إلى منزل أمها ظلت خلال تلك الليلة تحلم بخروج مصري وياسمين من المعتقل مع باقي المعتقلين الذين تم اعتقالهم منذ التحضير ليوم ٢٥ يناير ، وقلبها وعقلها يمتلئان بمشاعر متناقضة وتساؤلات عديدة حول ما يجري في ميدان التحرير؛ فقد تحركت مشاعر الفرحة بداخلها عند سماعها ما جاء في الخطاب ، ورغم شعور الكراهية الذي انطبع في وجدانها تجاه حسني مبارك ونظامه فقد تعاطفت مع كلمات الخطاب تعاطفاً شديداً . كما ظلت الأفكار المتضاربة تجاه نظرية المؤامرة المتبادلة من أطراف الصراع تذبذب تفكيرها رغم رفضها المعنوي لكل ما يطلقه النظام من روايات عن الأجندات الخارجية والرغبة في إغراق مصر في الفوضى .

وفي صباح اليوم التالي توجهت أمل إلى ميدان التحرير حتى تتقابل مع باقي القوى الثورية التي وُجهت إليها الدعوى للذهاب إلى مقر الرئاسة بمصر الجديدة «قصر الاتحادية» ؛ حيث تقابلت مع عدد من الشباب الذين مثلوا الائتلافات المتعددة التي تشكلت داخل الميدان ، وتم إدراجهم ضمن المجموعة التي ستتوجه في الساعة الواحدة مساءً إلى القصر . وبجوار إحدى الخيام المنصوبة في حديقة ميدان التحرير جلست أمل مع مجموعة الشباب التي ستذهب معها للقصر ، والذي تراوحت أعمارهم بين العشرين والخامسة والعشرين وليس لديهم توجهات سياسية أو انتماءات حزبية ولم يكن لديهم مهارة أو خبرة بأمور التفاوض وتنوعت آرائهم واتجاهاتهم نحو

غاية التفاوض ؛ فخلال أكثر من ساعتين دارت بين هؤلاء الشباب مناقشات حادة لم تسفر عن أي شيء سوى تلك الاستنتاجات التي استشفتها أمل وأصابتها بشيء من الإحباط بعدما استشعرت أن النظام نجح في خطته في اختيار أشخاص لا تمتلك أي رؤى سياسية أو بصيرة نحو الإصلاح، وكل ما لديهم مجرد انفعالات ثورية متضاربة. لذلك فقد قررت عدم التحدث عند لقائها بنائب رئيس الجمهورية في أشياء تتعلق بالأمور السياسية ، واستجمعت طاقتها الذهنية لتركز في ملف المعتقلين خلال أحداث الثورة .. ومع اقتراب الساعة من الثانية عشر ظهراً ، وبينما كانت أمل تحاول تهدئة المنفعلين خلال نقاشاتهم حول الحوار سمع الحضور صياح وأصوات استغاثة تأتي من ناحية ميدان عبد المنعم رياض فأسرعت أمل تستطلع الأمر مع باقي الشباب فإذا بها تفاجأ بمجموعة من الأشخاص يمتطون الخيول والجمال مقتحمين الحاجز الذي فرضه الجيش على مدخل ميدان التحرير وهم يلوحون بالعصي من فوق ظهور الجمال والخيول حاملين صور الرئيس مبارك وهم يرددون «الجزيرة فين أنصار مبارك أهم»، وكثير من المتظاهرين في الصفوف الأمامية من الميدان المواجه لميدان عبد المنعم رياض يفرون من أمامهم في حالة زعر حتى انقض عليهم الشباب الذين تم تكليفهم بحماية الميدان وأسقطوا الكثير منهم من فوق دابتهم وأسخنوهم ضربًا بطريقة وحشية وسحلوهم بصورة انتقامية وتحفظوا عليهم داخل عدد من الخيام المنصوبة في الميدان .. المشاهد التي شهدتها أمل دفعتها بصفتها طبيبة أن تتقدم لتساعد من سقطوا جرحى فذهبت ومعها عدد من أطباء المستشفى الميداني لتقديم المساعدة الطبية وإسعاف المصابين داخل الخيام . وعندما وصلت إلى هناك اعترض طريقها مجموعة من الشباب وحاولوا منعهم من إسعاف المصابين حتى جاء الشيخ شوكت نيازي بملامح منفعلة وصوت استنكار قائلاً إلى هؤلاء الشباب : ماذا تفعلوا ؟ هل توقف تفكيركم ؟ هل غُيبتم عن الدنيا؟ هذه الدكتورة أمل أهم الشخصيات التي شاركت في الثورة وجاءت لتقديم الواجب الإنساني في علاج الجرحى .. ثم ينظر إلى أمل نظرة اعتذار ويقول : لا تؤاخذيهم يا دكتورة أنهم يخشون أن يندس أحد من أتباع النظام ،

ويفك أسر هؤلاء القتلة الذين أرادوا سفك دماء الأبرياء من المتظاهرين . أهلاً ومرحباً بك وبزملائك الكرام . تفضلي يا دكتورة وكل ما تطلبيه سيكون عندك إن شاء الله .. فتهدأ تعبيرات أمل ورفاقها من الأطباء ، ويتبخر غضبهم خلال حديث الشيخ شوكت لتقول أمل : أهلاً ومرحباً بك يا فضيلة الدكتور . لابد من توعية الشباب الذي يقوم بأعمال الحراسة . مهما كانت هوية هؤلاء فهم جرحى .. فيقول الشيخ شوكت : معكِ حق في كل كلمة وسأفعل ذلك بنفسي .. ثم يتقدم بصحبة أمل والأطباء نحو الخيمة القريبة وهو يقول لأحد الشباب التابع له : اصطحب العدد اللازم من السادة الأطباء إلى باقي الخيام حتى يتم إسعاف المصابين وتأتي الشرطة العسكرية لتصطحبهم .. فتقول أمل : كم عدد المصابين الذين سقطوا خلال تلك الأحداث ؟ .. فيقول الشيخ شوكت : هناك تسعة أشخاص من بلطجية النظام متواجدين في ثلاثة خيام سأتشرف بصحبتك داخل هذه الخيمة وأرجو من السادة الأطباء التوجه إلى الخيمتين الآخرتين ؛ فحضرتكم ستة أطباء . كل اثنين يتوجهون إلى خيمة من الخيام الثلاثة .. ومع دخول أمل إلى الخيمة كان هناك ثلاثة أشخاص يأنون من شدة الألم والدماء تسيل من جميع ملامحهم وهم مكتوفي الأيدي والأرجل مثل أسرى الحرب يستغيثون بأصوات رهبة وهلع قائلين : نحن لم نفعل شيء ، والله نحن لسنا بمجرمين أو بلطجية . نحن على باب الله نبحث عن رزقنا .. فيرد عليهم الشيخ شوكت بأسلوب خشن وهو يمقتهم بنظرات قاسية : لقد أردتم قتل المتظاهرين المسالمين . هل تعتقدون أنكم ستفلتون من العقاب ؟ سيتم إعدامكم بتهمة القتل لو لم تعترفوا بالأشخاص الذين استأجروكم لقتل الثوار .. فيحاول أحد منهم تقبيل قدمه وهو يبكي بشدة قائلاً باستغاثة المستضعف : أرجوك يا سعادة الباشا أنا حضرت إلى هنا بعد ما دفعوا لي ٣٠٠ جنيه ، وكل الذي قالوه لي أن امشي بالحصان وسط المظاهرة علشان الناس تمشي . والله يا سعادة الباشا هذا كل الموضوع .. فيقول الشيخ شوكت بصوت تساؤل ناعم : من الشخص الذي استأجرك ؟ .. فتقاطع أمل حديث الشيخ شوكت قائلة : أرجوك يا فضيلة الدكتور اسمح لنا بإسعاف الجرحى أولاً ؛ فمن

الواضح أن جروحهم غائرة وخطيرة .. فيقول الشيخ شوكت بصوت انفعال : يا دكتوره هؤلاء البشر يجب الحذر منهم . فأنهم كأفاعي .. فيقاطعه أحد المصابين قائلاً بصوت استغاثة امتلئ بنغمات خوف ورهبة : يا سعادة الباشا نحن لم نفعل أي شيء من الذي قلته . نحن ناس بسطاء نكسب قوت يومنا من سياحة ركوب الخيل في منطقة الأهرام ، ومنذ يوم ٢٥ يناير وقوت يومنا لا ننحصل عليه ؛ فجئنا إلى هنا لنعبر عن تأيدنا للاستقرار . وكل ما فعلناه هو السير بتسعة أحصنة وجمل بين المتظاهرين حاملين صورة الرئيس مبارك.. فيقول الشيخ شوكت : كل هذه الأكاذيب سوف يستخرجها منكم رجال الشرطة العسكرية .. فتقاطعه أمل مرة أخرى قائلة بصوت رجاء : أرجوك يا فضيلة الدكتور اتركهم حتى نسعفهم ونضمد جراحهم .. فيقول الشيخ شوكت بصوت ناعم وملامح تلونت بالطيبة والتسامح وهو ينظر إلى أمل : تفضلي يا دكتورة . وإذا كان هناك مسلتزمات طبية غير موجودة اكتبيها ، وسنرسل في إحضارها . لا تؤاخذيني يا دكتورة على الانفعال لكن بلطجية النظام من الشرطة والحزب الوطني تحاول بكل طاقتها أن تعيد الأمور إلى قبل يوم ٢٥ يناير .. فتتجه أمل والطبيب الذي يرافقها نحو المصابين وهي تقول بصوت يقين : يا فضيلة الدكتور لن تعود عجلة الزمن إلى الوراء . لقد كسرنا حاجز الخوف ، وكسرنا معه سيف الظالم . سينتصر الحق على الباطل وستتحقق مطالبنا بالعيش والحرية والعدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية .. فيقول الشيخ شوكت وهو يهم بمغادرة الخيمة بعدما نظر رسالة على تليفونه المحمول : بكل تأكيد يا دكتورة . لن يعود الزمن إلى الوراء وسينجلي ظلام القهر وستعم شمس الحرية والرخاء والإيمان على جميع ربوع أرض الكنانة . سعيد بلقائك وأتمنى رؤيتك على خير . الله معنا . سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. فترد أمل والطبيب الذي معها السلام وهي تنظر إلى الشيخ شوكت وهو ينصرف نظرة تأملية صامتة .. وبمجرد خروج الشيخ شوكت وأتباعه من الخيمة صاح المحتجز الثالث وهو يرقد مقيد اليدين والقدمين والدماء تغطي كل ملامح وجهه صيحة امتلأت بالقهر والإحساس بالظلم : والله يا ناس لسنا تابعين لأحد ولسنا

ببلطجية أو مجرمين . أنا عمري ٣٥ سنة حاصل على بكالوريوس تجارة عام ١٩٩٨م لم أجد أمامي فرصة تجعلني استطيع أن أوفي التزاماتي الحياتية سوى مهنة أبي التي كانت تدر علي رزقًا وفيرًا والحمد لله . الاضطرابات التي حدثت جعلتنا لا نجد حتى قوت يومنا ؛ فلم يعد هناك سياح يأتون إلى الأهرام بسبب المظاهرات والاعتصامات ، وكل ما فعلناه أننا حضرنا للتعبير عن رأينا وإظهار أن هناك من يؤيد الاستقرار ويرفض التظاهر .. فتقول أمل بصوت لامبالاة وهي تنظره نظرة صماء : دعنا من هذا الكلام الآن . سنفك قيودكم حتى نتمكن من تضميد جراحكم ، وهذا الإجراء على مسؤليتي الشخصية . ثم تقول للطبيب المرافق لها : من فضلك يا دكتور حل وثاقهم وساعدهم في نزع ملابسهم حتى نستطيع تضميد الجروح والتعرف على حالتهم الصحية بصورة مبدئية .. وخلال ما يقرب من ساعة قامت أمل والطبيب المرافق بعمل الإسعافات الأولية وسط صرخات الثلاثة أشخاص بأنهم أبرياء من تهمة محاولة قتل المتظاهرين . وما أن انتهيت من عمل الإسعافات تعالت أصوات استغاثة ، واقتحم الخيمة خمسة أشخاص تابعين إلى الشيخ شوكت نيازي وهم يحملون هروات ليقول زعيمهم بصوت استنفار : بلطجية النظام السابق تهاجم الميدان قادمين من ميدان عبد المنعم رياض .. ثم يقول بصوت حدة عندما شهد المحتجزين وقد حُلت وثاقهم : هيا شدوا وثاقهم واسحبوهم إلى جامع عامر أبو المكارم.. ثم ينظر إلى أمل والطبيب ويقول : من فضلكما توجها إلى الجامع فبقائكما في الميدان فيه خطر عليكما .. فتقول أمل بصوت مضطرب وعلى ملامحها تعبيرات فزع : هل يستطيع أحد فض التظاهر ونحن في حماية الجيش .. فيقول هذا الشخص : ليس هناك وقت للشرح اسرعا للخروج من هنا على وجه السرعة ، ولا تبرحا الجامع حتى تستقر الأمور. فتسرع أمل والطبيب إلى الخارج بصحبة هؤلاء الأشخاص وهم يحملون الجرحى نحو الجامع وسط أصوات زئير وتحركات استنفارية للمجموعات التي سيطرت على الميدان في صورة تشبه استعداد الجنود للمواجهات العسكرية.. وخلال بضعة ساعات دارت خلالها مواجهات بين المتظاهرين المتواجدين بالميدان

وبين متظاهرين مؤيدين إلى الرئيس حسني مبارك وقع خلالها الكثير من الجرحى ، وتحول الميدان إلى ساحة قتال تشبه حروب القرون الوسطى ؛ حيث استطاعت مجموعة من الأشخاص من اعتلاء العمارات والأبنية المطلة على ميدان التحرير وبدأت في إلقاء قنابل المولوتوف وكسر الرخام على المتظاهرين ليسقط عدد من القتلى ويزداد أعداد الجرحى .. الوضع المأسوي في ميدان التحرير كان الحدث الرئيسي الذي تناقلته وسائل الإعلام العربية والأجنبية بصورة مباشرة ، ودفع سعيدة بعدما فشلت بالاتصال بابنتها على الهاتف المحمول بمحاولة النزول للبحث عنها في الميدان لكن كل من الشيخ علي الراوي والأستاذ نسيم منعها وتطوعا للذهاب إلى الميدان ، رغم توسلات أنجيل وخضرة لهما بعدم الذهاب إلى هناك في ظل المشاهد الدموية التي تذيعها القنوات الفضائية والأرضية.. وخلال المسافة من شارع شبرا حتى مدخل ميدان التحرير ، والتي قطعتها سيارة الأستاذ نسيم في حوالي نصف ساعة ، دار بين علي الراوي ونسيم حديث عن المودة والرحمة بين الأهل والجيران استطاع خلالها كل منهما من إزالة جبل الثلج الذي كان يقف بينهما بسبب الموروث البيئي الذي تعلق في وجدان ومشاعر كل منهما تجاه الآخر .. وبعدما استطاع الأستاذ نسيم من إيجاد مكان انتظار للسيارة ترجل مع الشيخ علي نحو الميدان من اتجاه كوبري قصر النيل ؛ حيث كانت المصادمات محتدمة في الاتجاه المقابل لميدان عبد المنعم رياض ، وظل الاثنان يتعكزان على بعضهما حتى وصلا إلى جامع عامر أبو المكارم بعدما علما من المتظاهرين أن المستشفى الميداني والأطباء متواجدين هناك . وحتى وصولهما إلى مدخل الجامع كانت كرات النيران الهابطة من أعلى العمارات والبنايات المطلة على الميدان تتساقط وكأنها قنابل حارقة تنطلق من مجانيق العصور الوسطى ، وأصوات الهتافات والاستغاثات تُشعر من يشاهد هذه المشاهد أنه في كابوس حلم مزعج لا يمكن أن يتوقع أحد أنه حقيقة وواقع ملموس يلتهم تماسك المجتمع المصري وينشر فيروس الفرقة والتمرد بين طوائف الشعب المصري ؛ فمن هؤلاء الأشخاص الذين يلقون بقنابل المولوتوف بهذه الكثافة على المتواجدين في الميدان؟ وكأنهم يريدون إثبات أنهم

ارهابيين وقتلة ! وما هذا الموقف المتخاذل من قوات الجيش المكلفة بحفظ الأمن هناك ؟ ألم يكن في استطاعت القوات المسلحة بكل ما تملكه من طائرات ومعدات مواجهة هؤلاء الذين لم يكن لهم مقصد سوى إحداث ما يشبه حرب الشوارع بين المصريين ، وتوجيه رأي الشارع المصري إلى أنهم من اتباع النظام وأنصار الرئيس حسني مبارك ! وما هذا السلوك العدواني الغريب والرغبة الجامحة نحو العنف الذي أصبح يسيطر على الشخصية العامة المصرية ؟ .. هذه المشاهد الصادمة أنست الشيخ علي الراوي إمام مسجد العناني بقرية دماص أن من يصطحبه ويتعكز عليه حتى يدخلا سوياً إلى جامع عامر أبو المكارم هو الشماس نسيم مرقص رئيس شمامسة كنيسة العذراء مريم بشارع مسرة . وأمام بوابة الجامع وقف نسيم مرقص وتسمرت قدماه واهتزت أطرافه عندما أمسك الشيخ علي بيده وهو يقول : اخلع عنك نعليك وادخل يا مقدس .. فينظر إليه نسيم نظرة تأملية صامتة وهو يقول بصوت تعجب وملامح صامتة: هل تدعوني للدخول إلى الجامع يا شيخ علي ! .. فيمسك الشيخ علي بيده وهو يقول : لا وقت للمهاترات يا مقدس اخلع نعليك وادخل ؛ فبكل تأكيد أنت إنسان طاهر الجسد والقلب ، وهذا بيت يُذكر فيه اسم الله الذي نعبده جميعاً .. فيخلع نسيم حذاؤه وهو ينظر إلى الشيخ علي نظرة تأملية فاحصة قائلاً بصوت امتلئت نبرته بالمحبة : كلنا نعبد الرب وكلنا مصريون .. وعقب دخولهما المسجد ، وبعيون فاحصة كانت نظراتهما الباحثة عن أمل تجوبان أركان المسجد الذي امتلئ بالجرحى والمصابين ، وتحول إلى ما يشبه المستشفى العسكري الميداني وقت الحرب ؛ فهناك العشرات من الأطباء الشباب يجبون أركان المسجد لإسعاف المئات من الجرحى والمصابين . وبصوت لهفة وملامح مُتوتِّرة يسأل نسيم أحد الأطباء الشباب عن أمل وعيناه تطلقان نظرة روحانية للصليب المَوْشوم على يد هذا الطبيب : هل تعرف حضرتك مكان الدكتورة أمل أبو عساكر ؟ .. فيبتسم الطبيب ابتسامة حانية ، بعدما استشعر نظرة نسيم الروحانية للصليب ، قائلاً : الدكتورة أمل متواجدة في مكتب دار المناسبات ؛ فإحدى السيدات كانت تزور أقاربها في أحد الشوارع القريبة

من الجامع وجاءتها آلام الوضع والدكتورة أمل تقوم بتوليدها .. فتهدأ تعبيرات القلق التي تملكت من ملامح نسيم ويقول بصوت تمني : هل يمكن أن تصطحبني إلى هناك يا ولدي حتى أراها .. فيقول الطبيب : دار المناسبات ملاصقة للمسجد . اعذرني فأنا لا استطيع ترك المستشفى .. وعقب انصراف الطبيب يقول الشيخ علي بصوت استعاد سكينته : الحمد لله أنها بخير سأتصل بأمها حتى تطمئن .. وفي ثوان يتصل الشيخ علي من التليفون المحمول الخاص بـ نسيم ويبلغ سعيدة أنها وجدا أمل تُجري عملية ولادة لإحدى السيدات داخل المستشفى الميداني ، بعدها يعطي نسيم التليفون حيث ينطلق آذان المغرب .. ومع نهاية الآذان يقول نسيم إلى الشيخ علي بصوت هادئ ونظرة صامتة بعدما انتهى الشيخ علي من ترديد دعاء ما بعد الآذان : سأذهب حتى اطمئن على أمل واجعلها تتحدث مع أمها على التليفون . صلاة مبروكة .. فيبتسم له الشيخ علي ويقول : أشكرك يا مقدس . سأنتظرك هنا عقب الصلاة .. فيبتسم له نسيم ويقول : وهو كذلك يا شيخ علي .. ومع قيام صلاة المغرب كان نسيم قد خرج من الجامع وتوجه نحو مكتب دار المناسبات ، والمصادمات في ميدان التحرير قد احتدت ضراوتها وبدأت المجموعات المرابطة على أسطح العمارات في تكثيف إطلاق كرات اللهب المشتعلة وكسر الرخام وقنابل المولوتوف بصورة عشوائية .. وبخطوات مذعورة وملامح مصدومة من هول ما شاهده يصل نسيم إلى دار المناسبات ويتقابل مع أمل التي انتهت من عملية التوليد بعد بضع دقائق من وصوله . وبصوت قلق وملامح ترقب قالت أمل عندما رأت نسيم : عم نسيم ! ماذا تفعل هنا ؟ .. فيقول نسيم بصوت طمأنة وملامح مبتسمة : الحمد لله أنك بخير يا حبيتي . لقد قلقنا عليك عندما فشلنا في الاتصال بِك. لماذا لم تتصلي بأمك حتى تطمئن عليكِ ؟ .. فتقول أمل بعدما أخذت نفسًا عميقًا: الحمد لله. كيف حالك يا عم نسيم ؟ لقد ظننت أن هناك مكروه قد حدث. أنا هنا مع المريضة منذ أكثر من أربع ساعات وحالتها كانت متعثرة للغاية ، لكن بفضل الله استطاعنا توليدها بدون عملية .. فيقول نسيم وهو ينظر إليها نظرة أبوية حانية : هكذا أنتِ دائماً يا أمل منذ طفولتك وأنتِ ذكية ومتفوقة . سأتصل

بأمك حتى تطمئن .. فتقول أمل بصوت حسرة بعدما تذكرت ما يمكن أن يكون عليها حال سعيدة : آه يا عمي لقد أنستني عملية الولادة أن أتصل بأمي من أي تليفون محمول ، بعدما فرغت بطارية تليفوني المحمول من الشحن .. وبمجرد أن أنهت أمل كلامها كان نسيم قد اتصل بسعيدة وأعطى التليفون لها لتوجه الأم عتابًا شديدًا إلى ابنتها ، وتظل أمل تتأسف والدموع تتساقط من عينيها حزناً على ما سببته لها من ألم ، وتخبرها بما حدث مع السيدة الحامل ، ثم تطمئن على حياة وتلاطفها ببعض كلمات الأمومة الحنونة ، لتغلق بعدها التليفون وتقول بصوت غلفه الشكر والتقدير وهي تنظر إلى نسيم نظرة ودودة: شكراً يا عم نسيم . هكذا أنت دائماً صاحب قلب عطوف مليء بالحب . تعرض نفسك للخطر حتى تطمئن علي ، وتُطمئن أمي .. فينظر إليها نسيم نظرة تأملية حنونة ويقول : أنتِ تعلمي مدى حبي لكِ يا أمل . منذ أن سكنتم معنا في نفس العقار ، وأنا اعتبرك ابنتي . على فكرة الشيخ علي الراوي ينتظرنا في الجامع بعد صلاة المغرب .. فتقول أمل بصوت تملكت من نبرته إحساس بالذنب : لقد عرضتم أنفسكما للمخاطر من أجلي . لقد سببتم لكما المتاعب .. فيقاطع نسيم كلامها بأسلوب ودود وهو يقول : أنتِ تلميذتي النجيبة وابنتي العزيزة ، ولا يصح أن تقولي هذا الكلام ؛ فالأب من حقه أن يقلق على ابنته .. فتدمع عيني أمل وتقول : ربنا يحفظك يا عم نسيم . لو تسمح اسبقني إلى الجامع وانتظرني مع الشيخ علي حتى اتابع حالة الأم ومولودها . لن أتأخر عليكما .. فينظر إليها نسيم نظرة صامتة ويقول بصوت تعلقت بنبرته نغمة تعجب: انتظرك في الجامع! .. فتقول أمل بصوت غلفه الاستعجال بعدما استدعتها الفتاة التي كانت برفقة السيدة التي وضعت مولدها : سأتابع الحالة ، وسأحضر بعدها على الفور .. وبعدما تدخل أمل إلى الحجرة ، وتغلق الباب يتوجه نسيم إلى خارج دار المناسبات وقد تملكه التردد والحيرة من دخول الجامع بمفرده حتى هداه تفكيره إلى الانتظار بجوار باب المسجد حتى تأتي أمل وتستدعي الشيخ علي ليعودوا جميعاً إلى المنزل .. وما أن خرج نسيم من دار المناسبات شهد جمع من الشباب المتواجدين في محيط مبنى مجمع التحرير

يركضون نحو المسجد ، وهم في حالة فزع يصيحون : البلطجية يطلقون ذخيرة حية نحونا .. وأمام تدافع المتظاهرين سقط بضعة أشخاص ما بين جريح وقتيل وسط ذهول كل من شهد الحدث ؛ فمن أين جاءت هذه الطلقات الغادرة ؟ وهل يمكن أن يكون نظام مبارك والمنتفعين من بقائه في الحكم هم الذين يطلقون النيران ويقتلون المتظاهرين العزل ليقضوا على الثورة ؟! هل يمكن أن يكون هؤلاء الأشخاص بهذا الغباء ؟ لقد تعاطف الشعب مع مبارك في خطابه الأخير ، وغالبية المتظاهرين الذين لم يحملوا في أنفسهم مآرب خاصة كانوا على قناعة ببقائه حتى نهاية ولايته ! هذه التساؤلات المفزعة التي خلخلت عقلية المواطن المصري البسيط لم تجد لها مستقرًا سوى في الاتجاه الذي وضعته القنوات الإخبارية العربية التي جذبت انتباه الملايين ونسجت كل خيوط مشاهد ما حدث في تلك الليلة لتُفشل كل أمل في بقاء حسني مبارك في الحكم ، وتُسقط معه نظام الدولة ومؤسساته بصورة يصعب معها تحقيق استقرار وقيام نظام آخر يستطيع تحويل الشعارات التي أطلقها الثوار «عيش – حرية – عدالة اجتماعية – كرامة إنسانية » إلى حقيقة ملموسة.. وبعد بضع دقائق من توقف إطلاق الذخيرة الحية بدأ المتواجدين في محيط جامع عامر أبو المكارم بإسعاف الجرحى، ونقل المصابين إلى داخل الجامع ليبدأ الأطباء المتواجدين بإسعافهم .. أصوات الاستغاثة وتدافع الناس داخل المسجد ، وهم في حالة هلع دفع كل من بداخل المسجد للمساهمة في إسعاف المصابين ؛ حيث تحرك الشيخ علي مع باقي المصلين ليساهموا في مساعدة الجرحى فإذا به يجد نسيم مرقص ضمن المصابين فيهَمَّ نحوه بخطى مضطربة وملامح مصدومة يحاول معرفة ما حدث له فيجده فاقد الوعي فيسرع نحو أحد الأطباء المتواجدين مع الجرحى وهو يقول بصوت استغاثة: أرجوك يا دكتور تعال معي فهناك رجل مسن فاقد الوعي يحتاج المساعدة .. فيتوجه الطبيب معه ويفحصه ثم يحقنه بحقنة الأنسولين التي كان يحتفظ بها نسيم داخل ملابسه . بعدها يقول الطبيب موجهاً كلامه إلى الشيخ علي : كلها بضعة دقائق وسيفيق من الإغماء . فما حدث كان مجرد هبوط مفاجئ نتيجة الصدمة وارتفاع نسبة السكر في

الدم .. فتتراجع ملامح التوتر الذي ارتسمت على وجه الشيخ علي ويقول : الحمد لله.. وفي تلك اللحظة تأتي أمل مسرعة نحوهما بملامح مفزوعة ، وتسأل الطبيب بصوت غلفه القلق : ماذا حدث للأستاذ نسيم يا دكتور كريم ؟ .. فيقول الطبيب بصوت طمأنة : اطمئني يا دكتورة . أنها حالة غيبوبة سكر بسيطة وكلها دقائق وسيفيق . فأنا حقنته بجرعة الانسولين التي كان يحتفظ بها في ملابسه .. فتهدأ ملامح أمل وتنظر إلى الشيخ علي نظرة حزينة باسمة قائلة : كيف حالك يا جدي ؟ أنا آسفة لقد تسببت لكما في المتاعب .. فيقول الشيخ علي : الحمد لله أن المقدس نسيم بخير . والحمد لله أنكما الاثنين بخير .. وفي تلك اللحظة يفيق نسيم ويقول بصوت منهك وملامح شاحبة : ماذا حدث؟ هل أُصبت بطلقات نارية ؟ .. فتقول أمل وهي تنظره نظرة حانية باسمة : لا يا عم نسيم . أنت الحمد لله سليم ، وما حدث لك كان مجرد غيبوبة سكر وقد تم حقنك بحقنة الأنسولين التي كنت تحتفظ بها .. فيقول الشيخ علي بصوت ودود وملامح باسمة: الحمد لله على سلامتك يا مقدس .. فيقول نسيم بصوت آسى وملامح تعجب : لقد خُيل إلي أن هناك أشخاص تطلق النار تجاه المتواجدين بمحيط مجمع الجلاء، وأن هناك أشخاص سقطت مصابة بتلك الطلقات.. فتقول أمل : بالفعل تم إطلاق أعيرة نارية من ناحية الجامعة الأمريكية ووزارة الداخلية ، والحالة الآن في الخارج هادئة . لا تُجهد نفسك بالكلام يا عم نسيم سأحضر حاجاتي وأذهب معكما . أين تركت سيارتك ؟ .. فيقول نسيم : على بعد خطوات من هنا في شارع جانبي .. فتقول أمل: كلها دقائق معدودة وسنذهب إلى هناك ، وسأقود السيارة حتى نعود إلى البيت.. فيبتسم نسيم ابتسامة حانية ويقول بصوته الواهن : لقد ذكرتيني بذكريات جميلة من الماضي . هل تتذكري عندما ذهبتِ معي أنا وأنجيل إلى الملاهي ، وكنتِ تريدي قيادة هذه السيارة منذ أكثر من عشرين عامًا ؟ .. فتبتسم أمل وتقول : بالطبع يا عم نسيم لا يمكن أن أنسى ذكريات طفولتي مع طنط أنجيل ومعك .. فيقول الشيخ علي وهو ينظر إلى نسيم نظرة تبجيل وتقدير : أنت إنسان طيب القلب يا مقدس ، ومن الواضح أن الدكتورة تحبك وتحب زوجتك

كثيراً .. فيقول نسيم : لم يرزقني الله بالذرية ، واعتبر أمل ابنتي.. فتقول أمل : وأنا أيضاً يا عم نسيم أحبكما كثيراً . لو تستطيع المشي هيا نعود إلى المنزل .. فيقول الشيخ علي : تعكز علي حتى نصل إلى السيارة .. بعدها ينصرف الثلاثة ويستقلون السيارة ويعودوا إلى منزل شبرا ليستقبل منزل نسيم وأنجيل كل من بهية وسعيدة والشيخ علي وأمل وحياة ، ويظل الجميع ، حتى انصراف كل شخص إلى حال سبيله مع دقات الساعة الثانية عشر ليلاً ، يعلق على الأحداث التي شهدها ميدان التحرير في ذلك اليوم وهم يتابعون على شاشة التلفاز بعيون حزينة وقلوب مقبوضة تطور ما يحدث هناك وقد امتلئت مشاعرهم بالكراهية تجاه النظام الحاكم ورموزه وتلاشت من داخلهم مشاعر التعاطف التي أفرزها خطاب مبارك في اليوم السابق .

وفي صباح اليوم التالي استيقظت أمل على تليفون من إحدى زميلتها بالمستشفى تخبرها بأن المدير وافق على طلب مد الإجازة الذي أرسلته لمدة عشرة أيام أخرى ، وأخبرتها أن معظم الأطباء الشباب من الامتياز والنيابات قرروا الذهاب بعد انتهاء عملهم اليومي للمساهمة في العمل الميداني بميدان التحرير . وعقب نهاية المكالمة التليفونية توجهت أمل وهي تحمل طفلتها لتجهز طعام الإفطار، ثم تستدعي الشيخ علي وخضرة وسعيدة ليجلس الجميع يتناولون الطعام أمام التلفاز ، وهم يتابعون بمشاعر حزينة وقلوب دامية التطورات التي حدثت خلال ساعات الليل في ميدان التحرير ؛ حيث تصاعدت حدة المواجهات الدموية ، بين من يطلق عليهم المعارضون لحكم مبارك وبين أشخاص مجهولين أُطلق عليهم المؤيدين لنظام مبارك ، ليقُدر حصيلة الجرحى خلال تلك اليوم بثمانمائة وثلاثين مواطن وعدد القتلى بعشرة مواطنين . كما أذاعت قنوات الجزيرة والعربية لقاءات مع عدد من المتظاهرين أعلنوا أنهم تمكنوا من القبض على البعض من المعتدين الذين كانوا يرتدون الملابس المدنية وينتمون إلى قوات الشرطة ، كما نقلت ما تم نشره على موقع يوتيوب لصور هويات شرطة وبطاقات تابعة للحزب الوطني قيل أنها صُدرت من المعتدين .. خضرة السيدة

الريفية البسيطة ، التي استمرت ثلاثين عامًا تنظر إلى حسني مبارك على أنه ولي الأمر الذي يجب على الرعية طاعته وفقاً لشرع الله ، ظلت صامتة مخلخلة المشاعر تجاه ما حدث منذ يوم ٢٥ يناير تحاول استيعاب حقيقة الأمر وعقلها الباطن يحاول التخلص من قيوده النفسية الذي تعود على عشق النظام في علاقة بنيتها الأساسية غريزة الخوف وغريزة البقاء ، وأشبه ما يمكن وصفها بأنها علاقة سادومازوشية سياسية[1] بين الحاكم والمحكوم تأخذ على المستوى اللاوعي طابع الخصاء الذهني . ولكن مشاهد

---

(١) " السادية – Sadisim " هي الميل للحصول على اللذة والمتعة عن طريق تعذيب الآخر والتلذذ بعذابه . وهي من الناحية السايكولوجية اضطراب في الرغبة الجنسية يتضمن معاناة نفسية وجسدية وفكرية . وقد اشتقت الكلمة من اسم ضابط وروائي فرنسي يدعى " ماركيز دو ساد – Marquis de Sade : ١٧٤٠– ١٨١٤" الذي اشتهر بسلوكه العدواني واضطراب سلوكه الجنسي ؛ لذلك سمي الاضطراب الجنسي باسمه . اما المازوشية أو " المازوخية – Masochism " فهي اضطراب نفسي يقابل الاضطراب السادي من حيث هو رغبة للخضوع لعدوانية السادي . وقد اشتقت الكلمة من اسم كاتب نمساوي يدعى " ليوبولد زاخر مازوخ –Lepold Zacher Masoch : ١٨٣٦– ١٨٩٥ " واشتهر بتأليف رواية " فينوس في الفراء " التي تعرضت بالتحليل للرغبة في التمتع بالإذلال فسميت الحالة باسمه . ومع اختلاف كل من المازوشية والسادية في الفكر والسلوك ، فأن عاملاً مشتركاً يجمعهما معاً وهو الحصول على اللذة والمتعة عن طريق الألم ؛ فالسادي يجد لذته في إيقاع الألم على الآخر، في حين يجد المازوشي لذته بوقوع الألم عليه من قبل الآخر . ومفهومي السادية والمازوشية يتعدا الرغبة الجنسية إلى أنواع أخرى من السلوك الاجتماعي والنفسي والسياسي ، وخاصة عند استخدام السلطة من قبل فرد بشكل استبدادي وفردي للسيطرة على الخصوم وإخضاعهم لسلطته بالقوة والقهر والتلذذ بخضوعهم وبتوسلاتهم وإهاناتهم ؛ فالسادي يميل دوماً إلى أن يكون ظالماً ، بعكس المازوشي الذي يميل إلى أن يكون مظلوماً يتقبل الألم والخضوع والاذلال . ومصطلح السادومازوشية يتخطا الأشخاص إلى الشعوب والمجتمعات فتوصف بكونها ذات خصائص سادو– مازوشية . والسادو–مازوشية السياسية تعبر عن السلوك السايكولوجي للمستبدين الكبار والصغار ؛ فالشخصية السادية السياسية هي شخصية استبدادية تتمثل في الطاغية الذي يتسلط فلا يعترف بالمساواة بين الناس ، ويعتقد بأن على الشخصيات الضعيفة والعاجزة أن تخضع لسلطته ، لأنهم يحتاجون حمايته ويتوقعونها . هذه الخاصية إنما تمثل علاقة مزدوجة ومتناقضة ، مثلما تعكس ثنائية : قوة وضعف ، سيطرة واستسلام وتسلط وخضوع . وتعود ثقافة إقصاء الآخر إلى الموروث الثقافي الأبوي الاستبدادي وإلى أساليب العنف والتسلط الفردي و نزعة السيطرة على الآخر وإذلاله ، التي تنطلق من مقولة الانا المتضخمة التي تعتقد بأن الآخر لاشيء ، ولذلك يجب اعتمادهم عليه وتسلطه عليهم واستلابهم وتجريدهم من ممتلكاتهم العقلية والعاطفية . ويكون الخضوع لشخص الزعيم والتماهي به وتسليمه كل الحقوق ، إنما هو تعبير عن حالة المازوشية المعنوية والسياسية والاجتماعية التي يعاني منها الشعوب التي تتلذذ بالحكم الديكتاتوري ؛ حيث يخنع المواطنين وينكرون الذات من أجل الحاكم الديكتاتور .

الأمهات الثكالى والأبناء اليتامى والزوجات الأرامل والأبرياء الذين فقدوا أعينهم أو تعرضوا لعجز في أطرافهم خلال المظاهرات ، والتي سلطت القنوات الإعلامية الضوء عليها وجسمتها بصورة درامية مأساوية ، جعلت بسطاء الشعب المصري الذين ظلوا متقوقعين في بوتقة الخنوع يلفظون ما بداخلهم من شعور بالعبودية والتملكية التبعية للحاكم التي فرضتها عليهم تراكمات من العادات والتقاليد المتوارثة كانت تقف حائلاً حتى لمجرد التفكير في توجيه اللوم مهما كانت أفعاله وتصرفاته . هذا الضغط الإعلامي الموجه ، التي أطلقته عدد من القنوات الفضائية ، تعمد تحطيم قلاع العادات والتقاليد والخوف ، وحث المصريين على التمرد على النظام القائم ؛ فقد تعمد هذا الإعلام من تضخيم مساوئ النظام وفساده وطغيانه حتى يزلزل عقول المصريين ، وينشر فيروس التمرد وآفة العصيان في عقول بسطاء الشعب المصري الذين كانوا يعانون الآمرين للحصول على رغيف الخبز ، فإذا به يجد أن الشخص الذي ظل يسوسهم على مدار ثلاثين عامًا وهم يتصورون أنه بطل مغوار شريف طاهر اليدين كان مجرد لص جمع حوله مجموعة لصوص ظلوا يغتصبون مقدارتهم على مدار تلك السنين وتركوهم يتضرعون جوعاً وهم يعيشون في عشوائيات تفتقر إلى كل مقومات الحياة الإنسانية وتُغتصب خلالها الكرامة الإنسانية ويموت منهم الكثير نتيجة سوء الرعاية الصحية . ماذا تفعل تلك الأخبار في مشاعر هؤلاء المقهورين ؟ بكل تأكيد ستجعل الكثير منهم يُخرجون ما بداخلهم من براكين غضب لتأكل الأخضر واليابس وسيصعب إقناعهم بالخضوع لنظام الدولة من جديد ؛ حيث أصبح هؤلاء المقهورين ناقمين على سلطان الدولة يرفضون سلطانها الذي أذلهم واستعبدهم واستباح اغتصاب مقدراتهم ، وتركهم في مهب رياح التخلف والفقر والمرض وهم يعظمون اسمه ويخلدون سيرته .. تلك المشاهد الدرامية المأساوية التي نزعت ما بداخل خضرة من خنوع جعلتها تصرخ صرخة من الأعماق وهي تخاطب أمل وزوجها قائلة : استحلفكما بالله اصطحبوني معكما إلى الميدان حتى نجعل هذا الطاغية يرحل عن بلادنا . يسرق من أموال الشعب المسكين ٧٠ مليار دولار ،

وزوجته وأولاده يتحكمون في مصائر العباد . حسبنا الله هو نعم الوكيل على الظالم .. فيقول الشيخ علي بصوت تعجب وملامح استنكار: ماذا حدث لكِ يا خضرة ؟ هل نسيتِ قدمك المكسورة ؟ هل نزولك إلى الميدان هو الذي سيجعل مبارك يرحل ! .. فتنظر إليها أمل نظرة شفقة عندما شهدت ملامحها الحزينة ودموعها المتوسلة ، وتقول موجهة كلامها إلى الشيخ علي : لو يسمح جدي فأنا استطيع اصطحابها بالكرسي المتحرك .. فيقول الشيخ علي : الميدان كان بالأمس مثل ساحة الحرب ، ولا نعرف ماذا سيحدث هناك . أنا أخشى عليها من الذهاب .. فتقول أمل وهي تنظر إلى خضرة نظرة باسمة مطمئنة : جدي معه حق في ذلك يا جدتي . مجرد ما تهدأ الأمور سأصطحبك إلى هناك مع أمي .. فتقول سعيدة بصوت غلفه الرفض والغضب : هل أفهم من حديثك أنكِ تريدي الذهاب إلى التحرير اليوم ؟ هل تريدي حرق قلبي كل يوم وأنا أشاهد الموتى والجرحى هناك ؟ لن ادعكي تذهبي اليوم حتى تنتهي المصادمات التي نشهدها منذ أمس في الميدان .. فتتجه أمل نحوها وتقبل يدها وتقول بصوت بنوة بارة ، وهي تنظر إليها نظرة باسمة : يا أمي أنا أقوم بواجب إنساني في إسعاف الجرحى من المصريين الذين هبوا من كل مكان ، وهم على استعداد للتضحية بأرواحهم من أجل أن يعيش بنو وطنهم حياة أفضل .. فتنهمر دموع سعيدة وهي تقاطع حديث ابنتها قائلة بصوت غلفه الخوف والقلق : هل تظني أن الوطن يمكن أن يعوضني عنك . لقد فقدت أبوك بسبب رأيه ومعتقداته منذ ما يقرب من عشرين عامًا ، وكان يبرر أفعاله التي اضاعته منا بحبه إلى دينه. وفقدت زوجي الثاني بسبب شهامته وحبه لأداء الواجب ، واحتسبتهما عند الله. أرجوكي يا ابنتي لا تجعليني أموت بحسرتي عليكي .. فتقول أمل وهي تمسح دموع أمها بعدما قبلت يدها : يا أمي . أنتِ إنسانة مؤمنة بالله وتعلمي أن لكل إنسان أجل لا يمكن أن يغيره . أبي رحمه الله رغم اختلافي مع أفكاره المتطرفة التي كانت ستضر بالبلاد والعباد ، إلا أنه كان ضحية الجهل والإهمال من الدولة ومات مقهور في سجون مبارك . وعمي الدكتور طارق صيام رحمه الله مات وهو يؤدي واجب إنساني ، وكان ضحية طغيان الشرطة

وسلاحها الغادر الذي قتل المئات ليدافع عن سلطان جائر . وحمايا الذي قتلته أيدي الغدر وهو ينادي كلمة الحق ، وزوجي وياسمين اللذين اعتقلوهما مع الآلاف من الشباب بسبب مطالبتهم بالعدالة والحرية والكرامة الإنسانية لكل المصريين . هل أستطيع أن أقف صامتة أمام كل هذا الظلم ؟ .. فتزداد حدة بكاء سعيدة وتقول بصوت متحشرج وهي تأخذ حياة في أحضانها وتطبطب عليها لتهدئ من روعها بعدما شاهدتها تبكي على بكائها : الله ينتقم من القاتل والظالم ويرحم الجميع . يا ابنتي أنتِ وطني الذي أحيا من أجله ، ولم يعد لي أحد في الدنيا غيرك .. فتقاطعها أمل قائلة : يا أمي لا تخافي فإن الله معنا . وأنا أقوم بعلاج الجرحى داخل مستشفى ميداني تطوع للعمل به مئات الأطباء .. فتقول خضرة بصوت رجاء وهي تنظر إلى سعيدة وأمل نظرة تأملية حزينة : بالله عليكِ يا سعيدة لا تقلقي بإذن الله ستعود سالمة غانمة.. فيقول الشيخ علي بصوت طمئنة وهو ينظر إلى سعيدة : لا تخافي يا سعيدة . أنا سأذهب معها بعدما نطمئن على المقدس نسيم .. فتقول سعيدة بصوت خنوع : ماذا أقول بعد كلامك .. ثم تقول بصوت خجل : لقد أنستنا الأحداث السؤال عن الأستاذ نسيم .. فتقول خضرة : هل يمكن أن تساعدوني في الصعود معكم .. فيقول الشيخ علي: لا تثقلي على سعيدة والدكتورة أمل.. فتقول أمل: لا تقول ذلك يا جدي. فجدتي خضرة تضيء علينا المنزل .. ثم توجه كلامها إلى خضرة قائلة : لا تشغلي بالك يا جدتي . سأجعل عم عوض بواب العمارة المجاورة وزوجته يحملانك على الكرسي حتى مسكن الأستاذ نسيم .. فترفع خضرة يدها بصورة تلقائية وتقول بصوت دعاء ثم تساؤل : ربنا يحفظك يا أمل يا بنت سعيدة ، ويفك أسر زوجك . يعني ممكن تحضري لي كرسي متحرك أستطيع الذهاب به معكم إلى التحرير .. فيصيح الشيخ علي قائلاً بصوت عتاب وهو ينظر إلى زوجته : يا خضرة . أنتِ كثيرة الطلبات . لقد جئتِ هنا لزيارة ضريح آل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام بعدما تهدأ الأمور . كفاكي طلبات .. فتقاطعه سعيدة بصوت عتاب : هل تبخل علينا بالاستمتاع بصحبة الخالة خضرة ؟ أم تعتبرنا أغراب ؟ .. وتلاحقها أمل قائلة ، وهي تنظر إلى الشيخ علي نظرة

باسمة ودودة : يا جدي . سأرتب كل شيء حتى اصطحب جدتي معنا إلى التحرير عندما تستقر الأمور هناك وسأرتب لكما وسيلة زيارة مقام آل البيت .. فتقول خضرة وهي تنظر إلى الشيخ علي نظرة تأملية باكية : لو هذا سيغضبك مني لن أذهب . أنا اعتبر سعيدة والدكتورة أمل بناتي .. فيتنهد الشيخ علي ويقول : أنا أخشى عليك من التعب يا خضرة .. فتقاطعه أمل وتقول : يا جدي لا تخشى عليها من شيء أنا سأكون معها . هل نسيت أنني طبيبة . سأذهب لإحضار عم عوض وزوجته .. وبعد بضعة دقائق تعود أمل ومعها البواب وزوجته ليحملان خضرة إلى منزل الأستاذ نسيم ؛ حيث تجمع بهية وسعيدة وخضرة والشيخ علي في حجرة الضيوف ، ليلتقوا بنسيم وأنجيل ويدور بينهما أحاديث ود ومحبة على مدار ساعات ، بينما توجهت أمل إلى ميدان التحرير لتباشر عملها في المستشفى الميداني ولتتابع مستجدات الأحداث هناك، حيث انجذب الشيخ علي للحديث مع نسيم مرقص وقرر تأجيل الذهاب إلى الميدان حتى يتعافى نسيم ويذهب الاثنان سوياً يوم غد في المليونية التي ستخرج تحت شعار «جمعة الرحيل».

عند وصول أمل إلى ميدان التحرير شهدت بعيون حزينة متحسرة آثار الدمار الذي خلفته المواجهات الدامية بالأمس وتحسست بمشاعرها الملتهبة مدى تأثير ما حدث بالأمس على ريتم الأحداث ؛ حيث انضم إلى المتظاهرين الآلاف من المصريين الذين لا ينتمون إلى تيارات فكرية أو أيدلوجيات حزبية بعدما استقر في وجدانهم مدى بشاعة ما ارتكبه نظام حسني مبارك من قتل وتعذيب وقهر وإفساد للحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بعدما جسمت وسائل الإعلام مساوئ هذا النظام بصورة تكعيبية درامية بألوان مأساوية قاسية .. ظهور أمل في الميدان كان محل ترقب ومتابعة عدد من القنوات الفضائية ؛ حيث أجرت أمل عددًا من اللقاءات مع مراسلي تلك القنوات ناشدت فيها مبارك بالكف عن قتل المتظاهرين والإفراج عن المعتقلين والتنحي عن السلطة حتى تستقر الأمور في مصر ، فالشعب المصري كله أصبح – وفقاً لرأيها – يطالب برحيله عن الحكم .. وعقب نهاية

حديثها الإعلامي توجهت أمل نحو المستشفى الميداني فإذا بها تلاحظ تجمع عدد كبير من قوات الشرطة العسكرية يتقدمهم اللواء حسن الروينى قائد المنطقة المركزية وعضو المجلس الأعلى للقوات المسلحة في مدخل الميدان في الاتجاة المقابل لتمثال عبد المنعم رياض ، ومعهم عدد كبير من المتظاهرين كان في مقدمتهم الدكتور محمد المرتجي ، والدكتور محمد أبو الغار العضو الناشط في حركة كفاية ، والأستاذ أبو العز الحريري أحد قيادات حزب التجمع الاشتراكي . هذا المشهد المثير دفع أمل لتتقدم نحو الجمع وتخترق الصفوف الخلفية حتى تصل وجهاً لوجه مع قيادة الجيش . وبنظرة تأملية فاحصة وآذان صاغية ظلت أمل تشاهد وتسمع ما قاله اللواء حسن الروينى الذي بدى عليه الانفعال وهو يقول بصوته الأجش : لو لم ينزل هؤلاء الملتحين من على أسطح العمارات ساضطر إلى قنصهم .. فيقول الدكتور المرتجي بصوت استنكار : هل يرضيك أن تقتل مصرياً ؟ .. فيرد عليه اللواء الروينى بنفس نبرته السابقة : في سير الأنبياء يُذكر أن سيدنا الخضر قتل الغلام لأنه كان يعلم أنه عندما يكبر سيكون عاقاً لوالديه ، وأنا ليس لدي مشكلة أن أقتل واحداً في سبيل حماية الباقين وهم كثيرون .. فيقول الدكتور المرتجي بصوت إذعان : سأجعلهم ينزلون .. ثم تابعت أمل بعدها النقاش الذي دار بين أبو العز الحريري مع الروينى عن ضرورة تأمين الميدان بقوات من الجيش وبصورة مكثفة حتى لا يتكرر ما حدث بالأمس ، وعقب نهاية الحديث صاحت قائلة موجهة كلامها إلى اللواء الروينى : يا افندم هل يمكن أن تخبرنا سيادتكم عن الوقت الذي ستفرجون فيه عن المعتقلين ؟ .. فينظر إليها الروينى نظرة فاحصة ويقول بصوته الأجش وهو يستعد للتحرك نحو سيارته : القوات المسلحة ليس لها دور في هذا الشأن نحن نؤدي واجبنا في الحفاظ على النظام العام وحماية المؤسسات والمنشأت . الإفراج عن المعتقلين هي من اختصاص السلطة القائمة على حالة الطوارئ والمتمثلة في رئيس الجمهورية ووزير الداخلية . السلام عليكم جميعاً وأرجو التوفيق إلى الجميع .. وعقب انصراف اللواء الروينى ومن معه من قوات الشرطة العسكرية قال أبو عز الحريري بصوت ترحيب وملامح باسمة موجهاً كلامه إلى أمل : اعتقد أن

حضرتك الدكتورة أمل زوجة الدكتور مصري ابن المرحوم الشهيد سعد المنشاوي .
تشرفنا يا دكتورة أنا أبو العز الحريري كنت صديق الأستاذ سعد المنشاوي رحمه الله..
فتقول أمل بصوت إيجاب وهي تنظر إليه نظرة ترحيب : الشرف لنا ، وحضرتك غني عن التعريف يا أستاذ أبو العز . لقد كان المرحوم كثيراً ما يتحدث عن مواقفك البطولية في الدفاع عن المبادئ الاشتراكية .. فيقول أبو العز الحريري : الله يرحم سعد وكل الشهداء الذين اغتالتهم السلطة . أنا شهدت أحاديثك في القنوات الفضائية في الأيام الماضية وأُحيكي عليها .. فتقول أمل : أشكرك يا افندم . ما الذي كان يغضب قيادة الجيش وهو يتحدث مع الدكتور المرتجي .. فيقول أبو العز الحريري: الإخوان المسلمون يقومون بعمل رائع في تأمين الميدان وفي حشد المتظاهرين، ويبدو أن قوات الجيش ترى أن تواجد الأشخاص فوق أسطح العمارات المطلة على الميدان قد يؤدي إلى عودة الصدام مع بلطجية النظام وأعوانهم ؛ فطلب انسحاب هؤلاء الأشخاص .. فتقول أمل بصوت تساؤل وملامح تعجب : هل رصدت القوات المسلحة تواجد هؤلاء الأشخاص وتحذر من قنصهم ، وبالأمس تركت الأمور تصل إلى ما وصلت إليه ! أين كانوا بالأمس ولماذا لم يتصدوا ويمنعوا المجزرة التي راح ضحيتها الكثير من الأبرياء ؟ .. فيقول أبو العز الحريري : القوات المسلحة حسبما قال اللواء الروبني وقيادات الجيش التي تحدثت معهم لم تكن مسؤولة عن تأمين الميدان أو المتظاهرين حتى صباح اليوم . واعتقد أن دور القوات المسلحة بعد ما حدث بالأمس سيكون أكثر فاعلية .. ثم يضحك ضحكة ساخرة وهو يهز رأسه قائلاً بصوت تعجب : لم أكن أتخيل أنهم – يقصد القائمين على النظام – بهذا الغباء لقد قضوا بأيديهم على آخر فرصة لهم في الاحتفاظ بالسلطة .. فتقول أمل : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ . أنهم يراهنون على سذاجة الشعب وخنوعه لقوى الطغيان ، ولم يفطنوا أن الشعب المصري كسر حاجز الخوف .. فيقول أبو العز : ما هي إلا أيام وسيسقط النظام وستنجح ثورتنا بإذن الله .. فتقول أمل بصوت تساؤل وعيون حائرة : ما هو موقف القيادات الثورية من لقاء السيد عمر سليمان ؟ .. فيقاطعها أبو العز قبل أن تكمل

حديثها قائلاً بصوت رفض وملامح ثائرة : لقد رفضت أغلبية الأحزاب المشاركة في هذه الخدعة ، والتي لن نجني منها سوى المهاترات والمفاوضات السرابية التي ستؤدي بنا في النهاية إلى إخماد الثورة وضياع أهدافها .. فتقول أمل بصوت تملكه التساؤل والحيرة : لقد تم دعوتي لحضور جلسات الحوار مع السيد عمر سليمان ضمن مجموعة ضمت العديد من الشباب الذين برزوا خلال الأيام التسعة الماضية.. فيقول أبو العز: رفضنا للمشاركة في هذا الحوار جاء من منطلق رؤيتنا السياسية وتجاربنا مع نظام مبارك ، ونحن لا نصادر على حق الشباب في الحوار . ولكن لابد قبل الحوار من معرفة الغاية التي سيتحاور بشأنها هؤلاء الشباب حتى لا يتم استخدامها كوسيلة لإعادة إحياء النظام من جديد ؛ فهل سيقبل حسني مبارك أن يتنحى عن السلطة؟ وهل سيقبل بتقديم المسؤول عن الفساد السياسي والاقتصادي للمحاكمة؟ . يا دكتورة الدخول في نقاشات مع النظام الفاسد يعطي له شرعية ، وأنا أوكد لكِ أن النظام وعلى رأسه مبارك قد فقد شرعيته وسيسقط في غضون أيام معدودة . بعدها سيتم محاسبة كل الفاسدين الذين تسببوا في إهدار ونهب مقدرات الشعب المصري .. فتقول أمل : لقد قررت أن أتجنب في حديثي مع السيد عمر سليمان عن أي مفاوضات متعلقة بالأمور السياسية والتركيز في مسألة واحدة وهي قضية المعتقلين خلال الأيام الماضية .. فينظر إليها أبو العز نظرة استحسان وهو يستعد إلى مغادرة الميدان ويقول : هذا شيء يستحق السعي واعتقد أنه سيؤتي ثماره . ربنا يوفقك يا دكتورة وأتمنى رؤيتك على خير .. فتقول أمل بصوت ثناء وهي تنظر إليه نظرة مبجلة : أشكر حضرتك على هذا الرأي المحترم ، وأتمنى أن نلتقي في القريب عندما تتحقق أهداف ثورتنا إن شاء الله .. فيقول أبو العز : في رعاية الله يا دكتورة . ثم ينصرف إلى خارج الميدان في اتجاه المتحف المصري ، وتتجه أمل إلى المستشفى الميداني لتتقابل مع باقي شباب الأطباء الذين انضم إليهم أعداد كبيرة من مختلف مناطق الجمهورية كلهم جاءوا بدافع المساهمة في الثورة على أمل التغيير إلى حياة يتمتع فيها المصريون بالعيش والحرية والكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية .

وفي اليوم التالي توجهت أمل في الصباح الباكر ومعها الشيخ علي وسعيدة وخضرة وأنجيل وبهية ونسيم مرقص لينضموا إلى المظاهرة التي أُطلق عليها «مليونية جمعة الرحيل» . وفي مشهد حضاري مبهج أبهر ملايين البشر الذين كانوا يشاهدونه عبر شاشات الفضائيات، وأظهر للعالم صورة مشرقة عن الثورة المصرية، تجمع مئات الآلاف من المتظاهرين منذ الصباح الباكر رافعين شعارات تعبر عن مطالبهم برحيل مبارك عن السلطة وسقوط نظامه الحاكم . وخلال الصلاة قام المسلمون بأداء شعائر الجمعة في حراسة المتظاهرين المسيحيين ، الذي كان من ضمنهم نسيم مرقص وعدد من شمامسة وبعض قساوسة كنائس القاهرة ، في مشهد رائع جذب تعاطف وإعجاب المجتمع الدولي .. عقب انتهاء صلاة الجمعة ، ووسط الهتافات التي كانت ترج أركان الميدان تقدم نسيم والقس ميخائيل حبيب[١] والطبيب روفائيل عطية[٢] نحو المنصة التي تم نصبها خصيصاً ليشارك الثوار من خلالها في إلقاء الخطب الحماسية الداعمة لثبات الثوار وترابطهم وتمسكهم بالبقاء في الميدان حتى تتحقق مطالبهم . ومع وصولهم إلى هناك اعترضهم الدكتور المرتجي وعدد من الشباب المؤتمرين بأمره ليقول لهم الدكتور المرتجي بصوت تظاهر بالمودة وهو ينظر إلى القس ميخائيل نظرة فاحصة : للأسف يا نيافة القس هناك عدد من الخطب تم التجهيز لها مسبقاً ولن يستطيع أحد منكما الصعود إلى المنصة الآن .. فيقول القس ميخائيل بصوت تظاهر بالهدوء وهو يبادل المرتجي نفس النظرة

---

(١) في أوائل العقد الخامس من عمره تم سيامته (تعينه وفقاً للطقوس الكنيسة القبطية) كأسقف كنيسة العذراء منذ أكثر من خمس سنوات . ينتمي إلى جيل الشباب الذي يرفض امتناع الكنيسة عن الحياة السياسية ، وكانت له العديد من المواقف الرافضة لسياسة الحكومة تجاه أحداث الفتن الطائفية . يرتبط بالأستاذ نسيم مرقص بعلاقة صداقة منذ سنوات طويلة .

(٢) شاب مصري من ساكني شارع جزيرة بدران بشبرا. في منتصف العقد الثالث من عمره. نائب لأمراض الباطنة بمستشفى الساحل التعليمي ويرتبط بمصري بعلاقة صداقة، وبينهما احترام وود متبادل. ينتمي إلى عائلة قبطية بسيطة تمتد بجذورها إلى مدينة أسيوط. شارك في التنديد بمواقف الحكومة السابقة في معالجتها لأحداث العنف الطائفي تجاه الأقباط، وله مدونة باسمه على موقع التواصل الاجتماعي الفيس بوك ضمت خلال الشهور القليلة التي سبقت الثورة عدد تجاوز المائة ألف.

الفاحصة : يا أخي العزيز . نحن نمثل الأقباط ولنا الحق في المساهمة بالكلمة التي لن تزيد عن بضع دقائق .. فيقول المرتجي : كلنا مصريون هنا ولا دخل للدين في مسألة الصعود إلى المنصة .. فيقاطع الطبيب روفائيل كلامه قائلاً بصوت استهجان وتعبيرات الغضب تسيطر على ملامحه : هل تريد إقصاء الأقباط عن المشاركة في الثورة بهذه الحجة غير المنطقية ؟ لابد أن يكون هناك إنصاف من القائمين على المنصة فمعظمهم ينتمون إلى التيار الإسلامي .. فيرد عليه أحد الشباب المتواجد مع الدكتور المرتجي قائلاً بصوت به حدة : هذا كلام غير صحيح ؛ فنحن هنا بصفاتنا مصريين .. فيقاطعه الدكتور المرتجي قائلاً : يا نيافة القس . هل يغضبك أن نكون منظمين حتى نحافظ على أمن الميدان ؟ .. وفي تلك اللحظة يخرج الشيخ جمال قطب من بوابة المنصة وحوله عدد من الشباب ، ويتجه نحو الدكتور المرتجي مرحباً به وبمن معه حتى قال موجهاً كلامه إلى القس ميخائيل : لقد ذكرني ميدان التحرير اليوم بما حدث في ثورة ١٩١٩م عندما تكاتف المصريون مسلمون وأقباط في مواجهة المحتل .. فيقول روفائيل بصوت شكوى : يا فضيلة الشيخ هل يصح أن يتم منع الآب مخائيل من اعتلاء المنصة .. فينظر الشيخ جمال إلى الدكتور المرتجي نظرة صامتة لبضع لحظات ليقول : بالطبع لا يستطيع أحد منع أحد رجال الدين المسيحي من المشاركة . ثم يمسك بيد الأنبا ميخائيل ويتجه نحو سلالم المنصة ليصعد وهو ممسك بيده ، ويتقدم إلى الصفوف الأمامية ويأخذ الميكروفون من الشيخ شوكت ويقول بصوت خطابة تعالت نبرته بالود وهو يشير إلى الآب ميخائيل : أيها المصريون لقد أبهرتم العالم بثورتكم ضد الطغيان وأصبحتم مسار إعجاب الجميع ، ومن أهم الأشياء التي أبهرت العالم وأسكتت ألسنة الداعين إلى إشعال نار الفتنة بين أبناء الوطن الواحد هذا المظهر الحضاري الرائع الذي شهده العالم ؛ فالمصريون الأقباط كانوا يحرسون أخوانهم في الوطن من المسلمين أثناء صلاة الجمعة . ومعي هنا على المنصة أحد القساوسة الذي جاء ليناصر كلمة الحق فتحية لكل شعب مصر. ثم يعطيه الميكروفون ويمسك يده التي بها الصليب

ليرفعها عالية وهو يردد بصوت جهوري مؤثر جملة « يحيا الهلال مع الصليب » .. وبعد ترديد القس ميخائيل لهذه الجمل قال بصوت حماسي وتعبيرات ملامحه يكسوها اليقين : « الرب إلهنا رب واحد ، والمحبة قوية » . أيها المصريون « مبارك شعبي مصر » هكذا قال الرب . فمصر ستظل أرض المحبة والسلام كما وصفها السيد المسيح . وكما قال البابا شنودة «مصر هي وطن يعيش فينا وليس وطن نعيش فيه» . نجاح الثورة ونهاية حكم الطغيان والاستبداد هو نجاح لكل المصريين . يجب علينا جميعاً أن نتماسك ونتوحد تحت راية مصلحة الوطن . والله معنا جميعاً .. فيجذب الشيخ شوكت نيازي الميكروفون من القس ميخائيل ويحضنه ويقبل رأسه ثم يرفع يده ويقول : مصر لكل المصريين . مصر لكل المصريين . قولوا معي «مسلم . مسيحي . كلنا مصريين» .. وبعد دقائق من الهتاف الحماسي الذي أطلقه الشيخ شوكت ورددده مئات الآلاف من المتظاهرين ترك الأنبا ميخائيل المنصة ليرافق روفائيل ونسيم وعدد كبير من المسيحيين الذين ألتفوا حوله ، وهم يرددون الأغاني والأناشيد الداعية إلى الوحدة الوطنية .

الهتافات المنادية بسقوط نظام الحكم القائم ورحيل مبارك عن السلطة والأناشيد الوطنية الحماسية ، وتكاتف المصريين وتكافلهم النفسي جعلت الميدان في صورة بهية مشرقة تدعو للفخر ؛ فالميدان امتلئ عن آخره بمختلف فئات الشعب المصري وهم يحملون في أيديهم علم مصر ، وبسمة الأمل والتطلع للمستقبل مطبوعة على وجوههم . أغلبيتهم جاءوا بدافع المصلحة العامة ، ولم يكن لديه أية اتجاهات سياسية . امتلئ الميدان بأعداد كبيرة من الأسر المصرية البسيطة الكادحة التي طحنتها دوامة الفقر والقهر والحرمان ، وحُبست أمالهم وأحلامهم في بوتقة صراع لقمة العيش والنجاة من قسوة آلام الجوع . أسر بسيطة جاءت تحمل أحلامها على راية أعلام مصر بملامح تحدي وإصرار تنادي برحيل حسني مبارك ونظامه حكمه الذي أغمض عينيه عن حالتهم البائسة وأصمّ أذنيه عن سماع أنينهم وصرخات عذابهم على مدار سنوات طويلة حولتهم إلى عبيد بلا سيد يرعاهم

تلفظهم الأرض ، ويستحي حريتهم ومقدراتهم أصحاب النفوذ والمال .. مشاهد الميدان والتجمعات البشرية المتنوعة بكل ما تحمله من معاني إنسانية مؤثرة ، جعلت خضرة الفلاحة الريفية البسيطة التي ستكمل عامها الخامس والستين ، وظلت على مدار عمرها في حالة خنوع وخضوع نفسي للحكومة مثل باقي الفلاحين المصريين رغم حياة الحيف والجور والخسف والذل والمعاناة ، تنادي بسقوط النظام ورحيل حسني مبارك عن الحكم بكل عزيمة وإصرار من أعماق قلبها الذي أدمته دموع بهية وهي تحمل صورة ابنتها شهندة وبجوارها العشرات من الأمهات الثكالى والأباء المكلومين والأرامل وهن يحملن أولادهن ومعهم صور الضحايا الذين سقطوا شهداء خلال الأيام العشرة السابقة .. مشاهد دموع خضرة بملامحها البائسة التي نسجتها خطوط الزمن كانت محل تتبع كاميرات إحدى القنوات الفضائية العالمية لترصد بتقنياتها العالية وخبراتها المهنية أدق تفاصيل ملامحها الباكية المعبرة عن حال المواطن المصري البسيط الذي تخلص من خنوعه وخضوعه لقوى الطغيان وثار على الاستبداد مطالب باستعادة كرامته الإنسانية وحقوقه الاجتماعية لتتصدر تلك الصورة المعبرة عن الثورة المصرية الصحف العالمية والمحلية .. وبعد يوم طويل حافل بالمشاهد المؤثرة ، والأحداث المركبة التي أفصحت عن حتمية نهاية حكم مبارك ، عادت أمل مع جيرانها وأهلها إلى منزلها وهي تحمل بداخلها مشاعر متناقضة متأرجحة بين التفاؤل والخوف من ضياع الأماني بخروج زوجها ونجاح ثورة التغيير التي ستغير من حياة المجتمع المصري إلى الأفضل ؛ فمشهد الدبابات المحيطة بالميدان وعليها العبارات المسيئة إلى مبارك وزوجته ، وزيارة المشير طنطاوي «وزير الدفاع» وتجوله بين المتظاهرين أثارت تساؤلات عديدة في نفس أمل . هل يقف وزير دفاع مبارك الذي ظل يعتلي وزارة الدفاع على مدار عشرين عامًا مع ثورة تنادي بسقوط النظام الحاكم الذي يمثل هو أحد أركانه الأساسية ؟ ما حكمة قيام طنطاوي بالحديث مع الثوار وحثهم على مطالبة المرشد بقبول الحوار مع النظام ؛ وكأن الثورة والثوار يتم اختزالها في جماعة الأخوان المسلمين ؟ وما

الحكمة التي دعت المنتمين إلى جماعة الأخوان المسلمين إلى الهتاف الحماسي للمشير «يا مشير يا مشير .. احنا ولادك في التحرير» ، والتي كانت تعقب هتاف سقوط النظام ورحيل مبارك ؟ .. وما الحكمة التي جعلت شباب الإخوان إلى إطلاق دعايتهم نحو ضرورة الحوار مع نائب رئيس الجمهورية ، بعدما تراجع أغلبية الأحزاب والقوى السياسية عن المشاركة في هذا الحوار ؟ تساؤلات لم تجد أمل لها إجابة قاطعة تقطع الشكوك التي دارت في مخلدتها . لكن الشعور اللاإرداي في تصديق حلم التغيير إلى الأفضل استطاع أن يُخدر تلك الشكوك ، وتقرر أمل أن تستمر في طريقها الذي بدأته وتؤهل نفسها للذهاب إلى قصر الرئاسة ضمن مجموعة الشباب الذين تم اختيارهم لحضور جلسات النقاش والحوار مع نائب الرئيس في القصر الجمهوري صباح يوم الأحد ٦ يناير ، وكل جوارحها ومشاعرها وأحاسيسها تتطلع للإفراج عن زوجها .

ويمر أسبوع منذ خروج المتظاهرين في جمعة الرحيل تنتشر خلالها الاعتصامات، والاحتجاجات العمالية والشعبية في العديد من المصالح والهيئات الحكومية والمرافق العامة والمباني الحكومية ؛ للمطالبة بتحسين الأوضاع المالية للعمال والموظفين ، بجانب مطالب الكثير من الشباب بالتعيين في الوظائف الحكومية . وقد وصلت التظاهر في بعض الأماكن إلى قطع الطريق وتعطيل المرافق العامة وقيامها بأداء خدماتها للمواطنين[1] .. الخطاب الأخير الذي ألقاه الرئيس حسني مبارك يوم

---

(١) ومع حلول اليوم السادس عشر ، بعد اندلاع التظاهرات المناهضة لنظام مبارك ، اندلعت المظاهرات الفئوية التي كانت الشرارة الأولى لحمى التمرد والانفلات النفسي والاجتماعي الذي تشهده مصر حتى كتابة تلك السطور وقد تمثلت تلك التظاهرات في الآتي :

- آلاف يحاصرون مقر محافظة كفر الشيخ ويدمرون مقر القوى العاملة بها .
- آلاف العمال في حلوان وكفر الدوار وكفر الزيات يتظاهرون ضد الحكومة .
- متظاهرون في منفلوط يوقفون حركة المرور في طريق مصر أسيوط الزراعي .
- عمال ١١ شركة بالسويس يواصلون الاعتصام في ميدان الأربعين بسبب تدهور أوضاعهم المادية مطالبين برفع أجورهم .

- عشرات الموظفين يتظاهرون أمام الهيئة العامة للتأمين الصحي في شارع الجلاء بالقاهرة مطالبين بالتعيين بعد قضاء بعضهم ٢٦ عاما بدون تعيين ومرتباتهم تصل إلى ٣٠٠ جنيه .
- عشرات من الصحفيين غير المعينين بالأهرام يحاصرون مبنى الأهرام مطالبين بالتعيين الفوري بعد قضائهم أكثر من ١٠ سنوات بدون تعيين .
- اعتصام ما يقرب من عشرة آلاف عامل أمام وزارة البترول من شركات مختلفة للتعبير عن مطالبهم الممتدة على مدار السنوات الماضية وهى تطبيق لائحة إدارية واحدة ، وتعيين من مر عليه أكثر من عشر سنوات في العمل ، وتطبيق قواعد السلامة المهنية ، وأكد العاملون أنهم مستمرون في الاعتصام لأنهم لم يتوقعوا عودة سامح فهمى للوزارة بعد كل هذه المشاكل .
- موظفو الهلال الأحمر في شارع رمسيس بمدينة القاهرة يقطعون الشارع ويحتجون على عدم تعيينهم رغم عملهم لمدة تتجاوز العشرين عاما ، وما زالوا يعملون بعقود ، واعترض الموظفون على وعود التعيينات ولم يتم شيء ، ووصل عددهم إلى أكثر من ٥٠٠ شخص ورفعوا لافتات هاتفين «معتصمين معتصمين حتى التعيين » .
- موظفو البريد المتظاهرون في العتبة يطالبون بإقالة رئيس الهيئة وتعيين نائبه بدلاً منه ، وكذلك زيادة المرتبات وتثبيت المؤقتين ، كما تم إغلاق مركز الحركة الرئيسى في رمسيس ومنع خروج أو دخول أى شخص إليه ، كما طالب الموظفون بإقالة جميع المستشارين الذين عينوا في الهيئة وتجمع الموظفون تحت شعار « البريد للبريديين» .
- عمال ورش بولاق بمدينة القاهرة يدخلون إضراباً ويجلسون على القضبان لمنع مرور القطارات .
- إخلاء مقر مجلس الوزراء والانتقال لمقر آخر مع تواصل الاعتصامات حوله .
- عمال النقل العام يدخلون في اعتصام مفتوح في جراجات الهيئة تضامنا مع مطالب المعتصمين في ميدان التحرير واحتجاجا على عدم صرف حوافزهم .
- ما يقرب من ألف عامل من العاملين في شركة مياه الشرب والصرف الصحي بالجيزة يتظاهرون أمام مقر الشركة احتجاجا على إصدار رئيس الشركة قرارًا بلا رقم لتعيين من مضى على وجودهم بالشركة ٦ أشهر .
- الصحفيون والإداريون والعمال في روز اليوسف يرفضون ما طرحه رئيس مجلس إدارة من مكافآت ويطالبون برحيله و رحيل رئيس التحرير .
- اعتصام مفتوح في مستشفى كفر الزيات بسبب تأخر صرف الحوافز للعاملين .
- أكثر من ألفين عامل من عمال ورش كوم أبو راضي التابعة للسكة الحديد يدخلون في إضراب عام تضامنا مع المعتصمين في ميدان التحرير واحتجاجا على تجاهل إدارة الهيئة لمطالبهم منها التحقيق مع الرئيس السابق للشركة المشرفة على الورش ، ويهددون بالانضمام إلى المعتصمين في ميدان التحرير إذا لم يتفاوض معهم وزير النقل .
- آلاف من عمال النظافة يتظاهرون في شارع السودان مطالبين برفع أجورهم وتحسين أوضاعهم .
- ما يقرب من ألف وخمسمائة عامل في شركة بتروتريد يتظاهرون أمام مقر شركتهم للمطالبة بإقالة وزير البترول سامح فهمي .
- عمال مصنع فحم الكوك يبدأون إضرابا احتجاجا على تدنى أحوالهم .

الخميس ١٠ فبراير جاء مخيباً لآمال غالبية المصريين الذين فقدوا الثقة تماماً في مبارك ونظام حكمه ، ولم يعد قلوبهم أو عقولهم مؤهلة لبقائه في الحكم حتى ولو صدقت نواياه ولم يترشح لفترة رئاسية تالية ، وحتى بعد إقصاء ابنه جمال عن ممارسة الحياة السياسية ؛ فلم يعد سقف مطالب وتطالعات القوى الثورية بمختلف إنتماءتها تقبل ما قدمه مبارك من إصلاحات دستورية أو تقبل تفويض اختصاصاته لنائبه عمر سليمان، وإنما أصبح الهدف الرئيسي الذي اتفق عليه الجميع هو إسقاط النظام الحاكم ورحيل مبارك عن الحكم . هذه الغاية دفعت القوى المؤثرة في الشارع السياسي بحشد كل طاقتها للمظاهرات التي أعلنت عن خروجها يوم الجمعة ١١ فبراير في كل ميادين الجمهورية تحت مباركة المجلس الأعلى للقوات المسلحة، الذي أعلن في بيانه الأول[1] برئاسة المشير طنطاوي بصورة تلميحية عن نهاية تابعية الجيش إلى الرئيس حسني مبارك ؛ لتشتعل همم الثوار في الميدان وتزداد ثقتهم ، ويعلنوا عزمهم على الزحف نحو القصر الجمهوري بمنطقة العروبة «قصر الاتحادية» والاعتصام هناك حتى يتم تنحي مبارك عن الحكم .. مشاعر أمل الحانقة من النظام ، الذي ما زال يعتقل مصري وياسمين ، كانت تشتعل ألماً وغضباً يوم بعد يوم بعدما طرحت خلال لقائها مع عمر سليمان يوم ٥ فبراير ملف المعتقلين من النشطاء السياسيين الذين ساهموا برأيهم في تحريك الشعور الوطني قبل وأثناء انتفاضة ٢٥ يناير ، وقيام السلطات بالإفراج عن تامر حسانين يوم ٧ فبراير كنتيجة للضغط الإعلامي وتدخل بعض الشخصيات العامة لدى السلطات السياسية والأمنية المسؤولة عن هذا الملف.. أمل كانت على يقين أن حسني مبارك سيتنحى عن السلطة في مساء يوم الخميس ١٠ فبراير ، بعدما

---

(١) أصدر المجلس الأعلى للقوات المسلحة في ذلك اليوم بيانا تحت اسم / البيان رقم واحد/ جاء فيه : «انطلاقا من مسئولية القوات المسلحة والتزاما بحماية الشعب ورعاية مصالحه وأمنه وحرصا على سلامة الوطن والمواطنين ومكتسبات شعب مصر العظيم وممتلكاته ، وتأكيدا وتأييدا لمطالب الشعب المشروعة .. انعقد اليوم الخميس الموافق العاشر من فبراير ٢٠١١ المجلس الأعلى للقوات المسلحة لبحث تطورات الموقف حتى تاريخه . وقرر المجلس الاستمرار فى الانعقاد بشكل متواصل لبحث ما يمكن اتخاذه من إجراءات وتدابير للحفاظ على الوطن ومكتسبات وطموحات شعب مصر العظيم» .

ذاعت عدد من القنوات الفضائية على لسان مسؤولين في الحكومة والمجلس العسكري أن الرئيس سيطلع على الشعب المصري اليوم ويعلن تنحيه عن السلطة . فجلست تستمع إلى الخطاب بكل شغف وقلبها وعقلها لن يقبل غير سماع جملة التنحي . لذلك فبمجرد نهاية خطاب مبارك صرخت أمل صرخة رافضة قائلة وهي تتجه نحو باب المنزل : لن يأتي عليك يوم الغد . سنجعلك ترحل مهما كانت التضحيات .. فتهرول سعيدة ورائها وهي تحمل حياة على كتفيها لتقف أمام باب المنزل قائلة بصوت امتلئت نبرته بالخوف والقلق: استحلفك بكل غالي أن لا تذهبي.. ثم تقول موجهة كلامها إلى الشيخ علي الراوي: يا با الشيخ علي . أرجوك لا تجعلها تخرج في هذا الوقت.. فتقول أمل بصوت خفت حدته وهي تنظر إلى دموع أمها ، وإلى ملامح الفزع التي أصابت أبنتها : يا أمي . ارجوك لا تجعليني افعل شيء بدون رضائك.. فتقول سعيدة بصوت باكٍ وملامح توسل ورجاء: أرجوكي يا ابنتي. استحلفك بالله لا تخرجي في هذا الوقت .. فيتجه الشيخ علي نحو سعيدة ويقول موجهاً كلامه إلى أمل : لو تسمحي يا دكتورة . نزولك الآن لن يكون له أهمية ، كما أنه سيشعل نار والدتك بالقلق عليكي . انتظري حتى الصباح .. فتقول أمل بصوت تراخت نبرته أمام بكاء حياة ودموع سعيدة : حسناً يا أمي سأذهب في الصباح إلى الميدان؛ فبكل تأكيد غداً سيكون يوم الحسم بإذن الله.. فيقول الشيخ علي : كنت أنوي المجيء معك لكنهم اتصلوا بنا من دماص وهناك بعض الأمور التي لا تنتظر التأجيل. سنعاود عندما يخرج زوجك بإذن الله من المعتقل لنبارك له على تحقيق ما أراد بإذن الله.. فتقول خضرة بصوت غلفه الود والمحبة موجهة كلامها إلى أمل : والله يا دكتورة لا أعرف كيف أشكرك على ما فعلته معي فلولا مساعدتك لما كنا نستطيع زيارة أضرحة آل البيت .. فتقول أمل وهي تنظر إليها نظرة ودودة : لقد سعدت بالذهاب معكما يا جدتي . وإن شاء الله في المرة القادمة سأكون معكي بإذن الله .. فيقول الشيخ علي : سأصعد إلى المقدس نسيم لأودعه قبل سفرنا فالسيارة التي ستنقلنا إلى دماص ستأتي في الفجر .. فتقول أمل : سأتي معك يا جدي حتى أطمئن على طنط أنجيل فقد علمت أنها أصيبت بنزلة برد .. فتقول سعيدة وهي تمسح دموعها العالقة بعينيها:

بلغيها تحياتي حتى أصعد إليها في الصباح لأودعها ؛ فقد طال غيابنا عن بيتنا في جاردن سيتي .. فتقول خضرة بصوت غلفه الحزن : أرجوكي ابلغيها تحياتي . والله الست أنجيل والمقدس نسيم رغم أنهما نصارى إلا أنني أحببتهما من القلب فهما نعمة الجيران ، ويتمتعان بأخلاق حسنة وقلب أبيض صافي .. فتنظر إليها أمل نظرة بشوشة باسمة وهي تقول : سأبلغها يا جدتي .. بعدها يصعد الشيخ علي وأمل إلى شقة نسيم ويدور بينهما حديث ودي من القلب ، وتطمئن أمل على صحة أنجيل ثم يودعهما على أمل اللقاء قريباً .

وفي الصباح بعد توديع الشيخ علي وزوجته خضرة توجهت سعيدة بصحبة ابنتها وحفيدتها إلى بيتها في جاردن سيتي لتظل حتى مغادرة أمل إلى المنزل تسترجع ذكرياتها مع طارق صيام وما نتج من تغيير إيجابي في مستواها الاجتماعي والمادي نتيجة زواجها منه، ثم تسترجع ذكريات الماضي البعيد وتتذكر صابر وأمها وأبيها وكل أفراد عائلة أبو عساكر وهي تترحم عليهم جميعاً بقلب ما زال يدمي حزناً رغم مرور سنوات طويلة على فراقهم ، وأحزانها الدامعة التي لا تنضب ولا تجف تفيض بالذكريات التعيسة البائسة التي تعصف بشعور الأمان وتزلزل إحساسها بالطمأنينة. ورغم مشاعر الفزع والخوف من ذهاب أمل إلى ميدان التحرير فقد ظلت صامتة متماسكة تدعو بصلاح الحال ورفع الغمة عن الشارع المصري ، وهي متضرعة إلى الله أن يحفظ لها ابنتها من كل شر وأن يفك أسر مصري وياسمين وكل المعتقلين . وبدموع صامتة وبسمة من ملامح حزينة ودعت سعيدة ابنتها قائلة بصوت غلفه الدعاء واليقين : اللهم احفظك من كل شر يا ابنتي . واحفظ كل الشباب من بطش الظالمين . إن شاء الله لن تعودي مخزولة وسيتحق حلمكم وسيتم الإفراج عن مصري وياسمين وكل الشباب .. فتقبل أمل يدها وتحتضنها وتحتضن حياة وملامحها تنبض بالتفاؤل واليقين بانتصار الحق ، وهي تقول بصوت يشع بالأمل : بإذن الله يا أمي سينصرنا الله ولن يضيع دماء شهداءنا هباءً . استودعك الله يا أمي .. بعدها تنصرف وهي تلوح إلى حياة بنظرة شواقة حانية قائلة : سأعود ومعي بابا

يا حياة إن شاء الله سيعود بابا . وحتى خروجها من باب العقار ظلت تردد ما تقول وحياة ترد عليها بصوتها الطفولي البريء : بابا جاي . بابا جاي . بحب بابا . حياة بتحب مصري وتحب أمل .. ومع وصول أمل إلى ميدان التحرير كان هناك جمع من الأطباء الشباب الذين قسموا أنفسهم إلى مجموعتين على رأس كل مجموعة رئيس ؛ الأولى ستظل بالميدان وعلى رأسها أمل ، والثانية على رأسها أحد الأطباء وستتوجه إلى قصر الاتحادية حيث سيتم اعتصام الآلاف من المصريين . ومع اقتراب عقارب الساعة من السادسة مساءً كان الميدان قد امتلئ بأعداد غفيرة من المصريين وصلت إلى بضعة مئات من الألوف كلهم كانوا في حالة ترقب عما ستسفر عنه الأحداث ؛ خاصة بعدما أعلن المجلس الأعلى للقوات المسلحة عن بيانه الثاني ، وقيام وسائل الإعلام العربية والعالمية بإطلاق التكهنات والتحليلات التي أجزمت بتنحي مبارك عن السلطة ومغادرته القصر الجمهوري في صباح هذا اليوم . الكل يهيئ نفسه للاحتفال بانتصار الثورة وزوال حكم مبارك الذي استقر في وجدان جميع الثوار أنه كان السبب الرئيسي في وأد أحلامهم واغتيال أمانيهم ، واغتصاب حاضرهم وماضيهم . الكل يلوح بأيدي ثائرة تبحث عن النجاة من الماضي المليء بالهموم والأحزان واليأس ، ويعبرون بملامح تتطلع إلى غد أفضل ومستقبل مشرق وهم يصيحون صيحات رفض النظام الظالم ورحيل حسني مبارك وأعوانه عن السلطة . وبمجرد ظهور السيد عمر سليمان نائب رئيس الجمهورية على شاشة العرض الكبيرة الموضوعة في الميدان ليذيع بيان مهم من رئاسة الجمهورية حُبست الأنفاس لسماع الخطاب الذي لم يتجاوز إذاعته أربعون ثانية وجاء به «بسم الله الرحمن الرحيم . أيها المواطنون في هذه الظروف العصيبة التي تمر بها البلاد قرر الرئيس محمد حسني مبارك تخليه عن منصب رئيس الجمهورية ، وكلف المجلس الأعلى للقوات المسلحة بإدارة شئون البلاد والله الموفق والمستعان» . وبمجرد نهاية الخطاب يتحول ميدان التحرير وكل ميادين وشوارع الجمهورية إلى ساحة احتفال في مشاهد مؤثرة تناقلتها وسائل الإعلام العالمية بصورة دراماتيكية جذبت انتباه العالم ،

وكانت مسار إعجاب وتقدير جميع الشعوب التي أظهرت انبهارها بالسلوك الحضاري للشعب المصري منذ اندلاع ثورتهم المطالبة بالتغيير .. دموع أمل التي انسابت على وجنتيها وهي تهلل بكلمات الشكر والحمد على رحيل مبارك ألتقت مع دموع زميلاتها ، وهن يتحاضن منتفضين فرحة يغنون بصورة تلقائية نشيد بلادي في مشهد تناغمي مع المتظاهرين نسج ما يشبه بانوراما الانتصار ، وأعاد إلى أذهان المصريين فرحة الانتصار بعبور الجيش لقناة السويس في حرب ٧٣ .. الاحتفالات التي عمت ميدان التحرير وباقي ميادين وأحياء وشوارع وحارات وأذقة ودروب المدن والمحافظات استمرت حتى منتصف الليل في فرحة سرابية لم يكن يعلم أحد مداها الخادع الذي أضل المثقف والعالم قبل أن يضل الجاهل والأمي ؛ فأغلبية الشباب الذي اندفع وراء حلم التغيير إلى مستقبل أفضل ، ولم يكن لهم توجهات سياسية أو رؤى مستقبلية عن كيفية التغيير ، ظن أن ثورتهم قد نجحت وسارت على الطريق الصحيح برحيل مبارك عن السلطة فقرروا العودة إلى ديارهم ومعهم أحلامهم الوردية السرابية . بينما بدأت القوى الحزبية والجماعات أصحاب الإيدلوجيات الدينية والعلمانية بلملمة أبواق الفرحة ، وإعداد العدة نحو الدخول في الصراع على السلطة طمعاً في مغانمها غير مكترثين بأحلام المواطن المصري البسيط التي لم تزد عن العدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية . وبين هاتين الفئتين ، وقفت فئة من الشباب الذين استطعوا القفز والتسلق على أنغام أهداف الثورة يعدون العدة لتجييش قدرتهم الخطابية الخادعة القادرة على تزييف الحقائق واستقطاب أعداد كبيرة من الشباب باسم الثورة من أجل تحقيق مكاسب مادية بابتزاز القوى السياسية غير مكترثين بأية قيم أو تقاليد راسخة في أذهان المصريين .. أفراح أمل بتخلي مبارك عن منصب رئاسة الجمهورية وصلت إلى قمة النشوة عندما تقابلت مع الدكتور محمد المرتجي قبيل مغادرتها الميدان ؛ حيث أبلغها أنه تقابل مع مسؤول كبير في المجلس العسكري منذ قليل وأبلغه أن جميع المعتقلين بسبب أرائهم السياسية سيتم الإفراج عنهم خلال ساعات قليلة، لتعود إلى منزل والدتها بجاردن

سيتي وهي مفعمة بمشاعر الفرحة ونشوة الانتصار تلاطفها أحلامها الوردية بعودة مصري إلى أحضانها الشواقة ، تكاد أحاسيس أنوثتها الرومانسية الحانية السعيدة أن تلامس السحاب لتظل جالسة مع سعيدة حتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالي تشاركها تلك الأفراح بمشاعر أمومة حانية وقلب أم وزوجة مصرية تحسست العدالة الأهية في سقوط مبارك من سلطانه . ليخلد بعدها الاثنين إلى النوم بأسارير حالمة بحياة أفضل ومستقبل مشرق .

وفي الصباح استيقظت أمل على صوت حياة تنادي بصوت فرحة قائلة : بابا جيه . مصري جيه يا أمل .. فتهلع أمل نحو ابنتها لتجد مصري أمامها ينظرها بملامح عاشقة حانية كساها الحزن والهم ، والدموع عالقة في عينيه . فتندفع مرتمية في أحضانه وهي تقبل وجنتيه وشفتيه وكتفيه ودموعها تنهمر فرحة بعودة زوجها ومعشوقها، وهي تقول بصوت متحشرج من شدة البكاء: يا الله . اللهم لك الحمد. اللهم لك الشكر . لقد انفطر قلبي على فراقك يا حبيبي . لقد كنت أموت كل يوم هماً وحسرة على فراقك يا قرة عيني .. فيحضنها مصري بشدة ويبكي بكاء حرقة وألم ، وهو يقول بصوت غلفه الضنى : هل كنتي مع أبي يوم استشهاده ؟ الله يرحمك يا أبي .. فتمسح أمل دموعه وتقبل يده وتأخذه ليجلسا سوياً على الأريكة لتقول له بصوت هادئ باكٍ ، وهي تنظره نظرة عاشقة حانية مليئة باليقين والإيمان : لقد توفى عمي أمام عيني . سبحان الله لقد كانت ملامحه مضيئة كالبدر وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة من نور.. فيجهش مصري بالبكاء وهو في حضن أمل وقد تسلقت حياة على فخديه وأخذت تطبطب عليه وهي تقول بصوتها الطفولي البريء : لماذا تبكي؟ .. حياة بتحبك .. فيضمها مصري إليه وهو يقول : بابا بيحب حياة .. فتقول أمل بصوت تساؤل وهي تمسح دموعها : لكن أخبرني كيف ومتى علمت بهذا الخبر؟ .. فيقول مصري : لقد تقابلت مع الأستاذ أبو العز الحريري على بوابة المعتقل وأخبرني بما حدث إلى أبي ، كما أخبرني بخبر استشهاد الدكتور طارق أيضاً . الله يرحمهما ويرحم كل شهدائنا الذين سقطوا غدراً .. ثم ينظر نظرة حزينة قائلاً إلى سعيدة التي

كانت قد جاءت في تلك اللحظة مسرعة عندما سمعت صوت زوج ابنتها : البقاء لله يا حماتي . لقد عاش الدكتور طارق رجل نبيل ، ومات شهيداً .. فتقول سعيدة بصوت باكٍ والدموع تناسب على وجنتيها : الله يرحم الجميع يا ولدي . الحمد لله على عودتك لنا سالماً .. فتقول أمل بصوت تساؤل : أين ياسمين؟ لماذا لم تأتي معك؟ هل علمت بخبر استشهاد حمايا ؟ .. فيقول مصري : ياسمين ذهبت مع خطيبها إلى المستشفى فقد أصيب أحمد بنزلة معوية حادة أمس ولم تعلم بالخبر حتى الآن .. فتقول أمل : هل تعرف اسم المستشفى حتى أذهب إليها ؟ .. فيقول مصري: مستشفى النيل بدراوي بالمعادي.. فتقول أمل: سأجهز لك الحمام وطعام الإفطار لتأخذ قسطًا من النوم، وسوف أذهب إلى ياسمين لتعود معي .. فيقول مصري : لا داعي فلن أستطيع الأكل . فقد جئت لأراكم وأطمئن عليكم وسأذهب بعد المستشفى لزيارة قبر والدي .. فتقول سعيدة : بالله عليك يا ولدي . تناول طعامك قبل ذهابنا إلى المستشفى .. فتلاحقها أمل قائلة بصوت تمني ورجاء وهي ممسكة بيد زوجها : أرجوك يا مصري تناول طعام الإفطار قبل ذهابنا .. فينظر إليها مصري نظرة صامتة حزينة ويقول بصوت مرهق : أرجوكي يا أمل لا تغصبيني على الأكل . ارتدي ملابسك لنذهب .. فتقول سعيدة : سأجهز بعض الطعام لنأخذه معنا . ثم تحمل حياة على كتفيها وتتجه إلى المطبخ .. وبعد انصراف سعيدة ارتمت أمل في أحضان زوجها وهي تبكي بحرارة قائلة بصوت هامس حزين : لقد عشت أيام عصيبة وأنت بعيد عني . الله يرحمك يا عمي لقد كان إنسانًا عظيمًا في كل شيء .. فيحضنها مصري ويجهش بالبكاء مرة أخرى وهو يحاول التماسك قائلاً بصوت مضني : لم أكن اتخيل أن أفقد أبي ! من الصعب أن أصدق عدم رؤيته مرة أخرى ! اللهم صبرني على ما أصابني من بلاء .. فتمسح أمل دموعه بيدها وتقول بصوت امتزجت نبرته بنغمات اعتزاز ورثاء : لقد اختاره الله أن يكون من الشهداء، وسيظل يحيا في قلوبنا . لقد كان المرحوم نعم الأب ونعم المعلم، وعاش ينادي ويدافع عن مبادئ الحرية والعدالة الاجتماعية ومات شهيد تلك

المبادئ . كان رحمه الله يقول عندما كان يتحدث عن الوطن «حب الوطن محفور في قلوب أبناء جيل ثورة يوليو الذي ضحى الكثير منهم بروحه ليحافظ على ترابه ؛ فالثائر الحق يضحي بروحه دفاعاً عن تراب وطنه أو ليحفظ لأبناء وطنه حريتهم وكرامتهم وحياة يتمتعون من خلالها بالعدالة الاجتماعية » .. فيقبل مصري رأس أمل ويقول بصوت استغفار : استغفر الله العظيم . اللهم لا اعتراض على قضائك . سأتوضأ لأصلي ركعتين لله حتى تجهزي لنذهب إلى المستشفى ثم إلى القبور . فتنهض أمل بعدما قبلت يد مصري ورأسه ثم تقول : بمجرد ما تنتهي من صلاتك سنكون قد جهزنا أنفسنا للذهاب .. وبعد فترة قليلة اصطحب مصري أمل وحياة وسعيدة وتوجهوا إلى مستشفى النيل بدراوي ليتقابلوا مع ياسمين ، التي كانت قد علمت بالخبر عن طريق إحدى زملائها وتقبلته بنفس مؤمنة راضية بقضاء الله وقدره ، ليتوجه الجميع إلى مقابر أسرة المنشاوي ويقرأوا الفاتحة ويترحموا على الشهيد ثم ينصرفوا إلى حال سبيلهم وهم على أمل أن دم سعد المنشاوي لن يذهب هباء وستظل روحه ترفرف في سماء الوطن الذي ذهبت فداءً له تنادي بالحرية والعدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية .

وتتعاقب الأيام والشهور بعد تنحي مبارك وإقصائه عن السلطة تشهد البلاد خلالها عشرات الأحداث والمواقف الخطيرة التي أثرت سلبًا على النسيج الوطني والبناء الاجتماعي والسياسي للبلاد . تلك الأوضاع المنفلتة خلفت لدى أغلبية المواطنين الإحباط وخيبة الآمال وجعلت حلم الحرية والاستقرار يتبخر شيئًا فشيئًا في ظل التوترات الاجتماعية والتجاذبات السياسية والخروقات الأمنية والاضطرابات والإضرابات الوظيفية والإدارية التي كانت كفيلة أن تسبب تصدعات وشروخ اجتماعية واقتصادية وسياسية لهياكل الدولة يصعب ترميمها ، وجعلت حلم التغيير يبدو بعيد المنال في ظل الانفلات المجتمعي الذي تفجر في جميع مناحي الحياة .. مصري وياسمين وأمل ، الشباب المصري الذي كان يؤمن بالتغيير من أجل تحقيق حلم مصر الجديدة التي يتمتع فيها المصريين بالكرامة والحرية والعدالة الاجتماعية في

التعليم والصحة والرعاية الاجتماعية ، وجد أن ما سعوا إليه أقرب أن يكون سراب ، واستشعروا أن دماء أصدقائهم وأهلهم سالت هباءً ، وأن المتربصين بالسلطة استغلوا هذه الدماء الذكية لتحقيق مآربهم الخاصة فصنعوا منها قميص عثمان[1] القرن الواحد والعشرين الذي لم يكن الغرض منه سوى الانقضاض على الحكم . لذلك تعددت وقفاتهم الاحتجاجية التي سعت للتعبير عن استيائها من إدارة المجلس العسكري لشئون البلاد ، الذي قام بحسن نية أو سوء نية إلى اتخاذ مواقف عشوائية صبت في النهاية لمصلحة فئة بعينيها وترك الأمور تسير بصورة جعلت الكثير من الشعب المصري يشكك في نية تسليم السلطة ، وجعلت الساحة السياسية مجال خصب لعبث المتنفعين من استمرار حالة الانفلات السياسي الذي خلف انفلات على جميع المستويات الحياتية .. ويأتي يوم الثلاثاء ٤ أكتوبر ٢٠١١م لتشهد مدينة القاهرة تظاهرات الأقباط التي تنادي بالحرية والمساواة وعدم التفرقة بين المصريين على أساس الدين اعتراضاً على ما حدث للأقباط في قرية المريناب بمحافظة أسوان ؛ حيث تم هدم كنيسة واشعل المتشددون النار في ملحقاتها بحجة أنها غير مرخصة . فقرر عددًا كبير من الأقباط الاعتصام أمام مبنى الإذاعة والتلفزيون حتى يتم محاسبة المعتدين وتقديمهم للمحاكمة . ومن حي شبرا تحركت المظاهرة الحاشدة التي دعا إليها روفائيل عطية وتقدمها الأنبا ميخائيل حبيب أسقف كنيسة العذراء والأستاذ نسيم مرقص، وكثير من الشباب المسيحي من مختلف الانتماءات الفكرية حركتهم مشاعر

---

(١) عثمان هو أمير المؤمنين عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين . و قميص عثمان له موقفان في التاريخ الإسلامي : الموقف الأول وهو ولايته لأمر المسلمين (الخلافة) . يقول الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال لعثمان بن عفان (.. يا عُثْمَانُ ، إِنْ وَلَّاكَ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ يَوْمًا ، فَأَرَادَكَ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَخْلَعَ قَمِيصَكَ الَّذِي قَمَّصَكَ اللهُ فَلَا تَخْلَعْهُ ، يَا عُثْمَانُ ، إِنْ وَلَّاكَ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ يَوْمًا ، فَأَرَادَكَ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَخْلَعَ قَمِيصَكَ الَّذِي قَمَّصَكَ اللهُ فَلَا تَخْلَعْهُ ، يَا عُثْمَانُ ، إِنْ وَلَّاكَ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ يَوْمًا، فَأَرَادَكَ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَخْلَعَ قَمِيصَكَ الَّذِي قَمَّصَكَ اللهُ فَلَا تَخْلَعْهُ .. ثلاثاً ..) رواه الترمذي . أما الموقف الثاني فهو استخدام قتلة عثمان لقميصه الغارق بدمه والذي تم نقله من مكة إلى دمشق بمعرفة اتباع معاوية بن أبي سفيان ليتم عرضه داخل المسجد . استخدام هذا القميص في مفارقة عجيبة لإثارة الفتنة بين الناس وحثهم على القصاص من قتلة عثمان باعتبار أن غيرهم هم قتلة عثمان ، وهذا ما قال فيه الإمام على بن ابي طالب (حق يراد به باطل) .

الغضب والحنقة بفشل الإصلاح المأمول بعد سقوط نظام مبارك وإحساسهم بأن وضعهم كمواطنين مصريين لن يتغير بالإيجاب بل على العكس ؛ فقد بدأت بوادر طغيان الفكر المتشدد تجاه الأقباط تلوح في الأفق أمام صمت القوى الحاكمة «المجلس العسكري» وعجزها عن مواجهة تلك الظاهرة بصورة تحقق هيبة الدولة وتحفظ للمواطنين حقوقهم وتردع المخربين وأنصار الفوضى وأصحاب الفكر المتشدد من تكرار فعلتهم الإجرامية .. التظاهرات والاعتصامات التي ضمت بضعة آلاف من المسيحيين تجمعت منذ الساعة الرابعة أمام مبنى الإذاعة والتلفزيون ، وهي تهتف بالقصاص من مرتكبي أحداث قرية المريناب منددين بالجيش - الذي على حد قولهم يحمي الجناة ويشجعهم على ارتكاب جرائمهم ضد الأقباط - في مشهد لم يعتاد المصريون المسلمون على رؤيته وأثار حفيظة الكثير من العامة والغوغاء وأصحاب الفكر المتشدد ؛ فكيف يتجرأ المسيحي على الانتفاضة ؟! وكيف يتجرأ على الصياح رافعاً الصليب في وجه السلطة مردد شعار «ارفع رأسك فوق أنت قبطي» ؟! .. الشباب القبطي ، الذي خلع عباءة الخنوع والخضوع وارتدى عباءة الثائر ، لم ترهبه عصا الشرطة ولا دبابة الجيش ولم يلتفت إلى تحذيرات قيادة الجيش التي كانت تدير أمر الأزمة ، وتمسكوا بحقهم في الاعتصام أمام مبنى الإذاعة والتلفزيون معرضين أنفسهم إلى نيران غضب المتشددين والغوغاء وأنصار الفوضى والمتاجرين بها .. الطبيب روفائيل عطية ، الذي كان يتزعم الاعتصام تحت مظلة الأنبا ميخائيل حبيب وعدد كبير من رجال الدين المسيحي جاءوا من مختلف أنحاء الجمهورية ، تعرض للضرب والسحل والتنكيل من قوات الجيش أثناء فض الاعتصام بالقوة ، كما أصيب نسيم بجرح قطعي في رأسه خلال تلك الأحداث .. المشاهد التي تم التقطها من المتظاهرين تم اختصارها وبثها عبر شبكة الانترنت للتنديد بحكم المجلس العسكري ، كما تم توظيفها لحشد مظاهرة قبطية نادى بها نشطاء وجمعيات قبطية يوم الأحد ٩ أكتوبر أطلق عليها يوم الغضب القبطي .. الحالة النفسية السيئة التي أصابت نسيم بعد القسوة المفرطة التي أظهرها بعض جنود الشرطة العسكرية خلال فضهم للتظاهر ، والتعبيرات العنصرية المسيئة للدين المسيحي التي كان يطلقها البعض منهم

أصابته بنوع من الإحباط وتركت غبار العنصرية يتناثر على روح التسامح والمحبة المتأصلة في مشاعره .. وفي صباح اليوم التالي اتصلت بهية بمنزل سعيدة تليفونياً وأخبرتها بما حدث إلى نسيم بالأمس لتتصل بعدها سعيدة بأمل وتخبرها بما حدث ، ويقررا الذهاب ليلاً إلى منزل نسيم ليطمئنوا عليه . ومع غروب الشمس يصطحب مصري أمل وسعيدة وحياة ويتوجهوا جميعاً إلى منزل شبرا ؛ فعيادة المرحوم طارق صيام أصبحت مركز طبي يضم ثلاث عيادات تخصصية بأسعار رمزية عيادة الدكتور مصري للجراحة وعيادة الدكتورة أمل لأمراض النساء والتوليد وعيادة الدكتور روفائيل عطية لأمراض الباطنة ، وكان يتناوب عليها عدد كبير من الأطباء الشباب لتقديم الخدمات العلاجية لأهالي المنطقة بأسعار رمزية .. ومع وصولهم إلى هناك ، وقبل بدء ميعاد العيادات ، يصعدوا جميعاً إلى مسكن الأستاذ نسيم ؛ حيث كانت في استقبالهم أنجيل ، ومعها بهية وصافي وقد بدى على ملامحهم التوتر والغضب .. وبصوت قلوق ونظرة متسائلة قالت سعيدة بعد تبادل القبلات معهن : ألف لا بأس على صحة الأستاذ نسيم لعله يكون بخير الآن .. فتقول أنجيل بصوت مرتبك وقد ارتسمت على ملامحها الخجل والتوتر : الحمد لله هو بخير الآن لقد تم تضميد الجرح الذي أصابه في رأسه لكنه منذ الصباح يهزي بكلمات غاضبة من جراء ما حدث أمس.. فتقول أمل بصوت تعجب في صيغة تساؤل مخاطبة أنجيل بعدما استشعرت تعبيرات صافي وأنجيل الغاضبة : هل يُعقل أن الأستاذ نسيم تخرج منه كلمات غضب؟! سأدخل إليه أنا ومصري .. فيقول مصري بعدما قدم التحية للحضور : سأنزل إلى العيادة واحضر حقيبتي .. فتقول أنجيل بصوت اعتراض مرتعش ، وقد أكل الخجل والكسوف ملامح وجهها : لا داعي أن تتعب نفسك يا دكتور فقد تم عمل كل الإسعافات له .. فتقول أمل : سندخل لنطمئن عليه .. فتقول صافي بصوت غلفه الحزن وهي تنظر إلى أمل نظرة تعجب وحيرة : الأستاذ نسيم متوتر وعصبي ، ولن يقبل أي كلام منا .. فتقول أمل بصوت استفهام حائر : ماذا حدث ؟ ما الذي يجعل الأستاذ نسيم يغضب إلى هذه الدرجة ! .. فتقول بهية بصوت حسرة وألم : الأحداث التي حدثت في الأيام الأخيرة تنبئ بأشياء مظلمة . هل يُعقل أن الأستاذ

نسيم تصل به درجة الغضب إلى أن يتهم المسلمين بصفة عامة باضطهادهم للأقباط. هل يمكن أن ننسى عشرة أربعين سنة كنا فيها أكثر من أهل؟! .. فتقول سعيدة بصوت حسرة وقد ارتسمت على ملامحها الحزن : لا أنا لا اصدق أن الأستاذ نسيم يرفض التعامل معنا . اسمحي لنا يا ست أنجيل أن ندخل لنطمئن عليه ولن نتحدث معه في شيء .. فتقول أنجيل بصوت حزين خرج من أعماق قلبها وعيناها مبتلة بالدموع : الجرح الذي حدث إلى نسيم أعمق من الجرح القطعي الذي أصاب رأسه ؛ فقد قام أحد جنود الجيش بهتك عرضه ، ودهس الصليب بحذائه بعدما ضربه على رأسه بكعب البندقية .. فيقول مصري بصوت انفعالي ومشاعر غاضبة: المجلس الأعلى للقوات المسلحة يثبت يوماً بعد يوم أنه فشل في إدارة أمور البلاد . كيف يتغاضى عنما حدث بالأمس ؟! .. فتقاطعه أمل وهي تنظر إلى أنجيل نظرة مواساة ، وتقول بصوت غلفه الاستنكار: الجهل والتخلف المتفشي في القرى والنجوع والعشوائيات والتجمعات الفقيرة المهملة هي التي تفرز لنا نماذج مثل المجند الذي ارتكب فعلته العنصرية الشنعاء ؛ فالمجندين في قوات الشرطة المدنية والشرطة العسكرية الكثير منهم نموذج لإفرازات الأمراض الاجتماعية والثقافية والبيئية التي تخلفها هذه المناطق .. فيقول مصري بصوت به حدة : ألا يعلم القائمون على الأمر ذلك ؟! لو كانوا يعلمون فهذه مصيبة ، ولو كانوا لا يعلمون فهذه كارثة .. فتقول بهية بصوت منكسر وملامح مجروحة وهي تهم بالانصراف : لا داعي لهذا الكلام الآن فالأستاذ نسيم يحتاج إلى الراحة . هيا بنا يا صافي . ثم تنظر إلى سعيدة وتقول بصوت استفهام : ستأتي معي يا سعيدة ؟ .. فتقول أنجيل بصوت أسف وملامح مرتبكة : أرجوكم لا تغضبوا من كلام نسيم.. فتقول بهية بصوت مواساة وهي تقبل أنجيل وقد ارتسمت على ملامحها تعبيرات صامتة : لا عليك يا أنجيل . فأنا أعذر نسيم في كل ما قاله . ربنا يشفيه ويعافيه .. فتقول سعيدة بصوت دعاء وتمني بعدما قبلت أنجيل وهي تنظرها نظرة آسى وحزن : ربنا يشفيه ويعافيه سنأتي مرة أخرى عندما يستريح ويهدأ .. فتقول صافي وهي تودع أنجيل: سنأتي مرة أخرى يا طنط وأن شاء الله يكون الأستاذ نسيم بخير.. وتقول أمل بصوت حسرة وأسى وهي تحتضن أنجيل

بمشاعر ودودة وملامح تمني ورجاء : أرجوكي يا طنط . أبلغي الأستاذ نسيم أنني سأحضر غداً بصفة خاصة حتى أتحدث معه .. فتقول أنجيل بصوت متألم ، والدموع تزداد تساقطًا من عينيها : أرجوكم لا تؤاخذينا فأنا ونسيم نحبكم كلكم ، ولا يمكن أن نأخذ أحد بذنب أحد .. فيقول مصري وهو يتحرك إلى خارج المنزل : أرجوكي يا مدام أنجيل تبلغي الأستاذ نسيم أننا متضامنين مع ما حدث إلى المصريين الأقباط أمام ماسبيرو أمس ، وسنكون معهم في أي مظاهرة احتجاج .. فتقول أنجيل وهي تصطحب ضيوفها إلى خارج باب المسكن بعدما مسحت دموعها العالقة بعينيها : أشكركم جميعاً وأكرر اعتذاري .. فيرد عليها الجميع بالتحية وقبول الاعتذار . ثم ينصرفوا بعدها لتصعد سعيدة مع بهية وصافي ، ويهبط مصري وأمل إلى العيادة وكلهم في حالة حزن شديد على ما آل إليه حال نسيم . بهية وصافي ، رغم الكلمات القاسية التي أطلقها نسيم في حقهما كونهما مسلمين ، تحسسا له العذر بعدما عرفا ما تعرض له . وسعيدة تأثرت بشدة لما حدث إليه وظلت تدعي له بالشفاء ، وهي تتذكر مواقفه الإنسانية النبيلة على مدار أكثر من عشرين عام . أما أمل ومصري فقد عقدا العزم على ترجمة مشاعر حزنهم وغضبهم إلى مواقف إيجابية للتنديد بسوء إدارة البلاد في ظل تراخي المجلس العسكري عن اتخاذ ما يلزم نحو صيانة وحماية الحقوق المشروعة للمصريين الأقباط ؛ فقررا الانضمام مع بعض القوى الثورية للاشتراك في مظاهرة يوم الأحد ٩ أكتوبر أمام ماسبيرو .

وخلال الأربعة الأيام السابقة على يوم ٩ أكتوبر استطاع الأنبا ميخائيل حبيب والدكتور روفائيل عطية (اللذان أصبحا أعضاء في اتحاد شباب ماسبيرو[1] الذي

---

(١) بعد اعتداء عدد من المتشددين على كنيسة الشهيدين بقرية صول بأطفيح يوم ٥ مارس ٢٠١١م ، خرج على أثرها المواطنون المسيحيون للتظاهر أمام مبنى الإذاعة والتليفزيون " ماسبيرو" ، لينبهوا الإعلام إلى مشكلتهم ، وكان أغلبهم يرفع الصلبان وصور القديسين ويهتف باللغة القبطية " كريالايسون . والتي تعني يا رب ارحمنا " ؛ حيث تظاهروا واعتصموا هناك مطالبين بالقصاص من مرتكبي تلك الجريمة . ومع هذا الاعتصام تكون اتحاد شباب ماسبيرو الذي ضم عدد كبير من القساوسة والكهنة والنشطاء الحقوقيين من الأقباط ليصبح العقل المدبر والمنفذ للتحركات القبطية الثورية التي تدافع عن حقوق الأقباط ومطالبهم .

تشكل بعد أحداث قرية صول) ، وعدد كبير من النشطاء الأقباط والحقوقيين من تسليط الرأي العام في مصر على تلك المظاهرة التي ضمت أطياف التيارات الفكرية القبطية ، وشارك خلالها عدد من الشباب الثوري المنتمي إلى الحركات والتنظيمات اليسارية والليبرالية والبعض من رموز الحركة السياسية في تسليط الضوء على واقعة فض الاعتصام رافعين شعار القصاص من مرتكبي الأفعال الإجرامية العنصرية ضد المصريين ؛ حيث طالبت تلك القوى الثورية والحزبية المجلس الأعلى للقوات المسلحة باتخاذ مواقف إيجابية لمواجهة النعرة الوهابية المتشددة التي تهدد السلام الاجتماعي وتنبأ بدخول مصر في نفق التخلف الفكري والظلام الاجتماعي .. نسيم مرقص الرجل الذي ظل على مدار عمره المتجاوز السبعين عامًا يعيش في تصالح مع نفسه ، ويتسامح مع مبغضيه ولاعنيه إعمالاً لمقولة السيد المسيح (حِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاعِنِيكُمْ . أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ . وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ) أصابته تلك الواقعة بهزة نفسية خلخلت ما بداخله من تصالح وتسامح مع نفسه ، وقرر رغم ما به من إصابة أن يشارك في تلك التظاهرات . وأمام تصميمه على ذلك قررت أنجيل مرافقته في المظاهرة التي تحمس لها كل الأقباط وباركتها الكنيسة ، وكانت المرة الأولى التي يخرج فيها الأقباط للتظاهر بمباركة الكنيسة منذ أحداث الخانكة في عام ١٩٧٢م[1].. وفي عصر هذا اليوم المشهود تحركت جموع المتظاهرين نحو مبنى الإذاعة

---

(١) في يوم ٦ نوفمبر ١٩٧٢م تم حرق جمعية الكتاب المقدس في منطقة الخانكة على خلفية قيام بعض المسيحيين بأداء الشعائر الدينية فيها تمهيداً لتحويلها إلى كنيسة رغم عدم حصولها على ترخيص لذلك الغرض فقامت وزارة الداخلية بإزالة بعض المباني التابعة للجمعية التي تدخل ضمن الهيكل العام للكنيسة المزمع انشاؤها ، ومنعت استعمالها في الصلاة . وفي اليوم التالي جاء إلى الخانكة عدد كبير من القساوسة بلغ عددهم ١٠٠٠ كاهن في مسيرة وُصفت بأنها طابور عرض عسكري ، وسارت حتى مقر الجمعية وأقاموا شعائر الصلاة فيها وسط حراسة أمنية مشددة من الشرطة ثم انصرفوا بعد ذلك . هذه المسيرة أثارت حفيظة عدد من المسلمين الذين تجمعوا في اليوم التالي في مسجد السلطان الأشرف وخرجوا في مسيرة احتجاج على ذلك ؛ فانفعل أحد الأقباط وقام بإطلاق النار على رؤوس المتظاهرين فتوجه هؤلاء نحو منزل هذا القبطي وأماكن أخرى للتجمعات القبطية وأحرقوها وأتلفوها. وقد أرجع الجميع وقتها تفاقم الأزمة إلى تصعيد البابا=

والتلفزيون بمنطقة ماسبيرو ، الغالبية العظمى كانت من الأقباط الذين تجمعوا في مشهد مهيب يندر حدوثه في مصر يضم عشرات الآلاف ، تغني الترانيم القبطية حاملين الصليب والأيقونات القبطية المقدسة ، يرددون شعارات تندد بالمجلس العسكري وتطالب بالقصاص-من الجناة مرتكبي الجرائم العنصرية ضد الأقباط وتطالب بالمساواة في حقوق المواطنة المصرية .. روفائيل عطية ومصري وياسمين وأحمد عنبة ونسيم وأنجيل تحركوا في صف واحد ، ضمن المسيرة التي خرجت من شارع شبرا ، وكانت تضم ما يقرب من خمسة آلاف متظاهر يتقدمهم الأنبا ميخائيل حبيب أسقف كنيسة العذراء وعدد من قساوسة وأساقف وكهنة الأبراشيات والأسقفيات الأرثوذوكسية والكاثوليكية والأنجيلية من مختلف المحافظات .. تلك الهتافات والأيقونات القبطية كانت تثير الغضب وتؤجج من روح الكراهية لدى الكثير من العامة والغوغاء وأصحاب الأفكار العنصرية المتشددة . لذلك فقد تعرضت المسيرة أثناء سيرها في منطقة كوبري السبتية إلى الرشق بالحجارة والزجاجات الفارغة في محاولة لتفريق التظاهرة دون أن يقع خسائر حتى استطاعت الوصول إلى مبنى الإذاعة والتلفزيون لتنضم لعدد من التحالفات القبطية والحزبية المشاركة ، وتشتعل حدة الهتاف والتنديد وتبدأ قوات الجيش المرابطة أمام مبنى الإذاعة والتلفزيون في إطلاق الأعيرة النارية في الهواء بهدف تفريقهم بعد أن تردد أنهم ينوون الاعتصام المفتوح أمام المبنى . بعدها يُسمع صوت طلقات نيران مجهولة المصدر لتحدث حالة من الفوضى العارمة ؛ خاصة بعدما أُطلقت أعيرة نارية تجاة قوات الجيش المتمركزة أمام مبنى التلفزيون ، فيرد المتظاهرون بإحراق أربع سيارات بينها سيارة للشرطة

= شنودة الثالث لحادث وقف بناء كنيسة بدون ترخيص ، وردد العديد من الكتاب أن البابا قال للكهنة والقساوسة الذين ذهبوا في المسيرة (روحوا اعملوا مسيرة وإن شاء الله ما يرجع نصفكم) ولكن البابا نفى ذلك قائلاً " لم تصدر مني تعليمات بتنظيم أي مسيرات ، ولكن الحقيقة أن بعض الكهنة ذهبوا في اليوم التالي ليروا المبنى المتهدم في سيارات وأتوبيسات فأنزلتهم الشرطة قبل المكان بمحطة أتوبيس ولهذا ظهرت شائعة المسيرة . ولو كانت الشرطة سمحت للسيارات بالوصول إلى مقر الحادث لما رآهم أحد ولما ظهرت الشائعة " .

ويخلعوا الأعمدة الحديدية على جانبي الجسر ليستخدموها كدروع في مواجهة الجيش . وأمام حالة الفوضى التي اندلعت داخل صفوف الجيش وداخل صفوف المتظاهرين اندفعت عدد من مركبات الجيش تجاه التجمع بصورة جنونية لتدهس كل ما تجده في طريقها ، وتتحول المنطقة الملاصقة لمبنى الإذاعة والتلفزيون إلى ما يشبه ساحة قتال وتتناثر الجثث على جانبي الطريق في مشهد مأساوي حجبته عدسات التلفزيون الرسمي ، الذي بعدم إدراكه لعواقب الأمور زاد من إشعال فتيل الأزمة وأذاع على قنواته الإخبارية خبر قيام الأقباط بالتعدي على قوات الجيش بالأعيرة النارية وسقوط قتلى من العسكريين مما دفع بعدد من المسلمين المتعصبين بالتوجه إلى محل الواقعة حاملين الأسلحة النارية والبيضاء والخرطوش وزجاجات المولوتوف وفي نيتهم الفتك بهؤلاء الأقباط . وفي الجانب الآخر استقدمت مجموعة من الأقباط عددًا من المسلحين بالأسلحة البيضاء والأسلحة النارية والخرطوش ليلتقي الجمعان فيما يشبه حرب العصابات ؛ كانت الغلبة فيه للمتشددين والغوغاء من المسلمين ، الذين استقوا بقوات الشرطة العسكرية والمدنية ، ليسقط العدد الأكبر من ضحايا تلك الواقعة من المسيحيين الأبرياء الذين لم يحملوا في أيديهم غير الأيقونات والصلبان .. في هذا اليوم المشؤوم من تاريخ مصر سقط نسيم مرقص وأنجيل ضمن عدد ٢٧ من شهداء التعصب والتشدد الديني وضحايا مؤامرة إسقاط المجلس العسكري ، الذي رغم فشله في إدارة المرحلة اللاحقة على إقصاء مبارك عن السلطة فقد كان الضمانة الوحيدة لدى الغالبية العظمى من المصريين حتى لا تقع الدولة تحت أنياب الفاشية المتأسلمة أو تتفتت بين مطرقة الرويبضة[1] وأصحاب المصالح الخاصة وسندان الانفلات الأمني والأخلاقي وثقافة ديمقراطية الغوغاء التي تسلطت على عقول العامة .. سقط نسيم وأنجيل تحت عجلات إحدى المدرعات الطائشة وهما متشابكي الأيدي؛ ليختلط

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :" سيأتي على الناس سنوات خدّعات ، يُصَدق فيها الكاذب ويُكذّب فيها الصادق ، ويُؤتمن فيها الخائن ويُخوَّن فيها الأمين ، وينطق فيها الرويبضة " . قيل وما الرويبضة يا رسول الله ؟ قال : " الرجل التافه يتكلم في أمر العامة " .

دماؤهما الذكية معاً ، وتصعد روحهما الطاهرة إلى خالقها وسط ذهول وتعجب وفزع مصري وياسمين وروفائيل الذين شهدوا بشاعة ما حدث من قوات الجيش ورد الفعل العنصري من بعض مجندي قوات الجيش دون أن يفطنوا أن هناك أيدي خفية كانت تتعمد إثارة تلك القوات وقامت بإطلاق نيران حية عليها وهي تعلم أن أغلب هؤلاء المجندين من الغوغاء والعامة الذين يحملون في قلبهم ضغينة تجاه الصليب والأيقونات القبطية ويروا فيها الكفر والشرك .. الفزع والهلع وحالة الاضطراب التي حدثت من مشاهد دهس المتظاهرين دفعت الكثير من شباب الأقباط الثائر إلى الانقضاض على تلك المدرعات ، وعلى القوات المتمركزة بجوارها ؛ حيث اشترك مصري وروفائيل في مطاردة بعض عناصر قوات الجيش التي شاركت في الاعتداء ، حتى ترك نفرين منهم سلاحهما الميري وفر أمام نيران غضب المتظاهرين لتقع تلك الأسلحة في حوزتهما ، ويتم بعدها القبض عليهما بتهمة سرقة سلاح ميري والتعدي على قوات الجيش وإحراق مركبات مملوكة له ويُرحلا إلى السجن الحربي بالهايكستب ضمن بضعة عشرات تم اعتقالهم في هذا اليوم ووجهت لهم النيابة العسكرية تهم ما بين التحريض والاشتراك في التعدي على أفراد القوات المسلحة وإتلاف معدات تخص الجيش والتظاهر والتجمهر وتكدير الأمن والسلم العام .. خبر استشهاد أنجيل ونسيم واعتقال مصري وحبسه على ذمة قضية جنايات عسكرية وقع على أمل وسعيدة كالصاعقة لتصاب أمل بجانب حزنها الشديد على فراق نسيم وأنجيل، اللذين كانا يشملاها بعطفهما وحنانهما منذ الطفولة ، بحالة من اليأس والإحباط من التغيير الذي نزل من أجله ملايين المصريين في ٢٥ يناير ، ويدمع قلبها من جديد على فراق توأم روحها وشريك أحلامها الذي فقد حريته مرة أخرى دفاعاً عن حقوق المصريين وسط غابة من وحوش المصالح الخاصة وآكلي المصالح الوطنية أصحاب الأجندات الخاصة والإيدلوجيات العنصرية التي تتلون بألوان الطيف حتى تنقض على مقاليد الأمور لتحقق مصالحها الخاصة التي ستلتهم تلك الحقوق بصورة أشد فتكًا وضراوة من العهود السابقة .

وفي اليوم التالي كانت أمل وسعيدة وبهية وصافي قد توجهن منذ الصباح إلى الكاتدرائية المرقصية بالعباسية لحضور جنازة تشييع جثامين نسيم وأنجيل و ١٥ شهيدًا آخر ، وقلوبهم مفطورة على فراق جارتهم التي عاشرتهم بالمودة والخير والحب وكانت خير جارة لهم على مدار سنوات طويلة .. الجنازة التي ضمت ما يقرب من مائة ألف مشيع ، وكانت تدمي القلوب وتلهب المشاعر ، وشارك بها البعض من رموز التيارات السياسية وعدد كبير من المصريين المسلمين الذين جاءوا متضامنين مع أبناء وطنهم في المصيبة التي ألمت بالوطن نابذين التعصب والتطرف بكل صوره وأشكاله ، انضم إليها عدد من الأقباط الغاضبين أصحاب الأفكار الانتقامية الذين أرادوا الاحتكاك بالمسلمين وطردهم ومنعهم من المشاركة في الجنازة . وتعرضت كل من أمل وسعيدة وصافي وبهية والنساء اللاتي كنّ يرتدين الحجاب لمضايقات كادت تصل إلى حد الاعتداء بالضرب لولا تدخل جموع المشيعين الذي رأوا في هذا الفعل نموذج يتعارض مع قيم المحبة والتسامح ويؤجج من روح الشر ويزيد من اشتعال نار الفتنة .. الوضع على المستوى السياسي كان ينذر بحدوث كارثة ؛ فمثيري الفتن والقلاقل الذين اعتاد المصريون على تواجدهم بصورة خفية وبصفة مستمرة في جميع الأحداث الدموية والإرهابية منذ يوم ٢٨ يناير استطاعوا استخدام العقول المظلمة لرفع شعلة هدم الدولة وتحطيم مؤسساتها القومية وهم يرددون شعارات الحرية ، كما استطاعوا استخدام النفوس الخبيثة التي لا تعرف سوى القيم المادية النفعية ولا تعتقد سوى بمصالحها الشخصية من أجل خداع أصحاب العقول المظلمة . لقد تم استخدام هذه النفوس الخبيثة التي تمتلك مواهب وقدرات خاصة ولديها كاريزما التأثير على الآخرين بصورة احترافية ممنهجة مدعومة من الإعلام المقروء والمرئي والمسموع لنشر فيروس التمرد تجاه مؤسسات الدولة وخاصة وزارات (الداخلية – القضاء – الدفاع) حتى يصعب استقرار الأوضاع الأمنية والسياسية وتظل البلاد تسير في فلك الفوضى الاجتماعية والتناحر السياسي الغوغائي بين أطياف وأحزاب أغلبها وضعت مصلحتها الشخصية فوق أي اعتبار لتسود الفوضى على المستوى

الأخلاقي والاقصادي والأمني وتسير البلاد في نفق مظلم ينذر بكارثة قومية سيجني بلاءها المصريون لعدة عقود .. أمل مثل الكثير من أبناء جيلها ، وغيرها من المصريين الشرفاء الذين أرادوا التغيير إلى حياة أفضل ، غرتها خدعة الديمقراطية التي رفعها المغرضون فوق عصا إثارة الفوضى وتقليب روح التمرد والعصيان ؛ فبعد تسعة أشهر من إقصاء المجلس العسكري لمبارك وحبس عدد من مماليك نظامه الذين ساهموا بصورة مباشرة في إفساد الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وبعد مساندة القوى الثورية بمختلف أطيافها وتوجهاتها السياسية لقيادة العسكر للمرحلة الانتقالية تتوالى الأحداث المفتعلة التي تم استغلالها للتشكيك في نوايا أعضاء المجلس العسكري وقدرتهم على إدارة تلك المرحلة الحاسمة من تاريخ مصر ، ويؤخذ العاطل في الباطل ويصبح العسكر – مصطلح أطلقه البعض كنوع من الرفض والاستنكار على تولي الجيش زمام الأمور – الذين فضلوا الوقوف في صف الحركات الثورية المطالبة بالتغيير ، منذ سقوط الشرطة وتولي الجيش مهام حفظ الأمن مساء يوم جمعة الغضب «٢٨ يناير ٢٠١١م» ، هم امتداد للنظام البائد وفلوله الذين يريدوا إعادة إنتاج النظام القديم .. الأخطاء الإدارية والسياسية الفادحة التي ارتكبها المجلس العسكري خلال تلك الفترة ساهم بصورة كبيرة في تحريك مشاعر الغضب والحنقة لدى الكثير من المصريين ودفعهم إلى التظاهر والمناداة بسقوط قيادة الجيش للمرحلة الانتقالية .. مشاعر الغضب التي خلفها استشهاد أنجيل ونسيم في أحداث ماسبيرو والقبض على مصري دفعت أمل إلى تزعم حركة إقصاء العسكر عن الحكم ، والمناداة بمحاكمة أعضاء المجلس العسكري بتهمة قتل المتظاهرين السلميين في أحداث ماسبيرو . لذلك ؛ فعقب الجنازة توجهت مع عدد من الشباب الثائر إلى ميدان التحرير لتنضم إلى بضعة آلاف من الثائرين على حكم الجيش ينادون بسقوط المشير وسقوط المجلس العسكري .. وفي خضم التنديد بالعسكر حضر إلى الميدان الشيخ شوكت نيازي والدكتور محمد المرتجي ، ومعهم عدد من أتباعهم من تيار الإسلام السياسي الذي تسيد أنصاره المشهد السياسي على مدار التسعة أشهر السابقة

للمشاركة في التظاهر وفرضوا سيطرتهم وهم رافعين لافتات كبيرة مكتوب عليها عبارات تطالب القصاص ومحاكمة قتلة الثوار ، وتطالب المجلس العسكري بالعدالة الناجزة وعدم التهاون مع المفسدين من الفلول الذين – من وجهة نظر التيار الإسلام السياسي – يخططون للثورة المضادة حتى تفشل الثورة ويعود النظام السابق من جديد وتعود لهم سطوتهم وسلطاتهم التي فُقدت .. بعد ترتيب وتنظيم الميدان توجه الشيخ شوكت تجاه أمل وهو ينظرها بملامح استكشافية وعيون فاحصة حتى أن التقى بها قال بصوت اصطنع الترحيب والمودة : أهلا بالدكتورة الجليلة . تشرفت وسعدت بلقائك . هل جئتي مع النصارى ؟ .. فتقابله أمل بنظرة مندهشة وتقول بصوت غاضب: أهلاً بك يا فضيلة الشيخ. ماذا تقصد بالنصارى؟ .. فيقول الشيخ شوكت: المسيحيون الذين بادروا بالاعتداء على المجلس العسكري بالأمس ، وأرادوا إحداث الفتنة الطائفية ويهددون باللجوء إلى المحافل الدولية ويستقوا بالولايات المتحدة والغرب المسيحي .. فتقول أمل بصوت استنكار : يا فضيلة الشيخ هذا الكلام غير صحيح ويشعل الفتنة . كلنا مصريون والنصارى الذي تتحدث عنهم مثل المسلمين فيهم الصالح والطالح ، فيهم الانتهازي الذي يستغل الدين لتحقيق مآرب خاصة ، وأغلبهم مصريون وطنيون يحبون الخير لبلادهم .. فيقول الشيخ شوكت بصوت حدة وملامح غاضبة : يا دكتورة نحن لن نسمح هنا بترديد الشعارات التي كان يرددها الأقباط عند ماسبيرو .. فتقول أمل بصوت استفهام وهي تنظر إليه نظرة تأملية حادة : وما هي هذه العبارات التي تريد منعها هنا يا فضيلة الشيخ ؟ .. فيقول الشيخ شوكت بصوت غلفه الوعيد وقد ذهبت البسمة المصطنعة عن وجهه : التحدث باسم الصليب أو رفع أيقونات الثالوث .. فتقول أمل بصوت تعجب وهي تنظر إليه نظرة استنكار : يا فضيلة الشيخ لقد جئنا هنا كمصريين مسلمون ومسيحيون نطالب بالقصاص من قتلة الشهداء الذين سقطوا بالأمس . لماذا تحاول حصر المسألة في هذا الشكل .. فيقول الشيخ شوكت : يا دكتورة نحن نحترمك ونقدر كل ما فعلته خلال ثورة ٢٥ يناير، وأرجو أن تتجنبي الدخول في كنف

المغرضين من التيارات الليبرالية واليسارية التي تريد افتراس الثورة واغتيال حلم إقامة الدولة الإسلامية .. فتنظر إليه أمل نظرة تأملية فاحصة لعدة ثوان وهي تتذكر ما حدث يوم المنصة مع الانبا ميخائيل والدكتور روفائيل لتقول بعدها بصوت حسرة : يا فضيلة الشيخ لا تخشى من رفع الصلبان أو الأيقونات ؛ فقد جئنا إلى هنا مصريين نرفض الظلم ، ونطالب بالقصاص لشهدائنا بغض النظر عن دينهم أو انتمائتهم الدينية .. وتنصرف أمل دون أن تلتفت إلى ما قاله الشيخ شوكت ، وتنضم إلى باقي رفقائها من الشباب وهي تردد بكل حماس تعبيرات سقوط المجلس العسكري وسقوط المشير طنطاوي وتتحسر على موقف الشيخ شوكت واتباعه من المنتمين إلى تيار الإسلام السياسي ، الذين أفصحوا عن براجماتية نفعية ذو طابع فاشي لم يفطن لها الكثيرون حين تجمعوا على هدف واحد يوم ٢٨ يناير .. وبعد يوم طويل مليء بالهموم والأحزان وخيبة الأمل تعود أمل إلى منزل أمها في جاردن سيتي ، وهي تحمل بداخلها يأس وخوف من الغد في ظل رؤية مستقبلية ضبابية حجبت ألوان التفاؤل وغممت الأماني والأحلام ؛ لتظل طوال الليل حتى غلب عليها النوم تحتضن ابنتها حياة وتنظرها نظرة حزينة تعيسة بائسة وهي تشفق عليها من هذا المستقبل الضبابي المجهول الذي ينتظر الأجيال المقبلة من المصريين .

وتمر أيام بعد أحداث ماسبيرو واعتقال مصري تجري خلالها أمل حملة نشطة ضد المجلس العسكري من خلال عدد من اللقاءات مع عدة قنوات فضائية تبنت عرض قضية مصري وروفائيل وغيرهم من المدنيين الذين تم تقديمهم للمحاكمة أمام القضاء العسكري بتهمة ارتكاب جرائم تخضع لولاية القضاء العسكري . وقد ساهم العديد من النشطاء الحقوقيين وعدد من الشخصيات العامة في التشكيك في صحة إحالة هؤلاء المدنيين إلى المحاكم العسكرية سواء فيما تعلق بالاختصاص أو فيما تعلق بإجراءات الضبط والإحالة . هذا الجدل الفقهي القانوني الذي تداولته القنوات الفضائية ، وجعلت منه مادة إعلامية جذبت ملايين المشاهدين رغم أنه من الناحية القانونية الواقعية لم يجانبه الصواب ، كان له تأثير إيجابي على الرأي العام الذي جعل

من مصري وروفائيل نموذج للقهر وانتهاك الحقوق من قبل قوات الجيش التي أُوكلت إليها مهام حفظ واستتباب الأمن والنظام في الشارع المصري منذ مساء يوم الجمعة ٢٨ يناير ٢٠١١م .. شخصية أمل ازدادت شهرة فأصبحت بفضل حملاتها في الدفاع عن زوجها نموذج للسيدة المصرية الثائرة التي ترفض استنساخ المجلس العسكري لنظام البطش والقهر وانتهاك الحقوق والحريات العامة والشخصية تحت مظلة حالة الطوارئ التي أصبحت – من وجهة النظر هذه – سيف يسلط على الثوار حتى يرضخوا لسياسة الأمر الواقع ويتولى المجلس العسكري بقيادة المشير حسين طنطاوي مقاليد الحكم ، أو يجعل من المجلس العسكري سلطة سيادية لها اليد العليا في تسير نظام الحكم .. ومن منطلق نفس الرؤى دعى بعض النشطاء السياسيين والحركات الثورية إلى جمعة المطلب الواحد في ميدان التحرير وغيره من الميادين في يوم ١٨ نوفمبر ٢٠١١م مطالبين بسرعة نقل السلطة من المجلس الأعلى للقوات المسلحة إلي رئيس وحكومة مدنية منتخبة[1] .. الهدف المشترك نحو إزاحة المجلس العسكري

---

(١) ساعد على تأجيج مشاعر الغضب تجاه المجلس العسكري تلك الوثيقة التي أُطلق عليها وثيقة «الدكتور علي السلمي» التي تضمنت المبادئ الأساسية للدستور-أو كما أطلق عليها البعض مبادئ فوق دستورية- المذمع إنشائه حيث أثارت تلك الوثيقة (في المادة التاسعة و العاشرة من مشروع هذه الوثيقة) غضباً عارماً لاحتوائها على بنود تعطي القوات المسلحة وضعاً مميزاً بالإضافة لاحتوائها علي مواصفات لاختيار الجمعية التأسيسية التي من المفترض أن يختارها أعضاء مجلس الشعب الذي سيتم انتخابه بدايةً من ٢٨ نوفمبر ٢٠١١م . وقد كان البيان الذي صدر عن جماعة الإخوان المسلمين هو المحرك الرئيسي والداعم الأساسي لهذه التظاهرات التي أُطلق عليها جمعة حماية الديمقراطية حيث تضمن الآتي : [... أثارت وثيقة الدكتور السلمي أزمة خطيرة في المجتمع السياسي المصري باحتوائها على مواد تسلب السيادة من الشعب وتكرس الديكتاتورية وتمثل انقلاباً على مبادئ وأهداف ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م ، الأمر الذي دفع معظم القوى الوطنية إلى رفض هذه المواد الجائرة ، ورفض اعتبارها وثيقة ملزمة للشعب ونواب الشعب واللجنة التأسيسية المنوط بها صياغة مشروع الدستور القادم ، والاتفاق على النزول للميادين في تظاهرات مليونية يوم الجمعة ١٨/ ١١/ ٢٠١١م للتعبير عن هذا الرفض . وكان كل أملنا أن ينصاع الدكتور السلمي للإرادة الشعبية المتمثلة في الإعلان الدستوري الناتج عن استفتاء مارس ٢٠١١م ، وأن يستجيب لمطالب معظم القوى الوطنية ويسحب وثيقته ويحمي البلاد من فتنة هي في غنى عنها ، وبهيئ الظروف لانتخابات حرة شفافة كخطوة أولى على طريق الديمقراطية ، ومن ثم مددنا حبال الصبر، ودخلنا في مفاوضات معه ، إلا أنه ومجلس الوزراء أصروا على التشبث بالمواد غير الديمقراطية ولذلك لم نجد مناصاً من النزول في مليونية (حماية الديمقراطية) يوم الجمعة القادم ١٨ / ١١/ ٢٠١٢م ، وسوف تكون =

عن الأمور السياسية وإدارة شئون البلاد دفعت معظم القوى والأحزاب السياسية للمشاركة في هذه التظاهرة التي كان رفض المشاركون بها أي دعوة إلى الاعتصام هناك تحسباً لوقوع أية أحداث شغب يتم استغلالها في تعطيل انتخابات مجلس الشعب في الأسبوع التالي .. وفي صباح هذا اليوم توجهت أمل إلى ميدان التحرير ومعها حياة وسعيدة . الثلاثة يرتدين لباس مكتوب عليه بالخط الأسود المظلل باللون الأحمر «الحرية إلى مصري. لا إلى بطش المجلس العسكري. يسقط يسقط حكم العسكر».. ومع وصولهم إلى ميدان التحرير استقبلهم رموز القوى السياسية بترحاب شديد وتتبعتها كالعادة كاميرات القنوات الفضائية لتجري معها الأحاديث .. وبينما كانت أمل تحمل حياة على كتفيها وتتحدث مع مراسل قناة الجزيرة بصوت ثائر وملامح استنكار عن مساوئ حكم المجلس العسكري ، والتشكيك في مصدقيته نحو تسليم السلطة إلى المدنيين ، حضر اللقاء الدكتور محمد المرتجي الذي جاء بدعوة مسبقة من القناة . وبعد وصوله وتقديم المراسل له رحب بأمل بوجه بشوش وملامح ودودة ، وهو يقول موجهاً كلامه إلى المشاهدين بصوت حماسي ملتهب : أحب ان أتوجه بالتحية والشكر إلى الأخت المناضلة الزميلة أمل صابر زوجة البطل المناضل مصري المنشاوي . تلك السيدة الفاضلة التي تمثل النموذج المشرف للمرأة المصرية الأصيلة التي نزلت إلى الميدان ثائرة ولم يرهبها بطش النظام لتشعل الشرارة الأولى لثورتنا المجيدة ، وهي اليوم لم يرهبها بطش العسكر الذين اعتقلوا زوجها المناضل واغتصبوا حريته عقاباً له على كشف نواياهم نحو إعادة النظام القديم والمماطلة في محاكمة الرئيس المخلوع واتباعه الذين نهبوا البلاد واغتصبوا مقدراتها وقتلوا الثوار المسالمين.. فتقول أمل بصوت ثائر متحفظ : أشكر الدكتور محمد المرتجي على كلمات الثناء . وأحب أن أوضح أننا لم نأت هنا من أجل ترديد بيان الأخوان المسلمين حول جمعة حماية الثورة . ولكننا ، نحن ائتلاف شباب الثورة ، جئنا لنعبر عن أنفسنا ونقول إلى

= هذه الفعالية بداية لسلسلة فعاليات متصاعدة إذا لم يتم سحب هذه الوثيقة ، حفظ الله مصر ووقاها من تصرفات بعض أبنائها . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ .الإخوان المسلمون].

المجلس العسكري بكل صراحة ووضح أنه يضع نفسه موضع الشبهات ويجعلنا نوجه له أصابع الاتهام عن نيته في تسليم السلطة وعن قرارته السياسية المتخبطة التي تثير الجدل والشك حول تحقيق أهداف ثورتنا .. فيقاطعها المراسل وهو يقول : وما هي هذه القرارات السياسية المتخبطة من وجهة نظر ائتلاف شباب الثورة ؟ .. فتقول أمل : القرارات كثيرة ؛ فمنذ الاستفتاء على التعديلات الدستورية، وكيف وصل بنا الحال نحو انتخاب السلطة التشريعية ورئيس الجمهورية قبل وضع الدستور ، والمجلس العسكري يصدر قرارات تجعلنا في حيرة من أغرضها ونتائجها .. فيقاطعها الدكتور المرتجي قائلاً بصوت تحفز : اعتقد أن أهم مطالب ائتلاف شباب الثورة ونحن معهم في هذه المطالب هو الإفراج عن المعتقلين الذين تم اعتقالهم بسبب أرائهم السياسية ، وإلغاء المحاكمات العسكرية للمدنيين . فالدكتور مصري الذي تم اعتقاله في أحداث ماسبيرو وُجهت إليه الاتهامات بالباطل وهو يحاكم الآن أمام القضاء العسكري .. فتقاطعه أمل قائلة: يا دكتور نحن لم نأت لنعرض مطالب شخصية جئنا اليوم نحن الشباب أصحاب الشرارة الأولى للثورة لننبه المجلس العسكري ، ومن يداهنوه ويتحالفون معه في الخفاء ، أن ثورتنا مستمرة حتى تحقق أهدافها التي ضحينا من أجلها (عيش – حرية – عدالة اجتماعية – كرامة إنسانية) .. فيبتسم الدكتور المرتجي ابتسامة متلونة بألوان الطيف وهو يتظاهر بالهدوء ويداعب حياة ويلاطفها قائلاً : نحن مع مطالب شباب الثورة ولن نتنازل عن تحقيق أهداف ثورة ٢٥ يناير . وأنا من هنا أدعو كل المصريين أن ينزلوا إلى الشوارع والميادين للتعبير عن رفضهم لوصاية المجلس العسكري على البرلمان ، وعلى الجمعية التأسيسية وعلى الوضع الغير شرعي للعسكر من خلال وثيقة المبادئ الدستورية التي أعدها الدكتور علي السلمي . تلك الوثيقة التي ستعيد استنساخ دولة الظلم من جديد .. ثم ينظر في ساعة يده ويقول مبتسماً ابتسامته المتلونة المعهودة وهو يستعد للانصراف : كنت أتمنى أن أكمل حديثي معكم في ضيافة الدكتورة أمل . لكني أرتب المنصة وأجهز لصلاة الجمعة . تشرفت بلقائك يا دكتورة وربنا يوفق بلادنا إلى الخير .. فيلقي عليه المراسل السلام ويوجه كلامه إلى أمل قائلاً : يتردد أن أنصار الشيخ حاتم أبو تميم لن يتركوا

الميدان وسيعتصموا حتى يتم الاستجابة لمطالب الثوار بسحب وثيقة الدكتور علي السلمي. هل هناك أية نية من ائتلاف شباب الثورة للاعتصام ؟ .. فتقول أمل : لا توجد أي نية للاعتصام من شباب الثورة وقد جئنا اليوم لننتدد بالمحاكمات العسكرية للمدنيين وباستمرار حالة الطوارئ ، وتباطؤ المجلس العسكري في تحقيق العدالة الناجزة من قتلة الثوار . جئنا نطالب المجلس العسكري أن يكون واضحاً في قراراته ، ويبتعد عن سياسة اليد المرتعشة في مواجهة الثورة المضادة التي يخطط لها الطرف الثالث الذي طالما سمعنا عنه .. فيقول المراسل وهو ينظر إلى الكلمات المكتوبة على ملابس سعيدة وحياة : هل يمكن أن تقدمي السيدة الكريمة التي تحمل على ملابسها نفس الشعارات التي تحملها ملابسك أنتِ وابنتك ؟ .. فتقول أمل بصوت فخر وملامح اعتزاز : سعيدة أبو عساكر . هذه السيدة المصرية الأصيلة هي أمي التي فقدت زوجها الأول «أبي » ، ثم فقدت زوجها الثاني من جراء بطش وظلم النظام السابق ؛ فقد مات أبي في المعتقل في عام ١٩٩٧م ، ومات زوج أمي برصاص العادلي يوم جمعة الغضب. جاءت اليوم لتحلم مع كل المصريين بحلم الحرية والكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية .. فيوجه المراسل سؤاله إلى سعيدة قائلاً : السيدة سعيدة . ماذا تحبي أن تقولي للشعب المصري في هذا اليوم .. فتقول سعيدة بصوت حزين وهي تنظر إلى الكاميرا نظرة شاردة : أقول إن شاء الله سينصرنا ، وسيتحقق الحلم الذي مات من أجله صابر وطارق وكل الشهداء ، وسيتم إطلاق سراح مصري زوج ابنتي واخته ياسمين والكثير من زملائهم الذين اعتقلتهم السلطة ظلماً وطغياناً.. فيلاحقها المراسل قائلاً : ماذا تحبي أن تقولي للمجلس العسكري في هذا اليوم.. فتقول سعيدة بصوت إنفعالي : اقول «أطلقوا صراح الشباب الذين اعتقلتموهم وتذكروا قدرة الله على الظالمين . ألا تعتبرون مما حدث إلى مبارك » . وأقول إلى الأمهات اللاتي فقدن أولادهن والزوجات اللاتي فقدن أزواجهن أن الله قد اختارهم شهداء في الجنة .. وهنا يُؤذن لصلاة الظهر في الميدان فينهي المراسل حديثه مع أمل وسعيدة ليتوجها بعدها الاثنين ومعهما حياة إلى المكان المخصص لصلاة النساء ، ويستمعن إلى خطبة الجمعة التي ألقاها الشيخ مدكور فاطين خطيب مسجد عامر

أبو المكارم الذي ردد في تلك الخطبة ما كان يردده جماعة الأخوان المسلمين ، وتيار الإسلام السياسي عن دماء الشهداء والقصاص من القتلة ورفض وصاية المجلس العسكري من خلال رفض وثيقة الدكتور علي السلمي .

وبعد صلاة الجمعة تقود أمل، ومعها سعيدة وهي تحمل حياة، المسيرة النسائية التي جابت ميدان التحرير وهن رافعات شعارات «لا للمحاكمات العسكرية للمدنيين » و « الثورة مستمرة حتى تتحقق أهدافها » وضمت العديد من السيدات والفتيات غير المحجبات واللاتي ينتمي الكثير منهن إلى التيارات الليبرالية واليسارية وحركة كفاية و٦ إبريل وغيرها من الحركات الثورية المدنية .. وفي ذروة اشتعال الهتافات المناهضة إلى سياسات المجلس العسكري التي كان تطلقها المسيرة حضر الشيخ شوكت نيازي قاصداً التقابل مع أمل ، وعلى وجهه ابتسامته الصماء المعهودة ، حتى أن تقابل معها قال بصوته الناعم بنرة عالية حادة : السلام عليكم يا خيرة نساء مصر .. فيتوقف البعض عن الهتاف ويرد عليه . بعدها يتابع الشيخ شوكت كلامه قائلاً بأسلوب تمني : لو تسمحي يا دكتورة تأتي معي لبضع دقائق فنحن نريد التشاور بشأن توحيد الجهود والغاية في جمعة المطلب الواحد .. فتقول أمل بصوت تساؤل وملامحها ما زالت ثائرة من الهتاف : يا فضيلة الشيخ نحن بالفعل متوحدين في مطالبنا ألا وهي تحقيق أهداف ثورتنا التي بدأناها في ٢٥ يناير الماضي . مع من تريدنا أن نتشاور ؟ وعن أي شيء نتشاور ؟ .. فيقول الشيخ صفوت وهو يحتفظ بابتسامته التي اعتاد عليها : لقد اتفقت مع كل الاتجاهات والأطياف السياسية والثورية المتواجدة في التحرير على عقد اجتماع سنخلص منه بتوصيات سنعلنها في مؤتمر صحفي .. فتقول أمل بنبرة تساؤل وعلى وجهها علامات تعجب : ولماذا اخترتموني لهذا اللقاء وهناك العديد من نشطاء شباب الثورة أقدر مني على ذلك .. فيقول الشيخ شوكت : يا دكتورة أنتِ من السيدات اللاتي أصبحن من زعماء الحركة الثورية في مصر ، واختيارنا لكِ شرف لنا . الاجتماع سيبدأ بعد نصف ساعة في قاعة احتفالات جامع عامر أبو المكارم ،

وسيضم كل الأطياف . نتمنى حضورك يا دكتورة .. فتقول أمل بصوت هدأت نبرته وهي تنظر إليه نظرة رضاء : سأكون هناك قبل الموعد يا فضيلة الشيخ .. فيبتسم الشيخ شوكت ابتسامته المعهودة وهو يهم بالانصراف قائلاً : نلتقي على خير بإذن الله هناك . السلام عليكم جميعاً .. وبعد انصراف شوكت نيازي تتجمع عدد من الفتيات والسيدات المنظمة للمسيرة النسائية ليدور نقاش بينهم وبين أمل عن ما سيتم عرضه في الاجتماع ، ويتفقوا جميعاً على مطالب واحدة تمثلت في الآتي «رحيل المجلس العسكري عن سدة الحكم في أسرع وقت ممكن - إنشاء مجلس استشاري يضم شخصيات مشهود لها بالوطنية والكفاءة في أمور الحكم للمشاركة في إدارة شئون البلاد خلال المرحلة القادمة - إلغاء المحاكمات العسكرية للمدنيين والإفراج عن المعتقلين الذين تم اعتقالهم بسبب آرائهم السياسية » .. وفي الموعد المحدد كانت أمل قد وصلت إلى قاعة مناسبات جامع عامر أبو المكارم بعدما اصطحبت سعيدة وحياة إلى المنزل لتتقابل مع الشيخ شوكت نيازي والدكتور المرتجي وعدد من رموز تيار الإسلام السياسي ، وبعض الشخصيات العامة من التيار المدني بمختلف توجهاته الفكرية والإيدلوجية .. رفض وثيقة المبادئ الأساسية للدستور كانت النقطة الأساسية التي استطاع تيار الإسلام السياسي أن يضعها في مقدمة التوصيات التي اتفق عليها الحضور ليخرج الدكتور المرتجي بعدها ليعلن تلك التوصيات في مؤتمر صحفي إذاعته وتناقلته وسائل الإعلام على الهواء مباشرة بلهجة تهديدية صريحة موجهة إلى المجلس العسكري وتحمل في طياتها مضمون «التراجع عن تلك الوثيقة أو مواجهة التيارات التي ترفع شعار الديمقراطية على أسنة رايات الفوضى والتخريب» .. وعقب انتهاء المؤتمر الصحفي الذي حضره عدد من المشاركين في الاجتماع توجهت أمل نحو الدكتور المرتجي ، وعلى ملامحها علامات غضب واستنكار لتجاهل الكثير من التوصيات التي تم الاتفاق عليها وجعل إسقاط الوثيقة الدستورية هي المطلب الأساسي . وبصوت به حدة قالت : يا دكتور لقد اتفاقنا على مطالبة المجلس العسكري بإنشاء مجلس استشاري يشاركه في إدارة

المرحلة الانتقالية كما اتفاقنا على مطالب .. فيقاطعها الدكتور المرتجي وهو يقول بصوت لامبالاة وملامح صماء : يا دكتورة هذه المطالب يمكن تداركها لاحقاً. أما الوثيقة التي ستقيد الجمعية التأسيسية والبرلمان وستعطي القوات المسلحة وضعية خاصة فوق المؤسسات الدستورية هي الأولى بعرضها وتكثيف الجهود لوأدها قبل أن توقف مسيرة ثورتنا .. فتزداد تعبيرات أمل غضب وتقول بصوت استياء : هل جئتم بنا هنا حتى نكون ديكور لهذا المؤتمر وتعرضون ما تريدونه .. فيبتسم الدكتور المرتجي ابتسامة لامبالاة وهو يقول بصوت اصطنعت نبرته عدم الاكتراث بهذا الاتهام : يا دكتورة نحن نتفق معكم في هذه المطالب لكننا رأينا أن نؤجل هذا المطلب في الوقت الراهن . وأنا أعدك بعرض هذه المطالب في أقرب وقت .. فتهز أمل رأسها وهي تقول : حتى لو كان هذا مقصدكم . كان ينبغي أن تعرض علينا ما سوف تتلوه من توصيات حتى لا نفاجئ بهذا التجاهل . على كل حال نحن سنعرض مطالبنا بأنفسنا .. فيقول الدكتور المرتجي : أكرر اعتذاري على الخطأ غير المقصود .. فتقول أمل وهي تهم بالرحيل : سيفعل الله ما فيه الخير بإذن الله . السلام عليكم .. فيرد عليهم الدكتور المرتجي السلام لتنصرف بعدها أمل لتعود إلى منزل والدتها بجاردن سيتي ، وقد أصابها هذا الموقف بخيبة الأمل والشك من تصرفات جماعة الأخوان المسلمين وطوائف تيار الإسلام السياسي لتظل طوال تلك الليلة تفكر في مغزى تركيز تلك الجماعات على إسقاط وثيقة المبادئ الدستورية[1] التي لم

---

(١) وثيقة المبادئ الأساسية للدستور التي طرحها الدكتور علي السلمي «نائب رئيس الوزراء للشئون السياسية والتحول الديمقراطي في وزارة الدكتور عصام شرف التي تشكلت عقب إقصاء وزارة الدكتور أحمد شفيق في ٩ مارس ٢٠١١م » جاءت بعد مناقشات عديدة مع القوى والأحزاب السياسية ، و تم تعديل عدد من المواد التي كانت مقترحة ؛ فقد تم تعديل المادة الأولى من الوثيقة الدستورية تماما ، بعد أن اعترض عليها عدد من القوى السياسية فى اللقاءات التى عقدها الدكتور على السلمى بالأحزاب السياسية ، لتصبح « جمهورية مصر العربية دولة موحدة وطنية ، نظامها ديمقراطيا مدنيا يقوم على المواطنة وحكم القانون وتكفل الحرية والعدل والمساواة وتكافؤ الفرص لجميع المواطنين دون أى تمييز أو تفرقة ، والشعب المصرى جزء من الأمة العربية ، يعمل على تحقيق وحدتها الشاملة » . كما أجرى السلمى تعديلات على المادة ٤ من وثيقة المبادئ الدستورية، والخاصة بالنظام =

= السياسى للدولة ليصبح « النظام السياسى للدولة جمهوريا ديمقراطيا ، يقوم على التوازن بين السلطات ، والتداول السلمى للسلطة ، ونظام تعدد الأحزاب ، شريطة ألا تكون على أساس دينى أو جغرافى أو عرقى أو طائفى أو فئوى أو أى مرجعية تتعارض مع الحقوق والحريات الأساسية الواردة فى هذا الإعلان . فيما تم إجراء تعديل على المادتين « ٩ و١٠ » التي شهدت اعتراضات كبيرة من القوى السياسية حيث جاءت المادة ٩ بعد التعديلات كالآتي : « الدولة وحدها هى التى تنشئ القوات المسلحة ، وهى ملك للشعب ، مهمتها حماية البلاد وسلامة أراضيها وأمنها والحفاظ على وحدتها ، ولا يجوز لأى هيئة أو جماعة أو حزب إنشاء تشكيلات عسكرية أو شبه عسكرية ، والدفاع عن الوطن وأراضيه واجب مقدس والتجنيد إجبارى وينظم القانون التعبئة العامة ، كما ينظم القانون العسكرى ويحدد اختصاصاته ، ويكون للقوات المسلحة مجلس أعلى يختص بالنظر فى كل ما يتعلق بالشؤون الخاصة بها والميزانية المتعلقة بشؤون التسليح ، ويؤخذ رأيه فى التشريعات الخاصة بالقوات المسلحة قبل إصداره ، ورئيس الجمهورية هو الرئيس الأعلى للقوات المسلحة ووزير الدفاع هو القائد العام لها . أما المادة ١٠ فنصت على : « أن ينشأ مجلس يسمى ، مجلس الدفاع والأمن القومى الوطنى ، ويتولى رئيس الجمهورية رئاسته ، ويختص بالنظر فى الشؤون الخاصة بوسائل تأمين البلاد وسلامتها ، كما يختص بنظر ميزانية القوات المسلحة ، على أن يتم إدراجها رقماً واحداً فى موازنة الدولة ، ويحدد القانون تشكيل مجلس الدفاع والأمن القومى واختصاصاته الأخرى ، ويعلن رئيس الجمهورية الحرب بعد أخذ رأى مجلس الدفاع والأمن القومى وموافقة مجلس الشعب » . وشهد الباب الثانى من الوثيقة إضافة مادة إلى موادها الـ١٢ ، تعديلات وهو الباب الخاص بـ « الحقوق والحريات العامة» ، حيث تمت إضافة البند ١٣ وهو البند الذى يكشف عن وثيقة تحمل فى طياتها صفة الإلزامية التى تنص على : أولاً- « المبادئ الأساسية والحقوق والحريات العامة الواردة فى هذا الإعلان لصيقة بالمواطن ولا تقبل وقفا أو تعطيلا أو انتقاصا ، ولا يجوز لأى من سلطات أو مؤسسات أو لأى جماعات أو أفراد الإتيان بأى عمل يهدف أو يؤدى إلى إهدارها أو الانتقاص منها أو الإخلال بها » . وفيما يتعلق بمعايير تشكيل الهيئة التأسيسية فقد تغيرت تماما ؛ حيث أصبح تشكيل الجمعية التأسيسية المنوط بها وضع مشروع الدستور المصرى على النحو التالى : ٨٠ عضوا من غير أعضاء مجلسى الشعب والشورى يمثلون كل أطياف المجتمع المصرى من قوى سياسية وحزبية ونقابية ومهنية ودينية على النحو الآتى : (١٢ عضوا من الهيئات القضائية « ٣ المحكمة الدستورية العليا ، ٣ محكمة النقض ، ٢ مجلس الدولة ، ٢ هيئة قضايا الدولة ، ٢ النيابة الإدارية . ترشحهم جمعياتهم العمومية » - ١٢ عضواً من أساتذة الجامعات على أن يكون من بينهم ٥ على الأقل من أساتذة القانون الدستورى يرشحهم جميعاً المجلس الأعلى للجامعات - ١٥ من النقابات المهنية يختارون فى اجتماع مشترك لمجالس هذه النقابات - ٥ عن النقابات العمالية ترشحهم الاتحادات العمالية - ٥ من الفلاحين ترشحهم اتحاداتهم - ٥ من اتحاد الجمعيات الأهلية على أن يكون من بينهم ممثل لذوى الاحتياجات الخاصة - ٥ من عضوات اتحاد الجمعيات النسائية يرشحهن مجلس إدارة الاتحاد - ٥ من جمعيات حقوق الإنسان يرشحهم المجلس القومى لحقوق الإنسان - ١ من اتحاد الكتاب - ١ من اتحاد الغرف التجارية - ١ من اتحاد الصناعات - ١ من جمعيات رجال الأعمال - ١ من المجلس القومى لحقوق الإنسان - ١ من القوات المسلحة - ١ من الشرطة - ١ من الاتحادات الرياضية - ١ من اتحادات طلاب الجامعات - ٣ من الأزهر - ٣ من =

تكن تحتوي على بنود أو مواد تنتهك الحقوق أو الحريات أو تنتقص من حقوق

= الكنائس المصرية – ١٠ شخصيات عامة يرشحهم مجلس الوزراء) . وعلى الجهات المشار إليها ترشيح ضعف العدد للاختيار من بينهم . ويختار الأعضاء الباقون من بين ممثلى الأحزاب والمستقلين ، بحسب نسبة تمثيلهم بمجلسى الشعب والشورى ، بحد أقصى خمسة أعضاء وبحد أدنى عضو على الأقل . ويجب أن يكون من بين أعضاء الجمعية التأسيسية عشرة سيدات على الأقل ، وخمسة أعضاء ، على الأقل ، لا تتجاوز أعمارهم الخامسة والثلاثين . ثانياً – إذا تضمن مشروع الدستور الذى أعدته الجمعية التأسيسية نصا أو أكثر يتعارض مع المقومات الأساسية للدولة والمجتمع المصرى والحقوق والحريات العامة التى استقرت عليها الدساتير المصرية المتعاقبة بما فيها الإعلان الدستورى الصادر فى ٣٠ مارس ٢٠١١ والإعلانات الدستورية التالية له ، يطلب المجلس الأعلى للقوات المسلحة بما له من سلطات رئيس الجمهورية فى المرحلة الانتقالية أو مجلس الشعب من الجمعية التأسيسية ، إعادة النظر فى هذه النصوص خلال مدة أقصاها خمسة عشر يوما ، فإذا لم توافق الجمعية ، كان للمجلس أن يعرض الأمر على المحكمة الدستورية العليا ، على أن تصدر المحكمة قرارها فى شأنه خلال سبعة أيام من تاريخ عرض الأمر عليها ، ويكون القرار الصادر من المحكمة الدستورية العليا ملزما لكل ولجميع سلطات الدولة . ثالثاً – إذا لم تنته الجمعية التأسيسية من إعداد مشروع الدستور خلال الستة أشهر المنصوص عليها فى الإعلان الدستورى لأى سبب من الأسباب ، يكون للمجلس الأعلى للقوات المسلحة – بما له من سلطات رئيس الجمهورية – تشكيل جمعية تأسيسية جديدة وفقا للمعايير المتوافق عليها ، لإعداد مشروع الدستور خلال ثلاثة أشهر من تاريخ تشكيلها ويعرض المشروع على الشعب لاستفتائه عليه خلال خمسة عشر يوما من تاريخ الانتهاء من إعداد هذا المشروع .

الجدل والصخب الذى واكب الإعلان عن إصدار تلك الوثيقة التي عُرفت بـ «وثيقة الدكتور علي السلمي» كان يعكس صراعا واضحا على المسرح السياسى المصرى منذ قيام الثورة ، بين أنصار الإسلام السياسى من ناحية وأنصار الاتجاه الليبرالى من ناحية أخرى . فأنصار الإسلام السياسى، وفى مقدمتهم حزب الحرية والعدالة كانوا يتوقعون الحصول على نسبة مسيطرة بمجلس الشعب مما يمنحهم الحق فى التأثير على اختيار أعضاء اللجنة التأسيسية لوضع الدستور ، والتأثير على ما يتم تبنيه من مبادىء دستورية ، بينما كان الليبراليون يخشون من سيطرة أنصار الإسلام السياسى ، واحتمال تبنيهم لمبادىء دستورية تتناقض مع مبدأ مدنية الدولة ، وتتناقض مع مبدأ الحرية الدينية والتعددية الحزبية ، مما يهدد فى النهاية البنيان الديمقراطى الذى يسعى مجتمع ثورة ٢٥ يناير إلى تحقيقه . ونظرا لما كان يشعر به الاتجاه الليبرالى من ضعف تنظيماته الحزبية وتشتت قواه بين أحزاب وتجمعات سياسية لم تتمكن بعد من تكوين قواعد شعبية قوية فى جميع أو معظم أنحاء مصر ، فإنه كان يسعى ومنذ قيام الثورة ، إلى تحقيق التوافق بين القوى السياسية المختلفة ، ومنها قوى أنصار الإسلام السياسى ، لتبنى مجموعة من المبادىء الدستورية الأساسية التى تؤكد مدنية الدولة والتى تلتزم بها اللجنة التأسيسية التى سيوكل إليها وضع الدستور الجديد . لكن التيارات الإسلامية، وعلى رأسها حزب الحرية والعدالة ، رأت في تلك الوثيقة خطراً حقيقياً على أهدافها في السيطرة على الجمعية التأسيسية التي ستجعلها تسيطر على مفاصل الدولة وستمكنها من تحقيق حلمها نحو إقامة دولة فاشية إسلامية تكون نواة تكوين دولة الخلافة بمفهوم جماعة الإخوان المسلمين .

السلطات العامة ، وإنما على العكس كانت ضمانة واضحة وصريحة لها بعدما تم تدارك جميع الملاحظات التي كانت تمنح القوات المسلحة وضعية خاصة بعد مشاورات مع أغلبية القوى السياسية والحزبية . بجانب ذلك فقد أصاب أمل الحيرة والتساؤل من مغزى تجاهل الدكتور المرتجي إلى توصية إنشاء مجلس استشاري يضم النخبة من الحقوقيين والشخصيات العامة لمعاونة المجلس العسكري في إدارة شئون البلاد خلال المرحلة الانتقالية .

وفي اليوم التالي كانت أمل قد أنهت عملها اليومي بالمستشفى ، وعادت إلى منزل جاردن سيتي لتجهز الكلمات التي ستلقيها خلال الاجتماع الذي تم دعوتها إليه الساعة التاسعة مساءً من قبل اللجنة العليا لحزب الوفد لمعرفة موقفها من الترشح على قوائم الحزب خلال الانتخابات البرلمانية المقبلة . وبينما كانت تكتب كلماتها على جهاز الحاسب الآلي المحمول الخاص بها جاءتها سعيدة تصيح قائلة: تعالي شاهدي ماذا يفعل الجيش والشرطة بالمتظاهرين في ميدان التحرير.. فتنهض أمل مسرعة وتتوجه إلى غرفة المعيشة لتشاهد عبر شاشة التلفاز قوات الشرطة العسكرية وقوات الأمن وهما يلقيان بأحد المواطنين في القمامة في مشهد غير أدمي؛ فأخذت تصيح بصورة تلقائية : هؤلاء الوحوش ماذا يفعلون ؟ ماذا حدث ؟ لماذا يفعل الجيش ذلك ؟ .. وما أن أكملت جملتها حتى شاهدت مجموعة من عساكر قوات الجيش والشرطة وهما يسحلان مواطن ومواطنة بصورة وحشية انتهت بتعرية الفتاة وركلها في مناطق عفتها من أحد الجنود في مشهد أثار غضب سعيدة وأمل بصورة هستيرية دفعتهما تلقائياً بارتداء ملابسهما ، وحمل حياة والتوجه إلى ميدان التحرير للمشاركة في المظاهرة التي دعت إليها القوى السياسية للتنديد بهذه المشاهد الوحشية التي عكست صورة قبيحة لوجه المجلس العسكري وجعلت حتى المتعاطفين معه يتحولون إلى صف المعارضين له.. الغضب العارم الذي تملك سعيدة عند رؤيتها تعرية الفتاة وسحلها وهتك عرضها جعلها تنادي وتهتف منذ نزولها من بيتها بجملة « يسقط يسقط حكم العسكر» ليتجمع حولها الكثير من المارة وهم يرددون ما تقوله حتى يصلوا إلى ميدان التحرير ،

الذي مع غروب شمس هذا اليوم كان قد امتلأ عن آخره بجموع المتظاهرين من مختلف الانتماءات والتيارات الفكرية والسياسية والطبقات الاجتماعية ، معظمهم جاء بدافع الغضب والاستنكار والتنديد بما شاهده على القنوات الفضائية التي قامت بتكرار عرض مشاهد قيام قوات الجيش والشرطة بصورة درامية مؤثرة في مواجهة المعتصمين من أهالي شهداء ومصابي ثورة ٢٥ يناير الذين قرروا الاعتصام أمام مجمع التحرير في اليوم التالي لجمعة المطلب الواحد الذي حركها تيار الإسلام السياسي لوأد الوثيقة الدستورية ومنع صدورها ؛ فقد تم إظهار مشاهد فض اعتصامهم والاعتداء عليهم بوحشية بصورة أظهرت تلك القوات بصورة أشد قسوة من صورة قوات الاحتلال الإسرائيلي وهي تواجه الشعب الفلسطيني المغتصب أراضيه ، خاصة عندما ركزت على مشاهد ضرب وسحل وهتك عرض الشباب والفتيات الذين ينتمون للتيارات المناهضة لحكم المجلس العسكري والذين جاءوا لمناصرة هؤلاء المواطنين في اعتصامهم من أجل الحصول على حقوقهم التي تكفل المجلس العسكري والحكومة بها ولم يوف بوعودهم .. وقبل حلول منتصف الليل كانت سعيدة وأمل قد عادا مع حياة إلى بيتهن في جاردن سيتي بعدما أفرغتا ما لديهما من شحنات الغضب والكراهية المتراكمة في أعماق وجدانهما منذ سنوات عديدة تجاه ظلم وطغيان الدولة ، خلال مظاهرة أشعل حماسها وفجر طاقتها مجموعة من الفتيات والشباب محترفي قيادة المظاهرات وهم رافعين أعلام بعض الحركات التي اقتحمت السياسة واعتادت الظهور والمشاركة بصورة احترافية مدربة منذ اندلاع ثورة غضب المصريين في يناير وغالباً ما ينتج عنها شغب وعنف يؤدي في النهاية إلى سقوط ضحايا من الأبرياء .. أمل بحكم كونها شخصية عامة من خلال نشاطها السياسي كانت على رأس أحد أهم الائتلافات الشبابية التي شاركت مع العديد من زعماء الأحزاب والحركات السياسية في عدة اجتماعات على مدار بضعة أيام لتدارك الموقف ، ومحاولة وقف العنف الذي تطور بصورة دراماتيكية أسقطت الكثير من الأبرياء الذين تم الزج بهم في مواجهات دموية أمام وزارة الداخلية في محاولة لاقتحام الوزارة وحرقها فيما عرف بأحداث محمد محمود والشيء الذي أثار دهشة وتساؤلات أمل تصدر المشهد السياسي أشخاص لم يكن لها

دور ملموس خلال انتفاضة الشعب المصري ضد نظام حسني مبارك، وتحدث تلك الشخصيات باسم شباب الثورة لتندد بقوات الأمن وبالمجلس العسكري واتهامهم بالتعدي على المتظاهرين السلميين واعتقالهم لتقضي على الثورة وتعود بالبلاد إلى أساليب الدولة البوليسية الذي كان يستخدمه النظام السابق لتصفية معارضيه ؛ حيث قامت تلك الشخصيات باستخدام عدد من الشخصيات الشبابية التي أثير حولها الكثير من الجدل نحو تعاونهم مع جهات خارجية لم تكن تبغي سوى إحداث الفوضى والتخريب .. الاجتماع الذي تم بمقر حزب الوفد يوم الجمعة ٢٥ نوفمبر ، وحضرته أمل ممثلة عن ائتلاف شباب الثورة ، كان قد تلى فعاليات المظاهرة المليونية التي دعت وحشدت لها العديد من الحركات السياسية والقوى المدنية المنادية بسقوط المجلس العسكري وتسليمه السلطة لمجلس رئاسي مدني وحكومة إنقاذ وطني رغم إقالة حكومة الدكتور شرف وتعيين حكومة جديدة برئاسة الدكتور كمال الجنزوري واعتذار المجلس العسكري عن الأحداث المؤسفة التي وقعت خلال الأيام السابقة وخلفت العديد من الشهداء والجرحى . فمع بداية الاجتماع الذي ضم رموز من حركة التغيير وكفاية والأحزاب اليسارية والليبرالية وعدد من الشخصيات العامة تحدث الدكتور ممدود نمره[1] بأسلوب حماسي ولهجة تهديدية موجهة إلى المجلس العسكري يطالبهم بوقف نزيف الدم الذي تحدثه الشرطة في المتظاهرين السلميين ومعاقبة المسؤول عن تلك الأحداث ، كما طالبهم بتسليم السلطة إلى مجلس رئاسي مدني يتولى إدارة شئون البلاد خلال الفترة الانتقالية .. وبعد كلمة الدكتور ممدود

---

(١) دكتور مهندس وأحد كبار الاستشاريين في مجال الهندسة الانشائية وصاحب إحدى الشركات الكبرى المتخصصة في مجال المقاولات والأعمال الهندسية . اتُهم قبل اندلاع انتفاضة ٢٥ يناير بقيامه بمحاولة تدبير اغتيال عدد من رموز النظام السابق في بريطانيا وبسببها خسر أموال طائلة في قضية احاطها الكثير من الغموض ، وانتهت في النهاية ببراءته من تلك التهم بعد شهادة أحد رموز النظام والمثبت اسمه في قائمة الاغتيال لصالحه . ظهر فجاءة على الساحة السياسية وقام بتمويل حركة شبابية ثارت حولها العديد من الشبهات في تورطها بتلقي أموال من جهات خارجية خططت لإحداث الفوضى في مصر .

تحدث كثير من الشخصيات العامة الوطنية كلهم شجبوا ونددوا بما حدث ، وطالبوا المجلس العسكري بسرعة تسليم السلطة في الميعاد الذي حدده – منتصف عام ٢٠١٢م – والإفراج عن جميع المعتقلين الذين تم اعتقالهم بسبب آرائهم وتشكيل لجنة تقصي الحقائق لمحاسبة كل من يثبت إدانته بارتكاب جرائم قتل الثوار وجرحهم وسحلهم وانتهاك أعراضهم .. وعندما جاء دور أمل للحديث توقفت عدة ثوان استرجعت خلالها الإخفاقات التي حدثت على مدار تسعة أشهر من إقصاء مبارك وخيبة الأمل التي أكلت أحلام الكثير من البسطاء الذي زادتهم الثورة إفقاراً وروعت أمنهم بعدما منحتهم أمل الحرية والكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية فقالت بصوت انفعالي وعيون دامعة ، وهي تتبع رموز السياسة والشخصيات العامة الحاضرة وقد ألهمها مشاعرها الشفافة رؤية الوجه الحقيقي للكثير منهم بعدما نُزع عنهم وجه البراءة والوطنية : اعتقد أننا نتحدث كثيراً ولا نفعل شيء . لقد خدعنا أنفسنا قبل أن يخدعنا الآخرين . الكثير منا يتحدث بلسان غير لسانه ويستخدم مشاعر البسطاء وأمانيهم وأحلامهم نحو وطن حقيقي يشعر داخله بالأمن والطمأنينة والحرية والعدالة الإنسانية حتى يتسلق عليها ليحقق مآرب شخصية . لقد فشلنا في تحقيق ما كنا نسعى إليه وعلى العكس مما كنا نبتغي انجرفنا وراء خطوط الوهم التي نُسجت لنا فسقطنا فريسة في مخالب عناكب الحرية وثعابين الديمقراطية . لقد أضللنا البسطاء بكلمات الحرية والعدالة الاجتماعية بعدما ضللنا تجار الديمقراطية . أين هي ثورتنا ؟ أين العدالة الاجتماعية والحرية والكرامة الإنسانية التي وعدنا بها أنفسنا ومنينا بها المصريين؟ هل يظن أحد من الذين يخدعون الشعب بشعارات الحرية والديمقراطية أنهم سيحصلون على السلطة وسيخضعون الشعب بشعاراتهم الزائفة ؟ الشعب لا يريد سوى الحياة الكريمة العادلة . يريد المصارحة بحقيقة الأمور حتى لو كانت مؤلمة . يريد أن يعرف ما له وما عليه في بناء الوطن الذي يحلم به. أنا أعرف أن الأمر صعب ومعقد، والكثير من القوى العالمية والإقليمية تريد إحداث الفوضى في مصر . لكننا إذا توحدنا لن يستطيع أحد تركيعنا أو هدمنا .. فيصيح الدكتور ممدود بصوت اعتراض غاضب وكأنه أحس أن أمل توجه له الاتهام : أنا اعترض على هذا الكلام المغرض .

هل ساومك المجلس العسكري ليخرج زوجك من المعتقل في مقابل ترديد أكاذيبه نحو الطرف الثالث ، ومحاولة الإساءة إلى الشباب الوطني الثائر بإكذوبة تلقيهم التدريب في دول أجنبية بهدف إحداث الفوضى .. فتحدث حالة من الهياج ويعترض الكثير على كلام أمل ويوجه إليها عددًا من الحضور كلمات غير لائقة ، ووصل الأمر إلى قيام المتحدث الرسمي لحركة ٦ أبريل والمتحدث الرسمي لحركة الاشتراكيين الثوريين إلى التهديد برفع دعاوي قضائية ضد كل من يتهمهم بالعمالة .. رد الفعل الذي أبداه ممدود وممثلي حركة ٦ أبريل وحركة الاشتراكيين الثوريين لم يوقف أمل عن تكملة خطابها التلقائي الذي أخرجت خلاله مشاعر إحباطها من القوى الثورية التي تتزعم المشهد السياسي بعدما انكشف لها مدى براجماتية تلك القوى . فقالت بصوت يقين وملامح إصرار والدموع عالقة في عينيها : أنا لم أخص أشخاص بعينهم . وسأكرر وأظل أكرر أن مصر فوق الجميع ، ولابد علينا جميعاً أن نتكاتف حتى نحقق أهداف ثورتنا التي ثرنا من أجلها ألا وهي «العيش – الحرية – العدالة الاجتماعية و الكرامة الانسانية ».. وقبل أن تكمل أمل حديثها الذي خرج من القلب يُحدث اتباع الدكتور ممدود البلبلة داخل القاعة ، ويتطور الأمر حتى يكاد أن يصل إلى تشابك بالأيدي بين الفصائل المؤيدة والمعارضة لحديث أمل فتنسحب أمل من الاجتماع وتنصرف خارج القاعة وهي تبكي بشدة بعدما وجهت إليها اتهامات العمالة للمجلس العسكري والفلول وخيانة الثورة والمتاجرة بمصيرها .. محاولة التعدي عليها بالضرب بعد انصرافها من مقر الحزب بشارع التحرير ، وقيام بعض المجرمين المندسين بالتحرش بها وسط المتظاهرين الرافضين لحديثها خلال الاجتماع أصابها بالذهول والانكسار وخيبة الأمل ، وجعلها تقرر اعتكاف الحياة العامة والابتعاد عن المحافل السياسية التي لمت واستقطبت الكثير من الخارجين على القانون وأصحاب النفوس الضعيفة ليتم استخدامهم في الألاعيب السياسية الوضيعة والدنيئة لتحقيق مصالح حزبية وشخصية .

ويمر ما يقرب من شهر ونصف الشهر وأمل تتجنب الحياة العامة وتبتعد عن الحياة السياسية التي صُدمت منها بعدما استشعرت مدى الفساد والإفساد الذي استشرى بها ، ومدى خسة ودناءة الكثير من متصدري العمل السياسي ، ومدى عجز الكثير منهم عن تحقيق ما يحلم به المصريون .. وخلال تلك الفترة أجريت انتخابات مجلس الشعب وانتهت في ١٠ يناير ٢٠١٢م ليحسم تيار الإسلام السياسي نتائجها لصالحه[١] لتبدأ مرحلة جديدة من الصراع السياسي بين تيار القوى المدنية بمختلف توجهاتها الإيدلوجية والفكرية في اتجاه ، وبين تيار الإسلام السياسي في الاتجاه مقابل، وفي اتجاه ثالث المجلس العسكري القوى الحاكمة التي تدير شئون البلاد وتطمع في التواجد في السلطة بصورة أو بأخرى .. قضية محاكمة مصري وروفائيل وياسمين وأحمد عنبة ، وعدد آخر من المتظاهرين أمام القضاء العسكري كانت مسار اهتمام الكثير من النشطاء الحقوقيين منذ أحداث ماسبيرو . وبفضل تكثيف جهودهم من خلال وسائل الإعلام ومن خلال الندوات والمؤتمرات والوقفات الاحتجاجية تنازل القضاء العسكري عن اختصاصه الأصيل بنظر القضية ليتم إحالتها لتنظر أمام القضاء المدني الاستئنائي ، ويصدر قاضي التحقيق بمحاكمة أمن الدولة العليا طوارئ قرارًا بالإفراج عن المتهمين بضمانة مالية[٢].

---

(١) حصل حزب الحرية والعدالة الذراع السياسي لجماعة الإخوان المسلمين على (٢٢٢ مقعدًا بنسبة ٤٣.٧ ٪ من إجمالي عدد المقاعد) بينما حصل حزب النور الذراع السياسي للجماعة السلفية على (١١٢ مقعدًا بنسبة ٢٢.٠٤ ٪ من إجمالي عدد المقاعد) وحزب البناء والتنمية الذراع السياسي للجماعة الإسلامية على (١٣ مقعدًا بنسبة ٢.٥٦ ٪ من إجمالي عدد المقاعد) . هذا بجانب حزب الوسط ذات المرجعية الإسلامية الذي حصل على (١٠ مقاعد بنسبة ١.٩٧٪ من إجمالي عدد المقاعد) وحزب العمل ذات المرجعية الإسلامية على مقعد واحد ليحصد تيار الإسلام السياسي على عدد ٣٥٨ مقعدًا من إجمالي عدد ٥٥٠ مقعدًا بنسبة تجاوزت ٧٠ ٪ .

(٢) محاكم أمن الدولة العليا طوارئ هي محاكم استثنائية مرتبط وجودها بإعلان حالة الطوارئ ؛ حيث تم إنشاؤها بموجب قانون الطوارئ ، وتختص بالفصل فى جرائم التجمهر ، أو الانتماء إلى تنظيم سياسى محظور ، أو ائتلاف الممتلكات والأموال العامة ، وحيازة الأسلحة والمفرقعات والذخائر ، وعقد الاجتماعات العامة والمظاهرات ، وأى جريمة ينص عليها قانون العقوبات تهدد الوحدة الوطنية والنظام العام . وأحكام هذه المحاكم نهائية ولا يجوز الطعن عليها ، وتحال أحكامها إلى الحاكم العسكرى للتصديق عليها ، ويجوز تقديم تظلم أمامه فقط .

وفي صباح يوم الأربعاء ١٨ يناير كانت أمل تباشر عملها اليومي بالمستشفى فإذا بالأستاذ جورج إسحاق ، أحد قيادي حركة كفاية ، يتصل بها على تليفونها المحمول ويبلغها بخبر حصول الدكتور صلاح صادق على قرار بالإفراج عن ياسمين ومصري وجميع المحبوسين على ذمة القضية بضمان محل إقامتهم وهما موجودين الآن في مديرية أمن القاهرة لإنهاء إجراءات الإفراج عنهم .. خبر الإفراج عن مصري أعاد إلى أمل ذاكرة الحياة وفجر بداخلها بركان الأشواق والحنين لتنطلق بعدها مسرعة من المستشفى حتى تلحق بزوجها لحظة الإفراج عنه لتصل إلى هناك في أقل من ٣٠ دقيقة؛ فإذا بها تجد حشدًا كبيرًا من وسائل الإعلام تنتظر خروج المتهمين لتجري معهم حوارات تلفزيونية .. ظهور أمل كان مسار تتبع هذه الكاميرات لكنها تجنبت الحديث ، ورفضت التعليق على أي حدث . وبعد دقائق معدودة يخرج مصري وياسمين وأحمد عنبة وباقي المتهمين من بوابة المديرية.. وفي مشهد درامي مؤثر التقطته العدسات الإعلامية يلتقي الزوجان والصديقتان بأحضان وقبلات باكية شَوَّقَهُ ونظرات مصدومة مما وصل إليه الحال .. هتافات كل من علياء محروس وأمجد ساهر ومن معهم من اتباع بجانب عدد من العامة والغوغاء الذين انساقوا ورائهم ، بسقوط حكم العسكر والألفاظ الجارحة الخارجة عن حدود الآداب العامة ، أثارت حفيظة وغضب مصري وأمل اللذين تغيرت نظرتهما تجاه نية عدد كبير من الذين اشتركوا وساهموا بصورة مؤثرة في انتفاضة الشعب ضد حكم مبارك بعدما تكشفت لهما الأيام مدى براجماتيتهم وتلونهم في سبيل تحقيق مكاسب شخصية ؛ فتقدم مصري نحو إحدى كاميرات قناة فضائية تتابع الحدث وقال لمراسل القناة بصوت استنكار ، وملامح كارهة لما يشهده من وجوه مادية متلونة : أنا مصري المنشاوي مواطن مصري أحب بلدي ومستعد للتضحية بروحي ودمي من أجلها كما ضحى أبي وغيره من الذين ثاروا على الفساد والطغيان .. فيقول المراسل بصوت اعتزاز وفرحة وملامح مسرورة بفوزه بهذا السبق الإعلامي: الدكتور مصري. أنت غني عن التعريف. أنت مثال المناضل الثائر. ماذا تحب أن توجه من كلمات إلى المجلس

العسكري بعد ما يقرب من ثلاثة أشهر قضيتها تحت ذمة المحاكمة العسكرية الباطلة.. فيقول مصري بصوت امتلئت نبرته بالآسى وقد ارتسمت على ملامحه الحسرة : قد تكون كلماتي غير مرضية وصادمة . لكنني سأقولها . لقد ثرنا على الفساد والظلم من أجل أن يعيش المصريون حياة كريمة يتمتعون بها بالعيش الأمان والكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية في التعليم والصحة والرعاية الاجتماعية . لكن الذي حدث أننا ثرنا واستغل المنتفعون هذه الثورة حتى يحققوا مصالحهم الشخصية من خلال الوصول إلى كرسي السلطة .. فيقاطعة المراسل قائلاً : ومن هؤلاء المنتفعون الذين يحاولون الانقضاض على الثورة وتحقيق مصالحهم الشخصية ؟ .. فيقول مصري : المنتفعون الذين أقصدهم هم من أسقطوا الدولة ويريدوا هدم مؤسساتها وهم رافعين راية الثورة البيضاء وعليها دماء شهدائنا متوهمين أنهم يستطيعوا إحلال اتباعهم ليعيدوا إنتاج النظام السابق في صورة أخرى . المنتفعون هم من يتلقون أموال من الخارج يتم استخدامها في إحداث الفوضى وإثارة المصريين على أنفسهم . المنتفعون هم الذين يستخدمون الإعلام في هدم عقول المصريين ليتوحش الصغير ويُستضعف الكبير ، وتسود قيم الغابة بين العامة .. فيقاطع المراسل كلام مصري ويقول موجهاً كلامة إلى علياء محروس التي حضرت لتشارك في الحديث بناءً على رغبة القناة : ومعنا الناشطة السياسية علياء محروس . الناشط السياسي مصري المنشاوي يتحدث عن المنتفعين الذين يريدون هدم الدولة . هل لديك تعقيب على كلامه ؟ .. فتقول علياء بصوت ثوري مصطنع وملامح متلونة بلون الوطنية : لقد صدمني تعليق مصري وأظن أن التعذيب الذي تعرض له داخل المعتقل كان له تأثير كبير في ذلك .. فيقاطع مصري حديثها ويصيح بصوت انفعالي مهموم : أنا لن أدخل في مهاترات وجدل وأنتِ تعلمين جيداً من يسعى لتحقيق مصالحه الشخصية متخفياً وراء راية التضحية والفداء . لقد تم استخدام الكثير من الشباب ليكونوا بوق استدعى الفوضى .. فتقاطعه علياء وهي تسحب الميكروفون من يد المراسل قائلة بصوت محتد : بكل أسف المجلس العسكري استطاع أن يستقطب بعض المناضلين

الذين ساهموا في الثورة ، واتبع معهم سياسة الترغيب والترهيب . وأنا في غاية الأسف لذلك ، وثورتنا ما زالت مستمرة حتى تحقق أهدافها .. فتجذب ياسمين أطراف الحديث قائلة بصوت غلفه الضيق والاستنكار وقد انفرطت مشاعرها الغاضبة أمام اتهامات علياء بعدما أعطى لها المراسل الميكروفون للحديث : أولاً أنا أتوجه بالشكر لكل من ساعدنا خلال فترة حبسنا . وأحب أن أقول لكل من يريد ارتداء لباس الوطنية والتضحية وهو يخفي خلفها أطماعه الشخصية «اتقي الله في وطنك واعلم أن مكاسبك الشخصية لن يكون لها قيمة في وطن تاهت منه قيمة المواطنة والإحساس بالولاء ». اتقوا الله في مصر .. فتتعالى الأصوات المحيطة وتطالب بسقوط الخونة والمأجورين ، ويتعالى زئير الهتافات ضد مصري وياسمين وأمل ويحاول بعض الغوغاء التعدي عليهم فيحتموا بقوات الشرطة المرابطة عند المديرية ، وتدور مواجهات بين تلك القوات وهؤلاء المجموعة الغوغائية التي استخدمت قنابل المولوتوف والطوب بصورة كثيفة فترد الشرطة بإلقاء قنابل الغاز المسيل للدموع . ويتطور الأمر بعد فترة وجيزة عندما حضرت مجموعات من الملثمين على موتوسيكلات ، ويتم إطلاق إعيرة خرطوش وطلقات ذخيرة حية ، ويسقط عدد من المتواجدين في صفوف المتواجدين ضد الشرطة ما بين قتيل وجريح ومصاب بطلقات خرطوش في العين والرأس ، وتتكرر مأساة سقوط ضحايا أبرياء ويُلصق دمائهم في رقبة الشرطة ليبدأ بعدها المغرضون في استخدام قميص عثمان من جديد للنفخ في لهيب نار الفتنة حتى تشتعل من جديد لتأكل كل محاولة لإعادة الثقة بين الشرطة والمواطنين ، ويتم كالعادة استخدام الإعلام بصورة ممنهجة للترويج لهذه الفرية وتلويث عقول البسطاء والعامة . والشيء المثير للجدل أن تلويث هذه العقول البسيطة بمعرفة الإعلام شارك فيه مجموعة مما يُطلق عليهم صفوة المجتمع المصري بصورة أصابة الكثير من أصحاب الدراية والمعرفة بخيبة الأمل وسواد النظرة نحو المستقبل .

وتمر بضعة أيام على هذا الحدث ، ويتصدر أصحاب الأبواق المتلونة المشهد السياسي كما تعودنا بعد كل حدث يسقط خلاله ضحايا . وتحاك حملة تنديد شرسة ضد كل من مصري وياسمين وأمل ؛ باعتبارهم عملاء المجلس العسكري الذي يريد إعادة إنتاج النظام القديم ويدعم الثورة المضادة ، تصدرتها الحركات السياسية التي تم توجيه الاتهامات لها بالحصول على تمويلات مالية من منظمات أجنبية ، فيما عُرفت بقضية التمويل الخارجي[1] . الشيء الذي لم يكن متوقعًا هو مشاركة أحمد عنبة في التنديد بموقف مصري وأمل وياسمين ، واتهامهم بالعمالة والموالة للثورة المضادة .. وفي يوم الاثنين ٢٣ يناير ٢٠١٢م كانت دعوة قناة الفراعين لكل من أمل

---

(١) في يونيو ٢٠١١م كشفت آن باترسون السفيرة الأمريكية بالقاهرة قنبلة التمويل الأجنبى لحركات سياسية ومنظمات حقوقية وشخصيات عامة ؛ حيث كشفت بكل وضوح أمام مجلس الشيوخ الأمريكى فى جلسته التي عقدت فى ذلك التوقيت عن أن واشنطن أنفقت ملايين الدولارات لدعم الديمقراطية في مصر منذ ثورة ٢٥ يناير ، وقالت إن المنظمات الأمريكية ، مثل المعهد القومي الديمقراطي ، والمعهد الجمهوري الدولي ، تعمل في مصر على تشجيع الديمقراطية ودعم وتنمية قدرات منظمات المجتمع المدني المصري في المرحلة المقبلة . وكشفت باترسون أن ٦٠٠ منظمة مصرية تقدمت بطلبات للحصول على المنح المقدمة لمنظمات المجتمع المدني ، وأن ذلك التمويل يأتى في إطار حفاظ الولايات المتحدة على مصالحها في المنطقة ودعم الديمقراطية . وأمام ذلك كلفت الحكومة المصرية وزارة العدل بتشكيل لجنة تقصى حقائق لمعرفة حجم واستخدامات هذا التمويل فيما بدأت النيابة العامة فى التحقيق فى حصول بعض المنظمات على تمويل أجنبي ، ويتم مداهمة مقر ١٧ منظمة أهلية في مصر نهاية ديسمبر ٢٠١١م بعد اتهامات وجّهت إليها بتلقي التمويل من مصادر أجنبية ، إلى جانب اتهامات بالخيانة لعدد من رموز الثورة ، اعتبرتها هذه المنظمات محاولة لتشويه صورتها أمام الرأي العام ، وتتحفظ قوات الأمن والجهات السيادية على العديد من المستندات وأجهزة الكمبيوتر والأموال ، الأمر الذي أثار ردود فعل غاضبة على المستويين الدولي والمحلي . ودخل المجلس العسكري في مواجهة جديدة مع منظمات المجتمع المدني . وجاءت عمليات المداهمة في إطار التحقيقات التي أجرتها وزارة العدل في ما يعرف بـ " التمويل الأجنبي بطرق غير مشروعة لمنظمات المجتمع المدني " ، وضمّت منظمات المركز العربى لاستقلال القضاء والمحاماة ، ومرصد الموازنة العامة لحقوق الإنسان ، والمكاتب الإقليمية لمنظمة فريدوم هاوس ، والمعهدين " الديمقراطي " و " الجمهوري" الأمريكيين في القاهرة ، وجمعية البكر لرعاية الأطفال والأحداث في الجيزة ، ومؤسسة أنصار السنة المحمدية ، وجمعية محمد علاء مبارك ، ومنازل بعض أعضاء حركة ٦ أبريل ، ومكاتب مؤسسة كونراد أديناور الألمانية .

ومصري وياسمين لحوار مع صاحب القناة توفيق عكاشة ، الذي يكرث كل براجه لحساب المجلس العسكري بطريقة عفوية استطاعت الوصول إلى عقل المواطن البسيط في قرى ونجوع مصر . وفي الساعة الخامسة مساءً وقبل الموعد المحدد لذهابهم إلى مقر قناة الفراعين وصلت ياسمين إلى منزل أخيها ، وتعبيرات وجهها يحمل هموم وأحزان أكلت ملامحها التي كانت دائماً تنبض بالحيوية والنشاط والتفاؤل والمرح ، وصوتها يحمل نبراته نغمات آسى وحزن دفين أثار حفيظة أمل التي تأثرت بشدة لموقف أحمد عنبة غير المتوقع فسألتها بصوت استحياء : لماذا حدث ذلك مع أحمد ؟ لم يكن أحد يتوقع أن يفعل ذلك ؟ .. فتبكي ياسمين بكاء بحرقة لبضعة ثوان ثم تتماسك وتقول بصوت متحشرج وهي تمسح دموعها وتنظر إلى أمل نظرة مذبوحة : لم أكن أتخيل أن يساومني أحمد على مبادئي . لم أكن أتخيل أن مشاعر الثائر الوطني كانت مجرد وسيلة لتحقيق مصالح شخصية .. فيأتي مصري في تلك اللحظة وهو يحمل حياة وعيناه مملوءتان حزناً وألماً ليقول بصوت مصدوم : لا تحزني يا ياسمين على إنسان كان يخدعك . فالحمد لله أن الله كشفه لنا قبل أن تصبحي زوجته ، وأنا واثق أن الله سيعوضك خيراً عنه .. فتقول ياسمين : حزني على مشاعري أمر هين يا أخي أمام حزني على ما وصلنا إليه بعد الثورة التي كان من المفترض أن تُصلح من حالنا وتجمعنا جميعاً على الهدف الذي مات من أجله أبانا وأهلنا . هل يُعقل أن يكون أحمد عنبة الذي كان على استعداد التضحية بحياته من أجل صلاح الوطن شخص يتاجر بوطنيته وبمستقبل بلده من أجل المادة والمصلحة الشخصية .. فتقول أمل مستفهمة : مادة ومصلحة شخصية ! .. فتقول ياسمين بصوت حسرة : لقد صُدمت عندما واجهني بحقيقة أمره ظناً منه أنني مثله يمكن أن أبيع القيم والمبادئ في سبيل المادة . ثم تنهمر في بكاء شديد قائلة : لقد طلب مني أن أدعي على المجلس العسكري بأنه هددنا وساومنا حتى نأخذ موقف ضد ما يطلقون على أنفسهم ثوار أمثال «علياء محروس ، تامر حسانين ، أمجد ساهر وجيلان عبد الرحيم » كما ساومونا على تحسين صورتهم أمام الشعب .. فيتقدم

مصري نحو شقيقته ويقول بصوت جمعت نبرته بين نغمة الحسرة والمواساة بعدما وضع حياة على الأريكة المجاورة إلى أمل : لقد تكشفت نوايا الكثير من مدعي الوطنية خلال فترة تواجدي في السجن رهن التحقيقات ؛ حيث تساقطت الأقنعة وظهرت الأوجه الحقيقية للعهر السياسي الذي بكل أسف تم استخدامه بصورة مكثفة من الجهة التي تريد إحداث الفوضى في مصر ، والتي كانت ترصد وتحلل بكل دقة حياة الشعب المصري وسمات شخصيته العامة ، ونجحت في استخدام الحق لتحقيق الباطل الذي هو غايتها . لا تحزني يا شقيقتي فالشخصية التي تبيع مشاعرها وأحاسيسها تجاه أهلها ووطنها لا تستحق دموع ابنة سعد المنشاوي .. فتقول ياسمين وهي تمسح دموعها العالقة بعينيها : أنا لا أبكي على فقدان شخص أحببته . أنا أبكي على إحساسي ومشاعري وأحلامي التي سُرقت مني ، وكنت أظنها تحققت . أبكي على دم أبي الذي أشعر أنه راح هباءً منسياً . أبكي على عقول البسطاء التي لوثها المغرضون .. فتقول أمل بصوت غلفه الهم وهي تحتضن ابنتها حياة بعدما شعرت بخيبة أمل وظلمة تجاه المستقبل : ماذا سنفعل ؟! هل سنصمت على كل هذه الحقائق المرعبة ؟! هل سنترك مستقبل أطفالنا يتلاعب به أعدائنا ؟! .. فيقول مصري بصوت عزيمة وإصرار وهو يضع يده على كتف حياة التي استشعرت ما بداخل أمها من مشاعر خوف فأخذت تحتمي في صدرها بملامح قلق وذعر : بكل تأكيد لن أترك ما بدأناه . لن أترك دماء أبي وشهداء الحرية الذين نزلوا إلى الميادين حالمين بمستقبل أفضل تضيع هباء . وسنبدأ من اليوم . سندعو المصريين إلى التوحد وسنحاول كشف لهم الحقائق ، وتوعيتهم بأبعاد المؤامرة التي تحاك على مستقبلهم ومستقبل أولادهم .. فتنظر إليه أمل نظرة يائسة وتقول : هل تظن أننا نستطيع أن نُعيد للمصريين روح التسامح والمحبة والألفة الاجتماعية التي انتُزعت من قلوبهم ؟ هل نستطيع مواجهة تنين المصالح ورؤوسه المتشعبة ؟ .. فيقول مصري بصوت امتلئت نبرته بالعزيمة والإصرار وهو ينظر إلى زوجته وابنته وشقيقته نظرة يقين : لقد بدأنا ثورتنا وكنا على استعداد للتضحية بأرواحنا حتى

يعيش المصريون حياة أفضل . فهل يُعقل أن نترك هذا الحلم يتحول إلى كابوس ويعيش أولادنا وأحفادنا حياة أسوأ . أنا ثقتي في الشعب المصري كبيرة رغم تلال الحقد والكراهية والجهل التي ردمتها قوى الشر والطغيان على مشاعره وأفكاره . سننتصر في النهاية وسنحقق حلمنا المشروع في مستقبل أفضل وحياة كريمة .. فتمسك أمل بيده وتقبلها وتقول بصوت خنوع العاشق ، وهي تنظر إليه نظرة متفاءلة بعدما استشعرت بصيص الأمل في عينيه : أنت دائماً تبعث الأمل في نفسي . أفعل ما تراه وأنا معك يا مصري .. فتنهض ياسمين وتمسك بحياة لتحضنها وتقبلها وتنظر إلى مصري وأمل نظرة باسمة وتقول : هيا بنا فالطريق إلى بيت الخالة سعيدة بكل تأكيد سيكون مزدحمًا حتى نستطيع توصيل حياة قرة عين عمتها قبل أن نتوجه إلى مدينة الإنتاج الإعلامي لحضور اللقاء الذي ينتظره معارضينا قبل مؤيدينا.. فينهض الاثنان وهما متشابكي الأيدي ويقولان في نفس اللحظة : سيفرجها الله من عنده . فيضحك الثلاثة ضحكة من القلب وتضحك حياة ضحكتها الطفولية البريئة وهم يغادرون المنزل .

وفي الموعد المحدد للقاء التلفزيوني وصل مصري بصحبة أمل وياسمين إلى مقر قناة الفراعين بمدينة الإنتاج الإعلامي بعدما أوصلوا حياة إلى بيت جدتها سعيدة .. وبعد استقبال حافل من العاملين في القناة إلى مصري ورفاقه بدأ الحوار التلفزيوني بتقديم توفيق عكاشة للمشاهدين مختصر بسيط عن حياة مصري وياسمين وأمل ودورهم المتميز في الحياة السياسية والنضال الوطني منذ ٢٥ يناير ، وما واجهوا من تقييد للحرية بسبب مساهتهم في نضال الشعب المصري للحصول على حياة أفضل . وبعد التقديم وتبادل كلمات الترحيب والشكر تقدم توفيق عكاشة بأسلوبه الريفي المصطنع بسؤاله إلى ياسمين قائلاً : أستاذة ياسمين . الكل يعلم تاريخك الصحفي المشرف قبل ٢٥ يناير حيث كانت مقالاتك الصحفية البارزة تكشف عن كثير من الانتهاكات والجرائم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، وتم محاكمتك بالباطل وحُكم عليك بالسجن ثلاثة أشهر ، كما تم اعتقالك لعدة أيام في ديسمبر ٢٠١٠م

بعدما تعرضتي في مقالاتك عن تزوير الانتخابات النيابية . لماذا يتم اتهامك الآن بالعمالة للمجلس العسكري والوقوف بجانب نشطاء الثورة المضادة التي يتشدق بها من يدعوا أنهم حماة الثورة أمثال «أحمد عنبة وعلياء محروس وتامر حسانين وأمجد ساهر وغيرهم من مرتزقة السياسة » الذين ظهروا بقوة على الساحة السياسية بعد ٢٨ يناير ٢٠١١م .. فتصمت ياسمين لبضع ثوان وهي تفكر في الابتعاد بالحديث عن أي شيء يتعلق بخطيبها السابق لتقول بصوت اتسم بالهدوء : بالفعل أنا من عملاء المجلس العسكري طالما أنه يهدف إلى تحقيق مطالب ثورة ٢٥ يناير ، وأنا ضد المجلس إذا تباطأ أو تكاسل أو تخاذل عن وضع تلك المطالب موضع التنفيذ . لقد تم اعتقالي لفترة قاربت ثلاثة أشهر وغيري ممن يتهموني بالعمالة ظلوا أحرارًا طلقاء رغم احالتهم إلى المحاكمة أمام القضاء العسكري .. فيقاطعها توفيق عكاشة بملامحه الريفية الساخرة قائلاً : هل تقصدي الناشطة اللولبية علياء محروس ؟ .. فتقول ياسمين : الكل يعرف من هم العملاء ومن هم الثوار الحقيقيون .. فيوجه توفيق عكاشة سؤاله إلى مصري قائلاً : مصري الطبيب الشاب الثائر المناضل الحق ابن الشهيد سعد المنشاوي . ماذا يرى في الدعوات التي يطلقها البعض للخروج في تظاهرات يوم ٢٥ يناير القادم لإسقاط المجلس العسكري ، وإنشاء مجلس رئاسي مدني يدير البلاد حتى إنشاء دستور جديد وانتخاب السلطات العامة .. فيقول مصري بأسلوب تلقائي خارج من القلب : اعتقد أن هذه الدعوة ليست سوى دعوة لإسقاط الدولة وإحداث الفوضى . ونحن مع المجلس العسكري حتى تسليم السلطة بعد ستة أشهر .. فيوجه توفيق عكاشة سؤاله إلى أمل قائلاً : الطبيبة الشابة المناضلة أمل صابر زوجة الوطني مصري المنشاوي التي لها مواقفها الوطنية المشهود لها لدى الجميع . ماذا ترى في هذه الدعوة السوداء ؟ .. فتنظر أمل نظرة ثائرة تجاه الكاميرا وتقول : أنا اتفق مع دكتور مصري ، وقبل مجيئنا إلى هنا كان يحدثنا عن كيفية دعوة المصريين إلى التوحد وحماية حلمهم في مستقبل أفضل ، وكشف الحقائق لهم وتوعيتهم بأبعاد المؤامرة التي تحاك على مستقبلهم ومستقبل أولادهم .. فيوجه كلامه

إلى مصري مستفسراً: وما هي رؤيتك في سبيل تحقيق ذلك يا دكتور .. فيقول مصري: أنا من هنا أدعو الأجهزة السيادية ومؤسسات الأمن القومي المصري بمصارحة الشعب بما يحاك ضده حتى يعلم الجميع مدى الخطر الذي يحيق بنا ، ويتوحد الشعب المصري كله بجميع أطيافه على قلب رجل واحد في مواجهة هذا الخطر الذي سيهدم كل القيم والمبادئ ويتركنا نتقاتل ونتصارع حتى نفني بعضنا البعض وتتمزق بلادنا شيعاً وأحزاباً .. فيقول توفيق عكاشة بأسلوبه الريفي المنفعل : افيقوا أيها المصريون من غفلتكم وتوحدوا حتى لا تصيروا كالقطيع الذي فقد حارسه وتفرق فأكلته الذئاب . سنخرج فاصل إعلاني ثم نعود لنتلقى اتصالاتكم.. وبعد دقائق من الفاصل الإعلاني يعود توفيق عكاشة إلى مواصلة البرنامج ويتلقى عدد من المكالمات التليفونية تحدثت مع ضيوف البرنامج وتنوعت بين معارض ومؤيد للمجلس العسكري حتى استقبل البرنامج مكالمة جذبت انتباه الضيوف فقد كان المتصل هو عمرو الريس الذي تحدث بأسلوبه المتزن المنضبط قائلاً : أنا عميد عمرو الريس ضابط سابق في وزارة الداخلية، وأعرف مدى وطنية ضيوفك الكرام. فهم رموز يجب على الشباب المصري بل والكبار أمثالنا أن نحتزي بهم . وأنا أدعوهم وأدعو كل مصري محب لبلده أن يشارك في مليونيات ميدان العباسية التي تدعو لها يا دكتور توفيق لتأييد المجلس العسكري، كما أدعو الجهات السيادية ومؤسسات الأمن القومي إلى تبصرة الشعب بما يحدث ، وأشكر لك حسن الاستماع .. فيوجه له توفيق عكاشة سؤال قائلاً : سيادة العميد هل كنت في الخدمة أيام الثورة ؟ .. فيقول عمرو الريس : نعم لقد كنت مأمور سجن وادي النطرون الذي تم اقتحامه يوم ٢٩ يناير .. فيقول توفيق عكاشة: بكل تأكيد الحديث عنما حدث في هذا اليوم لا يمكن مناقشته عبر الهاتف ، ويسعدنا أن تكون ضيفنا في الحلقة القادمة يوم الثلاثاء القادم . وأرجو أن تبقى معنا على الخط حتى يستطيع الكونترول الترتيب مع سيادتكم .. فيقول عمرو الريس : بكل سرور هذا شرف لي.. فينظر بعدها توفيق عكاشة إلى مصري ويقول : ما رأيك في كلام العميد .. فيقول مصري بصوت اعتزاز : أنا أتفق مع كل كلمة قالها

العميد عمرو الريس الذي أعرفه شخصياً ؛ فهو زوج شقيقة الشهيدة الدكتورة شهندة عادل ومن الشخصيات المحترمة في الشرطة المصرية ، ويكفيه فخراً أنه في عام ١٩٩٣م تم نقله من عمله في مجال البحث الجنائي لأنه رفض الخضوع لغير ضميره في قضية السيدة الكويتية التي اتهمت باستئجار قاتل لقتل مواطن مصري وزوجته .. وبعدما يقرب من ساعة من الحديث الذي تطرق إلى المؤامرة التي تحيكها أيدي الطامعين في سقوط الدولة وتنفيذ مخطط الفوضى الخلاقة التي ستنشئ نظامًا جديدًا موالي لمن حاك تلك المؤامرة لينفذ استراتيجية ما يُطلق عليه الشرق الأوسط الجديد[1] فيقول توفيق عكاشة بصوت اعتزاز وملامح شاكرة وهو ينظر إلى ضيوفه الثلاثة : وفي نهاية لقائي بكم أتقدم بخالص الشكر لضيوفي الكرام وأتمنى أن نكمل هذا الحديث الممتع المثمر في الأسبوع القادم إن شاء الله .. فيرد عليه الحضور التحية والثناء لينتهي اللقاء الذي حقق نسبة مشاهدة كبيرة ، وكان مسار تقدير وثناء إعداد كبيرة استهواهم فكرة وجود جماعة رأي تقف في وجه الرأي الذي من وجهة نظرهم يساند الفوضى ويدعم الاضطرابات .

---

(١) الشرق الأوسط الكبير أو الجديد ، مصطلح رددته إدارة الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش فى إطار مشروع ظاهره السياسى تشجيع الإصلاح السياسى والاقتصادى والاجتماعي ، وباطنه الاستيلاء على ثروات المنطقة وتقسيم بلادها على أساس أثني وعقائدي والقضاء على جيوشها لتصبح لقمة سائغة للاستعمار الاقتصادي والثقافي حيث ستصبح أمريكا والدول الغربية هم الأسياد و الدول العربية والإسلامية الواقعة في تلك المنطقة هم العبيد ويتحقق من خلالها الاستقرار الأمني للتواجد الصهيوني اليهودي في فلسطين الذي تدعمه الدول الغربية وفقاً للعقيدة المسيحية الصهيونية التي ترى في عودة اليهود إلى أرض الميعاد ضرورة حتمية للنزول الثاني للسيد المسيح . ومن المؤكد أن إعادة رسم خريطة الشرق الاوسط وتقسيمه ، ابتداءً من الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط ، فى لبنان وسوريا ، الأناضول (فى آسيا الصغري) ، مرورا بشبه الجزيرة العربية ، والخليج العربي ، والهضبة الإيرانية ، وصولاً إلى مصر والسودان ودول شمال أفريقيا ، يعكسان أهدافاً اقتصادية واستراتيجية وعسكرية واسعة ، تشكل جزءًا من أجندة أنجلو ـ امريكية ـ إسرائيلية قديمة فى المنطقة.

وتمر أربعة أيام يتخللها ذكرى الاحتفال بالعيد الأول ليوم ٢٥ يناير ويفشل مخطط المغرضين وأصحاب الأجندات الخاصة التي جندت جماعات المرتزقة السياسة بكل طاقاتها لتنفيذ مخطط استدراج الجيش والشرطة للانزلاق في مواجهات دموية تؤدي إلى المزيد من الدماء وتدخل مصر في بداية طريق الحرب الأهلية . يأتي يوم الجمعة ٢٧ يناير ٢٠١٢م حيث دعت تلك الجماعات إلى تظاهرات بالميادين العامة أطلقوا عليها جمعة الغضب الثانية ، وكان مصري وياسمين وأمل وعدد من الشباب المؤيدين لأفكارهما قد قرروا النزول في هذا اليوم وعقد مؤتمر من ميدان التحرير لدعوة القوى السياسية إلى التوحد تحت راية الوطنية ونبذ الخلافات حتى يتم عمل دستور جديد للبلاد وانتخاب رئيسًا للجمهورية وتسليم المجلس العسكري للسلطة في الموعد المحدد في ٣٠ يونيو ٢٠١٢م .. وعقب صلاة الجمعة توجه مصري بصحبة ياسمين وأمل إلى ميدان التحرير في الموعد المتفق عليه لعقد المؤتمر الصحفي الذي دُعي له عدد من القنوات والصحف المحلية والعالمية . الترتيبات التي تمت حتى حضور مصري وأمل وياسمين لم يفطن لها الشباب المعارض لسياسة المجلس العسكري ، وبمجرد حضورهم وبدء فعاليات المؤتمر اندلعت مواجهات افتعلها عدد من المكلفين بحراسة الميدان تحت مسمى اللجان الشعبية ليتطور الأمر إلى التراشق بالحجارة والتشابك بالأيدي . وأثناء محاولة مصري إخراج ياسمين وأمل من المكان الذي تحول لساحة اقتتال حاول البعض التعرض لهم ، وأثناء مواجهتهم تقدم الشخص الذي يتزعمهم وهو يصيح إلى تابعيه بصوت جهوري حاد : توقفوا . توقفوا . لا تتعرضوا إلى هذا الشخص ومن معه . ثم يتقدم نحو مصري وهو ينظره نظرة تأملية كاشفة قائلاً بصوت ترحاب : هل تتذكرني يا شقيق .. فيمعن مصري النظر في ملامحه وتهدأ تعبيرات ملامحه الهجومية الشرسة ، وهو يدقق في وجه هذا الشخص حتى تذكره فقال بصوت تعجب : رضا بوند ! سجن المحكوم .. فيقول هذا الشخص : نعم يا دكتور أنا رضا .. فتزداد تعبيرات مصري تعجبًا وهو يقول : ماذا تفعل هنا يا رضا؟! فيقول رضا وهو يتلفت حوله بنظرات كاشفة : يا دكتور

الثورة غيرت الكثير . اذهب الآن ولا تأتي للميدان فهناك من يريد الانتقام منك .. فيقول مصري بصوت استفهام متعجل وكل من ياسمين وأمل تجذباه للهروب من هذا المكان : من هذا الذي يريد الانتقام مني ؟! .. فيأخذ منه رضا التليفون المحمول الخاص به ويدفعه بقوة وهو يقول له بصوت تحذير : اترك المكان الآن في أسرع وقت واتصل بي على تليفونك المحمول .. فيمسك مصري بكل من شقيقته وزوجته وينصرفوا مسرعين نحو الشوارع الجانبية المتفرعة من ميدان سيمون بوليفار حتى يصلوا إلى منزل سعيدة في جاردن سيتي ، وقد تمكن الخوف والتوتر منهم .. وما أن وصل الثلاثة إلى باب العقار رن جرس التليفون المحمول الخاص بأمل فإذا بها تقول بعدما شهدت رقم الطالب بصوت تعجب ممزوج بالقلق والتوتر : هذا رقم تليفونك يا مصري.. فيأخذ مصري التليفون ويرد بصوت لهفة وملامح ترقب قائلاً: من أنت؟ فيقول المتصل : أنا رضا يا دكتور . اسمعني جيداً . لك في ذمتي معروف سأرده لك وبعدها أنا غير مسئول عنك . حياتك أنت وزوجتك وشقيقتك في خطر وهناك من يريد التخلص منكم. لا تأتي مرة أخرى إلى الميدان أو تظهر في تظاهرات أو مليونيات. فيقول مصري بصوت مرتبك : هل تعرف هذا الشخص ؟ .. فيقول رضا: هؤلاء الأشخاص لا يظهرون لنا شخصياً وأنا لست المكلف بهذه المهمة . تليفونك المحمول أمانة عندي عندما تطلبه سأرسله لك .. فيقول مصري : لو تريد رده تعالى إلى بيت حماتي فهو قريب من ميدان التحرير .. فيقول رضا : اليوم لا . يمكنك الاتصال بي غداً ، وسأقابلك في الميعاد الذي تريده عند منزل حماتك فأنا مقيم بالميدان .. فيقول مصري : إن شاء الله سأتصل بك .. وبعدما أغلق مصري التليفون تسألاه أمل وياسمين عما دار بينه وبين هذا الشخص من حديث فيخبرهما بأن هذا الشخص كان موجود معه بالسجن وقت اعتقاله في عام ٢٠٠٨م وقد عالجه . لذلك ، فلما رآهم في خطر ساعدهم .. فتقول أمل بصوت استفهام قلق وهي تتحسس مشاعر زوجها : أنا غير مطمئنة لما حدث وأخشى أن يكون هناك شيء تخفيه عنا .. فتلاحقها ياسمين قائلة وهي تحمل نفس مشاعرها : أنا أشعر نفس شعورك يا أمل .. فيقول مصري

بصوت اصطنع الهدوء : هكذا انتما الاثنتين تظنان السوء دائماً . هيا نصعد فأنا مجهد وأريد الحصول على قسط من الراحة قبل عودتنا إلى البيت .. وبعد صعودهما إلى المنزل تقص ياسمين وأمل ما حدث إلى سعيدة التي صممت على بقائهم عندها وعدم مغادرتهم حتى تستقر الأمور .. ما حدث في تلك الليلة جعل مصري يقتنع تماماً بفكرة المؤامرة التي تحاك ضد مصر ليدب في نفسه الهلع والخوف من المستقبل القريب والبعيد عندما يتيقن أن القوى العالمية والأقليمية التي تريد العبث بمقدرات المصريين تستخدم المصريين أنفسهم في ذلك ، ويظل طوال الليل شارد الذهن منهك الفكر بائس الوجدان حتى يستعيد صفاء ذهنه وقوة عزيمته بعدما يتوجه بالدعاء إلى الله أن يكشف الغمة ويحفظ مصر وأهلها من شرور أنفسهم ومن غدر الحاقدين وبطش المعتدين ليذهب في النوم وكل مشاعره وأحاسيسه تتطلع إلى مواصلة الكفاح حتى يتحقق حلم أبيه وحلمه وحلم كل المصريين في أن تنجح ثورتهم على الفساد وتتحقق أهدافها التي سعوا لتحقيقها .

وتمر ستة أيام بعد واقعة التعدي على المؤتمر الصحفي الذي دعا إليه مصري وياسمين وأمل يتقابل خلالها مصري مع رضا بوند مرتين ؛ في الأولى كانت في اليوم التالي حيث سلمه المحمول الخاص به وأكد تحذيره له ، وفي المرة الثانية كانت في اليوم المحدد للقائه مع توفيق عكاشة حيث أبلغه أن ضياء فاندام (الشخص الذي كان متواجد بسجن المحكوم وتصدى له مصري ودافع عن رضا بوند) هو المكلف بتصفيته وشدد على تحذيره له بعدم التواجد في التظاهرات الميدانية .. ومع غروب شمس هذا اليوم ، الذي وافق الذكرى الأولى لما أُطلق عليه موقعة الجمل ، كان مصري وأمل قد توجها إلى عيادتها بشارع شبرا ليباشرا عملهما قبل ذهابهما لحضور الحوار التلفزيوني مع توفيق عكاشة . ومع اقتراب الساعة من التاسعة مساءً حضرت ياسمين لتصطحبهما ويصعدوا إلى منزل بهية حيث استقبلتهم صافي وبهية وعمرو الريس ، ودار بينهم حديث ودي تذكر خلاله بهية وصافي وأمل ذكريات الماضي بأحزانها وأفراحها ، وتعرض عمرو الريس إلى قصة ليلى الصالح وفجر

مفأجاة عندما أخبرهم بأنها قُتلت وتم التمثيل بجثتها على يد خادمتها الأسبوع الماضي وتم افتضاح أمرها مع عشيقها زوج قتيلتها وجميع الصحف الكويتية نشرت أخبار هذا الحادث كما تم نشره على الكثير من مواقع الانترنت.. خبر قتل ليلى الصالح حرك مشاعر التشفي لدى أمل وبصورة تلقائية اتصلت بأمها على التليفون المحمول لتقول بصوت تملكت منه نبرة الفرحة : يمهل ولا يهمل . بعد ١٨ سنة أخذت السيدة الكويتية التي حطمت حياة خالتي فرحانة جزائها فقد قتلتها خادمتها ومثلت بجثتها ، وافتضح أمر خيانتها لزوجها .. فتصمت سعيدة لبضع ثوان حتى تظن أمل أن الاتصال قد انقطع لتقول بعدها بصوت استغفار باك : اللهم لا شماتة يا أمل . استغفري الله ولا تشمتي . اللهم ارحمنا جميعاً يا ابنتي فبكل تأكيد فأن الله يمهل ولا يهمل .. فتأخذ بهية التليفون من أمل وتقول بصوت دامع غلفه اليقين بعدالة السماء : أنا بهية يا سعيدة . الله يرحمك يا فرحانة . هذه عدالة الله فمهما طال الزمن فسبحانه وتعالى عادل منتقم جبار .. فتقول سعيدة بصوت تأثر بمشاعر بهية : الحمد لله يا ست بهية والله يرحم الجميع إن شاء الله . كيف عرفتم ذلك الخبر ؟ .. فتقول بهية : هذا الخبر أخبرنا به عمرو الريس ، وهو منشور في الصحف الكويتية وعلى الانترنت . (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) لقد أخذت جزائها وخسرت دنياها وآخرتها . اللهم لا شماتة .. فتقول سعيدة بصوت تهاوت نبرته مع دموعها التي سالت عندما تذكرت الظلم الذي وقع عليهما من هذه السيدة الشريرة: الحمد لله أن جعلها الله عظة وعبرة .. ثم تصمت للحظات تستعيد خلالها عافية صوتها لتقول : افتقدتك يا ست بهية وكنت أنوي أن احضر لكن حياة مصابة بنزلة برد .. فتقول بهية : أن شاء الله تطيب وتصح قريباً ، وسأنتظرك لنجلس سوياً؛ فقد افتقدتك كثيراً .. فتقول سعيدة : بإذن الله سأحضر قريباً.. وبعد غلق التليفون ، تظل أمل تتحدث عن مأساة خالتها فترة من الوقت ، حتى اقتربت الساعة من التاسعة والنصف ليغادر مصري وعمرو الريس ومعهما أمل وياسمين ويستقلوا سيارة مصري وينطلقوا نحو طريق مدينة الإنتاج الإعلامي .

ومع وصول السيارة إلى نهاية طريق المحور ، وبينما كان الطريق خالي تماماً من المارة جاءت سيارة مقطورة لتقطع الطريق وتصطدم بالسيارة اصطداماً مروعاً أدى إلى انقلابها عدة مرات وتهشمها تماماً ثم تنطلق مسرعة في ظلام الليل ، ويبلغ المارة عن الحادث بعد وقوعه بعدة دقائق . وبعد جهود مضنية من المارة ورجال الشرطة والإسعاف يتم إخراج مصري وياسمين وعمرو الريس جثث هامدة ، بينما تُنقل أمل بين الحياة والموت إلى مستشفى جامعة ٦ أكتوبر التعليمي وهي مصابة بارتجاج في المخ وتهتك بالطحال وجروح قطعية نافذة ، ورضوض وكدمات في إجزاء متفرقة من الجسم.. خبر وفاة مصري وياسمين وعمرو الريس وإصابة أمل المميتة، التي أُبلغت بها سعيدة في الساعة الواحدة من صباح يوم ٥ فبراير ، نزل عليها كالصاعقة التي صعقت مشاعرها وجعلتها في حالة ذهول لتحمل حفيدتها حياة نائمة على كتفيها وتنطلق إلى خارج منزلها تهيم على وجهها في الشوارع منادية على أمل حتى تستقل سيارة أجرة تنقلها إلى المستشفى لتجد ابنتها ما زالت في غرفة العمليات تصارع الموت حيث سيتم استئصال الطحال ونقل دم وخياطة وتضميد الجروح والكدمات . وخلال بضع ساعات من وصولها للمستشفى ظلت سعيدة تناجي ربها وتدعو بقلب مؤمن أن يشفي ابنتها ويعافيها وأن يلهمها الصبر على ما بلاها حيث تم حجز أمل بعد العملية الجراحية في غرفة العناية المركزة وهي تعاني من غيبوبة نتيجة الارتجاج الشديد الذي أصاب المخ .. وفاة ياسمين ومصري وعمرو الريس ظل على مدار أيام حديث وسائل الإعلام التي أشارت بأصابع الاتهام نحو الطرف الثالث ، الذي طالما يظهر ويختفي منذ يوم ٢٨ يناير ليقتل ويحرق ويهدم ويصيب المواطنين بعاهات مستديمة دون أن يراه أحد ودون أن تكشف الدولة بأجهزتها الأمنية والاستخبارتية إلى هويته ؛ رغم اتهام تلك الأجهزة بأنها هي التي تنفذ تلك الحوادث لحساب أنصار الثورة المضادة .. وبعد أيام من الفرقعة الإعلامية حول شبهة قتل مصري وعمرو الريس وياسمين تطوى صفحة هذه الواقعة لتضاف إلى العديد من الوقائع التي راح ضحيتها الأبرياء دون أن

يتوصل أحد إلى الجاني أو سبب الجريمة ، ومن يقف ورائها .. وتمر الأيام والأسابيع والشهور حتى يأتي يوم ٢٤ يونيو وما زالت أمل في حالة غيبوبة عميقة نتيجة الالتهاب الشديد في أغشية المخ الذي صاحب الارتجاج وتظل سعيدة تتشبث بالأمل في عودة ابنتها إلى الحياة ، وشفائها رغم تضاؤل فرص شفائها مع بقائها في حالة الغيبوبة العميقة .. في هذا اليوم كانت مصر كلها على موعد إعلان نتائج المرحلة الثانية من الانتخابات الرئاسية والأجواء متوترة والجميع في انتظار إعلان النتيجة ، والجيش في حالة تأهب قصوى تحسباً لتنفيذ التهديدات التي أطلقتها جماعة الإخوان المسلمين في حالة إعلان فوز الفريق أحمد شفيق .. وكعادتها في صباح كل يوم منذ دخول أمل المستشفى حضرت سعيدة في الصباح الباكر ومعها حياة ليجلسا معها في حجرتها بقسم المخ والأعصاب . وخلال قراءة سعيدة لما تيسر لها من القرآن الكريم وهي تجلس بجوار ابنتها ، بينما كانت حياة تمسك بدمية تلعب بها بجوار السرير التي ترقد عليه أمها ، سمعت صوت أنين خافت فإذا بها تجد أمل تفتح عينيها وتحرك أصابع يدها وهي تتمتم بكلمات خافتة غير مفهومة .. ظلت سعيدة تمعن النظر في وجه ابنتها لبضع ثوان تحاول استيعاب أنها لا تحلم وأن ابنتها أفاقت من الغيبوبة العميقة التي ظلت بها لمدة تجاوزت الأربعة أشهر . وعندما أيقنت أنها الحقيقة انطلقت مسرعة نحو غرفة الأطباء الملاصقة لغرفة أمل وهي تصيح بصوت استنجاد هستيري مرددة جملة «أمل فاقت وفتحت عينيها » . وعند وصولها إلى باب الغرفة سمعت أصوات صياح وتهليل ، فلما فتحت الباب وجدت ثلاثة أطباء يهللون ويصيحون فرحة وهم يتعانقون ، بينما كان هناك ثلاثة أطباء يجلسون صامتون وعلى وجههم تعبيرات حزن وآسى وهم ينظرون إلى شاشة التلفاز التي كانت قد أعلنت فوز الدكتور محمد مرسي برئاسة جمهورية مصر العربية لمدة أربع سنوات . وبصوت استعطاف وتمني ورجاء صاحت سعيدة وتعبيرات وجهها تصرخ بالاستغاثة : أرجوكم اسمعوني . أمل فاقت من الغيبوبة وفتحت عينيها ، وكانت تحاول التحدث معي . أرجوكم الحقوها . ثم تنفطر في بكاء شديد

ليخرج الطبيب المتابع لحالة أمل والذي يعمل مساعد للاستشاري المعالج للحالة مسرعاً ، وهو يستدعي طاقم التمريض ليدخل إلى الغرفة ليجدوا أمل تمسك بيد ابنتها وهي تنظر إليها بعيون زائغة وتهمس بكلمات غير مفهومة وحياة تحاول الصعود على السرير قائلة بصوت طفولي امتلئت نبرته بالفرحة : أنتِ استيقظتي من النوم . ماما أنا حياة حبيبتك .. فيسرع الطبيب ومن معه من طاقم التمريض ليتم عمل القياسات والفحوصات على مدار ساعة لتبدأ أمل في استعادة جزء من وعيها وسط بكاء الفرحة الذي تملك من سعيدة وهي تدعو الله بتمام شفائها ، وبسمات حياة الباكية التي كانت تحلق في عيون أمها الهزيلة .. وتمر الأيام وتدفع الأسابيع والشهور بعضها البعض وتستعيد أمل عافيتها تدريجياً وتتغلب على أحزانها بفضل عزيمتها الصلبة وقلبها المؤمن ، ورغبتها الثائرة الجامحة لمواصلة طريق زوجها وتوأم روحها الذي قتلته أنامل الغدر وأيادي العدوان ؛ فقد كانت أمل على يقين أن الحادث الذي وقع لهم كان مدبراً خاصة وأن الشرطة لم تصل إلى السيارة ولم تصل إلى رضا بوند ، الذي اختفى هو أيضاً في ظروف غامضة ، ولم تكشف لغز التهديد الذي تعرض له زوجها قبل أسبوع من وفاته .. وفي يوم الأربعاء ١٩ نوفمبر ٢٠١٢م «الذكرى الأولى لأحداث الشغب والعنف التي وقعت في الشارع المقابل لوزارة الداخلية » كانت أمل تخضع إلى آخر جلسة علاج طبيعي بالمستشفى قبل عودتها للمنزل لتقضي فترة نقاهة ثم تزاول نشاطها الطبيعي . وخلال الجلسة شد انتباهها وهي تشاهد التلفاز جنازة لشاب عضو حركة ٦ أبريل لم يتجاوز عمره السابعة عشر سقط قتيلاً في شارع محمد محمود أثناء تظاهرات العنف التي اندلعت هناك يوم الاحتفال بالذكرى الأولى لمظاهرات العنف يوم ١٩ نوفمبر من العام الماضي ، حيث تعرفت على أحد الأشخاص الذين كانوا يحملون صور الشاب المقتول خلال الجنازة ؛ فقد كان ضمن مجموعة البلطجية الذين رافقوا رضا بوند أثناء واقعة التعدي عليهم خلال المؤتمر الصحفي . لذلك ، فعلى الفور اتصلت من تليفونها المحمول بضابط البحث الجنائي الذي كان يباشر عمل التحريات عن

الحادث لتبلغه بما شاهدته لتفاجأ بأن هذا الضابط قد استقال من وزارة الداخلية ويعمل في وظيفة خاصة . وقد نصحها الضابط بأن تذهب إلى النيابة العامة وتقدم طلبًا بفتح التحقيق من جديد حيث تم حفظ القضية وقيدها ضد مجهول .

مشهد الشخص الذي كان ضمن البلطجية الذين تعدوا على أمل وزوجها المرحوم مصري والمرحومة ياسمين ظل يخيم على ذاكرتها طوال فترة تواجدها بالمنزل خلال فترة النقاهة ، وبمجرد استعادتها لعافيتها بصورة شبهة طبيعية ذهبت إلى مقر النيابة العامة بمدينة السادس من أكتوبر وتقدمت بطلب إعادة فتح التحقيق، كما قررت أن تكرث كل طاقتها وجهودها لكشف حقائق جريمة قتل زوجها وصديقتها، ومواصلة ما كان يسعيان من أجله فذهبت إلى الجريدة التي كانت تعمل بها ياسمين وأجرت حوار صحفي مع أحد زملاء الشهيدة كشفت خلاله عنما دار بين رضا بوند ومصري خلال واقعة التعدي عليهم خلال المؤتمر الصحفي وما حدث بينهما من لقاء بعدها وعن اختفاء رضا بوند بعد الحادث وعن الشخص الذي شهدته في جنازة الشاب المقتول في شارع محمد محمود منذ أسبوع خلال مشاهدتها الجنازة على شاشة إحدى القنوات الفضائية . كما ذكرت في ذلك الحديث عن تقدمها بطلب فتح التحقيق في القضية التي قُيدت ضد مجهول بناءً على ظهور وقائع جديدة ، وتعهدت خلال هذا الحوار بمواصلة جهود زوجها وصديقتها بكشف الحقائق للشعب المصري عن المؤامرة التي تعرض لها الوطن لاستخدام ثورته على الفساد والظلم الاجتماعي في إسقاط الدولة وهدم قيم التسامح وروح المودة بين أبناء الوطن الواحد حتى يسقط في براثن التطرف والأفكار الفاشية .. الحوار الصحفي الذي نُشر في اليوم التالي كان مسار حديث العامة والخاصة وأعاد أمل من جديد إلى دائرة الأضواء لتجري خلال اليوم التالي عددًا من اللقاءات مع عدد من القنوات الفضائية جعلت من قضية مقتل مصري وياسمين وعمرو الريس في بؤرة اهتمام العامة والخاصة .. وفي يوم ٥ ديسمبر ٢٠١٢م كانت أمل تجهز نفسها للذهاب إلى مقر رئاسة الجمهورية بالاتحادية ، وقد اتفقت مع إحدى شركات الدعاية على إطلاق يافطة من البلون عليها

صورة زوجها وشقيقته أمام قصر الاتحادية مكتوب عليها «من الذي قتل مصري المنشاوي ، ياسمين المنشاوي وعمرو الريس . من غرس زرع شيطاني عليه حصد شروره » .. وقبل مغادرتها المنزل وقفت أمل لبضعة ثوان تتأمل بملامح حانية شواقة وهي تتابع أمها وهي تجلس مع حياة تلاطفها وتحكي لها قصص الريف الشيقة لتسترجع ذكرياتها مع تلك القصص ، حتى نظرتها سعيدة بنظرة أمومة لتقول لها بصوت خافت حزين : هل ستذهبي الآن ؟ .. فتتجه أمل نحو أمها بملامح بارة وتركع على ركبتيها وتمسك يدها وتقبلها ، وتقول بصوت تفاؤل وهي تنظرها بنظرة تمني ورجاء : أنا أعلم مدى قوة إيمانك وصلابة عزيمتك . دماء الزوج والصديقة والأهل والأحباب لن يضيع هباء يا أمي ، وبإذن الله سيجعلني الله سبب في جعل هذه الدماء الذكية تنبض بالحياة في قلب كل إنسان مخلص محب لوطنه بعدما تتكشف الحقيقة ونسير على النهج الصحيح الذي كان يحلم به مصري وياسمين وعم سعد والدكتور طارق صيام والدكتورة شهندة والضابط عمرو الريس ، وكل الشهداء الذين سقطوا في كل الميادين والشوارع وقلوبهم تناجي ربهم بالعدل والخير لأهل بلدهم. ادعِ لي يا أمي .. فتنظر إليها سعيدة نظرة أمومة مضيئة أخفت ورائها مشاعر خوف ورهبة على ابنتها الوحيدة لتقول بصوت غلفه الدعاء : إن شاء الله ستتحقق الأماني وسيحفظك الخالق من كل شر .. فتمسك حياة يد أمها وتقول بصوتها الطفولي البريء وهي تنظر إلى أمل نظرة باسمة : ستحضري إلى حياة العروسة التي كان سيحضرها لي مصري كما حكيتي لي ؟ .. فتحضنها أمل والدموع عالقة في عينيها وتقول: سأحضر كل ما كان يريد مصري أن يحضره لك ، وتظل تحضنها بمشاعر أمومة حانية لبضع دقائق وهي تذكرها بما كان مصري يفعله معها ، ثم تقبل يد سعيدة وتنطلق مسرعة إلى خارج المنزل بعدما ألقت السلام وهي تحمل في قلبها مشاعر ثائرة مستعدة بالتضحية بروحها من أجل كشف الحقائق ووضع الأهداف التي ثار من أجلها مصري وياسمين وكل المصريين على الطريق الصحيح.. ومع وصول أمل إلى قصر الاتحادية وقفت على الرصيف المقابل لبوابة الاتحادية مع مندوبي شركة الإعلان

وأطلقوا البالون ليتجمع حشد كبير أمام الإعلان الذي جذب انتباه كل المارة ، وتناقلته عددًا من كاميرات القنوات الفضائية التي كانت تتابع الاعتصام أمام قصر الرئاسة .. ومع اقتراب الساعة من الرابعة عصراً وأثناء وقوف أمل مع عدد من مؤيديها أمام الإعلان تجمع عدد من الشباب الملتحي الذين ينتمون إلى التيار الإسلام السياسي بمختلف أطيافه الإيدلوجية وتعدوا على مجموعة الخيام المعتصمة أمام القصر ، كما تعدوا على أمل ومن معها وقاموا بإنزال البالون وتكسير آلة الإعلان بعدما أحرقوا الخيام الخاصة بالمعتصمين . ومع انطلاق آذان المغرب يتحول الشارع المقابل لقصر الاتحادية إلى ساحة قتال بالأسلحة البيضاء وزجاجات المولوتوف الحارقة، ويسقط العديد من الجرحى على جانبي الطريق.. وبينما كانت أمل تحاول التقاط صور عدد من الأشخاص كانوا يحملون أسلحة نارية وخرطوش يطلقون منها طلقات غادرة نحو الأبرياء، فإذا بأحدهم يرصدها ويحدد هويتها ويقول لمن معه بصوت حاد: لقد وجدت أمل صابر ويشير نحوها .. وعندما تسمع أمل هذا النداء تحاول الفرار مسرعة لينطلق صوبها طلقات نارية غادرة تصيب إحداها رأسها وتسقط وسط بركة من الدماء وقد انتزع منها القتلة تليفونها المحمول الذي كانت تلتقط منه صورهم وفروا هاربين وسط نحيب وعويل وصراخ وزئير وتكبير واستغاثة الفصائل المتسارعة أمام قصر الاتحادية وفي الشوارع المحيطة بها .

رصاصة الغدر التي أصابت أمل اخترقت الجزء الأيسر من الجمجمة ونفذت منها وتسببت في نزيف بالمخ وكسر بالجمجمة لتعود أمل مرة أخرى إلى الغيبوبة العميقة وترقد في مستشفى عين شمس التخصصي بين الحياة والموت .. خبر الاعتداء الغادر الخبيث على أمل ظل في بؤرة اهتمام الإعلام وتشدق به مجموعة مرتزقة السياسية التي تسيدت الحياة العامة ، ونشروا دماء الأبرياء الذين سقطوا في أحداث الاتحادية على قميص أبيض ليجوبوا به الميادين والشوارع وتتحول الفرقة والاختلاف الفكري والإيدلوجي إلى مواجهة دموية تنذر بحرب أهلية ستلتهم الأخضر واليابس وستدخل مصر في نفق أكثر ظلام مما هي عليه منذ اندلاع انتفاضة ٢٥ يناير ٢٠١١م

.. سعيدة المرأة الريفية البسيطة التي لفظها الريف وصارعت أمواج المدينة العاتية بما تحمله من طغيان وظلم واستبداد على مدار ما يقرب من عشرين عامًا تهاوت مشاعرها المتسامحة وخارت قوى صبرها وتهدمت أحاسيسها البريئة الصلبة أمام وفاة ابنتها الوحيدة وأملها في الحياة بعد ما يقرب من ثلاثة أشهر قضتها في غيبوبة عميقة .. وفي جنازة شعبية مهيبة تناقلتها وسائل الإعلام الرسمية وغير الرسمية وتسابق على حضورها رموز الفرق السياسية المتصارعة تحرك جثمان أمل إلى مثواها الأخير بمقابر أسرة أبو عساكر بقرية دماص بعد صلاة الجنازة عليها عقب صلاة الجمعة بجامع عامر أبو المكارم . وفي مشهد درامي حزين وارى جثمان أمل الثرى وسط دموع وبكاء ودعاء أهل القرية، وصمت القهر الذي تملك سعيدة، وصرخات حياة التي كانت تبكي من رهبة الموقف وهي لا تدري أنها لن ترى أمل مرة أخرى طوال عمرها .. وعقب الدفن تحمل سعيدة حفيدتها حياة على كتفيها وتظل تقرأ ما تيسر لها من آيات القرآن الكريم وهي تتضرع إلى ربها بالخلاص وتدعو لابنتها وأسرتها الراحلة بالرحمة والمغفرة لتعود مع غروب شمس هذا اليوم إلى بيتها في القاهرة وهي في حالة صراع نفسي رهيب بين أحزانها التي تجوب في أعماقها ومشاعر الإنسانة البريئة الصافية التي ما زالت تعيش بداخلها وتحاول الحفاظ عليها حتى تجد حياة أمل ومصري من يقف معها .. ترى هل تستطيع سعيدة أن تتحمل كل هذه الأحزان التي خلفتها موجات متتالية من ظلم وبؤس وقهر وحرمان في مجتمع تحول من وسية إلى غابة ؟ هل تستطيع أن تساند حفيدتها حياة لتعيش في وطن تتمتع فيه بالحرية والعدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية التي ضحى من أجلها أبوها وأمها وعمتها وكل شرفاء الوطن الذين لم يحملوا في قلوبهم سوى مصلحة بلادهم ؟

* * * * *

تمت بحمد الله

القاهرة في ٢٦ مارس ٢٠١٣م

د . محمد الوكيل

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمـــة	٣
الفصـل الأول	
عيـــون عـــلى هامـــش وطـــن	٥
الفصـل الثاني	
جرائم بـلا جـاني والفاعـل معلـوم	٩٥
الفصـــل الثالـث	
أمـــــل و أيـــــام الســـــراب	١٦٩
الفصـل الرابع	
أمـل & مصـري حلم لم يتحقـق	٢٣١

obeikandl.com

obeikandl.com